فن المقامة العربية

نزار شاهين



دار البداية ناشرون وموزعون

فن المقامة العربية

نشأته ومنابعه اقطابه

نزار شاهين

الطبعة الأولى

2015م /1436 هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014/6/3103)

811.9

المصري، نزار شاهين

فن المقامة العربية

نشأته ومتابعه اقطابه

/ نزار شاهين المصري، عمان، دار البداية ناشرون وموزعون، 2014

( ) ص.

ر.أ.: 2014/6/3103

الواصفات: /المقامات// الادب العربي/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



الطبعة الأولى

2015م /1436 هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

عمان – وسط البلد – تلفاكس : 4640679 6 962+

ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن

Info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: 978-9957-521-41-7 (ردمك)

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

نَشْأَتُهُ وَمَنَابِعُه ... أَقْطَابُهُ وَأَسَاطِينُه

مَدَارِسُهُ وَمَذَاهِبُه

المَقَامَاتُ التُّرَاثِيَّةُ القَدِيمَة

لِلنَّاقِدِ الشَّاب

نِزَار شَاهِين



فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

تنبيه

كِتَابٌ قَدْ حَوَى دُرَراً

بِعَيْنِ الحُسْنِ [مَنْظُورَهْ]

لِهَذَا قُلْتُ تَنْبِيهاً :

[سِهَامُ الغَضْبِ مَحْظُورَهْ] (١)



(١) ـ ما بين المُعقّفات من كلمات ؛ إنما هى من كيسى : [أَبُو نِزَار] .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم
الحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ؛
وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَبَوَيْهِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً .



۞ - إهْـدَاء



« أَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ الأَقْدَارَ قَـد آثَرَتْنِى بِهَـذِا الـدَّوْرِ الجَلِيـل !!..... ؛ وَمَهْمَـا يَكُن مِـن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّهُ لابُـدَّ مِـن أَن أُقِرَّ بِأَنَّـهُ لَـوْلا ثِقَتُكَ العَظِيمَـةُ فِى ثَقَافَتِى وَمَا فِى جُعْبَتِى مِن عِلْمٍ ؛ لَرُبَّمَا مَكَثْتُ زَمَنَاً طَوِيلاً أَبْحَثُ عَـن مَكَانٍ لِى بَيْنَ أَهْلِ الأَدَب !! ... ؛ فَلَكَ الشُّكْرُ الَّذِى لا تَفْـنَى كَلِمَاتُهُ ؛ وَالـدُّعَاءُ الخَالِصُ ... ؛ الَّذِى لا يَفْرِضُهُ سِوَى الإِيمَانِ بِفَضْلِكَ الَّـذِى طَوَّقَنِى وَغَمَرَنِى !!. »

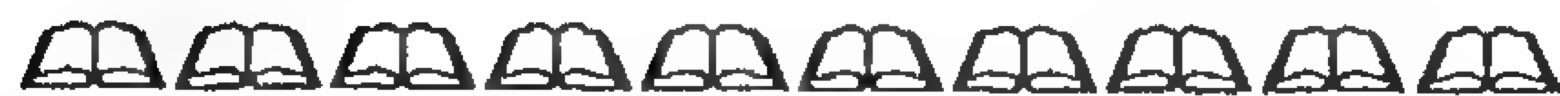
إِلَى الأُسْتَاذِ الفَاضِلِ :

حسام حسين

نَـائِب رَئِيس مُؤسَّسَة أَطْلَس

لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِىِّ

أُهْدِى هَـذَا الكِتَاب



۞ - تَصْدِير



عَلَّمَتْنِي الحَيَاةُ أَنَّ المَجْدَ لا يُصنَعُ بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا !!... ؛ بَل المَجْدُ مَا هُوَ إِلاَّ خُطُوَاتٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالكِفَاحِ وَالنِّضَال !!... ؛ فَاللهُ المُسْتَعَان .



❁ - مَدْخَلٌ



كَتَبَ النَّاسُ وَقَيَّدَوا وَمَلأَوا الصُّحُفَ وَالطُّرُوسَ وَالأَوْرَاق ... ؛ وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا القَلَمَ إِن أَرَادَ أَن يَكْتُبَ أَتَى بِمَا لا يُظَنُّ أَن يَأْتِي بِهِ يَرَاع !!.



❁ - كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَمَّا بَعْدِ حَمْدِ اللهِ الَّذِى جَاءَ بِالأَشْيَاءِ مَعْرِفَةً وَعِلْمَاً ؛ وَجَعَلَ الإِحْسَانَ فِى جَوَابِ طَاعَتِهِ حَتْمَاً ؛ وَخَلَقَ الإِنْسَانَ ؛ وَعَلَّمَهُ البَيَانَ ؛ فَوَفَّرَ لَهُ مِنْهُ حَظَّاً وَقِسْمَاً .

وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّهِ الَّذِى هُوَ أَفْصَحُ مَن نَطَقَ بِالضَّادِ وَأَدَقُّ فَهْمَاً ؛ القَائِلُ :

﴿ إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَاً ؛ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمَاً ﴾ (١).

---

(١) - أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِى « المُعْجَمِ الأَوْسَط » ؛ [جـ ٧/ ٣٤١] ؛ [ح : ٧٦٧١] ؛ وَالحَاكِمُ فِى « المُسْتَدْرَك » ؛ [٣/ ٧١٠] ؛ [ح : ٦٥٦٩] : مِن حَدِيثِ أَبِى بَكْرَةَ - رَضِىَ اللهُ عَنْهُ - ؛ قَالَ :

﴿ كُنَّا عِنْدَ النَّبِىِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؛ فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدُ بَنِى تَمِيمٍ ؛ عَلَيْهِم : قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ ؛ وَعَمْرُو بْنُ الأَهْتَمِ ؛ وَالزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ .

فَقَالَ النَّبِىُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعَمْرِو بْنِ الأَهْتَمِ : مَا تَقُولُ فِى الزِّبْرِقَانِ ابْنِ بَدْرٍ ؟

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! ؛ مُطَاعٌ فِى أَنْدِيَتِهِ ؛ شَدِيدُ العَارِضَةِ ؛ مَانِعٌ لِمَا وَرَاءِ ظَهْرِهِ .

قَالَ الزِّبْرِقَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ ! ؛ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَنِى بِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ حَسَدَنِى !! .=...

فَقَـالَ عَمْـروٌ : وَاللَّـهِ يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ !! ؛ إِنَّـهُ لَـزَمِنُ الْمُرُوءَةِ ؛ ضَـؤُلُ العَطَنِ ؛ لَئِيمُ الْخَالِ ؛ أَحْمَقُ الْوَالِدِ !! ؛ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَذَبْتُ أَوَّلاً ؛ وَلَقَدْ صَدَقْتُ آخِراً !! وَلَكِنِّى رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ ؛ وَغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبحَ مَا عَلِمْتُ !! .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ :

((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً !! ؛ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمَاً !! .)) . ﴾ .أهـ .

وَقَالَ الطَّبَـرَانِىُّ عَقِبَ إِيرَادِهِ :

((لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ عُيَيْنَـةَ : إِلاَّ سَعِيدُ بْـنُ سُـلَيْمَان ؛ تَفَرَّدَ بِـهِ : الْحَسَـنُ بْنُ كَثِيرٍ .

وَلا يُرْوَى عَن أَبِى بَكْرَةَ إِلاَّ بِهَذَا الإِسْنَاد .)) .

وَقَالَ العِرَاقِىُّ فِى ((تَخْرِيج أَحَادِيثِ الإِحْيَاء)) ؛[جـ ١ / ٦٣٣] :

((ـ حَدِيث :

أن رَجُلاً أَثْنَى عَلَى رَجُلٍ عِنْد رَسُول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ ؛ فَلَمَّا كَانَ من الغَد ذَمَّهُ ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلام : أَنْت بالأَمْس تُثنى عَلَيْهِ ؛ وَاليَوْمَ تَذُمُّه ؟!!

فَقَالَ : وَالله لقد صدقتُ عَلَيْهِ بالأَمْس ؛ وَمَا كذبت عَلَيْهِ اليَوْم ؛ إِنَّه أرضانى بالأَمْس فَقُلتُ أحسن مَا علمتُ فِيهِ ؛ وأغضبنى اليَوْم فَقُلتُ أقبح مَا علمت فِيهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلام : إِنَّ مِنَ الْبَيَان لَسِحْراً !!

أخرجه الطَّبَرَانِىُّ فِى الأَوْسَط ؛ وَالْحَاكِم فِى الْمُسْتَدْرَك : من حَدِيث أبى بكرَة ؛ إِلاَّ أنه ذكر الْمَدْح والذَّمّ فِى مجْلِسٍ وَاحِدٍ لا يَوْمَيْنِ .

..................٤

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ من حَدِيث ابْنِ عبَّاس أطول مِنْهُ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ أَيْضاً .» .

وَقَالَ الهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» ؛ [جـ ٨ / ١١٦ ـ ١١٧] ؛ [ح : ١٣٢٨٧] :

« رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ وَالْكَبِيرِ : عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الإِصْطَخْرِيِّ ؛ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ : وَلَمْ أَعْرِفْهُمَا !! ؛ وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ .» .

وَقَالَ الهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» ؛ [جـ ٨ / ١٢٣] :

ـ «[بَابُ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً ؛ وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْراً]

١٣٣٢٤ ـ عَنْ بُرَيْدَةَ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الْبَزَّارُ .

وَفِيهِ حُسَامُ بْنُ مِصَكٍّ : وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ .

١٣٣٢٥ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الْبَزَّارُ ؛ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِأَسَانِيدَ ؛ وَأَحَدُ أَسَانِيدِ الْبَزَّارِ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ ؛ غَيْرَ عَلِيِّ بْنِ حَرْبٍ الْمَوْصِلِيِّ : وَهُوَ ثِقَةٌ .

١٣٣٢٦ ـ وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ وَالأَوْسَطِ .

وَفِيهِ النَّضْرُ بْنُ طَاهِرٍ : وَهُوَ كَذَّابٌ .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ؛ صَلاةً يَعُودُ لَهُم بِهَا حَرْبُ الأَيَّامِ سِلْمَاً ؛ وَيَكْشِفُ عَن وَجْهِ الدَّهْرِ ظُلْمَاً وَظُلْمَاً ﴾ . (١)



١٣٣٢٧ ـ وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ؛ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ وَالأَوْسَطِ .

وَفِيهِ كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ : ضَعَّفَهُ الْجُمْهُورُ ؛ وَحَسَّنَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثَهُ ؛ وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ .

١٣٣٢٨ ـ وَعَنْ أَنَسٍ ؛ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرَاً ؛ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ .

وَفِيهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ الأَزْرَقُ : وَهُوَ مَتْرُوكٌ .)) .

قُلْتُ : وَقَد أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ [جـ٧/ ١٩] ؛ [حَدِيث رَقَم : ٥١٤٦] : مِن حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ ؛ مُقْتَصِرَاً عَلَى طَرَفِهِ الأَوَّل : ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرَاً)) .

(١) ـ مُقَدِّمَة ((التذكرة الفخريَّة)) للصاحب بهاء الدين عليٍّ بن عيسى بن أبي الفتح الإربليّ (ت ٦٩٢هـ) .

وَبَعْدُ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أن أَعْرِفَ الهَوَى
فَصَادَفَ قَلْبَاً خَالِيَاً فَتَمَكَّنَا!!

مَازِلْتُ وَاللهِ أَذْكُرُهَا مَا أَشْرَقَت شَمْسٌ أو أَضَاءَ بَدْرٌ فِي صَفْحَةِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ الهَادِىءِ الوَدِيع !!... ؛ مَازَالَت وَرَبِّي هَاهُنَا فِي فُؤادِي !!... ؛ مَازَالَ قَلْبِي يَنْبضُ بِاسْمِهَا الحَبِيبِ الغَالِي كُلَّمَا وَقَفْتُ وَحْدِي أُغَنِّي قَصَائِدِي الحَزِينَةِ فِي سَاعَةِ الغُرُوب !!... ؛ وَكُلَّمَا جَلَسْتُ فِي عُزْلَتِي فِي سَحَرِ لَيَالِي الشِّتَاءِ أَتَسَمَّعُ وَقْعَ حَبَّاتِ المَطَر !!... ؛ للهِ دَرُّكِ يَا أَسْمَاء !! ... ؛ وَاللهِ لَقَد أَبْغَضْتُ النِّسَاءَ مِن بَعْدَكِ !!... ؛ فَإِنَّ جَاهَدْتُ كَثِيراً مِن بَعْدِ رَحِيلَكِ كَي أَظْفَرَ بِمِثْلَكِ ؟!!... ؛ وَلَكِنِّي عَجَزْتُ رَغْمَ تَجَارِبِي وَتَرْحَالِي !! ... ؛ أَيْنَ هِيَ مَن تُشْبِهُك ؟!!... ؛ لَم أَظْفَر بِشَبِيهَةٍ لَكِ !! ؛ بَل لَم أَجِد مَن تَقْتَرِبُ مِن مَاهِيَّةِ رُوحُكِ وَكَيَانُكِ !!... ؛ بَل لَم أَعْثُر عَلَى تُشَارِكُكِ فِي بَعْضِ صِفَاتَكِ !!... ؛ مُحَالٌ أن يَجُودَ الدَّهْرُ مَرَّتَيْن !!... ؛ وَلَئِن كَانَ ذَلِك ... ؛ فَلَن يَكُونَ مَعِي ؛ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لأَنَّهُ مَقْضِيٌّ عَلَيَّ بِالتَّعْسِ وَالشَّقَاء !!.

مَن كَانَ يَشْجَى بِحُبٍّ مَا لَهُ سَبَبٌ
فَإِنَّ عِنْدِي لِمَا أَشْجَى بِهِ سَبَبُ

؛ حُبِّيهِ طَبْعٌ لِنَفْسِى لا يُغَيِّرُهُ
كَرُّ اللَّيَالِى وَلا تُودِى بِهِ الحِقَبُ

إن كَانَ لابُدَّ لِلعُشَّاقِ مِن عَطَبٍ
فَفِى هَوَى مِثْلِهِ يُسْتَغْنَمُ العَطَبُ

جَاهَدْتُ مُجَاهَدَةً رَهِيبَةً كَى أَنْسَى ذَلِكَ العَهْدَ الَّذِى كَان ... ؛ حَاوَلْتُ أن أَبْتَعِدَ قَدْرَ الجَهْدِ عَن ذِكْرَى تِلْكَ الأَيَّامِ الخَوَالِى !!... ؛ وَلَكِنِّى كُنْتُ عَبَثاً أُحَاوِلُ !!.... ؛ وَعُدْتُ فِى النِّهَايَةِ وَأَنَا أَحْمِلُ رَايَةَ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ وَالحِيرَةِ !!... ؛ فَسُبْحَانَ مَن بِيَدِهِ أَمْرَ القُلُوبِ وَالأَفْئِدَةِ وَالمَشَاعِرِ !!

قَضَى اللهُ يَا أَسْمَاءُ أَن لَسْتُ زَائِلاً
أُحِبُّكِ حَتَّى يُغْمِضَ العَيْنَ مُغْمِضُ
إِذَا مَا صَرَفْتُ القَلْبَ فِى حُبِّ غَيْرِهَا
..... ؛ إِذَا حُبُّهَا مِن دُونِهِ يَتَعَرَّضُ
فَيَا لَيْتَنِى أَقْرَضتُ جَلْداً صَبَابَتِى
وَأَقْرَضَنِى صَبْراً عَلَى الشَّوْقِ مُقْرِضُ

أَتَدْرِينَ كَيْفَ أَنْتِ عِنْدِى يَا أَسْمَاء ؟!!... ؛ أَتَعْلَمِينَ كُنْهَ نَظْرَتِى إِلَيْكِ ؟!!... ؛ أَأَخْبَرَكِ أَحَدٌ مَا هُوَ أَمْرِى بَعْدَ أَن غَابَت عُيُونُكِ مِن حَيَاتِى ؟!!... ؛ إِلَيْكِ

جَوَابِى أَيَّتُهَا الغَالِيَة :

ـ)

✿ ـ تَرْنِيمَةُ الأَوْرَاقِ الأَخِيرَةِ .... ؛ فِى السِّفْرِ الَّذِى !!... ؛ مَا عَرِفَ القَدَاسَة

أَسْمَاءُ يَا وَجَعَ الفِرَاقِ المُؤْسِفِ !!
وَخَدِى احْتَرَقَتْ ؛ وَذِى حَقِيقَةُ مَوْقِفِى !!
... ؛ أَسْمَاءُ يَا هَمَّ البِعَادِ بِلا رَجَا !!
.. ؛ مَاذَا يُفِيدُ تَوَجُّعِى وَتَلَهُّفِى ؟!!
وَخَدِى ابْتُلِيتُ وَلا دَوَاءَ بِمِثْلِهَا !!
قَرِحَت شُئُونُكِ يَا عُيُونُ فَكَفْكِفِى !!
؛ سَئِمَ الزَّمَانُ حِكَايَتِى وَتَلَدُّدِى !!
... ؛ يَا مَوْتُ هَاكَ تَوَدُّدِى وَتَزَلُّفِى !!
إِنْ لَم يَكُن فِى المَوْتِ إِلاَّ رَحْمَتِى !!
لَكَفَى ؛ فَكُن يَا مَوْتُ كُن لِى مُسْعِفِى !!
صَرَخَت طُلُولُ الحَىِّ وَيْلَكَ لا تَعُد !!
فَأَجَبْتُ لا أَدْرِى !! ؛ وَصَبْرِى لا يَفِى !!

أَسْمَاءُ يَا أَلَقَ البَرَاءَةِ وَالهَوَى !!... ؛ يَا فِتْنَةَ السَّنَوَاتِ يَا مَهْدَ الأُلَى ... ؛ قَد سَطَرُوا فِى الكُتْبِ كَيْفَ الحُبُّ !!... ؛ مَا سِرُّ الصَّبَابَةِ وَالجَوَى !!... ؛

يَا نَسْمَةً مَادَت عَلَى رُوحِي لِحِقْبَةَ مِن زَمَن !!... ؛ حِينَ اقْتُلِعْتُ مِنَ المَوَاطِنِ كُلِّهَا !!... ؛ وَبَقِيتُ مَعْزُولاً بِلا اسْمٍ وَلا أَرْضٍ ؟!!... ؛ كَانَت حَقِيقَتُكِ البَرِيئَةُ !!... ؛ لِى وَطَن !!... ؛ بِالبَسْمَةِ السَّكْرَى تَحَوَّلْتُ النَّبِىَّ المُنْتَظَر !! ... ؛ وَبِلَحْظَةِ العَوْدِ الوَجِيعِ رَأَيْتَنِى !!... ؛ مَلْعُونٌ قَد حُرِمَ الأَمَل !! ... ؛ رُوحِى تَجَلَّت مِثْلَ مَسْخٍ !!... ؛ لَم تَعُد تُنْسَب !!... ؛ لأَيَّامِ البَشَر !! ... ؛ قَد عُدتُ !!

قَد عُدتُ لَم أَجْنِ أَحْلامِى وَلا فَرَجِى
لَم يَبْقَ مِن بَعْدِ تَرْحَالِى سِوَى شَبَحِى
... ؛ عَصْرُ المَرَائِىَ قَد وَلَّى ؛ وَهَا أَنَذَا
... : أُنْشُودَةُ الثُّكْلِ مِن قِيثَارَةِ الجُرْحِ
وَحْدِى صُلِبْتُ ... ؛ بِلا جُرْمٍ أَتَيْتُ بِهِ
. ؛ لَم يُجْدِ عِنْدَهُمُ قَوْلِى وَلا شَرْحِى
... ؛ وَحْدِى قُبِرْتُ بِلا دَمْعٍ وَلا كَفَنٍ
...... ؛ وَمَرَّ قَوْمِى بِلا شَجَنٍ وَلا تَرَحِ
وَحْدِى نُسِيتُ ؛ أَنَا وَحْدِى ؛ وَكَم سَخِرَت
بِى الحَيَاةُ .... ؛ وَغُلَّ العَزْمُ فِى مَرَحِ
.. ؛ وَحَطَّمَت سَيْفَ آمَالِى بِلا سَبَبٍ
..... ؛ وَغَادَرَتْنِى بِلا حِصْنٍ وَلا صَرْحِ

إِذَا دَارَت بِنَا الدُّنْيَا وَضَاعَت عِنْدَ أَقْدَامِى جَلِيَّاتُ الحَقَائِقْ !!... ؛ إِذَا ذَوَت الغُصُونُ هُنَاكَ بِوَسْطِ صَمْتِ مَوَاجِعِى فَتَحَوَّلَت أَغْلالُ !!... ؛ أَو صَارَت مَشَانِق !!... ؛ إِن صَارَ لَوْنُ الجَدْوَلِ المُنْسَابِ قَانٍ !!... ؛ مِن دَمِى !!... ؛ إِن جَاءَت الغِرْبَانُ تَنْهَشُ مَا تَنَاثَرَ مِن بَقَايَا أَعْظُمِى !!... ؛ لَو صِرْتُ مَاضٍ قَد تَلاشَى وَقِيلَ أَضْحَى مَحْضُ ذِكْرَى لَم يَعُد فِى الأَرْضِ نَفْسًا ؟!!... ؛ فَبِرَغْمِ ذَوْبِ جَمِيعِ أَشْلائِى فَإِنِّى لَسْتُ أَغْفَلُ !!... ؛ إِى وَإِنِّى ؟!!... ؛ لَسْتُ أَنْسَى !!

.....

عِنْدَ احْتِضَارِى !!... ؛ عِنْدَ احْتِضَارِى أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ يُلْهِمَنِى التَّشَهُّدَ بِاسْمِهِ مِن خَوْفِ أَن يَسْبِق لِسَانِى بِذِكْرِ حُبِّيهَا المُقَدَّس !!... ؛ حُبِّى أَنَـا المَعْصُومُ !! ... ؛ بَيْنَا العِشْقُ فِى زَمَنِى كَلامٌ سَاحِرٌ !!... ؛ وَبُعَيْدَهُ يَغْدُو الهَوَى !!... ؛ عِشْقٌ مُدَنَّس !!

.....

تَتَلاشَى مِن قَامُوسِ أَشْعَارِى تَرَاتِيلُ الحَيَاةِ جَمِيعُهَا !!... ؛ تَغْدُو عَوَالِمُ رِحْلَتِى صَرَخَاتُ شَيْطَانٍ بِأَرْضٍ كُلُّ مَا فِيهَا خَوَاء !!... ؛ وَأَعُودُ لِلخُلْدِ لِلدُّنْيَا الَّتِى بِالأَمْسِ كُنْتُ أُرِيدُهَا !!... ؛ وَأَعُودُ حَسْبٌ إِذَا مَا قُمْتُ فِى صَمْتِ اللَّيَالِى المُمْطِرَه !!... ؛ وَصَرَخْتُ فِى فَضَاءَاتِ كَوْنٍ شَاحِبٍ !!... : إِنِّى أُحِبُّكِ لَم أَزَل !!... ؛ إِنِّى أُحِبُّكَ يَا كَيْنُونَتِى الأُولَى !!... ؛ أُحِبُّكِ أَنْتِ يَا أَسْمَاء !!

.....

وَحَمَلْتُ جُرْحِي عَلَى أَكْتَافِيَ العَذْرَاء !!... ؛ أَمْشِي كَإِنْسَانٍ وَرُوحِي !!
... ؛ كُنْهُهَا أَشْلاء !!

.....

أَسْمَاءُ مَا هَانَت !!... ؛ وَظَنِّي أَنَّنِي رَغْمَ التَّشَتُّتِ أَنَّنِي مَا هُنْت !!
لَو أَنْظُرُ العَيْنَيْنَ قَبْلَ رَحِيلِ سَنَوَاتِي ؟!!... ؛ لَن يَذْكُرَ التَّارِيخُ فِي كُتُبِ
الهَوَى إِن جَاءَ دَوْرِي !!... ؛ أَنَّنِي قَد مِت !!
لَو غَادَرَ العُمْرُ الوَجِيعُ بِقَهْرِهِ ؟!!... ؛ وَبِآخِرِ اللَّحَظَاتِ جَاءَت تَرْقُبُ
مَشْهَدِي عِنْدَ الرَّحِيلِ ؟!!... ؛ فَكُلُّ العُمْرُ أَنْت !!

.....

أَو لَو تَسَلْطَنَ مَن تَسَلْطَنَ فَوْقَ صَرْحِ عُرُوشِهِم !!..... ؛ وَبَقِيتِ أَنْتِ
رَفِيقَتِي !! ... ؛ أَوَلَسْتُ أَعْظَمُ مَن مَلَكْ ؟!!
مَا مِن حِكَايَةِ عَاشِقٍ إِلاَّ وَتَفْنَى !!... ؛ إِن تَنَاسَى ... ؛ أَو هَلَكْ
أَمَّا أَنَا ؟!!... ؛ سَيَظَلُّ حُبِّي بَاقِياً مَادَامَ رَبِّي يَحْكُمُ الدُّنْيَا ... ؛ وَمَا دَارَ
الفَلَكْ

.....

مَازِلْتُ أَعْزِفُ لَحْنَ أَيَّامٍ تَوَلَّت !!... ؛ مَازَالَ دَهْرِي رَاضِياً عَن كُلِّ عُشَّاقِ
الهَوَى !!... ؛ إِلاَّ أَنَا !!.... ؛ يَا رُوحِيَ الثَّكْلَى وَيَا قَلْبِي المُعَذَّبَ وَسْطَ
لَعْنَتِهِ !!... ؛ كُلُّ الكَآبَاتِ الَّتِي فِي عَصْرِنَا !!... ؛ صَارَت لَنَا !!
خَفِّف صَدَى تِلْكَ المَلاحِمِ يَا فَتَى !!... ؛ مَا عَادَ مِن أَحَدٍ
هُنا !!... ؛ مَا عَادَ مِن أَحَدٍ هُنَالِك !!

لَم يَبْقَ مِن تَرْحَالِ أزْمِنَتِك ؟!!... ؛ سِوَى دَمْعِ المَسَالِك !!
لَم يُرَ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ رُقِّعَت جَنَبَاتُهُ !!... ؛ إِى لَم
نَرَ فِى النَّاسِ شِبْهَكَ !!... ؛ لَم يَعُد حَالٌ كَحَالِك !!
إِن كَانَ عِيسَى قَد غَدَا وَالدَّمْعُ آيَتُهُ ؟!!... ؛ فَأنَا
مَسِيحٌ !!... ؛ إِى وَأَحْلامِى !!... ؛
كَذَلِك !! .» .(١).

مِنَ المُحَالِ أن أنْسَى أو أُحَاوِلُ تَنَاسِيهَا !!... ؛ مِنَ اليَقِينِىِّ عِنْدِى أنَّنِى أتَمَثَّلَ يَوْمَاً بِقَوْلِ القَائِل :

مِن حُبِّهَا أتَمَنَّى أن يُلاقِينِى
مِن نَحْوِ بَلْدَتِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا !!
كَيْمَا أقُولَ فِرَاقٌ لا الْتِقَاءَ لَهُ
وَتُضْمِرُ النَّفْسُ يَأْسَاً ثُمَّ تَسْلاهَا !!

.....

لا أدْرِى إِلَى أيْنَ سَأمْضِى ؟!!... ؛ كُلُّ مَا أدْرِيهِ أنَّنِى سَأبْقَى دَائِمَاً - إِن شِئْتُ هَذَا أو أبَيْتُ - سَائِرَاً فِى طَرِيقٍ مَجْهُولٍ !!... ؛ لا أدْرِى كَيْفَ تَكُونُ خَاتِمَتِى ؟!!.



---

(١) - مِن قَصَائِدِ دِيوانِى : ((التَّرْنِيمَةُ الأخِيرَة))

أَسْأَلُ اللهَ أن يُعَجِّلَ بِذَهَابِ الحَسَرَاتِ وَالهُمُوم ؛ بِتَأْيِيدٍ وَتَسْدِيد ؛ أو بِمَوْتٍ وَرَحِيلٍ عَن هَذِهِ الحَيَاة... ؛ مَا أَنْكَدَ العَيْشَ بِلا أَمَل!!... ؛ اللهُ المُسْتَعَان.

أُرِيدُ أَضْحَكُ لِلدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِى
أن عَاقَبَتْنِى عَلَى بَعْضِ ابْتِسَامَاتِى !!



قَالَهُ بِلِسَانِهِ ؛ وَقَيَّدَهُ بِبَنَانِهِ

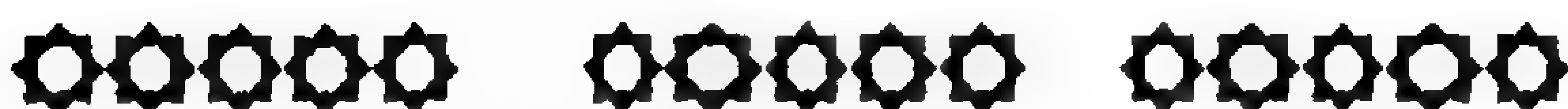
البَازُ الأَسْمَر

الحَارَةُ العَتِيقَة

مَدِينَةُ الرِّيَاض ؛ بِشَمَالِ الدِّيَارِ

المِصْرِيَّة

[٤ / ١١ / ٢٠١٢م]





❁ ـ بَيْنَ يَدَى الكِتَاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

.....

ـ بَيَانُ مَنْهَجِى فِى إِنْشَاءِ

هَذَا الكِتَاب :

ـ أَستَطِيعُ أَن أَقُولَ فِى كَلِمَاتٍ مُوجَزَة :

كَتَبَ النَّاسُ فِى مَوْضُوع : « فَنُّ المَقَـامَـةِ العَـرَبِيَّـة » ؛ وَقَـد جَـاءَ دَوْرِى كَى أَتحَدَّثَ عَن هَذَا الفَنِّ الرَّائِقِ البَدِيع ؛ وَقَد صَنَعْتُ لِنَفسِى مَنْهَجاً يَهْدُفُ إِلَى التَّعْبِيرِ عَن هَذَا الفَنِّ بِإِحَاطَةٍ لَم تُسبَق ؛ وَشُمُولِيَّةٍ لَم تُعْرَف مِن قَبْل !!.

ـ وَقَد تَنَاوَلْتُ هَذَا الفَنَّ مِن خِلالِ هَذِهِ الأَعْمَال ـ أو مِن خِلالِ تِلْكَ الأَجْزَاء ـ :

١ـ

فَنُّ المَقَـامَـةِ العَـرَبِيَّـة

نَشْأَتُهُ وَمَنَابِعُه ... أَقْطَابُهُ وَأَسَاطِينُه

مَدَارِسُهُ وَمَذَاهِبُه

المَقَامَاتُ التُّرَاثِيَّةُ القَدِيمَة

٢ـ

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

المَقَامَةُ العَرَبِيَّةُ فِى العَصْرِ الحَدِيث

﴿ مَنَاهِجُ الأَدَاء ..... وَاتِّجَاهَاتُ المَضَامِين ﴾

٣ـ

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّةِ

بَيْنَ الأَسَالِيبِ التُّرَاثِيَّةِ وَالنَّزْعَةِ التَّجْدِيدِيَّة

مِن خِلالِ كِتَاب

﴿ مَجْمَع البَحْرَيْن ﴾

لِلشَّيْخِ نَاصِيفِ اليَازِجِيّ



وَبَعْد :

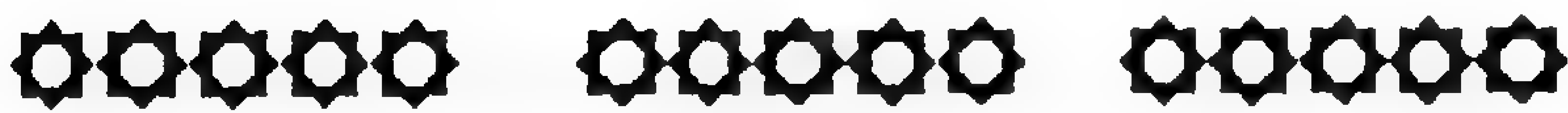
« اللَّهُمَّ نَفِّـق سُوقَ الوَفَاءِ فَقَد كَسَدَت !! ؛ وَاصْلِح قُلُوبَ النَّاسِ فَقَد فَسَدَت !! ؛ وَلا تُمِتْنِى حَتَّى يَبُورَ الجَهْلُ كَمَا بَارَ العَقْلُ ؛ وَيَمُوتَ النَّقْصُ كَمَا مَاتَ العِلْم .

وَأقُول : اللَّهُمَّ اسْمَع وَاسْتَجِب ؛ فَقَد بَرِحَ الخَفَاء ؛ وَغَلَبَ الجَفَاء ؛ وَطَالَ الانْتِظَار ؛ وَوَقَعَ اليَأْس ؛ وَمَرِضَ الأمَل ؛ وَأشْفَى الرَّجَاء ؛ وَالفَرَجُ مَعْدُوم .)) . (١) .

وَبَعْدُ :

((اللَّهُمَّ !! خُذ بِأَيْدِينَا فَقَد عَثَرْنَا ؛ وَاسْتُر عَلَيْنَا فَقَد أَعْوَرْنَا ؛ وَارْزُقْنَا الأُلْفَةَ الَّتِي بِهَا تَصْلُحُ القُلُوب ؛ وَتُنَقَّى الجُيُوب ؛ حَتَّى نَتَعَايَشَ فِي هَذِهِ الدَّارِ مُصْطَلِحِينَ عَلَى الخَيْر ؛ مُؤْثِرِينَ لِلتَّقْوَى ؛ عَامِلِينَ شَرَائِطَ الدِّين ؛ آخِذِينَ بِأَطْرَافِ المُرُوءَة ؛ آنِفِينَ مِن مُلابَسَةِ مَا يَقْدَحُ فِي ذَاتِ البَيْن ؛ مُتَزَوِّدِينَ لِلعَافِيَةِ الَّتِي لابُدَّ مِنَ الشُّخُوصِ إِلَيْهَا ؛ وَلا محِيدَ عَن الاطِّلاعِ عَلَيْهَا .
إِنَّكَ تُؤْتِي مَن تَشَاءُ مَا تَشَاء .)) . (٢) .







(١) ؛ (٢) ـ انظر : رسالة ((الصداقة والصديق)) لأبي حيَّان ؛ (صـ : ٢٩ـ٣٠) .

۞ـ تَوْطِئَةٌ :

۞ـ نَظَرِيَّةُ الأَدَب (١)

١ـ تعريف الأدب :

كُلُّ إنسانٍ له حظٌّ من الثقافة يعرف ـ بصُورةٍ أو بأخرى ـ ما الأدب ؛ وَكُلُّ ما فى الأمر أن ما يعرفه هذا قد يختلف عمَّا يعرفه ذاك ؛ أو يفترق عنه قليلاً أو كثيراً .

ولكن المُؤكّد أنهم جميعاً يستخدمون كلمة « أدب » استخداماً مُتقارباً ـ إن لم يكن مُوحَّداً ـ حين يُطلقونها على شىءٍ يقرءونه أو يستمعون إليه .

ولكن هل الأدب حقّاً هو ذلك الشىء الذى يقرؤه الناس أو يستمعون إليه ؟

إن تاريخ كلمة « أدب » فى اللُّغة العربيَّة لا يدُلُّ على ارتباطٍ بهذا المعنى .

......

ـ معنى كلمة أدب :

وكلمة « أدب » **Literature** فى الإنجليزيَّة ؛ و**Litterature** كذلك فى الفرنسيَّة مأخوذةٌ من **Litera** ؛ وهى بذلك تُوحى بالأدب المكتوب أو المطبوع ؛ ولكن ينبغى أن يشمل تعريف الأدب ذلك الأدب الملفوظ كذلك ؛ ولهذا كان للفظة « فَنُّ الكلمة **kunst_Wort** » الألمانيَّة ؛ ولفظة **Slavesnost** الرُّوسيَّة : ميزتهما على نظيرتيهما الإنجليزيَّة والفرنسيَّة .

---

(١)ـ انْظُر : « الأدب وفنونه : دراسةٌ ؛ ونقد » ؛ (ص : ٩ ـ ٢١) .

وإذا قُلنا :

إن الأدب هو فَنُّ الكلمة - سواء الكلمة المقروءة والكلمة المسموعة - ؛ كان علينا أن نعود لنتساءل :

هل يتمثّل الأدب فيما نقرأ مكتوباً من شعرٍ مثلاً ؟

وعندئذٍ تكون الكتابة فى ذاتها - أى : الحُرُوف المنقوشة بالحبر على الورق - جُزءاً من القصيدة ؟

طبيعىٌّ أن هذا لا يُمكن الأخذ به ؛ لأنَّ الشِّعْرَ مُستقلٌّ تماماً عن هذه الحُرُوف المكتوبة ؛ وعن نوع الحبر الذى كُتِبَت به ؛ وليست الكتابة فى الواقع إلاَّ نوعاً من التسجيل لهذا الشِّعر ؛ يضمن وجوده وبقاءه فى مكانٍ ما ؛ ولذلك يُمكن أن يُوجد الشعر غير مكتوبٍ حين يتمثَّل فى الذَّاكرة .

وكذلك ليس الأدب ما تنطق به من شعرٍ مثلاً ؛ لأن قراءتنا لهذا الشعر ستتأثر بصوتنا من حيث معدنه ؛ وبمقدرتنا على إخراج الحُرُوف إخراجاً سليماً ؛

وعندئذٍ : هل تكون هذه الأصوات التى تخرج من أفواهنا هى الشعر ؟

طبيعىٌّ أنها ليست كذلك ؛ لأنها أشياء مُتغيِّرة .

ومن هُنا ؛ كانت القطعة الأدبيَّة الواحدة تختلف على لسان القارئ نفسه من وقتٍ إلى آخر ؛ مُتأثرة بحالته الخاصة ؛ ولذلك فالصوت الذى يُؤدَّى بِهِ العمل الأدبىُّ حين يُقرأ يُضيف إليه عناصر ليست فى العمل الأدبىِّ ؛ ولكن القول بأن العمل الأدبىَّ حَشْدٌ من الأصوات ؛ يبدو غير كافٍ تماماً ؛ كما لا يكفى القول بأنه : تلك الحروف المنقوشة بالحبر على الورق .

......

ـ فَنُّ الكَلِمَة :

وعلى هذا ؛ فعبارة «فَنُّ الكَلِمَة » لا تكفى للدَّلالة على الأدب إذا كان المقصود بها الكلمة ـ سواء المكتوبة والمنطوق بها ـ ؛ فإذا لم يتمثَّل الأدب فيما هو مكتوب أو منطوق به ؛ ففيم إذاً يتمثَّلُ ؟!

هُنا يأتى القول بأن العمل الأدبىَّ ليس شيئاً خارج العمليَّة العقليَّة التى نُزاولها فى القراءة أو فى الاستماع إلى قصيدةٍ مثلاً .

ومعنى هذا : أن الأدب يتمثَّل فى نُفُوسنا ؛ فى نشاطنا النفسىِّ الذى نبذله حين نقرأ الكلمة أو نستمع إليها ؛ ولكنَّ هذا الحَلَّ النفسىَّ بدوره غير كافٍ .

صحيحٌ ـ بطبيعة الحال ـ أن القصيدة لا يُمكن أن تُعرف إلاَّ من خلال الخبرات الفرديَّة ؛ ولكن القصيدة ذاتها ليست هى نفس هذه الخبرات ؛ فَكُلُّ مُزَاوَلَةٍ فرديَّةٍ لقصيدةٍ من القصائد تحتوى على شىءٍ خاصٍّ وفردىٍّ صِرْفٍ ؛ فهى تتلوَّن بلون حالتنا ؛ واستعدادنا الفردىِّ ؛ والثقافة ؛ وشخصيَّة كل قارئ ؛ والجَوِّ الحضارىِّ العام فى فترةٍ من الزَّمن ؛ والمفاهيم الدينيَّة والفلسفيَّة والفنيَّة الصِّرْف لدى كُلِّ قارئٍ ؛ كُلُّ ذلك يُضيف شيئاً مُفاجِئاً جديداً لِكُلِّ مرَّةٍ من مرَّات قراءة القصيدة ؛ فقراءتان فى زمنين مُختلفين للفرد نفسه يُمكن أن تختلفا اختلافاً واضحاً ؛ سواء لأنه قد نما عقليّاً ؛ أو لأنَّ الظُّروف الوقتيَّة أضعفته ؛ كالتعب أو القلق أو التشتُّت الذِّهنىِّ .

وهكذا ؛ نجد أن كُلَّ مُزَاوَلَةٍ للقصيدة تترك شيئاً أو تُضيف شيئاً فرديّاً ؛ ولن تتسع المُزاولة حتّى تشمل القصيدة ؛ فحتى القارئ الممتاز نفسه ؛ سيكشف فى القصيدة الواحدة فى كُلِّ مَرَّةٍ من مرَّات قراءتها تفاصيل جديدة لم يُعاينها خلال قراءاته السابقة .

ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مبلغ الضحالة والاختلاط فى قراءة قارئٍ أقلُّ دُرْبَةً أو غير مُدَرَّبٍ .

فالقول :

إنَّ نَشَاطَ القارئ العقلىِّ هو القصيدة ذاتها ؛ أو العلم الأدبىُّ ذاته : يُؤدِّى إلى نتيجةٍ غير معقولةٍ : هِىَ أنَّ القصيدة لا تُوجد ما لم يُمارسها إنسان ؛ وأنها تُخْلَقُ من جديدٍ فى كُلِّ مُمارسةٍ ؛ فلن تكون هناك إذن « كوميديا إلهيَّة » واحدة ؛ بل كوميديات إلهيَّة بعدد ما يُوجد ؛ وما وُجِد ؛ وما سيُوجد من قُرَّاء. وبذلك ننتهى إلى الشَّكِّ والفوضى التامة ؛ ونصل إلى العبارة الرَّديئة القائلة : « لا مَشَاحَةَ فِى الذَّوْق » .

......

- المُزَاوَلَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلعَمَلِ الأَدَبِىِّ :

فالدِّراسة النَّفسيَّة إذن - التى تنظر إلى العمل الأدبىِّ مُتمثِّلاً خلال العمليَّة العقليَّة ؛ سواء لدى القارئ أو المُستمع ؛ وسواء لدى المُتحدِّث أو المُؤلِّف - تُثير من المُشكلات أكثر مِمَّا تُساعد على حَلِّ المُشكلة الأساسيَّة .

فكلمة « أدب » إذن لا تعنى ما هو مكتوب أو منطوق به ؛ ولا مُمارسة ما هو مكتوب أو منطوق به .

ولقد تغيَّرت مفهومات طبيعة الأدب ووظيفته عبر التاريخ ؛ وقد مال البعض فى تعريفه للأدب إلى تضييق ميدانه حين نظر إلى بعض الإنتاج الفكرىِّ دُونَ بعضه الآخر ؛ وفى الجانب المُقَابِل نجد من يتوسَّع فى معنى الأدب حتى ليُدخل فى ميدانه الكتابات التشريعيَّة والدينيَّة والطبيَّة !؟ .

وهذان المفهومان المُتطرِّفان لا يُصيبان شيئاً من الحقيقة ؛ لأنهما تنقصهما الدِّقَّة اللازمة .

ويُمكن البدء فى محاولة تعريفٍ للأدب ؛ إذا نحن نظرنا إلى اعتبارين :

فالأدب يتكوَّن من تلك الكُتُب ؛ وتلك الكُتُب وحدها ؛ التى لها أوَّلاً وقبل كُلِّ شيءٍ - بحُكم موضوعها ؛ وطريقة تناول هذا الموضوع - أهميَّةً إنسانيَّةً عامة .

وهى - بعد ذلك - يُنظر إلى عُنصر الصُّورة فيها ؛ وَالْمُتْعَة التى تُقدِّمُها الصُّورة : على أنها جوهريَّة ؛ فالقطعة الأدبيَّة تختلف - من ناحيةٍ - عن بحثٍ مُتَخَصِّصٍ فى علم الفلك أو الاقتصاد السياسىِّ أو الفلسفة أو حتى التَّاريخ : لأنها لا تتَّصل بطبقةٍ خاصَّةٍ من القُرَّاء فقط ؛ بل بالناس من حيث هم ناس ؛ رجالاً ونساءً .

وفى حين نجد موضوع البحث ـ من ناحيةٍ أُخرى ـ يكتفى بأن ينقل المعرفة ؛ إذا بالقطعة الأدبيَّة ـ سواء أكانت تنقل المعرفة كذلك أم لا ـ ؛ من أهدافها المثاليَّة أن تُحدِث الرِّضَا الفنىَّ ؛ وذلك بالطريقة التى تُقدِّم بها موضوعها .

......

ـ المُتْعَةُ وَالمَنْفَعَةُ فِى العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

وهذه الخُطوة فى محاولة فهم ماهيَّة الأدب لم تزد على أن أدخلت عُنصراً جديداً فى البحث هو عُنصر « المُتْعَة الفَنِيَّة » التى يُحدثها الأدب .

وطبيعىٌّ أن هذا العُنصر الجديد ليس جُزءاً من طبيعة تكوين الأدب ؛ بل هو أثرٌ له ؛ فالمُتعة قد تحدث لشخصٍ يتلقَّى عملاً أدبيًّا ؛ ولا تحدث لشخصٍ آخرٍ يتلقَّى نفس هذا العمل .

على أننا كذلك قد نجد المُتعة فى أشياء ليس لها بالأدب صلة .

والغريب أن فلسفة الجمال فيما يتعلَّق بالفَنِّ والأدب كانت فى أغلب الأحيان تترك الأدب ذاته لتبحث فى آثاره ؛ ويُمكن تلخيص هذه الفلسفة ببساطةٍ فى مقولتين قال بهما « هوراس » مُنْذُ أَمَدٍ بعيدٍ ؛ هُما : « المُتْعَة » ؛ و« المَنْفَعَة » .

وقد كان تاريخ فلسفة الفَنِّ تسجيلاً للمواقف التى تتوزَّعها هاتان المقولتان ؛ فمن أديبٍ ينتهى إلى أن الفن مُتعة ؛ إلى مُفكِّرٍ يخلص إلى أن الفن منفعة .

وبإزاء المتعة والمنفعة نجد اللعب والعمل ؛ فالفنُّ لَعِبٌ فى رأيٍ ؛ وهو عملٌ فى رأيٍ آخرٍ .

والمحاولة الثالثة ؛ وهى المُحاولة التى قام بها عصر النهضة فى أُوروبا ؛ هى محاولة الجمع بين الخاصتين ؛ بحيث لا يُمكن أن يقوم فَنٌّ يُوصف بوصفٍ واحدٍ من الوصفين ؛ فالعمل الأدبىُّ يقوم بالمُهِمَّتين ؛ وَيُحدِثُ الأثرين معاً ؛ وبنجاحٍ .

وقد قُلنا : إن هُناك أشياء تُمتعنا وهى ليست من الأدب فى شىءٍ ؛ وكذلك هُناك أشياء نافعة ولا تُمتُّ إلى الأدب بصلة ؛ فحتَّى هذان الأثران المعروفان للأدب ليسا إذن أثرين خاصين به .

وهُنا : ينبغى أن نأخذ بأن مُتعة الأدب ليست مُتعة مختارة من بين قائمةٍ بالمُتع المُمكنة ؛ ولكنَّها متعة أعلى ؛ لأنها متعة لنشاط أرقى ؛ أعنى تأمُّلاً لا يهدف إلى حيازة شىءٍ .

أما المنفعة أو الجديَّة والتعليم فى الأدب ؛ فهى جديَّةٌ مُمتعة ؛ أعنى أنها ليست جديَّة الواجب الذى يجب أن يُعمل ؛ أو الدَّرس الذى يجب أن يُحفظ ؛ ولكنها جديَّةٌ فنيَّةٌ ؛ جديَّةُ إدراكٍ حسىٍّ .

فإذا ما خصَّصنا نوعى المُتعة والمنفعة اللذين يحدثهما الأدب ويُؤثِّر بهما فى التلقِّى ؛ أمكننا أن نصل إلى الحديث عن الأدب ذاته .

إذا ما تساءلنا عن سرِّ المُتعة والمنفعة فى العمل الأدبىِّ : لماذا كان الأدب مُمتعاً ونافعاً ؟

والحقُّ ؛ أن عنايتنا بالأدب ترجع أوَّلاً وقبل كُلِّ شيءٍ إلى أهميَّته الإنسانيَّة العميقة الباقية ؛ فالكتاب العظيم يستمد مُباشرةً من الحياة ؛ ونحن حين نقرؤه نستكشف بين أنفسنا والحياة علاقات كثيرة وطيدة وجديدة .

وفى هذه الحقيقة نجد التفسير النهائىَّ لما له من قُوَّةٍ ؛ فالأدب إبداعٌ جديدٌ حيٌّ لما رآه الناس فى الحياة ؛ وما خَبِرُوهُ منها ؛ وما فكَّروا فيه ؛ وأحسُّوا به : إزاء مظاهرها التى لها عندنا جميعاً أهميَّة مُباشرة وباقية ؛ تفوق كُلَّ أهميَّةٍ .

وهو بذلك يُعَدُّ - بصورةٍ أساسيَّةٍ - تعبيراً عن الحياة وسيلته اللغة ؛ ولكن من المُهِمِّ أن نفهم مُنْذُ البداية أن الأدب يعيش بفضل الحياة التى تتمثَّل فيه .

فالمُتعة والنَّفع اللذان نتحدَّث عنهما فى الأدب ؛ مصدرهما تلك الأشياء التى نجدها فى العمل الأدبىِّ ؛ والتى لها أهميَّةٌ إنسانيَّةٌ ؛ فبمقدار ما يكون لهذه الأشياء من أهميَّةٍ يكون إمتاعها ونفعها لنا .

وقد قال « هدسن » فى العبارة السابقة :

« إِنَّ الأَدَب : تَعْبِيرٌ عَن الحَيَاة ؛ وَسِيلَتُهُ اللُّغَة »

وهُنا نقُول :

إن هذه الصلة الوطيدة بين الأدب والحياة هى السِّرُّ فيما يتضمَّن من مُتْعَةٍ وَمَنْفَعَةٍ ؛ لأنَّنا نحب أن نرى الحياة « منقولة إلينا » ؛ نحب أن نجلس فى مكاننا لنُشاهد الحياة تمر بنا جزئياتها فى سلسلةٍ مُتَّصلة الحلقات ؛ وهذه المُتعة تتحقق فى جُلُوسنا لقراءة كتاب .

ولكن قيمة الكتاب الذى نقرؤه ؛ لا تقف عادةً عند مُجرَّد قضاء سُويعات فى استعراض مشاهد مُمتعة من الحياة ؛ بل إننا نمضى بعد الفراغ من القراءة أو المُشاهدة لنُناقش ما قرأنا وما شاهدنا .

وكثيراً ما نُناقش أنفسنا بسبب كتابٍ قرأناه ؛ وهُناك كُتُبٌ غيَّرت من منهج حياة قارئيها تغييراً كاملاً ؛ وهُنا يتمثَّل ما للأدب من نفعٍ ؛ حين يُعَمِّق فهمنا للحياة ؛ بل أكثر من هذا : حين يُوجِّه حياتنا ؛ فالأدب يستمد من الحياة ؛ ويدفع الحياة ويُوجِّهها .

......

ـ الحَيَاةُ مَادَّةُ الأَدَب :

مَادَّة الأدب إذن فى أىِّ صُورةٍ من صُوره : هى الحياة ؛ وانتقال هذه المادة إلينا يُحدث فى نُفُوسنا المُتعة ؛ وقد يُشكِّل حياتنا ؛ ولكن هل هذا حقّاً هو كُلُّ شىءٍ فى الأدب ؛ أن ينقل إلينا الحياة ؟

لا شَكَّ أن الأدب يشتمل على عناصر أُخرى ؛ فإذا نحن رجعنا إلى العبارة القائلة :

«إنَّ الأَدَب : تَعْبِيرٌ عَن الحَيَاة ؛ وَسِيلَتُهُ اللُّغَة »

: كان علينا أن نفهم أن الأدب لا ينقل إلينا الحياة حقّاً كما هى ؛ ولكنه يُعبِّر عنها .

وقد يُقال : إنه يُفسِّرُها .

وقيل أيضاً : إنه ينقُدها .

وَكُلُّ هذه العبارات المُختلفة عن علاقة الأدب بالحياة : تدُلُّ على أنه لا ينقل إلينا الحياة كما هى نقلاً حرفيّاً .

قد نقُول :

إنه ينقل إلينا فهم الأديب للحياة من خلال تجاربه الشخصيَّة ؛ وهُنا : نكون قد أدخلنا عُنصراً جديداً يقوم عليه الأدب ؛ فبجانب الحياة لابُدَّ من « فهم » الأديب لها .

......

ـ عَنَاصِرُ العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

هُناك إذن عناصر كثيرة تشترك فى تكوين العمـل الأدبىّ ؛ فنحن أوَّلاً نجد ـ بطبيعة الحالة ـ العناصر التى تُقدِّمها الحياة ذاتها ؛ تلك التى تُمَثِّل المادة الأوليَّة لأىِّ عملٍ أدبىّ ؛ سواء أكان :

ـ قصيدة .

ـ أم مقـالـة .

ـ أم مسرحيَّة .

ـ أم قِصَّـة .

ثُمَّ هُناك العناصر التى يُضيفها المُؤلِّف فى عمليَّة نقله هذه المادَّة الأوليَّة إلى هذه الصُّورة أو تلك من صُور الفَنِّ الأدبىِّ ؛ وهذه العناصر يُمكن أن تُقَسَّم تقسيماً تقريبيّاً إلى أربعة أقسام :

ـ أوَّلاً :

هُناك العنصر « العقلىّ » ؛ ويتمثَّل فى الفكرة التى يأتى بها الكاتب ليبنى منها موضوعه ؛ والتى يُعَبِّرُ عنها فى عمله الفنىّ .

ـ ثانياً :

هُناك العنصر « العاطفىّ » ؛ وهو الشعور « كائناً ما كان نوعه » الذى يُثيره الموضوع فى نفسه ؛ والذى يَوَدُّ بدوره أن يُثيره فينا .

ـ ثالثاً :

هُناك عنصر « الخيال » ؛ ويشمل النوع الخفيف الذى نُسَمِّيه الوهم fancy ؛ وهو فى الحقيقة :

القُدرة على التأمُّل القوىّ العميق ؛ وبعمله سُرعان ما ينقل إلينا الكاتب قُدرةً مُماثلةً على التأمُّل .

وهذه العناصر تجتمع لِتُقدِّم للأدب المادة والحياة ؛ ولكن مهما تبلغ المواد التى قدَّمتها التجربة من الغِنَى ؛ ومهما يبلغ فكر الكاتب وشعوره وخياله من الجِدَّة ؛ فإن عُنصراً آخر يلزم الكاتب عند الاهتمام بهذه العناصر قبل أن يتمكَّن من إتمام عمله ؛ فهذه المادة يجب أن تُشَكَّلَ وَتُهَذَّبَ وفق مبادئ النِّظام والتناسق والجمال والتأثير .

ومن ثَمَّ نجد عُنصراً رابعاً فى الأدب هو العُنصر « الفنىّ » ؛ أو عُنصر « التأليف والأسلوب » .

هذا معناه :

أن الأدب يقوم على عناصر بعضها بمثابة :

ـ المادة ـ ((الحَيَاة)) ـ .

ـ الفكر .

ـ الخيال .

ـ العاطفة .

وبعضها يتحقّق فى عمليَّة ((التكوين : أى فى بناء العمل الأدبىّ من هذه المادة)) .

وهذا فى الواقع تعبيرٌ آخرٌ ـ ولكنه ربما كان أكثر دِقّة ـ عمَّا يُقَسَّم إليه العمل الأدبىُّ من :

١ـ محتوى .

٢ـ صُورة .

فإذا كان المقصود بالمحتوى : الأفكار والعواطف التى يشتمل عليها العمل الأدبىُّ .

فإن الصورة عندئذٍ :

تشمل كل العناصر الشكليَّة التى تُعَبِّر عن هذا المُحتوى .

ولكنَّنا إذا فحصنا هذا التمييز فحصاً أكثر دِقَّةً ؛ لرأينا أن المحتوى يدُلُّ على بعض عناصر الصورة .

فمثلاً :

الحوادث المسرودة فى الرّواية تُعَدُّ أجزاء من المحتوى ؛ فى حين أن الطريقة التى تُنَسَّق بها ؛ بحيث تكون عملاً قصصياً ؛ تُعَدُّ جُزءاً من الصُّورة ؛ فإذا هى انفصلت عن طريقة التنسيق هذه ؛ فلن يكون لها تأثيرٌ فنىٌّ بأىٍّ حالٍ من الأحوال .

ومهما يكُن من أمر دلالة المُصطلحات المُستخدمة فى هذا المجال ؛ فإن هُناك صفات خاصَّة بما سمَّيناه مادَّة العمل الأدبىِّ ؛ وهى صفاتٌ تُعَدُّ جوهريَّةً ؛ ولابُدَّ من تحقُّقها كيما يُعَد الأدب أدباً ؛ وهُناك صفات أُخرى خاصَّة بالتكوين .

قد نقرأ العمل الأدبىَّ لأغراضٍ كثيرةٍ ؛ ولكنَّنا إذا نظرنا إلى الأدب على أنه قُوَّةٌ حقيقيَّةٌ ؛ وجب علينا أن نبحث عن مصدر أسباب الرِّضَا الأساسيَّة ؛ التى تتمثَّل فى صفات :

- الوضُوح .
- عُمق الفهم .
- سُمو الرُّوح .

ويتحقَّق الوضُوح من خلال إحساس المُؤلِّف بالصورة ؛ فالمُؤلِّف يختار المادة وينظمها وفقاً لغرضٍ خاصٍّ ؛ وهو بذلك يُركِّز الاهتمام على الشَّكْلِ الجوهرىِّ للأشياء فى العالم المرئىِّ وغير المرئىِّ ؛ وهو بذلك يُومئ أيضاً إلى الغرض الذى يُوجِّه التجربة .

ومُؤلَّفات كبار الكُتَّاب تهدى إلى السُّلوك السليم بأوسع معانيه ؛ لأنها تكشف لنا عن النظام الدقيق ؛ وعن الحكمة والتوافق بين العناصر المختلفة ؛ التى بدونها تبدو الحياة أجزاء لا معنى لها .

وهذا العمل يتضمَّن توضيحاً واعياً للتجربة ؛ لا عند المؤلف وحده ؛ بل عند القارئ كذلك ؛ وذلك باتحاده مع المؤلف خلال عمليَّة التمثيل .

......

- صِفَاتُ الأَدَبِ المَرْضِىِّ :

وهُنا يأتى بالضرورة السُّؤال عن الموضوعات التى تصلح للأدب وتلك التى لا تصلح ؛ والواقع أن الأديب - على الرَّغم من أنه يختار موضوعه بلا شكٍّ - يعمل فى ميدانٍ ؛ كل ما يلقاه فيه صالحٌ للعمل الأدبىِّ ؛ وهو ميدان الحياة ؛ فلم يعد من الممكن القول : إن هُناك بعض موضوعات تصلح للتناول وبعضاً آخر لا يصلح .

وفى خلال نمو الواقعيَّة فى الفنِّ القصصىِّ ؛ واستخدام التحليل النفسىِّ للشخصيَّة : اتسع ميدان الأدب اتساعاً عظيماً .

ثم يأتى دور الأدب فى أن يُعَمِّق فهمنا للحياة ؛ بأن يُطلعنا لا على عالم الرُّؤية الخارجىِّ فحسب ؛ بل على العالم الداخلىِّ للفكر والشُّعور كذلك .

إننا نبدأ فى فهم كيف يعيش الناس ؛ ومن أجل ماذا يموتون ؛ وكذلك فإننا ننظر فى ذلك العالم الغامض - عالم العواطف واللاشعور - ؛ وعلاقتنا العاطفيَّة الخاصة بالحقيقة الخارجيَّة تلمس هذه الحقيقة وتُوضِّحها بِوَمَضَاتٍ

اللون والضوء والظل ؛ وهذه العلاقة الخارجيَّة لا تكتفى بأن تخلق فى الحال علاقةً مثاليَّةً بين نفوسنا وبين العالم ؛ ولكنها كذلك تجعل من المُستطاع قيام علاقةٍ مَرِنَةٍ واضحةٍ بشكل غير عادىّ بين ظواهر تبدو مُنفصلة فى عُقُولنا .

ويتبع ذلك أنه ينبغى علينا أن نشحذ مداركنا حتى نستطيع فهم ظلال المعنى الدقيقة ؛ وإدراك الطُّرُق التى يستطيع بها الأدب أن يُوسِّع من فهمنا عن طريق الدِّقَّة فى الكناية والإيحاء .

فالعمل الأدبىُّ يرتاد بنا الحياة ؛ ويخلق بيننا وبينها علاقات جديدة من الفهم والمعرفة ؛ وهى الغاية التى تسعى لها الإنسانيَّة فى نشاطها الدَّائِب .

وعندما نفهم طبيعة التجربة الموضوعيَّة ؛ وطابع الحياة الداخليَّة : فإننا نجد أنفسنا ـ وَقَلَّ أن يحدث ذلك ـ فى ميدان الرُّوح .

وكثيراً ما يأتى هذا الشُّعور بالسُّمو نتيجة مُثيرٍ عاطفىٍّ ـ له قُوَّةٌ وَرَهَافَةٌ غير عاديَّةٍ ـ يقف وحده غالباً ـ سواء أكانت هُناك علاقة بسيطة أم لم تكن ـ ؛ بينه وبين مجموعة من القِيَم الرَّاسخة فى السُّلوك البشرىِّ .

ولحظة من التفكير تُذكِّرنا بمجموعة من القصائد التى لـها من هذه القُوَّة والإثارة ما يجعلنا نشعر بأننا نسمو عند قراءتها .

هذه الأسباب الثلاثة لرضائنا عن العمل الأدبىِّ ليست مُنفصلة ؛ ولكنها تتحد جميعاً لتُخرج لنا عملاً جميلاً مُحْكَمَاً .

......

ـ مُشْكِلَةُ العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

فالعمل الأدبىُّ ـ فيما يبدو ـ ليس بسيطاً ؛ إنه يستمد من الحياة ؛ ولكنه ليس مُجَرَّد معنى للحياة أو فكرة عنها نتعلمها كما نتعلم الأشياء الأُخرى أو كما نتعلم ذلك من الفلسفة مثلاً ؛ إنه طاقةٌ هائلةٌ تُشِعُّ ألواناً من الإشعاعات على مَرِّ الزَّمن ؛ فلا يخبو لمعانها حتى يتجدَّد مع الإنسانيَّة المُتجدِّدة الدائبة التجدُّد .

وهى طاقةٌ هائلة التأثير ؛ فيكفى أن يقول الأديب كلماته حتى يكون لها من الفعل بالنُّفُوس ومن تحريك الأرواح ما يفوق أثره كُلَّ قُوَّةٍ ؛ ذلك أن فعلها لا يقتصر على جماعةٍ من الناس فى وقتٍ من الأوقات ؛ ولكنه من المُمكن أن يمتد إلى كُلِّ إنسانٍ فى كُلِّ زمانٍ وَكُلِّ مكان .

ويوم يُطلق الشَّاعر قصيدته ؛ يكون العالم قد كسب قُوَّةً هائلةً جديدةً ؛ ولكنها قُوَّةٌ خالدةٌ باقية .

إنَّ خفقة القلب لتدفع إلى الوجُود وجُوداً ؛ وإن لمحة الرُّوح لتنفذ فتخترق القُيُود والسُّدُود .

وفى الوجُود الأكبر تلتقى كُلُّ طاقةٍ كونيَّةٍ ؛ تلتقى الطاقة تُشِعُّهَا الذرَّة ؛ وتلتقى الطاقة تُشِعُّهَا الكلمة .

فالأدب كائنٌ حىٌّ مُتجدِّد الحيويَّة ؛ مُتجدِّد الحرارة ؛ وله كيانه وشخصيَّته ؛ مثلى ومثلك .

إنها شخصيَّةٌ مُمتلئةٌ بالقُوَّة ؛ ولكنَّها شخصيَّةٌ أميز ما فيها أنها مَرِنَة ؛ وليست صلبة جامدة .

إنَّ النَّبات والحيوان والإنسان جميعاً تتكيَّف بحسب البيئة التى تُوجد فيها ؛ وهذه القُدرة على التكيُّف مرجعها إلى المرونة التى يتمتع بها كيانها وتتمتع بها شخصيَّاتها ؛ وهى كُلَّمَا اختلفت عليها الأزمنة والأماكن راحت تتكيف مع البيئة الجديدة ؛ ولولا هذه القُدرة على التكيُّف ؛ ولولا هذه المرونة التى تتمتع بها شخصيَّاتها - على تفاوتٍ بينها فى أنصبتها من هذه المرونة - لوجدناها تنقرض وتزول ؛ فالشخص لا يعيش إلاَّ بما فى شخصيَّته من مُرُونَةٍ يواجه بها ظُرُوف الحياة فيتكيف معها ؛ ويتغلَّب بذلك عليها ؛ ويستمر بعد كُلِّ محْنَةٍ فى وجُوده الحىِّ النَّابض ؛ وتزداد بذلك شخصيَّته قُوَّةً على قُوَّةٍ .

......

- شَخْصِيَّةُ العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

العمل الأدبىُّ شخصيَّةٌ من هذا النوع ؛ ولكنها شخصيَّةٌ جبَّارةٌ !! ؛ إنها شخصيَّةٌ قد كسبت قُوَّتها من آلاف التفاعلات التى مرَّت بها فى حياتها الطويلة .

إننا نتفاعل مع أصدقائنا وأقاربنا وتلاميذنا ألواناً مُختلفةً من التفاعل بما هم كائنات حيَّة تؤثر وتتأثر ؛ وكذلك نتفاعل مع الأدب .

ألسنا نتخذ فى كثيرٍ من الأحوال من الشُّعراء الذين مرَّت عليهم مئات السنين أصدقاء لنا ؟! .

ألسنا نُطيل صُحبة قصيدة من القصائد ونعتزُّ بها ؟! .

إننا نتفاعل بذلك معها كما نتفاعل مع أصدقائنا ؛ نتفاعل معها فتؤثر فينا ونؤثر فيها ؛ ولكنَّنا نمضى جميعاً وتبقى هى محُتفظة بحصيلة تلك التفاعلات ؛ ممتعة بما أفادت من تأثرات الأُلوف من الذين صاحبوها فى وقتٍ من الأوقات وتفاعلوا معها .

ألا يكون للعمل الأدبىِّ بعد ذلك شخصيَّةً جبَّارةً ؛ وطاقةً هائلةً ؟! ؛ ولكنها شخصيَّةٌ مَرِنَةٌ ؛ وطاقةٌ مُتَلَوِّنةٌ .

إنها شخصيَّةٌ مَرِنَةٌ لا تقف منك موقف عناد ؛ ولا تُصِرُّ على شىءٍ ؛ وهى بذلك تمتاز عن الحقائق الصارمة .

إنك تقرأ هذه العبارة الحسابية « ٢+٢=٤ » ؛ فلا تستطيع أن تفهم منها إِلاَّ فهماً واحداً ؛ ولن تخرج منها إِلاَّ بحقيقةٍ واحدةٍ ؛ وهى حقيقةٌ خالدةٌ باقيةٌ كذلك ؛ ولكنها حقيقةٌ جامدةٌ لا مُرونة فيها ؛ بل فيها إصرار .

ونحن نُذْعِن دائماً فى هذه الحالة للإصرار والبناء ؛ ويوم نُريد من « ٢+٢ » أن تُساوى خمسة مثلاً ؛ تخذُلنا العبارة ؛ لأنها تُصِرُّ على أن تُساوى أربعة فقط ؛ ولا يمكن التزحزح عن هذا الإصرار ؛ وعندئذٍ نمضى طائعين أو مُكرهين إلى التسليم بهذه الحقيقة التى نضطر جميعاً إلى الاتفاق عليها .

إنها حقيقةٌ صارمةٌ جامدةٌ لا حياة فيها ؛ ومن ثَمَّ لا نتفاعل معها ؛ فلا تتأثر بها شخصياتنا ؛ ولا تترك شخصياتنا فيها أثراً .

إنها شخصيَّةٌ ذات جانبٍ واحدٍ ؛ إذا أمكن التعبير .

ولكن العمل الأدبىُّ شخصيةٌ مُتعدِّدة الجوانب ؛ وهذا هو السِّرُّ فى أنها تستطيع أن تجتذب أكبر عددٍ مُمكنٍ من الأصدقاء ؛ هذا يتفاعل مع جانبٍ ؛ وذلك مع جانبٍ آخر .

إشعاعاتٌ كثيرةٌ - كما قُلنا - تلك التى تصدر عن الطاقة الهائلة الكامنة فى العمل الأدبىِّ .

وَكُلٌّ مِنَّا يتلقَّى من هذه الإشعاعات بمقدار استعداده للتفاعل ؛ وتبادُل الفهم والتفاهُم .

فمن أراد من العمل الأدبىِّ صُورةً جامدةً من الألفاظ ؛ فإنه واجدٌ من هذه الصُّورة ؛ ومن أراد شخصيَّةً حيَّةً نابضةً ؛ فإنه واجدٌ هذه الشخصيَّة ؛ هذه إشعاعةٌ وتلك إشعاعة ؛ ولكن فرقٌ بين من يتذوَّق الأدب رُوحاً ؛ ومن يتذوقه صُورةً جامدة !! .

هكذا تقوم للعمل الأدبىِّ شخصيَّته ؛ ويتحدَّد ما فيه من طاقةٍ وقُوَّةٍ بمقدار ما يستمد من الحياة ؛ وما يوصله إلى نُفُوس الآخرين من خبرةٍ جديدةٍ وفهمٍ عميقٍ لهذه الحياة .

ولكن يبدو أننا نتساهل كثيراً فى هذا التصور ؛ لأن كُلَّ ما يربطنا فى الواقع بالأديب لا يزيد عن ألفاظ ؛ وكأنَّ كُلَّ ما حسبناه للعمل الأدبىِّ من قُوَّةٍ هو كامنٌ فى الكلمات ؛ فالأدب - كما سبق - :

« تعبيرٌ عن الحياة ؛ أداته اللُّغة »

فكأن اللُّغة هى الظَّاهرة الأُولى التى ينبغى الوقُوف عندها عندما نتحدَّث عن الأدب ؛ لأن الأدب لا يُمكن أن يتحقَّق إِلاَّ فيها ؛ وحين يفرغ الأديب من أداء كلماته يكون - فى الواقع - قد فرغ من أداء عمله الأدبىِّ .

وليس هذا فى الحقيقة تبسيطاً للموضوع ؛ فقد يبدو أن استخدام اللُّغة للتعبير أمرٌ غايةٌ فى السُّهولة ؛ ألسنا نستخدم اللُّغة كُلَّ يومٍ وَكُلَّ دقيقةٍ فى قضاء حاجتنا ؛ وفى التفاهم مع غيرنا ؟! ؛ فاللُّغة وسيلةٌ طَيِّعَةٌ لقضاء أُمُورنا وربطنا بالآخرين ؛ ولكن اللُّغة فى العمل الأدبىِّ تختلف عن هذا ؛ ومهما بلغت اللغة من وفرة المُفردات التى تستطيع أن تنقل أدق المعانى وأدق ظلالٍ لهذه المعانى ؛ فإنه تبقى هُناك صعوبةٌ تُواجه الأديب فى استخدامه اللغة فى عمله الأدبىِّ ؛ والذين يُمارسُون الإنتاج مِنَّا يُلاحظون فى يُسْرٍ أن اللغة لا تكون فى كُلِّ الأحوال تلك الأداة الطَّيِّعَة للتعبير عن المعنى أو الفكرة أو الشُّعور ؛ فهذه الأشياء لا يتم نقلها خلال الألفاظ إلا بعد جهدٍ كبيرٍ ؛ ولا نذهب فى المثل بعيداً ؛ فكُلُّنا قد مارس الكتابة العاديَّة ؛ وصادف الصُّعوبات التى كانت تقتضيه أن يُقدِّم لفظةً على لفظةٍ ؛ أو يستبدل بلفظةٍ أُخرى ؛ أو يضرب عن التعبير كله ليبدأ من جديدٍ تركيباً آخر للألفاظ يراه أقرب إلى تكوين الجُملة التى تنقل المعنى أقرب ما يكون إلى الدِّقَّةِ أو أقرب ما يكون إلى ما فى نفسه ؛ فإذا أدركنا ذلك ؛ كان تقريرنا للصُّعوبات التى يُواجهها الأديب فى استخدام اللغة أمراً بدهيّاً ؛ ولكن حينما نعرف أن الأديب لا يكتفى بِمُجَرَّد أن يُفهمنا شيئاً أو ينقل إلى نُفُوسنا معنى ؛ ولكنه - إلى جانب ذلك - يهدف إلى التأثير

فينا ؛ عندئذٍ نُدرك الجَهْدَ الذى يبذله الأديب لتطويع الألفاظ لأداء مُهِمَّتِهِ الكُبرى ؛ فالمؤلف لا يكتفى بأن يجد اللغة الدَّالَّة على ما يرغب فى أن يقوله ؛ ولكنه يجب كذلك أن يذهب ـ أبعد من الدِّلالة ـ إلى الإيحاءات الفنيَّة خلال ذبذبات النَّفْس والفكر .

وهذا معناه : أن الأديب يختار فى عمله الأدبىِّ الكلمات ذات الإيحاء الفنىِّ . ولكن ينبغى ألاَّ تُوقعنا هذه العبارة فى الفكرة الخاطئة التى شاعت قديماً واتُّخِذَت فى كثيرٍ من الحالات أساساً للحُكم على الإنتاج بأنه أدبىٌّ أو غير أدبىٍّ ؛ وأعنى بذلك الفكرة القائلة : إن هُناك لُغَة أدبيَّة ؛ أو ـ على وجه التحديد ـ ألفاظاً أدبيَّةً وأُخرى غير أدبيَّة ؛ فكما أن موضوعات الحياة كلها تصلح للتناول الأدبىِّ ـ ومن الخطأ أيضاً بطبيعة الحال أن نقول : إن هُناك موضوعات تصلح للأدب وأُخرى لا تصلح ـ ؛ فكذلك كل ألفاظ اللغة صالحٌ لأن يُستخدم فى عملٍ أدبىٍّ .

كُلُّ ما فى الأمر أن الأديب يختار للكلمة المكان الذى تكون فيه أصلح كلمة تُستخدم ؛ وتكتسب الكلمة « وضعاً » خاصًّاً باستخدام الأديب لها فى ذلك المكان .

وهذا جُزءٌ من عمليَّة التطويع التى يتناول بها الأديب اللغة ليُخضعها لغرضه ؛ ويستخدمها استخداماً خاصًّاً .

ويُلاحظ « نيومان » أنه بينما تستخدم الأغلبيَّة من الناس لُغة زمانهم - كما يجدونها - ؛ فإن العبقريَّ يستخدم اللغة لأغراضه الخاصَّة ؛ ويُشَكِّلُهَا تبعاً لاستعداداته الخاصة .

ويُعلِّق « هدسون » بقوله :

« ومعنى هذا :

أن اللغة تستقبل دائماً أثراً جديداً خاصَّاً على يدى كُلِّ كاتبٍ له شخصيَّةٌ قويَّةُ التميُّز . » .

فالكلمة قد تكتسب قُوَّتها من الشخصيَّة التى استخدمتها ؛ وكم من عبارات كان لها أثرها فى النُّفُوس لم تكن لِتُحدث هذا الأثر لو لم تصدر عن شخصيَّةٍ بذاتها .

إن الأديب ذا الشخصيَّة القويَّة المُؤثِّرة يخلق للكلمة - باستخدامه إيَّاها - مجالاً واسعاً ؛ ولا يلبث الكثيرون أن يجدوا أنفسهم واقعين فى إسارها .

فمن حيويَّة الشخصيَّة وقُوَّتها تُستمد الكلمة ؛ وهى بهذه الحيويَّة والقُوَّة تؤثر فى الآخرين ؛ وتفرض نفسها عليهم .

فإذا كانت خاصيَّة اللغة التى يستخدمها العالم فى شرح نظريةٍ : هى نقل الدِّلالة العامة التى يتحد جميع الناس فى كُلِّ زمانٍ ومكانٍ فى معرفتها ؛ حتى لقد يستخدم العالم الرُّموز الإشاريَّة لنقل هذه الدِّلالات ؛ وكانت خاصيَّة اللغة التى تُستخدم لأغراض الحياة اليوميَّة : هى أنها محليَّة تُتخذ

وسيلة لقضاء الأُمُور المعيشيَّة ؛ فإن خاصيَّة اللغة - حين تُستخدم استخداماً أدبيًّاً - : هى أنها إيحائيَّة ؛ فهى لا تكتفى بأن تُقَرِّر وتُعَبِّر عمَّا تقول ؛ ولكنها كذلك تهدف إلى التأثير فى اتجاه القارئ وإقناعه ؛ وتغييره تغييراً تامًّاً .

......

- إِمْكَانِيَّةُ اللُّغَة :

إِنَّ لِكُلِّ لُغَةٍ إمكاناتها ؛ وليس العمل الأدبىُّ إلا بناءً لُغويًّاً يستغل أكبر قدرٍ مُمكنٍ من هذه الإمكانات .

ولكن هذا البناء لا تأخذ صورته شكلاً طبيعيًّاً ؛ فهى ليست تخطيطاً هندسيًّاً أو شكليًّاً ؛ ولكنها أقرب إلى أن تكون - كما هو الشأن فى المُوسيقى - تطوراً نامياً لموضوع .

فالأدب إذن - كالمُوسيقى والمسرحيَّة المُمثَّلة - : فَنٌّ حيوىٌّ ؛ بمعنى : أنه حركة تحدث نتيجة لِقُوَّةٍ .

معنى هذا :

أن الأدب يستخدم أداة تعبيريـَّة مـن نـوعٍ خـاص ؛ يتحقَّق فيهـا إمكانـات المُوسيقى من جهة ؛ كما أنه يتبع فى تكوينه نظاماً تشكيليًّاً خاصًّاً بها ؛ ولكن الأدب - بعد كُلِّ هذا ؛ أو قبله - ليس مُوسيقى وليس نحتاً ؛ فالأديب الذى يخيَّل إليه أنه يستطيع فى عمله أن يخلق بناءً مُوسيقيًّاً ؛ إنما هو أديبٌ وَاهِمٌ ؛ لأن المُوسيقى فَنٌّ هائلٌ قائمٌ بذاته ؛ وإمكاناته الخاصة تقع نهائياً وراء مدى اللُّغة المُتكلِّمة .

وكذلك الأُدباء الذين يَظُنُّون أنهم يستطيعون أداء مُهِمَّة الفَنِّ التشكيليِّ فى اللُّغة ؛ قد جَرَّهُم سُوء الفهم إلى أن يحاكوا الفنَّانين ؛ سواء باهتمامهم بالتفصيلات التى تقع عليها العين ؛ أو بوصف أعمالٍ من الفَنِّ التشكيليِّ .

والحقُّ :

أن العمل الأدبيَّ من حيث هو بناءٌ لُغويٌّ : يتضمَّن إمكانات موسيقيَّة وأُخرى تشكيليَّة ؛ ولكن هذه الإمكانات فى اللغة وسيلة لا غاية ؛ قد يستفيد الأديب من الإيقاع والتجانُس الصوتيِّ وغيره من الزَّخارف الصوتيَّة التى يستطيع تحقيقها فى عمله الأدبيِّ ؛ ولكن يوم تُصبح هذه الأشياء هى كُلُّ مُهِمَّتِهِ ؛ فعندئذٍ لا يُمكن أن يُقال : إنه قد أنتج أدباً ؛ لأن الأدب شيءٌ غير الموسيقى . ويستفيد الأديب - بلا شَكٍّ - من الصُّور الحسيَّة التى يلجأ إليها لِيُحقِّق المشاعر والمعانى فى أشكالٍ ملموسةٍ مُؤثِّرة ؛ كما يحدث فى استخدامه للاستعارة مثلاً .

ولكن !! ؛ أين تقع هذه الصُّور الحسيَّة التى يُكوِّنها الأديب ؟

إنها فى الحقيقة لا تتمثَّل إلاَّ فى الخيال ؛ فحين يقول أبو تمَّام فى ممدوحه أنه :

رَقِيقُ حَوَاشِى الحِلْمِ ؛ لَو أنَّ حِلْمَهُ
بِكَفَّيْهِ مَا مَارَيْتُ فِى أَنَّهُ بُرْدُ

ويرسم لنا هذه الصورة الحسيَّة للحِلْم ؛ فإنه لم يرسم لنا صورةً تنهض أمام العين كما هو شأن المُصَوَّر ؛ ولكنها صورة تتمثَّل فى الخيال .

وكذلك لا يُمكن أن يقوم العمل الأدبىُّ على حَشْدٍ من هذه الصُّور مُستقلة ؛ كما لا يُمكن أن يقوم على حَشْدٍ من الزَّخارف الصوتيَّة .

أليس من الأفضل أن نقُول :

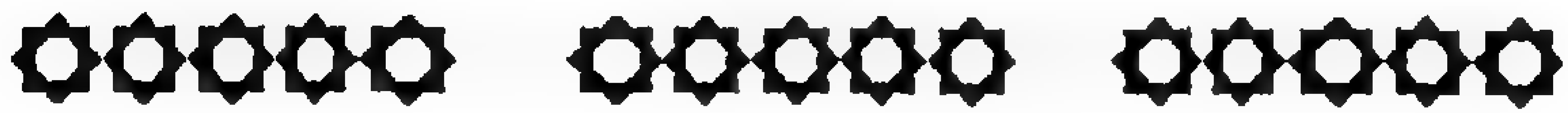
إنَّ العمل الأدبىَّ : بناءٌ لُغوىٌّ ؛ يستغلُّ كُلَّ إمكانات اللُّغة الموسيقيَّة والتصويريَّة والإيحائيَّة والدالة فى أن ينقل إلى المُتَلَقِّى خبرةً جديدةً مُنفعلة بالحياة ؟! .

ليس هذا بطبيعة الحال تعريفاً للأدب ؛ وإنما هو اقتراح لتعريف « العمل الأدبىّ » ؛ لأنَّ العمل الأدبىَّ هو الشىء القائم الملموس ؛ وهو ما يُمكن أن نتناوله بالدَّرس .

أما الأدب ؛ ذلك الشىء المُجَرَّد ؛ فما أولانا ألا نُتعب أنفسنا فى محاولة تعريفه .

وقد قُلنا فى سياق الكلام :

إن الأديب يستخدم اللغة استخداماً خاصّاً ؛ والواقع أن هذا لابُدَّ أن يكون بدهيّاً ؛ على الأقل من حيث أنَّ كُلَّ أديبٍ له شخصيَّته المُستقلة ؛ فيتبع ذلك أن تكون له لُغته الخاصة ؛ أو لِنَقُل : أسْلُوبه الخاص .





- تَمْهِيد :

فَنُّ المَقَامَة (١)



« هى نوعٌ من القصص الأدبيَّة القصيرة التى تعتمد على الخيال فى تأليف حوادثها ؛ وترمى إلى غايةٍ ؛ مثل :

١ـ تعليم اللغة .

٢ـ سرد الموعظة .

٣ـ وصف الأشياء .

٤ ـ نقد الأدب .

٥ ـ العناية بالعبارات الجزلة البديعة ؛ واشتقاقها من المقام ـ أى مكان القيام ـ .

وكل ذلك فى الخُطب والتكلُّم فى المحافل .

ثم قيل لما يُقال فيها من خُطبةٍ أو موعظةٍ : مقامة .

وقد ترقَّى هذا الفنُّ على يد بديع الزَّمان الهمذانىِّ [٣٩٥ هـ] ؛ إذ أنشأ مقاماته ونحلها أبا الفتح الإسكندرىَّ على لسان عيسى بن هشام .

---

(١) ـ انْظُر : « الأسلوب » للأُستاذ أحمد الشايب : (ص : ١١١ـ ١١٢) .

ثم تبعه الحريرىُّ [٥١٦ هـ] ؛ فأنشأ خمسين مقامة نحلها أبا زيد السروجىَّ على لسان الحارث بن همَّام .

ثـم تبعهمـا فيهـا الأُدبـاء علـى مَـرِّ العُصُور ؛ كالسيوطىِّ ؛ وابن الجـوزىِّ ؛ والقلقشندىِّ ؛ وغيرهم كثير ؛ وحتى أطلقها المُعاصرون على مقالات فُكاهيَّة عاميَّة نشرتها ولا تزال تنشرها بعض الصُّحُف الأسبوعيَّة فى النَّقْد والفُكاهة .

وقد تُرجمت مقامات الحريرىِّ إلى :

- اللاتينيَّة .
- الفرنسيَّة .
- الإنجليزيَّة .
- الألمانيَّة .
- الفارسيَّة .
- التُّركيَّة .

ولا تزال تُدرَّس فى الجامعات الأوربيَّة بشرح سلفستر دى ساسى الذى وضعه سنة ١٨٢٢م .

ويُمكن تمييز المقامات بما يلى :

١- أنها تدور فى الغالب على حادثٍ عادىٍّ واحدٍ يتكرَّر فيها ؛ فالبطل - كأبى الفتح الإسكندرىِّ فى مقامات البديع ؛ أو أبى زيد السـروجىِّ فى مقامـات

الحريرىّ ـ يبدو للرَّاوى مُتنكِّراً ؛ ثم يكون بينهما فى حوارٍ فى موضوعٍ ما ؛ وأخيراً يعرفه الراوى ؛ فكأنَّ السِّرَّ هو عرفان البطل بعدما كان مُتنكِّراً مجهولاً .

٢ـ وتتناول ـ موضوعيّاً ـ مسائل مُنوَّعة من :

ـ النقد الأدبىّ .

ـ والاجتماعىّ .

والدِّينىّ .

ـ والخُلقىّ .

ـ ثم العظات ؛ والفُكاهات ؛ والأوصاف ؛ والحكايات التى تُصوِّر كثيراً من خواص البيئات التى أُنشئت فيها ؛ كالمقامة القريضيَّة والعراقيَّة والأسديَّة لبديع الزمان .

٣ـ وعباراتها تقوم على الصنعة البديعيَّة ؛ من : سجع ؛ وجناس ؛ وازدواج ؛ وطباق ؛ ومُبالغة ؛ واستعارات ؛ على اختلاف بُعْدِ ذلك فى الإغراب اللغوىّ ؛ ودرجة التكلُّف .

فلا شَكَّ أن الحريرىَّ كان أكثر إغراباً وأشد تكلُّفاً ومُبالغةً من بديع الزمان .

٤ ـ يختلف الأسلُوب بعد ذلك بين : الوصف ؛ والقصص ؛ والحوار ؛ فيه : المديح ؛ والهجاء ؛ والجد ؛ والمجُون .

وهو ـ على صنعته ـ مُختلفٌ بين : الرِّقَّة واللين ؛ والجزالة والقوة ؛ وكثيراً ما تجد النوعين فى مقامةٍ واحدةٍ .

٥ ـ تجمع المقامات إلى هذا النَّثر الجَزِل البديعىّ قطفاً من نظم الرجز وغيره ؛ وليس المنظوم هذا فى روعة الشِّعر المُمتاز الذى نجده عند البُحترىّ والمُتنبِّى مثلاً ؛ فهو من إنشاء مُؤلِّفى المقامات ؛ وقد عرفت طبعهم الصناعىّ ؛ ووقوفهم عند غرائب المنثور .

وقد يَظُنُّ النَّاسُ أن المقامات من باب القِصَّة كما يعرفها الأدب الحديث ؛ والحَقُّ أن المقامات لا تثبت للقصة من كُلِّ ناحيةٍ ؛ نعم فيها : الحكاية ؛ والحوار ؛ والوصف ؛ والمغزى النقدىُّ ؛ أو الوعظىُّ ؛ ولكنَّها تنقصها أشياء أُخرى تُبعدها عن طبيعة القصة ؛ من ذلك : عدم التنويع فيها ؛ فالأشخاص لا يتغيَّرُون ؛ والحادثة واحدةٌ ؛ والحرص على المال سائدٌ فيها .

ومن ذلك : التجافى عن التحليل النَّفسىِّ ؛ أو عرض المشاكل وعلاجها ؛ أو الابتكار فى تصوير المواهب والأشخاص .

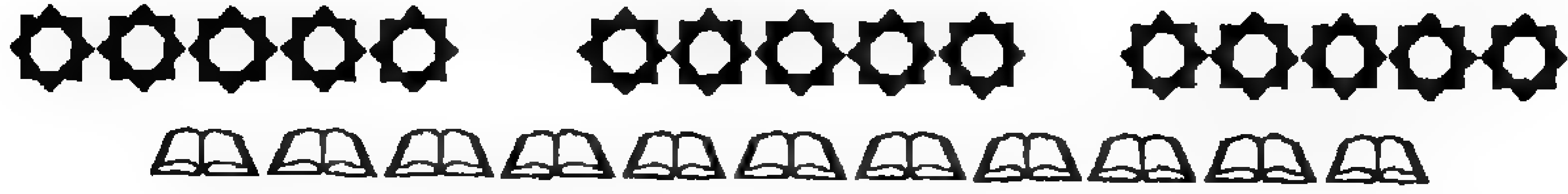
ومن ذلك : عدم استكمالها عُنصرى الحياة ـ الرَّجُل والمرأة معاً ـ بأُسلُوبٍ يبعث المشاكل ؛ أو يُثير العواطف ؛ أو يدرس المسائل الاجتماعيَّة .

على أن المواعظ ترد فيهم صريحةً مُباشرةً مقصودةً لذاتها .

وفوق ذلك :

فعندى أن أسلوبها فى صنعته وغرابته ؛ ليس أُسلُوب الرِّواية أو القصة التى تعنى بالموضوعات والأفكار التى تُهِمُّ القُرَّاء ؛ وحسبها أنها من هذه النَّاحية : مدرسةٌ لُغويَّةٌ أدبيَّةٌ ؛ وليس من اللازم أن نُورد هنا أمثلةً للمقامات ؛ ونعرض

لها بالشَّرح والتحليل ؛ فهى مشهورةٌ ذائعةٌ ؛ على أن المقام لا يتسع هنا لمثل ذلك. » .أهـ .



ـ فَـائِـدة :

❁ ـ فَنُّ المَقَامَـة

ـ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ زَكِى مُبَارَك وَأَحْمَد أمِين



جَاءَ فى كتـاب « المعـارك الأدبيَّة » للأُستاذ أنور الجنـدى ما يلى :

« ـ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ زَكِى مُبَارَك وَأَحْمَد أمِين

كتب أحمد أمين مجموعة مقالات فى مجلة الثقافة تحت عنوان « جناية الأدب الجاهلىِّ على الأدب العربىِّ ».[٩ و٢٣ مايو ١٩٣٩ ؛ و٤ يونيه ١٩٣٩ ؛ و٤ و١٥ أغسطس ١٩٣٩]ـ .

ثُمَّ كتب تحت عنوان « أدب الرُّوح وأدب المعدة » مقالاً فى ٦ يونيه ١٩٣٩ .

وفى ١٢ يونيه ١٩٣٩ فاجأت مجلة الرِّسَالة قُـرَّائها باستهلالٍ لسلسلةٍ من المقالات العنيفة فى الرَّدِّ على أحمد أمين بقلم الدُّكتور زكى مبارك تحت عنوان « جنايةأحمد أمين على الأدب العربىِّ » .

وقد اتّصلت هذه المقالات حتى ١٣ نوفمبر ١٩٣٩ ـ أى أنها استمرّت ستة شهور ؛ وبلغت ٢٢ مقالة . .

ولم يشترك أحمد أمين فى المعركة على نحوٍ سافرٍ مما يُمكن معه أن يُطلق على هذا السِّجَال اسم : معركة ؛ وإن اشترك فيها بعض الباحثين ؛ أمثال : عبد الوهاب عزّام ؛ وعبد المتعال الصعيدى . » .

.....

« ويرُد على قول أحمد أمين : (إن أدب المقامات : أدب معدة) :

إن احتقار المعدة لا يقوم على أساسٍ من الواقع ؛ ولا من المنطق ؛ وإنما هو مُجَاراة للعوام الذين يصعب عليهم أن يُدركوا أن النفس تتبع الجسم فى : الصِّحَّة والمرض ؛ والقُوَّة والضعف ؛ والنَّشاط والخُمول ؛ ويعسُر عليهم أن يفهموا أن الإنسان يرى المعنويّات والمحسوسات بأشكالٍ مُختلفةٍ فى وُجُوهٍ مُتباينةٍ تبعاً لاختلاف : الذَّوق ؛ والحِس ؛ والمِزَاج . » .

« ... ؛ يقول أحمد أمين :

« ثُمَّ انظر بعد إلى الفَنِّ المُبتكر فى العصر العبَّاسىِّ ؛ وهو فَنُّ المقامات ؛ فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذانىُّ ؛ فلم يجعل محورها حُبّاً ولا غراماً كما يفعل الرِّوائيُّون ؛ ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الرُّوح ؛ ولكنَّها كلها (أدب معدة) ؛ فأبو الفتح الإسكندرىُّ بطل المقامات كلها : رَجُلُ مكرٍ واحتيالٍ ؛ يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال ؛ تراه مرَّةً قَرَّاداً يُسَلِّى الناس

ويُضحكهم ؛ ومرَّةً واعظاً مُزيِّفاً يعظ وينصح ؛ ثم تتكشَّف حيله ؛ فإذا هو مُهرِّجٌ !! .

وجاء الحريريُّ ؛ فجعل مكان أبى الفتح الإسكندرىِّ أبا زيد السروجىَّ : وهو كصاحبه دناءة نفسٍ وخساسة حرفةٍ . »» .

أبهذه الجرأة يحكم أحمد أمين على فَنِّ المقامات؟!! .

يُلاحظ أوَّلاً أن أحمد أمين لم يفهم أغراض الحريرىِّ وبديع الزَّمان ؛ فهو يتوهَّم أنهما يُحاولان إغراء الجماهير بالإقبال على ما فى تلك المقامات من شمائلٍ وخصالٍ ؛ بينما الغرض من تعلُّم المقامات عند بديع الزَّمان : هو نقد الحياة الاجتماعيَّة والأدبيَّة فى القرن الرَّابع .

وغفل أحمد أمين أن للفنِّ غايةً أُخرى ؛ وهى النظريَّة التى تقول : بأن للفن والأدب غايةً أصيلةً ؛ هى الصدق فى وصف ما ترى العُيُون ؛ وما تُحَسُّ القُلُوب ؛ وما تُدْرِك العُقُول .

ثُمَّ يقول :

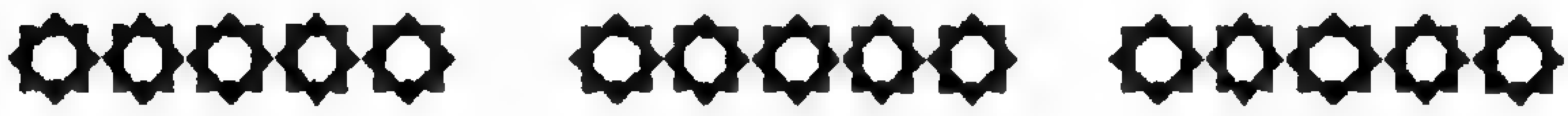
هل يُطلب من الكاتب ألا يغفل وصف الطُّفيليين لئلا يُقال : إن أدبه أدب معدة .

أتُحِبُّون أن تعرفوا من أين وصل الخطأ إلى الأستاذ أحمد أمين؟!!

وصل إليه الخطأ من التلمذة للأُستاذ الكبير طه حسين !! ؛ فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسىَّ عصر شَكٍّ ومجُونٍ ؛ لأن فيه عصابةً مشهورةً بالزَّيع والفسق ؛ وهى جماعة أبى نُواس ومُطيع بن إياس .

مع أن العصر الذى عرف أمثال هذين الرَّجُلين ؛ هو نفس العصر الذى نبغ فيه كبار الفُقهاء والنُّسَّاك والزُّهَّاد ؛ وهو الذى بلغ فيه الفكر العربىُّ غاية

الغـايات فى فهـم أصُول الفلسفـة وَأُصُول الأخلاق . ﴾ . أ هـ . (١) .





(١) ـ ((المعارك الأدبيَّة)) : أحمد أنور سيِّد أحمد الجندى (المتوفى : ١٤٢٢هـ) :

(ص : ٢٤١) ؛ (ص : ٢٤٢ ـ ٢٤٣) ؛ (ص : ٢٤٧ ـ ٢٥١) .

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

❁ـ مَقَامَات بَدِيعِ الزَّمَان الهَمَذَانِيّ
(ت سَنَة ٣٩٨هـ)

.....

ـ التَّعْرِيفُ بِالرَّجُل :

❁ـ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ

١ـ اسْمُهُ ؛ وكُنْيَتُهُ ؛ ولَقَبُهُ ؛ ونِسْبَتُهُ :

قَالَ ياقُوت الحمويُّ فِي « مُعْجَم الأُدَبَاء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٤) :

« قال أبو شجاع شيرويه بن شهردار فى ‹ تاريخ همذان › : إن أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر ؛ أبا الفضل ؛ المُلَقَّب ببديع الزمان .... » .

٢ـ مَوْلِدُهُ :

فِي « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٥) :

« وُلِدَ فى ثالث عشر جمادى الآخرة ؛ سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » .

قُلْتُ : وكان مولدهُ ببلدة همذان

قَالَ يَاقُوت فى « مُعجم البُلدان » ؛(جـ ٥/ ٤١٠ ـ ٤١٧) ـ باختصار ـ :

« ـ هَمَذَان :

بالتحريك ؛ والذال مُعجمة ؛ وآخره نون : فى الإقليم الرَّابع ؛ وطولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة ؛ وعرضها ستٌّ وثلاثون درجة .

قال هشام بن الكلبىُّ : همذان سُمِّيَت بهمذان بن الفلّوج بن سام بن نوح ـ عليه السَّلام ـ ؛ وهمذان وأصبهان أخوان بنى كُلُّ واحدٍ منهما بلدة ؛ وَوُجِدَ فى بعض كُتُبِ السريانيين فى أخبار الملوك والبُلدان : إن الذى بنى همذان يُقال له كرميس بن حليمون ؛ وذكر بعض علماء الفُرس : أن اسم همذان إنما كان نادمه ومعناه المحبوبة ؛ وروى عن شُعبة أنه قال : الجبال عسكر وهمذان معمعتها ؛ وهى أعذبها ماءً وأطيبها هواءً ؛ وقال ربيعة بن عثمان : كان فتح همذان فى جُمادى الأولى على رأس ستة أشهرٍ من مقتل عمر بن الخطّاب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ ؛ وكان الذى فتحها المُغيرة بن شُعبة فى سنة ٢٤ من الهجرة ؛ وفى آخر : وَجَّهَ المُغيرة بن شُعبة وهو عامل عمر بن الخطّاب على الكوفة بعد عزل عمَّار بن ياسر عنها جرير بن عبد الله البجلىَّ إلى همذان فى سنة ٢٣ ؛ فقاتله أهلها ؛ وأُصيبَت عينه بسهم ؛ فقال : أحتسبها عند الله الذى زَيَّنَ بها وجهى ونوَّر لى ما شاء ثم سلبنيها فى سبيله ؛ وجرى أمر همذان على مثل ما جرى عليه أمر نهاوند ؛ وذلك فى آخر سنة ٢٣ ؛ وغلب على أرضها قسراً ؛ وضمَّها المُغيرة إلى كثير بن شهاب والى الدينور ؛ وإليه يُنسب قصر كثير فى نواحى الدينور ؛ وقال بعض عُلماء الفُرس : كانت همذان أكبر

مدينة بالجبال ؛ وكانت أربعة فراسخ فى مثلها ؛ طولها من الجبل إلى قريةٍ يُقال لها زينوآباذ ؛ وكان صنف التجار بها وصنف الصيارف بسنجاباذ ؛ وكان القصر الخراب الذى بسنجاباذ تكون فيه الخزائن والأموال ؛ وكان صنف البَزَّازين فى قريةٍ يُقال لها برشيقان ؛ فيُقال إن بخت نصَّر بعث إليها قائداً يُقال له صقلاب فى خمسمائة ألف رَجُلٍ ؛ فأناخ عليها ؛ وأقام يُقاتل أهلها مُـدَّةً وهو لا يقدر عليها ؛ فلما أعيته الحيلة فيها وعزم على الانصراف استشار أهله ؛ فقالوا : الرأى أن تكتب إلى بخت نصَّر وتُعلمه أمرك وتستأذنه فى الانصراف ؛ فكتب إليه :

أمَّـا بعـدُ ؛ فإنى وردت علـى مدينـةٍ حصـينةٍ ؛ كثيرة الأهل ؛ منيعة ؛ واسـعة الأنهار ؛ ملتفة الأشجار ؛ كثيرة المُقاتلة ؛ وقد رُمْتُ أهلها فلـم أقـدر عليهـا ؛ وضجر أصحابى المقام ؛ وضاقت عليهم المِيرَة والعلوفة ؛ فإن أذن لى الملك بالانصراف فقد انصرفت .

فلما وصل الكتاب إلى بخت نصَّر كتب إليه :

أمَّا بعد ؛ فقد فهمت كتابك ؛ ورأيت أن تُصوِّر لى المدينة بجبالها وعيونها وطرقها وقُراها ومنبع مياهها ؛ وتُنفذ إلىَّ بذلك حتى يأتيك أمرى .

ففعل صقلاب ذلك ؛ وصوَّر المدينة ؛ وأنفذ الصورة إليه وهو ببابل ؛ فلما وقف عليه جمع الحكماء وقال : أجيلوا الرأى فى هذه الصورة ؛ وانظروا من أين تُفتح هذه المدينة ؛ فأجمعوا على أن مياه عيونها تُحبس حولاً ثم تُفتح وتُرسل على المدينة ؛ فإنها تغرق .

فكتب بخت نصَّر إلى صقلاب بذلك ؛ وأمره بما قاله الحُكماء ؛ ففتح ذلك الماء بعد حبسه وأرسله على المدينة ؛ فهدم سُورها وحيطانها وغرق أكثر أهلها ؛ فدخلها صقلاب وقتل المُقاتلة وسبى الذريَّة ؛ وأقام بها ؛ فوقع فى أصحابه الطاعون ؛ فمات عامتهم حتى لم يبق منهم إلا قليل ؛ وَدُفِنُوا فى أحواضٍ من خزفٍ ؛ فقبورهم معروفةٌ توجد فى المحالِّ والسِّكك إذا عمروا دورهم وخرَّبوا ؛ ولم تزل همذان بعد ذلك خراباً ؛ حتى كانت حرب دارا بن دارا والإسكندر ؛ فإن دارا استشار أصحابه فى أمره لَمَّا أظلَّهُ الإسكندر ؛ فأشاروا عليه بِمُحاربته بعد أن يُحرز حرمه وأمواله وخزائنه بمكانٍ حريزٍ لا يُوصل إليه ويتجرَّد هو للقتال ؛ فقال : انظروا موضعاً حريزاً حصيناً لذلك ؛ فقالوا له : إن من وراء أرض الماهين جبالاً لا تُرام ؛ وهى شبيهةٌ بالسند ؛ وهُناك مدينةٌ منيعةٌ عتيقةٌ قد خربت وبارت وهلك أهلها وحولها جبالٌ شامخةٌ يُقال لها همذان ؛ فالرأى للملك أن يأمر ببنائها وإحكامها ؛ وأن يجعل فى وسطها حصناً يكون للحرم والخزائن والعيال والأموال ؛ ويبنى حول الحصن دور القُوَّاد والخاصة والمرازبة ؛ ثم يُوكل بالمدينة اثنى عشر ألف رَجُلٍ من خاصَّة الملك وثقاته يحمونها ويُقاتلون عنها من رامها .

قال : فأمر دارا ببناء همذان ؛ وبنى فى وسطها قصراً عظيماً مُشرفاً له ثلاثة أوجهٍ وسمَّاه (ساروقا) ؛ وجعل فيه ألف مخبإٍ لخزائنه وأمواله ؛ وأغلق عليه ثمانية أبواب حديد ؛ كل بابٍ فى ارتفاع اثنى عشر ذراعاً ؛ ثم أمر بأهله وولده

وخزائنه فحوِّلوا إليها وأُسْكِنُوها ؛ وجعل فى وسط القصر قصراً آخر صيَّر فيه خواص حرمه وأحرز أمواله فى تلك المخابىء ؛ ووكَّلَ بالمدينة اثنى عشر ألفاً وجعلهم حُرَّاساً .

وحكى بعض أهل همذان عنها مثل ما حكيناه أوَّلاً عن بخت نصَّر : من حبس الماء وإطلاقه على البلد حتى خرَّبه وفتحه ؛ والله أعلم .

ويُقال : إنَّ أوَّلَ من بنى همذان جم بن نوجهان بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح ـ عليه السَّلام ـ ؛ وسمَّاها : سارو ؛ ويُعرَّب فيُقال : ساروق ؛ وحصَّنها بهمن بن إسفنديار ؛ وإن دارا وجد المدينة حصينة المكان دارسة البناء ؛ فأعاد بناءها ؛ ثم كثُرَ الناس بها فى الزمان القديم حتى كانت منازلها تُقدَّر بثلاثة فراسخ ؛ وكان صنف الصاغة بها بقرية سنجاباذ ؛ واليوم تلك القرية على فرسخين من البلد .

قال شيرويه فى أخبار الفرس بلسانهم :

سارو جم كرد دارا كمر بست بهمن إسفنديار بسر آورد ؛ معناه : بنى الساروق جم ؛ ونطَّقه دارا ؛ أى : سوَّره وعمَّم عليه سُوراً واستتمَّه وأحسنه بهمن بن إسفنديار .

وذكر أيضاً بعض مشايخ همذان أنها أعتق مدينةٍ بالجبل ؛ واستدلُّوا على ذلك من بقيَّة بناءٍ قديمٍ باقٍ إلى الآن ؛ وهو طاقٌ جسيمٌ شاهقٌ لا يُدرى من بناه ؛ وللعامَّة فيه أخبارٌ عاميَّةٌ ؛ ألغينا ذكرها خوف التُّهمة .

قال المُؤلِّف : ولا شَكَّ عند كُلٍّ من شاهد همذان : بأنها من أحسن البلاد ؛ وأنزهها ؛ وأطيبها ؛ وأرفهها ؛ وما زالت محَلاً للملوك ومعدناً لأهل الدين والفضل ؛ إلاَّ أن شتاءها مُفرط البرد ؛ بحيث قد أُفرِدَت فيه كُتُبٌ !! ؛ وَذُكِرَ أمره بالشِّعْرِ والخُطَب !! ؛ وسنذكر من ذلك مُناظرةً جرت بين رَجُلٍ من أهل العراق يُقال له : عبد القاهر بن حمزة الواسطىّ ؛ وَرَجُلٍ من همذان يُقال له الحُسين بن أبى سرح فى أمرها ؛ فيه كفايةٌ ؛ قالوا :

وكانا كثيراً ما يلتقيان ؛ فيتحادثان الأدب ويتذاكران العلم ؛ وكان عبد القاهر لا يزال يَذُمُّ الجبل وهواءه وأهله وشتاءه ؛ لأنه كان رَجُلاً من أهل العراق ؛ وكان ابن أبى سرح مُخالفاً له كثيراً ؛ يَذُمُّ العراق وأهله ؛ فالتقيا يوماً عند محمد ابن إسحاق الفقيه ؛ وكان يوماً شاتياً صادق البرد كثير الثلج ؛ وكان البرد قد بلغ من عبد القاهر مبالغه !! ؛ فلمَّا دخل وسلَّم ؛ قال : لعن الله الجبل ولعن ساكنيه !! ؛ وخصَّ الله همذان من اللعن بأوفره وأكثره !! ؛ فما أكدر هواءها !! وأشد بردها وأذاها !! ؛ وأشد مؤونتها !! ؛ وأقلَّ خيرها !! ؛ وأكثر شرَّها !! ؛ فقد سَلَّطَ الله عليها الزمهرير الذى يُعذَّبُ به أهل جهنم ؛ مع ما يحتاج الإنسان فيها من الدِّثار والمؤن المُجحفة !! ؛ فوجوهكم يا أهل همذان مائلة ؛ وأنوفكم سائلة ؛ وأطرافكم خصرة ؛ وثيابكم مُتَّسِخَة ؛ وروائحكم قذرة ؛ ولحاكم دُخانيَّة ؛ وسبلكم منقطعة ؛ والفقر عليكم ظاهر ؛ والمستور فى بلدكم مهتوك : لأن شتاءكم يهدم الحيطان ؛ ويُبرز الحَصَان ؛ ويُفسد الطُّرُق ؛ ويُشَعِّث الآطام ؛ فطُرقكم وحلة تتهافت فيها الدواب ؛ وتتقذَّر فيها الثياب ؛ وتتحطَّم

الإبل ؛ وتخُسف فيها الآبار ؛ وتفيض المياه ؛ وتكف السطوح ؛ وتهيج الرياح العواصف ؛ وتكون فيها الزلازل والخسوف والرعود والبروق والثلوج والدّمق ؛ فتنقطع عند ذلك السُّبُل ؛ ويكثر الموت ؛ وتضيق المعايش ؛ فالناس فى جبلكم هذا فى جميع أيّام الشتاء يتوقّعون العذاب ؛ ويخافون السُّخْطَ والعقاب ؛ ثم يُسَمُّونه العدو المُحاصِر والكَلْب الكَلِب ؛ ولذلك كتب عمر بن الخطّاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إلى بعض عُمّاله : إنه قد أظلّكم الشتاء ؛ وهو العدو المُحاصِر ؛ فاستعدوا له الفراء ؛ واستنعلوا الحذاء .

فالشتاء يهدم الحيطان !! ؛ فكيف الأبدان ؟!! ؛ لا سيّما شتاؤكم الملعون !! ؛ ثم فيكم أخلاق الفُرس ؛ وجفاء العلوج ؛ وبخُل أهل أصبهان ؛ ووقاحة أهل الرّى ؛ وفدامة أهل نهاوند ؛ وغلظ طبع أهل همذان ؛ على أن بلدكم هذا أشد البُلدان برداً ؛ وأكثرها ثلجاً ؛ وأضيقها طُرقاً ؛ وأوعرها مسلكاً ؛ وأفقرها أهلاً ؛ وكانُ يقال : أبرد البُلدان ثلاثة : برذعة ؛ وقاليقلا ؛ وخوارزم ؛ وهذا قول من لم يدخل بلدكم ولم يشاهد شتاءكم !! .

وقد حدّثنى أبو جعفر محمد بن إسحاق المُكتّب ؛ قال : لمّا قدم عبد الله بن المبارك همذان ؛ أُوقدت بين يديه نار ؛ فكان إذا سخن باطن كَفّه أصاب ظاهرها البرد ؛ وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد !! .

ثم التفت إلى ابن أبى سرح ؛ وقال : يا أبا عبد الله ! ؛ وهذا والدك يقول :

النَّـارُ فِى هَمَذَانَ يَبْرُدُ حَرُّهَا

وَالبَرْدُ فِى هَمَذَانَ دَاءٌ مُسْقِمُ (١).

قالوا : ومن عجائب همذان : صورة أسدٍ من حَجَرٍ على باب المدينة ؛ يُقال إنه طلسمٌ للبرد من عمل بليناس صاحب الطلسمات حين وجَّهَهُ قباذ ليطلسم آفات بلاده ؛ ويُقال إن الفارس كان يغرق بفرسه فى الثلج بهمذان لكثرة ثلوجها وبردها !! ؛ فلمَّا عمل لها هذا الطلسم فى صورة الأسد قلَّ ثلجها وصلح أمرها ؛ وعمل أيضاً على يمين الأسد طلسماً للحيَّات وآخر للعقارب فنقصت ؛ وآخر للغرق فأمنوه ؛ وآخر للبراغيث فهى قليلة جدًّا بهمذان ؛ ولمَّا عمل بليناس هذه الطلسمات بهمذان استهان بها أهلها ؛ فاتخذ فى جبلهم الذى يُقال له أروند طلسماً مُشرفاً على المدينة للجفاء والغلظ ؛ فهم أجفى الناس وأغلظهم طبعاً !! ؛ وعمل طلسماً آخر للغدر ؛ فهم أغدر الناس ؛ فلذلك حوَّلت الملوك الخزائن عنها خوفاً من غدر أهلها ؛ واتخذ طلسماً آخر للحروب ؛ فليست تخلو من عسكرٍ أو حربٍ .

وقال البديع الهمذانىُّ فيها :

هَمَذَانُ لِى بَلَـدٌ أَقُولُ بِفَضْلِهِ

... ؛ لَكِنَّـهُ مِن أَقْبَحِ البُـلْدَانِ

(١) ـ عِنْدَ هَذَا المَوْضِعِ رَأَيْنَا أَنْ نَقِف ؛ إِذ هَذَا هُوَ مَا نَحْتَاجُهُ مِن أَمْرِ هَذِهِ المُنَاظَرَةِ الطَّرِيفَة .

صِبْيَانُهُ فِي القُبْحِ مِثْلُ شُيُوخِهِ
وَشُيُوخُهُ فِي العَقْلِ كَالصِّبْيَانِ ». أهـ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ:

٣ـ مَوْطِنُهُ الَّذِى اسْتَقَرَّ بِهِ :

فِى « مُعجم الأدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٤) :

« قال أبو شُجاع شيرويه بن شهردار فى (تاريخ همذان) : سكن هراة » .

قُلْتُ : وَإِلَيْكَ الحديث عن مَاهِيَّةِ هذهِ المدينة :

قَالَ يَاقُوت فِى « مُعجم البُلدان » ؛ (جـ ٥ / ٣٩٦ ـ ٣٩٧) ـ باختصار ـ :

« هَرَاةُ :

بالفتح : مدينةٌ عظيمةٌ مشهورةٌ ؛ من أمَّهات مُدُن خراسان ؛ لم أر بخراسان عند كونى بها فى سنة ٦٠٧ مدينةً أجلَّ ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها !! ؛ فيها بساتينٌ كثيرةٌ ؛ ومياهٌ غزيرةٌ ؛ وخيراتٌ كثيرةٌ ؛ محشُوَّةٌ بالعُلماء ؛ ومملوَّةٌ بأهل الفضل والثراء .

وقد أصابها عين الزمان ؛ ونكبتها طوارق الحدثان ؛ وجاءها الكُفَّار من التتر ؛ فخرَّبوها حتى أدخلوها فى خبر كان !! ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ؛ وذلك فى سنة ٦١٨ .

قال الرَّهنى : إن مدينتها بُنِيت للإسكندر ؛ وذلك أنه لَمَّا دخل الشرق ومرَّ بها إلى الصين ؛ وكان من عادته أن يُكلِّفَ أهل كُلِّ بلدٍ ببناء مدينةٍ تحصِّنهم من

الأعداء ؛ فيُقدِّرها ويُهندسها لهم ؛ وأنه أُعْلِمَ أن فى أهل هراة شِمَاساً وقلّة قبولٍ ؛ فاحتال عليهم ؛ وأمرهم أن يبنوا مدينةً ويُحكموا أساسها ؛ ثم خَطَّ لهم طولها وعرضها وسُمك حيطانها وعدد أبراجها وأبوابها ؛ واشترط لهم أن يُوفِّيهم أجورهم وغراماتهم عند عوده من ناحية الصين ؛ فلما رجع من الصين ونظر إلى ما بنوه ؛ عابه وأظهر كراهيته ؛ وقال : ما أمرتكم أن تبنوا هكذا ؛ فردَّ بناءهم عليهم بالعيب ولم يُعطهم شيئاً .

ونُسِبَ إليها خلقٌ من الأئمة والعُلماء ؛ منهم :

ـ الحُسَيْن بن إدريس بن المُبارك بن الهيثم بن زياد ؛ أبو عليٍّ الأنصاريُّ ؛ مولاهم ؛ الهرويُّ ؛ أحد مشهورى المُحدِّثين بهراة : سمع بدمشق هشام بن عمَّار ؛ وسمع ببغداد عثمان بن أبى شيبة ؛ وغيره خلقاً كثيراً ؛ وروى عنه جماعةٌ كثيرةٌ ؛ منهم حاتم بن حبَّان .

وقال الدَّارقطنيُّ :

الحُسَيْنُ بن حزم ؛ وأخوه يوسف بن حزم ؛ الهرويَّان ؛ يُنسبان إلى الأنصار ؛ واسم أبيهما : إدريس ؛ ولقبه : حزم ؛ وللحسين كتابٌ صنَّفهُ فى التاريخ على حروف المعجم نحو كتاب البُخاريِّ الكبير ؛ ذكر فيه حديثاً كثيراً وأخباراً ؛ وكان من الثقات ؛ ومات سنة ٣٠١ .» .

٤ـ شُيُوخُهُ :

فِى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٤) :

« قال أبو شجاع شيرويه بن شهردار فى (تاريخ همذان) : إن أحمد بن الحسين ... ؛ المُلقَّب ببديع الزمان ... ؛ روى عن : أبى الحُسَيْن أحمد بن فارس ابن زكريا ؛ وعيسى بن هشام الأخبارىّ » .

وَفى هذا المصدر أيضاً ؛ (ج ١ / ٢٣٥ ـ ٢٣٦) :

« وقد درس على أبى الحُسين بن فارس ؛ وأخذ عنه جميع ما عنده ؛ واستنفد علمه » .

قُلْتُ : هَكَذَا ذُكِرَ أنَّ ابن فارس كان من شيوخه ؛ بل كان أبرز شيوخه ؛ وَإِذَا كان ذلك كذلك ؛ فلابُدَّ من حديثٍ عن هذا الرَّجُل :

ترجم لهُ عبد أبو منصور الثعالبىُّ « ت ٤٢٩هـ » فى « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ؛ (جـ ٣/ ٤٦٣ ـ ٤٧٠) ـ باختصار ـ :

« ـ أبو الحُسَيْن أحمد بن فَارس بن زَكَرِيَّا ؛ المُقِيم ؛ كَانَ بهمذان ؛ من أعْيَان العلم ؛ وأفراد الدَّهْر ؛ يجمع : إتقان العُلمَاء ؛ وظرف الكُتَّاب وَالشُّعرَاء .

وَهُوَ بِالْجَبَلِ : كَابْن لنكك بالعراق ؛ وَابْن خالويه بِالشَّام ؛ وَابْن العلاَّف بِفَارِس ؛ وَأبى بكر الخَوَارِزْمِىّ بخُراسان ؛ وَله كُتُبٌ بديعةٌ ؛ ورسائلُ مُفيدةٌ ؛ وأشعارٌ مليحةٌ ؛ وتلامذةٌ كَثِيرَةٌ ؛ مِنْهُم : بديع الزَّمَان .

وَأنا أكتب من رِسَالَةٍ لأبى الحُسَيْن كتبهَا لأبى عَمْرو مُحَمَّد بن سعيد الكَاتِب فصلاً فِى نِهَايَة الملاحة يُنَاسب كتابى هَذَا فِى محَاسِن أهل العَصْر ؛ ويتضمَّن أنموذجاً من مُلَحِ شُعراء الجَبَل وَغَيرهَا من العصريين وظرف

أخبارهم ؛ كَأبى مُحَمَّد القزْوِينِىّ ؛ وَابْنِ الرياشىّ ؛ والهمذانىّ الْمُقِيم بشيراز ؛ وَابن الْمَنَاوِىّ ؛ وَأبى عبد الله المغسلىّ المراغىّ ؛ وَغيرهم ؛ ثُمَّ أُورِدُ مَا وَقع إِلَىَّ من مُلَحِ أبى الْحُسَيْن إِن شَاءَ الله تَعَالَى .

ـ الْفَصْل من الرسَالَة الْمَذْكُورَة :

أَلهمك الله الرَّشاد ؛ وأصحبك السَّداد ؛ وجنَّبك الْخلاف ؛ وحبَّبَ إِلَيْكَ الإِنْصَاف ؛ وَسَبَبُ دُعائى بِهَذَا لَك : إنكارك على أبى الحسن مُحَمَّد بن عَلىّ العجلِىّ تأليفه كتاباً فِى الحماسة ؛ وإعظامك ذَلِك ؛ وَلَعَلَّه لَو فعل حَتَّى يُصيب الغَرَض الَّذِى يُريدهُ ؛ وَيَرِد المنهل الَّذِى يَؤُمُّهُ ؛ لاستدرك من جيِّد الشِّعْر ونقيِّه ومُختاره ورضيِّه كثيراً مِمَّا فَاتَ الْمُؤَلِّف الأَوَّل ؛ فَمَاذَا الإِنْكَار ؟!! وَلِمَ هَذَا الإعتراض ؟!! وَمن ذَا حظر على الْمُتَأَخِّر مُضادة الْمُتَقَدِّم ؟!! ولمه تَأْخُذ بقول من قَالَ : مَا ترك الأول للآخر شَيْئاً ؛ وَتَدَع قَول الآخر : كم ترك الأول للآخر ؟!! ؛ وَهل الدُّنيَا إِلاَّ أزمان ؛ وَلكُلِّ زمَان مِنْهَا رجال ؟!! ؛ وَهل الْعُلُوم بعد الأُصُول المحفوظة إِلاَّ خطرات الأوهام ونتائج الْعُقُول ؟!! ؛ وَمن قَصَرَ الآدَاب على زمَانٍ مَعْلُوم ؛ ووقفها على وَقتٍ مَحْدُودٍ ؟!! ؛ ولِمَ لا ينظر الآخر مثل مَا نظر الأَوَّل حَتَّى يُؤَلِّف مثل تأليفه ؛ وَيجمع مثل جمعه ؛ وَيرى فِى كل ذَلِك مثل رَأْيه ؟!! ؛ وَمَا تَقول لفُقهاء زَمَانِنَا إِذا نزلت بهم من نَوَادِر الأَحْكَام نازلةٌ لم تخطر على بَال من كَانَ قبلهم ؟!! ؛ أَو مَا علمت أن لكُلِّ قلبٍ خاطراً ؛ وَلكُلِّ خاطرٍ نتيجة ؟!! ؛ ولمه جَازَ أن يُقَال بعد أبى تَمَّام مثل شعره ؛ وَلم يجُز أن يُؤَلِّف مثل تأليفه ؟!! ؛ ولمه حجرت وَاسعاً ؛ وحظرت

مُبَاحاً ؛ وَحرَّمت حَلالاً ؛ وسددت طَرِيقاً مسلوكاً ؟!! ؛ وَهل حبيبٌ إلاَّ وَاحِدٌ من الْمُسلمين لَهُ مَا لَهُم وَعَلَيْهِم مَا عَلَيْهِم ؟!! ؛ وَلم جَازَ أَن يُعَارض الْفُقَهَاء فِي مؤلفاتهم ؛ وَأهل النَّحْو فِي مصنفاتهم ؛ والنُّظَّار فِي موضوعاتهم ؛ وأرباب الصناعات فِي جَمِيع صناعاتهم ؛ وَلم يجز مُعَارضَة أبي تَمَّام فِي كتابٍ شَذَّ عَنهُ فِي الأَبْوَاب الَّتِي شرعها فِيهِ أمرٌ لا يُدْرك وَلا يُدْرى قدره؟!! ؛ وَلَو اقْتصرَ النَّاسُ على كُتُبِ القُدماء ؛ لضاع علمٌ كثيرٌ ؛ ولذهب أدبٌ غزيرٌ ؛ ولضلَّت أفهامٌ ثاقبةٌ ؛ وَلَكَلَّت أَلْسُنٌ لَسِنَةٌ ؛ وَلَمَّا توشَّى أحدٌ الخطابة ؛ وَلا سلك شِعْبَاً من شِعَابِ البلاغة ؛ وَلَمجَّت الأسماع كُلَّ مُردَّدٍ مُكرَّرٍ ؛ وللفظت القلوب كل مُرَجَّعٍ مُمضَّغٍ .

... ؛ وَهَذِه مُلَحٌ من شعر أبي الْحُسَيْن بن فَارس :

مِنهَا قَوْله فِي الشّكوى :

سَقَى هَمَذَانَ الغَيْثُ لَسْتُ بِقَائِلٍ
سِوَى ذَا وَفِي الأَحْشَاءِ نَارٌ تَضَرَّمُ
وَمَا لِيَ لا أُصفِي الدُّعَاءَ لِبَلْدَةٍ
أَفَدتُ بهَا نِسْيَانَ مَا كُنْتُ أَعْلَمُ ؟!!
نَسِيتُ الَّذِي أَحْسَنْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي
مَدِينٌ وَمَا فِي جَوْفِ بَيْتِيَ دِرْهَمُ !!

وَقوله :

وَقَالُوا كَيْفَ حَالُكَ قُلْتُ خَيْرٌ
تُقَضَّى حَاجَةٌ ؛ وَتَفُوتُ حَاجُ
إِذَا ازْدَحَمَت هُمُومُ الصَّدْرِ قُلْنَا
عَسَى يَوْمَاً يَكُونُ لَهَا انْفِرَاجُ
نَدِيمِى هِرَّتِى ؛ وَأَنِيسُ نَفْسِى
دَفَاتِرُ لِى ؛ وَمَعْشُوقِى السِّرَاجُ

وَقوله :

اسْمَع مَقَالَةَ نَاصِحٍ
جَمَعَ النَّصِيحَةَ وَالمِقَهْ
إِيَّاكَ وَاحْذَرْ أَن تَبِيتَ مِنَ الثِّقَاتِ عَلَى ثِقَهْ

وَقوله :

إِذَا كُنْتَ فِى حَاجَةٍ مُرْسِلاً ؛ وَأَنْتَ بِهَا كَلِفٌ مُغْرَمُ
فَأَرْسِل حَكِيماً وَلا تُوصِهِ وَذَاكَ الْحَكِيمُ هُوَ الدِّرْهَمُ

وَقوله :

عَتَبْتُ عَلَيْهِ حِينَ سَاءَ صَنِيعُهُ وَآلَيْتُ لا أَمْسَيْتُ طَوْعَ يَدَيْهِ
فَلَمَّا خَبِرْتُ النَّاسَ خُبْرَ مُجَرِّبٍ وَلَم أَرَ خَيْراً مِنْهُ عُدتُ إِلَيْهِ

أخذه من قَول القَائِل :

عَتَبْتُ عَلَى سَلْمٍ ؛ فَلَمَّا هَجَرْتُهُ
وَجَرَّبْتُ أَقْوَامَاً ؛ رَجَعْتُ إِلَى سَلْمٍ . » .

وفى « المُسْتَفَاد مِن تَارِيخ بَغْدَاد » لابْنِ الدُّمْيَاطِيِّ ؛ [جـ ٢١ / ٤٦ ؛ رَقَمُ التَّرْجَمَة : ٤٣] :

« قال : كان الصاحب بن عبَّاد يقول : شيخنا أبو الحسين بن فارس : رُزِقَ التصنيف ؛ وَأَمِنَ من التصحيف .

وله من التصانيف :

- المجمل فى اللغة .
- وكتاب : مُتخيَّر الألفاظ .
- وكتاب : فقه اللغة .
- وكتاب : غريب إعراب القرآن .

يُقال : إن أبا الحسين بن فارس كان بقزوين يُصنِّف فى كُلِّ ليلة جمعة كتاباً ؛ ويبيعه يوم الجمعة قبل الصَّلاة ؛ ويتصدَّق بثمنه ؛ فكان هذا دأبه !! .

توفِّى بالرَّى فى صفر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة .

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى . » .

وذكرهُ ياقُوت الحمويُّ فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٤١٠ ـ ٤١٨) ؛ وَإِلَيْكَ المُسْتَفَادُ مِن هَذِهِ التَّرْجَمَة :

« أحمد بن فارس بن زكريا اللغوىُّ

وقال ابن الجوزىّ : أحمد بن زكريا بن فارس ؛ ولا يُعاج به .

مات سنة تسع وستين وثلاثمائة ؛ وقال قبل وفاته بيومين :

يَا رَبِّ إِن ذُنُوبِى قَد أَحَطتَ بِهَا
عِلْمَاً وَبِى وَبِإِعْلانِى وَإِسْرَارِى
أَنَا المُوحِّدُ لَكِنِّى المُقِرُّ بِهَا
فَهَب ذُنُوبِى لِتَوْحِيدِى وَإِقْرَارِى

وَوُجِدَ بخط الحُميدىّ : أن ابن فارس مات فى حدود سنة ستين وثلاثمائة ؛ وكُلٌّ منهما لا اعتبار به ؛ لأنى وجدت خطَّ كَفِّهِ على (كتاب تتمة الفصيح) من تصنيفه ؛ وقد كتبه فى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة .

وذكره الحافظ السِّلَفِىُّ فى (شرح مُقدِّمة معالم السنن) للخطَّابى ؛ فقال : أصله من قزوين .

وقال غيره : أخذ أحمد بن فارس عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب ؛ وأبى الحسن علىّ بن إبراهيم القطَّان ؛ وأبى عبد الله أحمد بن طاهر المُنَجِّم ؛ وعلىّ بن عبد العزيز المكىّ صاحب أبى عُبَيْد ؛ وأبى القاسم سُليمان بن أحمد الطبرانىّ .

وكان ابن فارس يقول : ما رأيت مثل أبى عبد الله أحمد بن طاهر ؛ ولا رأى هو مثل نفسه .

وكان كريماً جواداً ؛ لا يُبقى شيئاً ؛ وربما سُئِلَ فوهب ثياب جسمه وَفَرْشَ بيته .

وله من التصانيف :

- كتاب : المُجمل .
- وكتاب : مُتخيَّر الألفاظ .
- كتاب : فقه اللغة .
- كتاب : غريب إعراب القرآن .
- كتاب : تفسير أسماء النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلام .
- كتاب مُقدِّمة نحو .
- كتاب : دارات العرب .
- كتاب : حلية الفُقهاء .
- كتاب : الفرق .
- كتاب : مُقدِّمة الفرائض .
- كتاب : ذخائر الكلمات .
- كتاب : شرح رسالة الزُّهرِيِّ إلى عبد الملك بن مروان .
- كتاب : الحجر .
- كتاب : سيرة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - كتابٌ صغير الحجم - .
- كتاب : الليل والنهار .
- كتاب : العَمِّ والخال .

ـ كتاب : أُصُول الفقه .

ـ كتاب أخلاق النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم .

ـ كتاب : الصاحبىُّ ـ صنَّفهُ لخزانة الصاحب ـ .

ـ كتاب : جامع التأويل فى تفسير القرآن ـ أربع مُجَلَّدات ـ .

ـ كتاب : الشيات والحُلى .

ـ كتاب : خلق الإنسان .

كتاب : الحماسة المُحْدثة .

ـ كتاب : مقاييس اللُّغة ـ وهو كتابٌ جليلٌ لم يُصنَّف مثله ـ .

ـ كتاب : كفاية المتعلمين فى اختلاف النحويين .

... ؛ قال يحيى بن منده الأصبهانىُّ : سمعت عمِّى عبد الرحمن بن محمد بن العبدىّ يقول : سمعت أبا الحسين أحمد بن زكريا بن فارس النحوىّ يقول : دخلت بغداد طالباً للحديث ؛ فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث وليست معى قارورة ؛ فرأيت شاباً عليه سِمَة جمال ؛ فاستأذنته فى كَتْبِ الحديث من قارورته ؛ فقال : من انبسط إلى الإخوان بالاستئذان ؛ فقد استحقَّ الحرمان !! .

قال عبد الرحمن بن منده : وسمعت ابن فارس يقول : سمعت أبا أحمد بن أبى التيار يقول : أبو أحمد العسكرىُّ يكذب على الصولىِّ ؛ مثلما كان الصولىُّ يكذب على الغلابىِّ ؛ مثلما كان الغلابىُّ يكذب على سائر الناس .

وجدت على نُسخةٍ قديمةٍ بكتاب (المُجمل) من تصنيف ابن فارس ما

صورته : ... ؛ وكتبه مجمع بن محمد بن أحمد بخطِّه فى شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين وأربعمائة .

وكان فى آخر هذا الكتاب ما صورته أيضاً : قضى الشيخ أبو الحسين أحمد ابن فارس رَحِمَهُ الله : فى صفر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالرَّى ؛ وَدُفِنَ بها مُقابل مشهد قاضى القُضاة أبى الحسن علىٌّ بن عبد العزيز - يعنى الجرجانىٌّ - . » .

وترجم لهُ جمال الدين القفطىُّ « ت ٦٤٦هـ » فِى « إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة » ؛ (جـ ١/ ١٢٧ - ١٣٠) ؛ وممَّا جاء فيه :

« من أعيان أهل العلم ؛ وأفراد الدهر .

ولابن فارس شعرٌ جميلٌ ؛ ونثرٌ نبيلٌ .

وذكره أبو الحسن الباخرزىُّ ؛ وسجع له ؛ فقال :

‹ أبو الحسين بن فارس : إذا ذُكِرَت اللغة فهو صاحب مجملها ؛ لا ؛ بل صاحبها المجمل لها ؛ وعندى أنَ تصنيفه ذلك من أحسن ما صُنِّفَ فى معناها ؛ وأن مُصنِّفها إلى أقصى غايةٍ من الإحسان تناهى . › .

ورأيت ترجمةً لأحمد بن فارس فى بعض تصانيف المُتأخِّرين ؛ وقد لقفها من أماكن مُتعدِّدة ؛ فنقلتها على صورتها ؛ وهى :

‹ أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛ أبو الحسين الرَّازى ؛ وقيل : القزوينىّ الزهراوىّ الأشتاجردىّ .

واختلفوا فى وطنه ؛ فقيل : كان من قزوين ؛ ولا يصح ذلك ؛ وإنما قالوه لأنه كان يتكلّم بكلام القزاونة .

وقيل : كان من رُستّاق الزهراء ؛ من القرية المدعوّة كرسف جياناتاذ .

كان واسع الأدب ؛ مُتبحّراً فى اللغة العربيّة ؛ فقيهاً شافعيّاً ؛ وكان يُناظر فى الفقه ؛ وكان ينصر مذهب مالك بن أنس .

وطريقته فى النحو طريقة الكوفيين ؛ وإذا وجد فقيهاً أو مُتكلّماً أو نحويّاً : كان يأمر أصحابه بسؤالهم إيّاه ؛ ويُناظره فى مسائل من جنس العلم الذى يتعاطاه ؛ فإن وجده بارعاً جَدِلاً ؛ جَرَّهُ فى المُجَادلة إلى اللغة ؛ فيغلبه بها ؛ وكان يحُثُّ الفُقهاء دائماً على معرفة اللغة ؛ ويُلقى عليهم مسائل ؛ ذكرها فى كتابٍ سمَّاه (كتاب فُتيا فقيه العرب) ؛ ويُخجلهم بذلك ؛ ليكون خجلهم داعياً إلى حفظ اللغة ؛ ويقول : من قَصَّرَ علمه عن اللغة وغولط غلط) .

قال أبو عبد الله الحُميدىُّ : سمعت أبا القاسم سعد بن على بن محمد الزَّنجانىّ يقول : كان أبو الحسين أحمد بن فارس الرَّازىّ من أئمة أهل اللغة فى وقته ؛ مُحتجّاً به فى جميع الجهات غير مُنازعٍ ؛ مُنجباً فى التعليم ؛ ومن تلاميذه : بديع الزمان الهمذانىّ ؛ وغيره .

وأصله من همذان ؛ ورحل إلى قزوين إلى أبى الحسن إبراهيم بن علىٍّ بن إبراهيم بن سلمة بن فخر : الإمام الفقيه الجليل الأوحد فى العلوم ؛ فأقام هُنالك مُدَّةً .

ورحل إلى زنجان إلى أبى بكر أحمد بن الحسن بن الخطيب راوية ثعلب ؛ ورحل إلى ميانج .

ومن شيوخه : أحمد بن طاهر بن المُنجِّم أبو عبد الله .

وكان أبو الحسين بن فارس يقول عن أبى عبد الله هذا : إنه ما رأى مثله ؛ ولا رأى هو مثل نفسه .

واستوطن أبو الحُسين الرَّىَّ بأخرةٍ ؛ وكان سبب ذلك : أنه حُمِلَ إليها من همذان ؛ ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة ؛ فسكنها ؛ واكتسب مالاً ؛ وبلغ ذلك بتعليمه من النجابة مبلغاً مشهوراً .

وكان ابن فارس كريم النَّفس ؛ جواد اليد ؛ لا يكاد يَرُد سائلاً حتى يهب ثيابه وفرش بيته ؛ ومن رُؤساء أهل السُّنَّة المُجَوِّدين على مذهب أهل الحديث .

وتوفِّى بالرَّى فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ؛ وَدُفِنَ مُقابل مشهد القاضى علىِّ بن عبد العزيز الجرجانىِّ ـ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى ـ .

... ؛ وله مُقَطَّعَاتٌ مُتعدِّدةٌ من الشِّعر ؛ توجد فى كتب من صنَّف أخبار الشُّعراء .)) .

وترجم لهُ ابنُ خَلِّكان فى ((وفيات الأعيان)) ؛ (جـ ١ / ١١٨ ـ ١٢٠) ؛ ومما قالهُ هُناك :

((كان إماماً فى عُلُومٍ شتَّى ؛ وخُصوصاً اللغة ؛ فإنه أتقنها ؛ وألَّف كتابه (المجمل) فى اللغة ؛ وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً ؛ وله كتاب (حلية الفقهاء) ؛ وله رسائل أنيقة ؛ ومسائل فى اللغة ؛ وَيُعَايى بها الفقهاء ؛ ومنه

اقتبس الحريريُّ صاحب المقامات ـ الآتى ذكره إن شاء الله تعالى ـ ذلك الأسلوب ؛ ووضع المسائل الفقهيَّة فى المقامة الطيبة ؛ وهى مائة مسألة .
وكان مُقيماً بهمذان ؛ وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانىُّ صاحب المقامات .)) .

وترجم لهُ الشَّمْسُ الذَّهبىُّ فى ((سِيَر أعـلام النُّبَلاء)) ؛ (جـ ١٢ / ٥٣٨ ـ ٥٤٠) ؛ (رَقَمُ التَّرْجَمَة : ٣٦٩٠) ؛ قَال الشَّيْخ :
((الإِمَامُ ؛ العَلاَّمَةُ ؛ اللُّغَوِيُّ ؛ المُحَدِّثُ : أَبُو الحُسَيْنِ ؛ أَحْمَدُ بنُ فَارِسِ بنِ زَكَرِيَّا ابن مُحَمَّدِ بنِ حَبِيبٍ ؛ القَزْوِينِىُّ ؛ المَعْرُوفُ بِالرَّازِىِّ ؛ المَالِكِىُّ ؛ اللُّغَوِىُّ ؛ نَزِيْلُ هَمَذَان ؛ وَصَاحِب كِتَاب (المُجْمَل) .
حَدَّثَ عَن : أَبِى الحَسَنِ عَلِىِّ بنِ إِبْرَاهِيمَ بنِ سَلَمَةَ القَطَّان ؛ وسُليمان بن يَزِيْد الفَامِى ؛ وَعَلِىِّ بن مُحَمَّدِ بنِ مِهْرَوِيه القَزْوِينيين ؛ وَسَعِيْدِ بن مُحَمَّدٍ القَطَّان ؛ وَمُحَمَّدِ بن هَارُونَ الثَّقَفِىِّ ؛ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ حَمْدَان الجَلاَّب ؛ وَأَحْمَد بن عُبَيْد الهَمَذَانيين ؛ وَأَبِى بَكْرِ بنِ السُّنِّىِّ الدينورىِّ ؛ وأبى القاسم الطبرانىِّ ؛ وطائفةٍ .
حدَّث عَنْهُ : أَبو سَهْلِ بنُ زيرك ؛ وَأَبو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بنُ عِيْسَى ؛ وَعَلِىُّ بنُ القَاسِمِ الخَيَّاط المُقْرِئ ؛ وَأَبو مَنصُوْرِ بنُ المُحْتَسِب ؛ وَآخَرُوْن .
مَوْلِدُهُ بقَزْوِين ؛ وَمَرْبَاهُ بهَمَذَان ؛ وَأَكْثَر الإِقَامَةَ بِالرَّىِّ .

وكَانَ رَأْساً فِي الأَدب ؛ بَصِيْراً بفقهِ مَالِك ؛ مُنَاظِراً ؛ مُتَكَلِّماً عَلَى طريقَةِ أَهْلِ الحَقِّ ؛ وَمَذْهَبُهُ فِي النَّحْوِ عَلَى طريقَةِ الكُوْفِيِّين ؛ جمع إِتْقَانَ العِلْم إِلَى ظَرْفِ أَهْلِ الكِتَابَةِ وَالشِّعر .

وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ وَرسَائِل ؛ وَتَخَرَّجَ بِهِ أَئِمَّةٌ .

وَكَانَ يَتَعَصَّبُ لآل العَمِيْدِ ؛ فَكَانَ الصَّاحِبُ بنُ عَبَّاد يَكْرَهُهُ لذلك ؛ وَقَدْ صنَّف باسمه كِتَاب (الحِجْر) ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ قَلِيْلَةٍ .

وكَانَ يَقُوْلُ : مَنْ قَصُرَ عِلْمُهُ فِي اللُّغَةِ وغُولِطَ ؛ غَلِطَ .

قَالَ سَعْدُ بنُ عَلِيٍّ الزَّنْجَانِيُّ : كَانَ أَبُو الحُسَيْنِ مِن أَئِمَّةِ اللُّغَةِ ؛ مُحْتَجّاً بِهِ فِي جَمِيعِ الجِهَات غَيْرَ مُنَازعٍ ؛ رَحَلَ إِلَى الأَوْحدِ فِي العُلُوم أَبِي الحسَن القَطَّان ؛ وَرَحَلَ إِلَى زَنْجَان : إِلَى صَاحِبِ ثَعْلَب أَحْمَد بن الحَسَنِ الخَطِيب ؛ وَرَحَلَ إِلَى مَيَانَج : إِلَى أَحْمَدَ بن طَاهِرِ بن النَّجم ؛ وكَانَ يَقُوْل : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ .

قَالَ سَعْدٌ : وَحُمِلَ أَبُو الحُسَيْنِ إِلَى الرَّيِّ ؛ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ مجدُ الدولة ابن فَخر الدَّوْلَة ؛ وَحصَّل بِهَا مَالاً مِنْهُ ؛ وَبرع عَلَيْهِ .

وَكَانَ أَبُو الحُسَيْنِ مِنَ الأَجوَاد ؛ حَتَّى إِنَّهُ يَهَبُ ثِيَابَهُ وَفَرْشَ بَيْتِهِ ؛ وَكَانَ مِن رُءوس أَهْلِ السُّنَّة المجَرَّدين عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الحَدِيْث .

قَالَ : وَمَاتَ بِالرَّيِّ فِي صَفَرٍ سَنَة خَمْسٍ وتِسْعِينَ وَثَلاَثِ مائَةٍ .

وَفِيْهَا ورَّخه أَبُو القَاسِمِ بنُ مَنْدَه ؛ وَوَهِمَ مَن قَال : مَاتَ سَنَةَ تِسْعِيْن . » .

ثُمَّ وقفتُ على ترجمتهِ بكتاب « التدوين فى أخبار قزوين » لأبى القاسم الرافعىِّ القزوينىِّ « ت ٦٢٣هـ » ؛ (جـ ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٩) ؛ وهى ترجمةٌ نفيسةٌ جِداً ؛ بها ما ليس بسواها ؛ قَالَ المُصَنِّفُ ـ رَحِمَهُ الله (باختصار) ـ :

« ـ فصل :

ـ أَحْمَدُ بْنُ فارس بْنِ زكريا بْنِ مُحَمَّد بْنِ حبيب ؛ أبو الحُسين ؛ النَّحوىُّ ؛ أحد أئمَّة الأدب المرجوع إليهم فِى بلاد الجبل ؛ مُتقنٌ ؛ حاذقٌ ؛ صنَّف : جامع التأويل ؛ و : مجمل اللغة ؛ و : مقائيس اللغة ؛ و : الصاحبىّ فِى فقه اللغة ؛ وفيهما دلالةٌ ظاهرةٌ عَلَى : جودة تصرُّفه ؛ وحُسن نظره ؛ وتمام فقهه .

وصنَّف من المُختصرات مالا يُحصى .

وُلِدَ بِقَزْوِين ؛ ونشأ بهمدان ؛ وكان أكثر مقامه بالرَّى ؛ وله بِقَزْوِين فِى الجامع صندوقٌ ؛ فيها كُتُبٌ من وقفه سنة إحدى وستين وثلاثمائة ؛ وكان يُناظر فِى الفقه ؛ وينصر مذهب مالك .

سمع الكثير بِقَزْوِين مِن : عَلِىِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مهرويه ؛ وعلىِّ بْنِ إبراهيم القطَّان ؛ وعلىِّ بْنِ عُمر الصيدنانىِّ ؛ ومما سمعه منه : كتاب مكة لأبى الوليد مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أَحْمَد الأزرقىِّ ؛ بسماعه من عُبَيْد بْنِ مُحَمَّد بْنِ إبراهيم الكشورىِّ الأزرقىِّ .

وسمع بزنجان : أَحْمَد بن محمود بن شُعيب القطَّان .

وبآذربيجان : أبا عبد الله أَحْمَد بن طاهر ؛ وأبا حفص عُمر بن هشام القاضى .

وكان له مجالسُ إملاء عَلَى رَسْمِ أهل الحديث .

... ؛ قَالَ أَحْمَد بْنُ فارس فِي جُزْءٍ جمعه فِي السِّواك : أخبرنى .... .

... ؛ وحدَّث فِي مُختصرٍ جمعه فِي تلخيص معنى الآل : حدَّثنى .... .

تُوفِّى أبو الحُسين سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالرَّى . » .

وفى « المُختصر فى أخبار البشر » ؛ (جـ ٢/ ١٣٥) لأبى الفداء عماد الدين إسماعيل بن علىٍّ بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ؛ الملك المُؤيَّد ؛ صاحب حماة « ت ٧٣٢هـ » :

« ـ ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمائة :

فى هذه السنة ـ وقيل : بل فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ـ تُوفِّى أبو الحُسين أحمد بن فارس بن زكريا الرَّازى ؛ اللغوىُّ ؛ كان إماماً فى عُلُومٍ شتَّى ؛ وخُصوصاً فى اللُّغة ؛ وله عِدَّة مُصنَّفات ؛ منها : كتابه المجمل فى اللُّغة ؛ ووضع المسائل الفقهيَّة ؛ وهى [مائة] مسألة فى المقامة الطيبيَّة . » .

قُلْتُ : كذا قال ؛ وَالصَّوابُ الذى لا ريب فيهِ ؛ أنَّهُ تُوفِّيَ فى سنة خمسٍ وتسعين وثلاثمائة .

فى « تاريخ الإسلام » ؛ (جـ ٢٧/ ٣١١) ـ نُسْخَة تدمرى ـ :

« توفِّى فى صفر ؛ سنة خمسٍ وتسعين .

انتهى قول الزَّنْجانىِّ .

وكذا وَرَّخهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن مَنْدَه ؛ وغيره .

وقيل : مات سنة تسعين وثلاثمائة ؛ وهو قولٌ ضعيفٌ . » .

قُلْتُ : ولكن الحافظ ابن كثير قالَ فى « البداية والنهاية » ؛ (جـ ١١ / ٣٣٥) :

« قَالَ ابْنُ خَلِّكَان : تُوُفِّىَ سَنَةَ تِسْعِينَ وَثَلاثِمِائَةٍ ؛ وَقِيلَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِين . وَالأَوَّلُ أَشْهَرُ . » .

قُلْتُ : وافقهُ على ذلكَ جمعٌ من المؤرِّخين ؛ ولكن الرأى الذى قدَّمْناهُ واعتمدناهُ : هو الأبيْنُ والأظهر ؛ واللهُ أعلم .

وَبَعْدُ : فهذا هو ما نَشِطْنَا لتقييدِهِ فى شأنِ هذا الرَّجُل ؛ وإذا كان ذلك كذلك ؛ فلقد آزرت الأقدارُ بديع الزَّمان ؛ فأظفرتهُ بهذا الإمامِ الهُمَام ؛ وَلا غرابةَ حينئذٍ من وصولِ البديع إلى مرتبةٍ فائقةٍ من الفُحُولةِ اللُّغويَّةِ والأدبيَّةِ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ :

٥ ـ حَيَاتُهُ :

فى «مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥) :

« قال شيرويه : ومحمد بن الحُسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفَّار الفقيه ؛ أبو سعد ؛ أخو بديع الزمان أبى الفضل أحمد بن الحُسين بن يحيى لأبيه وأُمِّه : مُفتى البلد .

روى عن : ابن لال ؛ وابن تركان ؛ وعبد الرحمن الإمام ؛ وأبى بكر محمد بن الحُسين الفرَّاء ؛ وابن جائحان ؛ وذكر جماعةً وافرةً . » .

ثُمَّ :

فى «مُعجم الأُدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٥) :

« وفارق همذان سنة ثمانين وثلاثمائة : وهو مُقتبل الشبيبة ؛ غضُّ الحداثة . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٩) :

« قال أبو الحسن البيهقىُّ : وبديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الحافظ : كان يحفظ خمسين بيتاً بسماعٍ واحدٍ ؛ ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرها ؛ وينظر فى كتابٍ نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرها ؛ فارق همذان فى سنة ثمانين وثلاثمائة ؛ وكان قد اختلف إلى أحمد بن فارس صاحب (المجمل) ؛ وورد حضرة الصاحب وتزوَّد من ثمارها ؛ واختصَّ بالدهخداه أبى سعد محمد بن منصور ؛ ونفقت بضاعته لديه ؛ ووافى نيسابور فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ؛ وبعد موت الخوارزمىِّ خلا له الجوُّ ؛ وجرت بينه وبين أبى علىٍّ الحُسين بن محمد الخشنامىِّ مُصاهرة ؛ وألقى عصا المقام ... ؛ وحدَّث الثعالبىُّ فى أخبار أبى فراس ؛ قال : حكى أبو الفضل الهمذانىُّ قال : قال الصاحب أبو القاسم يوماً لجُلسائه وأنا فيهم ؛ وقد جرى ذكر أبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان : لا يقدر أحدٌ أن يُزوِّر على أبى فراس شعراً ؛ فقلتُ : من يقدر على ذلكَ وهو الذي يقول :

رُوَيْدَكَ لا تَصِلِ يَدَهَا بِبَاعِكْ

وَلا تُغْرِ السِّبَاعَ إِلَى رِبَاعِكْ

... ؛ وَلا تُغْرِ العَدُوَّ عَلَيَّ إِنِّي

يَمِينٌ إِن قَطَعْتَ فَمِن ذِرَاعِكْ

فقال الصاحب : صدقت ؛ فَقُلْتُ : أَيَّدَ اللهُ مولانا فقد فعلت !! . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٦) :

« وورد حضرة الصاحب بن عبَّاد ؛ فتزوَّد من ثمارها وَحُسْنِ آثارها ؛ ثم قدم جرجان ؛ وأقام بها مُدَّةً على مُداخلة الإسماعيليَّة والتعيُّش فى أكنافهم ؛ واختصَّ بالدهخداه أبى سعد محمد بن منصور ؛ ونفقت بضاعته لديه ؛ وتوفَّر حظُّه من عادته المعروفة فى إسداء الإفضال على الأفاضل .

ولَمَّا أراد ورود نيسابور أعانه بما سيَّره إليها ؛ فوردها فى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ؛ ونشر بها بَزَّهُ ؛ وأظهر طَرْزَهُ ؛ وأملى أربعين مقامة ؛ نحلها أبا الفتح الإسكندرىَّ فى الكُدْيَة وغيرها ؛ وضمَّنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين .

ثم شجر بينه وبين الأُستاذ أبى بكر الخُوارزمىِّ ما كان سبباً لهبوب ريح الهمذانىِّ وعُلوِّ أمره ؛ إذ لم يكن فى الحساب أن أحداً من العُلماء ينبرى لِمساجلته ؛ فلما تصدَّى الهمذانىُّ لِمباراته ؛ وجرت بينهما مقاماتٌ ومُبادهاتٌ ومُناظراتٌ ؛ وغلَّب قومٌ هذا ؛ وغلَّب آخرون ذاك : طار ذكر الهمذانىِّ فى الآفاق... ؛ ودرَّت له أخلاف الرِّزق ؛ فلما مات الخوارزمىُّ : خلا له الجوُّ ؛ وتصرَّفت به أحوالٌ جميلةٌ وأسفارٌ كثيرةٌ ؛ ولم يبق من بلاد خُراسان وسجستان وغزنة بلدةٌ إلاَّ دخلها وجنى ثمارها ؛ ولا ملكٌ ولا وزيرٌ إلا

واستمطر بنوئه ؛ وسرى فى ضوئه : فحصلت له نعمةٌ حسنةٌ ؛ وثروةٌ جميلةٌ ؛ وألقى عصاه بهراة ؛ فاتخذها دار قراره ؛ وصاهر بها أبا علىّ الحُسين بن محمد الخشنامىّ ؛ وهو الفاضل الكريم الأصيل ؛ وانتظمت أحواله بمُصاهرته ؛ واقتنى بمعونته ضياعاً فاخرةً . » .

قُلْتُ : وها هُنا لابُدَّ من وقفةٍ !!... ؛ فقد أطالَ النَّاسُ وأفاضوا فى ذكر المُناظرةِ الشَّهيرةِ التى جرت بين الإمامِ أبى بكر الخُوارزمىِّ والأديب الشَّاب بديع الزَّمان الهمذانىِّ !!... ؛ وَلِذَا ؛ فلابُدَّ من مُباحثةٍ :

٦ ـ بَيْنَ الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

ـ أوَّلاً : بَدْءُ العَلاقَةِ بَيْنَ الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٤٥ ـ ٢٤٩) :

« وكانت أوَّلُ رُقعةٍ كتبها البديع إلى الخوارزمىِّ عند وروده نيسابور :

(أنا لقُرب الأستاذ ـ أطال الله بقاءه ـ :

كما طرب النشوان مالت به الخمرُ

ومن الارتياح للقائه :

كما انتفض العصفور بلَّلهُ القطرُ

ومن الامتزاج بولائه :

كما التقت الصهباء والبارد العذبُ

ومن الابتهاج بمزاره:

كما اهتزَّ تحت البارح الغُصن الرَّطبُ

فكيف ارتياح الأُستاذ لصديقٍ طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخُراسان؟!!؛ بل ما بين عتبتى الجبل ونيسابور؟!!؛ وكيف اهتزازه لضيفٍ فى بُردة حَمَّال؛ وجلدة جمَّال؟!!:

رَثُّ الشَّمَائِلِ مُنْهَجُ الأَثْوَابِ
بَكَرَت عَلَيْهِ مُغِيرَةُ الأَعْرَابِ
كَمُهَلْهَلٍ وَرَبِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمٍ
وَعُتَيْبَةِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

وهو ولىُّ إنعامه بإنفاذ غُلامه إلى مُستقرِّى؛ لأُفضى إليه بما عندى - إن شاء الله تعالى وحده -.

ثم اجتمع إليه؛ فلم يحمد لقيه؛ فانصرف عنه؛ وكتب إليه:

الأُستاذ - واللهُ يُطيل بقاءه؛ ويُديم تأييده ونعماءه -: أزرى بضيفه أن وجده يضرب آباط القِلَّة فى أطمار الغُربة؛ فأعمل فى ترتيبه أنواع المصارفة؛ وفى الاهتزاز له أصناف المُضايقة؛ من إيماءٍ بنصف الطَّرْف؛ وإشارةٍ بشطر الكف؛ ودفعٍ فى صدر القيام عن التمام؛ ومضغ الكلام وتكلُّفه لِرَدِّ السَّلام؛ وقد قبلت هذا الترتيب صعراً؛ واحتملته وزراً؛ واحتضنته نُكراً؛ وتأبَّطته شَرّاً؛ ولم آله عُذراً؛ فإن المرء بالمال وثياب الجمال؛ وأنا مع هذه الحال وفى هذه

الأسمال : أتقزّز صف النّعال ؛ ولو حاملته العتاب ؛ وناقشته الحساب ؛ وصدقته المصاع ؛ لقُلتُ : إن بوادينا ثاغية صباح ؛ وراغية رواح ؛ وقوماً يجُرّون المطارف ؛ ولا يمنعون المعارف :

وَفِيهِم مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُم
وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ وَالفِعْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِم حَقُّ مَن يَعْتَرِيهُمُ
وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ

ولو طوّحت بالأستاذ أيدى الغُربة إليهم ؛ لوجد منال البِشْرِ قريباً ؛ ومحطّ الرَّحْلِ رحيباً ؛ ووجه المضيف خصيباً .

ورأيه - أيّدَهُ الله - : فى أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ؛ ويوسع أعطاف ظنّه ؛ ويحُيبه بموقع هذا العتاب الذى معناه ود ؛ والمُر الذى يتلوه شهد : مُوفّقٌ إن شاء الله تعالى .

- الجواب من الخوارزمىّ

إِنَّكَ إِن كَلَّفْتَنِى مَا لَم أُطِقْ
سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّى مِن خُلُقْ

فهمت ما تناوله سيّدى من خشن خطابه ؛ ومؤلم عتبه وعتابه ؛ وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذى لا يخلو منه من نَبَا به دهر ؛ وَمَسَّهُ من الأيّام ضُر ؛ والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه ؛ ومَظِنَّة مُشتكى ما فى نفسه .

أمَّا ما شكاه سيِّدى من مُضايقتى إيَّاه ـ زعم ـ فى القيام ؛ وتكلُّفى لِرَدِّ السَّلام ؛ فقد وفَّيته حقَّه : كلاماً ؛ وسلاماً ؛ وقياماً : على قدر ما قدرت عليه ؛ ووصلت إليه ؛ ولم أرفع عليه غير السيِّد أبى القاسم ؛ وما كنت لأرفع أحداً على من أبوه الرَّسُول ؛ وأُمُّهُ البتول ؛ وشاهداه التوراة والإنجيل ؛ وناصراه التأويل والتنزيل ؛ والبشير به جبرائيل وميكائيل !! .

وأمَّا عدم الجمال ؛ ورثاثة الحال : فما يضعان عندى قدراً ؛ ولا يضُرَّان نجراً ؛ وإنما اللباس جِلدة ؛ والزِّىُّ حِلية ؛ بل قشرة ؛ وإنما يشتغل بالجل ؛ من لا يعرف قيمة الخيل ؛ ونحن ـ بحمد الله ـ نعرف الخيل عارية من جلالها ؛ ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها ؛ لا بآلاتها وأحوالها .

وأمَّا القوم الذين صدر سيِّدى عنهم ؛ وانتمى اليهم : ففيهم لعمرى فوق ما وصف : حُسْنُ عِشرة ؛ وسداد طريقة ؛ وجمال تفصيلٍ وجُملة ؛ ولقد جاورتهم : فنلت المُراد ؛ وأحمدت المَرَاد :

فَإِن أَكُ قَد فَارَقْتُ نَجْدَاً وَأَهْلَهُ
فَمَا عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنَا بِذَمِيمِ

والله يعلم نيَّتى للأحرار عامة ؛ ولسيِّدى من بينهم خاصَّة ؛ فإن أعاننى على مُرادى له ونيَّتى فيه بحُسن العشرة ؛ بلغت له بعض ما فى المُنْيَة ؛ وجاوزت مسافة القُدرة ؛ وإن قطع علىَّ طريق عزمى بالمُعارضة وسوء المؤاخذة ؛ صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار :

فَمَا النَّـفْسُ إلاَّ نُطْفَـةٌ بِقَـرَارَةٍ

إِذَا لَم تُكَـدَّر كَانَ صَفْـواً غَـدِيرُهَا

وعلى هذا : فحبَّذا عتاب سيِّدى إذا صادف ذنباً ؛ واستوجب عتباً .

فأمَّا أن يسلفنا العربدة ؛ ويستكثر المعتبة والموجدة : فتلك حالةٌ نصونه عنها ؛ ونصون أنفسنا عن احتمال مثلها ؛ فليرجع بنا إلى ما هو أشبه بهِ ؛ وأجمل لهُ ؛ ولست أسومه أن يقول :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِين ﴾

ـ (يوسف : ٩٧) ـ .

ولكن أسأله أن يقول :

﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ؛ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين ﴾

ـ (يوسف : ٩٢) ـ .

ـ رُقعة البديع الثالثة إلى الخُوارزميّ

أنا أرِدُ من الأُستاذ سيِّدى شرعة ودِّه ؛ وإن لم تصف ؛ وألبس خِلْعَة بِرِّه ؛ وإن لم تضف ؛ وقُصاراى أن أكيله صاعاً بصاعٍ ؛ وَمُدّاً عن مُـدٍّ ؛ وإن كنت فى الأدب دعيَّ النَّسَب ؛ ضعيف السبب ؛ ضيِّق المُضطرب ؛ سيء المُنقلب ؛ أمُتُّ إلى أهله بعشرةٍ رشيقة ؛ وأنزع إلى خدمة أصحابه بطريقة .

ولكن بقىَ أن يكون الخليط مُنصفاً فى الإخاء ؛ عادلاً فى الوداد ؛ إذا زُرت زار ؛ وإن عدت عاد ؛ والأُستاذ سيِّدى ـ أيَّدَهُ الله ـ ضايقنى فى القبول أوَّلاً ؛

وناقشنى فى الإقبال ثانياً ؛ فأما حديث الاستقبال ؛ وأمر الإنزال والإنـزال ؛ فنطاق الطمع ضيِّقٌ عنه ؛ غير مُتَّسعٍ لتوقُّعه منه ؛ وبعد : فكلفة الفضل هيِّنة ؛ وفروض الودِّ مُتعيِّنة ؛ وَطُرُق المكارم بيِّنـة ؛ وأرض العشـرة ليِّنـة ؛ فلم اختـار قعود التعالى مركباً ؛ وصعود التغالى مـذهباً ؟!!! ؛ وهـلاَّ ذاد الطير عـن شـجر العشرة إذا كان ذاق الحلو مـن ثمرها ؛ وقـد علـم الله أن شـوقى إليـه قـد كَـدَّ الفؤاد برحاً على برح ؛ ونكـأه قرحـاً علـى قرح ؛ فهـو شـوقٌ داعيتـه محاسـن الفضل ؛ وجاذبته بواعث العلم ؛ ولكنها مَرَّةٌ مُرَّة ؛ ونفسٌ حُرَّة ؛ ولم تقد إلا بالإعظام ؛ ولم تُلق إلا بالاكرام .

وإذا استعفانى سيِّدى الأُستاذ من مُعاتبته واستعادته ؛ ومُؤاخذته إذا جفا واستزادته ؛ وأعفى نفسـه مـن كُلَفِ الفضـل يتجشَّـمها ؛ فليس إلا غُصَـص الشوق أتجرَّعُها ؛ وحُلَل الصبر أتدرَّعها ؛ فلم أعره من نفسى ؛ وأنا لو أُعرت جناحى طائرٍ لما رنَّقت إلاَّ إليه ؛ ولا حلَّقت إلاَّ عليه :

أُحِبُّـكَ يَا شَمْسَ النَّهَـارِ وَبَدْرَهُ
وَإِن لامَنِى فِيكَ السُّهَا وَالفَرَاقِدُ
وَذَاكَ لأَنَّ الفَضْـلَ عِنْـدَكَ بَاهِـرٌ
وَلَيْـسَ لأَنَّ العَيْشَ عِنْـدَكَ بَـارِدُ

ـ جواب الخوارزمىّ عنها

شريعة ودّى لسيّدى ـ أدَامَ اللهُ عِزَّهُ ـ إذا وردها صافية ؛ وثياب بِرِّى إذا قبلَهَا ضافية ؛ هذا ما لم يُكدِّر الشريعة بتعنُّته وتعصُّبه ؛ ولم تخُرِّق الثياب بتجنِّيه وتسحُّبه ؛ فأما الإنصاف فى الإخاء ؛ فهو ضالّتى عند الأصدق ؛ ولا أقول :

وَإِنّى لَمُشْتَاقٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ
يَرُوقُ وَيَصْفُو إِن كَدَرْتُ عَلَيْهِ

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ؛ والإخوان إخوان ؛ وَحُسْنُ العشرة سُلطان .

ولكنّى أقول :

وإنى لَمُشتاقٌ إلى ظلِّ :

رَجُلٍ يُوازِنُكَ المَوَدَّةَ جَاهِدًا
يُعْطِى وَيَأْخُذُ مِنْكَ بِالمِيزَانِ
فَإِذَا رَأَى رُجْحَانَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ
مَالَت مَوَدَّتُهُ مَعَ الرُّجْحَانِ

وقد كان الناس يقترحون الفضل ؛ فأصبحنا نقترح العدل ؛ وإلى الله المشتكى لا منه !! .

ذكر الشيخ سيّدى ـ أَيَّدَهُ الله ـ حديث الاستقبال ؛ وكيف يُستقبل من انقضَّ علينا انقضاض العقاب الكاسر ؛ ووقع بيننا وقوع السهم العائر :

وَتَكْلِيفُكَ المَرْءَ مَا لا يُطِيقُ
يَجُوزُ عَلَى مَذْهَبِ الأَشْعَرِى

وقد زاد سيِّدى على أُستاذه الأشعرىّ !! ؛ فإن أُستاذه كلَّف العاجز ما لا يُطيق مع عجزه عنه ؛ وسيِّدى كلَّف الجاهل علم الغيب مع الاستحالة منه !! .

والمنزل بما فيه قد عرضته عليه ؛ ولو أطقت حمله لحملته إليه ؛ والشوق الذى ذكره سيِّدى : فعندى منه الكثير الكبير ؛ وعنده منه الصغير اليسير ؛ وأكثرنا شوقاً أقلّنا عتاباً ؛ وألييننا خطاباً.

ولو أراد سيِّدى أن أُصدِّق دعواه فى شوقه إلىَّ : لغضَّ من حجم عتبه علىَّ !! ؛ فإنما اللَّفظ زائد ؛ واللحظ وارد ؛ فإذا رقَّ اللفظ ؛ دَقَّ اللحظ ؛ وإذا صدق الحُب ؛ ضاق العتاب وَالعتْب :

فَبِالخَيْرِ لا بِالشَّرِّ فَارْج مَوَدَّتِى
وَأَىُّ امْرِىءٍ يَقْتَالُ مِنْهُ التَّرَهُّبُ

عتاب سيِّدى قبيحٌ ولكنه حسن ؛ وكلامه ليِّنٌ ولكنه خَشِن ؛ أما قُبحه فلأنه عاتب بريئاً ؛ ونسب إلى الإساءة من لم يكن مُسيئاً .

وأما حُسنه فلألفاظه الغُرَر ؛ ومعانيه التى هى كالدُّرَر ؛ فهى كالدُّنيا : ظاهرها يَغُر ؛ وباطنها يَضُر ؛ وكالمرعى على دمن الثرى : منظره بهىّ ؛ ومخبره وَبِىّ ؛ ولو شاء سيِّدى نظم الحُسْنَ والإحسان ؛ وجمع بين صواب الفعل واللسان :

يَا بَدِيعَ القَوْلِ حَاشَا لَكَ مِن هَجْوِ بَدِيع
وَلِحُسْنِ القَوْلِ عَوِّدْ تُكَ مِن سُوءِ الصَّنِيع
لا يَعِب بَعْضُكَ بَعْضاً كُن مَلِيحاً فِي الجَمِيع

ـ رُقعةٌ أُخرى من البديع إلى الخُوارزمىّ

أنا وإن كنت مُقصِّراً فى مُوجبات الفضل من حضور مجلس الأُستاذ سيِّدى ؛ فما أفرى إلاّ جلدى ؛ ولا أبرى إلاّ قدحى ؛ ولا أبخس إلاّ حظّى ؛ وإن يكُن ذاك جُرْمَاً ؛ فكفى هـذا عقاباً ؛ ومع ذاك فما أعمر أوقاتى إلا بمدحه ؛ ولا أُطرِّز ساعاتى إلا بذكره ؛ ولا أركض إلا فى حلبة وصفه ؛ حرس الله فضله .

نعم ؛ وقد رددت (كتاب الأوراق) للصولى ؛ وتطاولت لكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ؛ وللأُستاذ سيِّدى فى الفضل والتفضُّل به رأيه . » .

ـ ثَانِياً : قِيَامُ السِّجَالِ وَالعِرَاكِ بَيْنَ الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

فى «مُعجم الأُدباء» ؛ (ج ١ / ٢٣٩ ـ ٢٤٤) :

« وحدَّث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقىُّ صاحب كتاب (وشاح الدُّمْيَة) وقد ذكر أبا بكر الخوارزمىَّ : وقد رُمِىَ بحجر البديع الهمذانىِّ فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ؛ وأعان البديع الهمذانىَّ قومٌ من وجُوه نيسابور كانوا مُستوحشين من أبى بكر ؛ فجمع السيِّد نقيب السَّادة بنيسابور أبو علىٍّ بينهما ؛ وأراده على الزيارة ؛ وداره بأعلى ملقباذ ؛ فترفَّع ؛ فبعث إليه السيِّد

مركوبه ؛ فحضر أبو بكر مع جماعةٍ من تلامذته ؛ فقال له البديع : إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد ؛ وتذكر الأبيات الشوارد ؛ والأمثال الفوارد ؛ ونُباحثك فنسعد بما عندك ؛ وتسألنا فتُسر بما عندنا .

ونبدأ بالفنِّ الذى ملكت زمامه ؛ وطار به صيتك : وهو الحفظ إن شئت ؛ والنظم إن أردت ؛ والنثر إن اخترت ؛ والبديهة إن نشطت ؛ فهذه دعواك التى تملأ منها فاك .

فأحجم الخُوارزمىُّ عن الحفظ لكبر سِنِّه ؛ ولم يجل فى النثر قداحاً ؛ وقال : أُبادهك ؛ فقال البديع : الأمر أمرك يا أُستاذ .

فقال له الخوارزمىُّ : أقول لك ما قال موسى للسَّحرة ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾

فقال البديع :

الشِّعْرُ أَصْعَبُ مَذْهَبَاً وَمَصَاعِداً
مِن أَن يَكُونَ مُطِيعَهُ فِى فَكِّهِ
وَالنَّظْمُ بَحْرٌ وَالخَوَاطِرُ مَعْبَرٌ
فَانْظُر إِلَى بَحْرِ القَرِيضِ وَفُلْكِهِ
فَمَتَى تَوَانَى فِى القَرِيضِ مُقَصِّرٌ
عَرَّضتَ أُذْنَ الامْتِحَانِ لِعَرْكِهِ

قال : وهذه أبياتٌ كثيرةٌ فيها مدح الشريف أبى علىٍّ ؛ والمفاخرة ؛ وتهجين الخوارزمىِّ .

فقال الخوارزمىُّ أيضاً أبياتاً ؛ ولكن ما أبرزها من الغلاف .

فقال له البديع : أما تستحى أن يكون السُّنُّور أعقل منك ؛ لأنه يجعر فيغطيه بالتُّراب ؟!!

فقال لهما الشُّريف : انسجا على منوال المُتنبِّى :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ ؛ وَمِثْلِى يَأْرَقُ

فابتدأ أبو بكر ؛ وكان إلى الغايات سبَّاقاً ؛ وقال :

فَـإِذَا ابْـتَـدَهْتُ بَـدِيـهَةً يَا سَيِّدِى
فَأَرَاكَ عِنْـدَ بَدِيـهَتِـى تَـتَـقَـلَّقُ
مَا لِى أَرَاكَ وَلَسْتَ مِثْلِى فِى الـوَرَى
مُتَمَـوِّهَـاً بِالتُّرَّهَـاتِ تُـمَخْـرِقُ ؟!!

ونظم أبياتاً ؛ ثم اعتذر ؛ فقال : هذا كما يجىء لا كما يجب .

فقال البديع : قَبِلَ الله عُذرك ؛ لكن وقفت بين قافاتٍ خشنةٍ ؛ كُلُّ قافٍ كجبل قاف !! ؛ فخذ الآن جزاءً عن قرضك ؛ وأداءً لفرضك :

مَـهْلاً أَبَا بَكْـرٍ فَـزَنْدُكَ أَضْيَقُ
وَاخْرَس فَإِنَّ أَخَاكَ حَيٌّ يُرْزَقُ
يَا أَحْمَقَاً وَكَفَاكَ تِلْكَ فَضِيحَةً
جَـرَّبْـتَ نَـارَ مَعَـرَّتِى هَل تحْـرِقُ

فقال له أبو بكر : (يا أحمقاً) لا يجوز ؛ فإنه لا ينصرف .

فقال البديع : لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه ؛ وللشّاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف ؛ وإن شئت قُلت : (يا كودناً) ؛ ثم قولك فى البيت (يا سيِّدى) ؛ ثم قُلت (تتقلّقُ) ؛ مدحت أم قدحت ؟!!! ؛ فإن اللفظين لا يركضان فى حلبةٍ !! .

فقال لهما الشّريف : قولا على منوال المتنبى :

أَهْـلاً بِـدَارٍ سَبَـاكَ أَغْـيَدُهَـا

قال البديع :

يَا نِعْمَةً لا تَزَالُ تَجْحَدُهَا وَمِنَّـةً لا تَزَالُ تَكْنُدُهَا

فقال أبو بكر : الكُنُود : قِلّة الخير لا الكُفران ؛ فكذَبهُ الجمع ؛ وقالوا : ما قرأت قوله تعالى ﴿ إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ - (العاديات/الآيَة : ٦) : أى : لكفور ؛ فقال له أبو بكر : أنا اكتسبت بفضلى دية أهل همذان ؛ فما الذى اكتسبت أنت بفضلك ؟!!!

فقال له البديع : أنت فى حرفة الكُدْيَة أحذق ؛ وبالاستماحة أحرى وأخلق ؛ فقطعه الكلام ؛ ثم أنشد القوَّال :

وَشَبَّهْنَـا بَنَفْسَجِ عَـارِضَيْـهِ بَقَـايَا اللَّـطْمِ فِى الخَـدِّ الرَّقِيـقِ

فقال الخوارزمىُّ : أنا أحفظ هذه القصيدة .

فقال البديع : أخطأت !! ؛ فإن البيت على غير هذه الصيغة ؛ وهى :

وَشَبَّهْنَـا بَنَفْسَجِ عَـارِضَيْـهِ بَقَايَا الوَشْمِ فِى الوَجْهِ الصَّفِيـقِ

فقال له أبو بكر : والله لأصفعنَّك ولو بعد حين .

فقال البديع : أنا أصفعك اليوم وتضربنى غداً ؛ اليوم خمر ؛ وغداً أمر ؛ وأنشد قول ابن الرومىّ :

رَأَيْتُ شَيْخَاً سَفِيهَاً   يَفُوقُ كُلَّ سَفِيهِ
وَقَد أَصَابَ شَبِيهَاً   لَهُ وَفَوْقَ الشَّبِيهِ

ثم أنشد البديع :

وَأَنْزَلَنِى طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ
إِذَا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرِءاً لا أُشَاكِلُهْ
أُحَامِقُهُ حَتَّى يُقَالَ سَجِيَّةٌ ؛ .
وَلَو كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعَاقِلُهْ

فأمال النُّعَاسُ الرُّؤوس ؛ وسكنت الألحان والنُّفُوس ؛ وسلب الرُّقاد الجُلوس ؛ فنام القوم كعادتهم فى ضيافات نيسابور ؛ وأصبحوا فتفرّقوا ؛ وبعض القوم يحكم بغلبة البديع ؛ وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمىّ ؛ وسعى الفضلاء بينهما بالصُّلح ؛ ودخل عليه البديع واعتذر وتاب واستغفر مما تقدم من ذنبه وما تأخّر ؛ وقال له البديع : بعد الكدر صفو ؛ وبعد الغيم صحو .

فعرض عليه الخوارزمىُّ الإقامة عنده سحابة يومه ؛ فأجابه البديع وأضافه الخوارزمىُّ .

وكان بعض الرُّؤساء مُستوحشاً من الخوارزمىّ ؛ وهيَّأ مجمعاً فى دار الشيخ السيِّد أبى القاسم الوزير ؛ وكان أبو القاسم فاضلاً ملء إهابه ؛ وحضر أبو الطيِّب سهل الصعلوكىُّ ؛ والسيِّد أبو الحُسين العالم ؛ فاستمال البديع

قلب السيِّد أبى الحُسين بقصيدةٍ قالها فى مدائح أهل البيت ؛ أولها :

يَا مَعْشَراً ضَرَبَ الزَّمَا نُ عَلَى مُعَرَّسِهِم خِيَامَهْ

ثم حضر المجلس القاضى أبو عمر البسطامىُّ ؛ وأبو القاسم بن حبيب ؛ والقاضى أبو الهيثم ؛ والشيخ أبو نصر بن المرزبان ؛ ومع الإمام أبى الطيِّب الفُقهاء والمُتصوِّفة ؛ وحضر أبو نصر الماسرجسىُّ مع أصحابه ؛ والشيخ أبو سعد الهمذانىُّ ؛ ودخل مع الخوارزمىِّ جمعٌ غفيرٌ من أصحابه ؛ فقيل لهما : أنشدا على منوال قول أبى الشيص :

أَبْقَى الزَّمَانُ بِهِ نُدُوبَ عِضَاضِ وَرَمَى سَوَادَ قُرُونِهِ بِبَيَاضِ

فابتدر الخوارزمىُّ ؛ فقال :

يَا قَاضِياً مَا مِثْلُهُ مِن قَاضِ أَنَا بِالَّذِى تَقْضِى عَلَيْنَا رَاضِ

منها :

وَلَقَد بُلِيتُ بِشَاعِرٍ مُتَهَتِّكٍ لا ؛ بَل بُلِيتُ بِنَابِ ذِئْبٍ غَاضِ

فقال البديع : ما معنى قولك (ذئب غاض) ؟!!

فقال أبو بكر : ما قلته ؛ فشهد عليه الحاضرون أنه قاله ؛ فقال أبو بكر : الذئب الغاضى : الذى يأكل الغضا .

فقال البديع : استنوق الذئب !! ؛ صار الذئب جملاً يأكل الغضا !! .

ثم دخل الرئيس أبو جعفر ؛ والقاضى أبو بكر الحيرىُّ ؛ والشيخ أبو زكريا ؛ والشيخ أبو الرشيد المُتكلِّم .

فقال الرئيس : قُولا على هذا النمط :

بَرَزَ الرَّبِيعُ لَنَا بِرَوْنَقِ مَائِهِ   فَانْظُر لِمَنْظَرِ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

وَالتُّرْبُ بَيْنَ مُمَسَّكٍ وَمُعَنْبَرٍ   مِن نُورِهِ بَل مَائِهِ وَرُوَائِهِ

ثم أنشد الخوارزميُّ على هذا النمط ؛ فلمَّا فرغ من إنشاده قال البديع للوزير والرئيس : لو أن رَجُلاً حلف بالطلاق أنِّى لا أقول شعراً ؛ ثم نظم تلك الأبيات التى قالها الخوارزميُّ : هل كُنتم تُطلِّقون امرأته عليه ؟!! ؛ فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ؛ ثم قلت : انقد علىَّ فى ما نظمت ؛ واحكم عليه كما حكمت ؛ فأخذ الأبيات ؛ وقال : لا يُقال نظرت لكذا ؛ ويقال : نظرت إلى كذا ؛ وأنت قلت : فانظر لمنظر ؛ وشبَّهت الطير بالمحصنات ؛ وهذا تشبيهٌ فاسدٌ ؛ ثم شبَّهتها بالمُغنيَّات حين قلت :

وَالطَّيْرُ مِثْلُ المُحْصَنَاتِ صَوَادِحٌ   مِثْلُ المُغَنِّى شَادِياً بِغِنَائِهِ

المحصنات كيف توصف بالغناء ؟!!

ثم قلت : (كالبحر فى تزخاره والغيث فى أمطاره) ؛ والغيث هو المطر ؛ فقال البديع : الغيث المطر والسَّحَاب ؛ وصدَّقهُ الحاضرون ؛ وأنكروا على الخوارزمىِّ .

فقال الإمام أبو الطيِّب : علمنا أىّ الرَّجُلين أفضل وأشعر .

فقام البديع وقبَّلَ رأس الخوارزمىِّ ويده ؛ وقال : اشهدوا أن الغلبة له ؛ قال ذلك على سبيل الاستهزاء ؛ وتفرَّق الناس واشتغلوا بتناول الطعام ؛ وأبو بكر ينطق عن كَبِدٍ حَرَّى ؛ والوزير يقول للبديع : ملكت فاسجح .

فلما قام أبو بكر أشار إلى البديع وقال : لأتركنَّك بين الميمات ؛ فقال : ما معنى الميمات ؟!!!

فقال : بين مهدومٍ ؛ مهزومٍ ؛ مغمومٍ ؛ محمومٍ ؛ مرجومٍ ؛ محرومٍ !!

فقال البديع :

لأتركنَّك بين الهيام ؛ والسَّقَام ؛ والسَّام ؛ والبرسام ؛ والجذام ؛ والسرسام ؛ وبين السينات : بين منحوس ؛ ومنخوس ؛ ومنكوس ؛ ومعكوس ؛ وبين الخاءات : من مطبوخ ؛ ومسلوخ ؛ ومشدوخ ؛ ومفسوخ ؛ وممسوخ ؛ وبين الباءات : بين مغلوب ؛ ومسلوب ؛ ومصلوب ؛ ومنكوب .

فخرج البديع وأصحاب الشافعيِّ يُعظِّمونه بالتقبيل والاستقبال ؛ والإكرام والإجلال ؛ وما خرج الخوارزميُّ حتى غابت الشمس ؛ وعاد إلى بيته ؛ وانخزل انخزالاً شديداً ؛ وانكسف باله ؛ وانخفض طرفه ؛ ولم يَحُل عليه الحول حتى خانه عمره !! ؛ وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة !!.)) .

.....

وَبَعْد :

فهل بُعَيْدَ هذا الذى ذُكِر ؛ هل نُسَلِّمُ بضعفِ الخوارزميِّ وفُسُولتِهِ أمام فُحُولةِ بديع الزَّمان الهمذانيِّ ؟!!!... ؛ من العبثِ أن نحكُمَ بذلكَ من دُونِ مُحاققةٍ ... ؛ فمن هو الخُوارزميُّ هذا ؟

قَالَ السُّيوطيُّ في « بُغية الوعاة في طبقات اللُّغويين والنُّحاة » ؛(جـ ١/ ١٢٥):

« ومولده سنة ثلاث وَعشرين وثلاثمائة ؛ وَخرج من وَطنه فِي حداثته ؛ وطوَّف البلاد ؛ ولَقيَ سيف الدولة بن حمدَان وخدمه ؛ وَورد بُخَارى ؛ وَصَحِبَ الوَزير أَبَا عَليّ البلعميَّ ؛ فَلم يحمده ؛ وهجاه ؛ وبنيسابور اتَّصل بالأمير أحْمد الميكاليّ ومدحه ؛ وقَصد سجستان ؛ ومدح واليها طَاهِر بن مُحَمَّد ؛ ثمَّ هجاه ؛ فحبسه ؛ ثمَّ خَلُصَ وَسَار إِلَى غرشستان ؛ فاتفق لَهُ مَعَ واليها مَا اتَّفق لَهُ مَعَ وَالِي سجستان ؛ وفارقه هاجياً لَهُ ؛ وَعَاد إِلَى نيسابور ؛ فقصد حَضْرَة الصاحب ؛ فربحت تِجَارَتُهُ ؛ وأوفده الصاحب بِكِتَابٍ إِلَى عضُد الدولة ؛ فَكَانَ سَبَب انتعاشه ؛ ثمَّ عَاد إِلَى نيسابور ؛ واستوطنها ؛ ودرس أهلُهَا عَلَيْهِ الأَدَب . » .

وفي « مُعجم الأُدباء » ؛(جـ ٦/ ٢٥٤٣):

« ـ محمد بن العبَّاس ؛ أبو بكر الخوارزميُّ :

الشاعر المشهور : يُقال له الطبرخزيُّ ؛ لأنه كانت أُمُّهُ من خوارزم وأبوه من طبرستان ؛ وكان ابن أخت محمد بن جرير الطبريِّ .

قال الحاكم في (تاريخه) : كان أوحد عصره في حفظ اللغة والشِّعر ؛ وكان يُذاكرني بالأسماء والكُنى حتى يحيِّرني من حفظه !! .

وقد أقام الخوارزميُّ بالشَّام مُدَّةً ؛ وسكن حلب ؛ وتُوفِّيَ بنيسابور سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .

قال ياقوت : قرأت فى آخر ديوانه له :

بِآمُلَ مَوْلِدِى ؛ وَبَنُو جَرِيرٍ
فَأَخْوَالِى وَيَحْكِى المَرْءُ خَالَهْ
فَهَا أَنَا رَافِضِىٌّ عَن تُرَاثٍ
وَغَيْرِى رَافِضِىٌّ عَن كَلالَهْ »

وقالَ صاحبُ « وفيات الأعيان » ؛ (جـ ٤ / ٤٠١) :

« وأبو بكر المذكور : أحد الشُّعراء المُجيدين الكبار المشاهير ؛ كان إماماً فى اللُّغة والأنساب .

أقام بالشام مُدَّةً ؛ وسكن بنواحى حلب ؛ وكان مُشاراً إليه فى عصره .

ويُحكى أنه قصد حضرة ابن عبَّاد وهو بأرجان ؛ فلما وصل إلى بابه قال لأحد حُجَّابه : قُل للصاحب على الباب أحد الأُدباء ؛ وهُو يستأذن فى الدُّخُول ؛ فدخل الحاجب وأعلمه ؛ فقال الصاحب : قُل له : قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىَّ من الأُدباء إلاَّ من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ؛ فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ؛ فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقُل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ ؛ فدخل الحاجبُ فأعاد عليه ما قال ؛ فقا الصاحب : هذا يريد أن يكون أبا بكرٍ الخوارزمىَّ . » .

قَالَ نِزَار : كَانَ مِن رِجَالاتِ الحِفْظِ فِى عَصْرِهِ .

وترجم لهُ الذهبىُّ فى « سير أعلام النُّبلاء » ؛ (جـ ١٢ / ٤٦٢ ؛ رقم الترجمة : ٣٥٩٦) ـ نُسْخَة دار الحديث ـ ؛ فقال :

« شَاعِرُ وَقتِهِ ... ؛ وَكَانَ مُشَاراً إِلَيْهِ فِى عَصْرِهِ. ... ؛ وَلَهُ ديوَانُ نظمٍ ؛ وَديوَانُ ترسُّلٍ ؛ ومُلَحٌ وَنوَادرٌ .

مَاتَ بِنَيْسَابُور : فِى رَمَضَان ؛ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِينَ وَثَلاَثِ مائَةٍ ؛ وَيُقَالُ : سَنَةَ ثَلاَثٍ وَتِسْعِين . » .

وقد ظفرت بترجمتهِ فى « يَتيمَـة الـدَّهْـر » ؛ (جـ ٤ / ٢٢٣ ـ ٢٧٧) ؛ وهـى ترجمةٌ طويلةٌ جِـدّاً ؛ أَظْفَرَت بما لا يُوجَدُ فى المصادرِ الأُخرى ؛ وهذا هو ما انتخبتهُ منها :

« ـ أَبو بكر مُحَمَّد بن الْعَبَّاس الْخَوَارِزْمِيُّ :

بَاقِعَة الدَّهْر ؛ وبحر الأَدَب ؛ وَعَلَم النَّـثر وَالنَّظم ؛ وعـالم الفضـل والظرف ؛ وَكَانَ يجمع بَين : الفصاحة العجيبة ؛ والبلاغة المُفيدة ؛ ويُحاضر بأخبار العَرَب وأيَّامها ؛ ودواوينها ؛ وَيُدَرِّس كُتُب : اللُّغَة ؛ والنَّحو ؛ وَالشِّعْر ؛ وَيتَكَلَّم بِكُـلِّ نادرة ؛ وَيَأْتِى بِكُلِّ فقرة ودُرَّة ؛ ويبلغ فِى مَحَاسِن الأَدَب كُلَّ مبلغ ؛ ويغلب على كُلِّ مُحسنٍ : بِحُسْنِ مُشاهدته ؛ وملاحة عِبَارَته ؛ ونعمة نغْمَته ؛ وبراعة جَدِّه ؛ وحلاوة هزله .

وديوان رسائله مُخَلَّدٌ سَائِر ؛ وَكَذَلِكَ ديوَان شِعره .

وَهَذِه كَلِمَاتٌ لَهُ تَجْرِى مجرى الأَمْثَال أخرجتها من رسائله :

ـ الشُّكْر على قدر الإِحْسَان ؛ والسِّلَع بِإِزَاءِ الأَثْمَان .

ـ الإِذكار حَيْثُ التناسى ؛ والتقاضى حَيْثُ التغاضى .

ـ النَّفْسُ مائلةٌ إِلَى أشكالها ؛ وَالطير وَاقعَةٌ على أَمْثَالهَا .

ـ الأَيَّام مِرْآةٌ للرِّجَال ؛ والأطوار معيار النَّقْص فيهم والكمال .

ـ العِشْرَة مجُاملة لا مُعَاملَة ؛ والمجُاملة لا تسع الاسْتِقْصَاء والكشف ؛ وَلا تحْتَمل الْحِسَاب وَالصَّرْف .

ـ الكَرِيم يَعَزُّ من حَيْثُ يهون ؛ وَالرُّمْح يشْتَدُّ بأسه حِين يلين .

ـ الاعْتِذَار فِي غير مَوْضِعه ذَنْب ؛ والتكلُّف مَعَ وُقُوع الثِّقَة عتب .

ـ الدَّوَاء لغير حَاجَةٍ إِلَيْهِ دَاء ؛ كَمَا أنه عِنْدَ الْحَاجة إِلَيْهِ شِفَاء .

ـ الاستقالة تَأتى على العثرات ؛ كَمَا أن الْحَسَنَات يُذْهبن السَّيِّئَات .

ـ الذَّنْب للعين العشواء : فِي محبَّة الظلماء ؛ وكراهية الضياء .

ـ فَم الْمَرِيض يستثقل وَقع الغذَاء ؛ ويستمرئ طعم المَاء .

ـ الْكَرِيم إِذا أَسَاءَ فَعَن خَطِيئَة ؛ وَإِذا أحسن فَعَن عمدٍ وَنِيَّة .

ـ الْحُرُّ إِذا جرح أَسَاءَ ؛ وَإِذا خرق رفا ؛ وَإِذا ضرَّ من جَانب : نفع من جَوَانِب .

ـ الْحُرُّ كريم الظَّفر : إِذا نَالَ أنال ؛ واللئيم سيئ الظفر : إِذا نَالَ استنال .

ـ الآبَاء أَبَوَان : أَبُو ولادَة ؛ وَأَبُو إِفَادَة : فَالأَوَّل سَبَب الْحَيَاة الجُسمانيَّة ؛ وَالثَّانِي سَبَب الْحَيَاة الرُّوحانيَّة .

ـ الغَيْرَة على الكُتُب من المكارم ؛ بل هِيَ أُخْتُ الغَيْرَة على الْمَحَارِم ؛ وَالبُخل بِالْعلمِ على غير أَهله قَضَاءٌ لحقِّه ؛ وَمَعْرِفَةٌ بفضله .

ـ الرَّجُل إِذا قَيَّدَهُ عِقَال الوجل : لم ينْطَلق نَحْو مَطِيَّة الأمل .

ـ المحجوج بِكُلِّ شَيْءٍ ينطق ؛ والغريق بِكُلِّ حَبل يَعْلَق .

ـ الْعَاقِل يخْتَار خير الشَّرَّيْن ؛ ويميل مَعَ أعدل الثقتين .

ـ الْحُرُّ وقاية الْحُرِّ من فقره ؛ وسلاحه على دهره .

ـ الدَّهْرُ غَرِيمٌ رُبَمَا يَفِى بِمَا يَعِد ؛ وَالزَّمَان حُبْلَى رُبَمَا يتئم فِيمَا يلد .

ـ الدَّهْرُ أصمُّ عَن الكَلام ؛ صبورٌ على وَقع سِهَام الملام ؛ يختصر العيدان ؛ ويهتصر الأغصان ؛ ويخترم الشُّبَّان ؛ ويُبلي الآمال والأبدان ؛ ويُلْحق من يكون بِمن كَان .

ـ الْحقُّ حَقٌّ وَإِن جَهِلَهُ الوَرَى ؛ وَالنَّهَار نَهَار وَإِن لم يره الأَعْمَى .

ـ الشُّجاع مُحَبَّبٌ حَتَّى إِلَى من يحاربه ؛ كَمَا أن الجبان مُبَغَّضٌ إِلَى من يُنَاسِبه ؛ وَكَذَلِكَ الْجواد خَفِيفٌ حَتَّى على قلب غَرِيمه ؛ والبخيل ثقيلٌ حَتَّى على قلب وَارثه وحميمه .

ـ وَرَاء الْغَيْبِ أقفال ؛ وللمنح والمحن أعمارٌ وآجال .

ـ وَهَذِه جُملَةٌ من أخباره تطرق لأشعاره :

أصله من طبرستان ؛ ومولده ومنشؤه خوارزم ؛ وكَانَ يتسم بالطبرىِّ ؛ ويُعرف بالخوارزمىِّ ؛ ويُلقَّب بالطبرخزمىِّ ؛ فَارق وَطنه فِى ريعان عُمُرِهِ وحداثة سِنِّه ؛ وَهُوَ قوىُّ الْمعرفَة ؛ قويم الأَدَب ؛ نَافِذ القريحة ؛ حسن الشِّعْر ؛ وَلم يزل يتقلَّب فِى البِلاد ؛ وَيدخُل كور العرَاق وَالشَّام ؛ وَيَأْخُذ عَن العُلَمَاء ؛ ويقتبس من الشُّعَرَاء ؛ ويستفيد من الفُضَلاء ؛ حَتَّى تخَرَّج ؛ وَخرج فَرد الدَّهْر من الأَدَب وَالشِّعر ؛ وَلَقِىَ سيف الدولة وخدمه ؛ واستفاد من يُمن حَضرته ؛ وَمضى على غُلوائه فِى الاضْطِرَاب والاغتراب ؛ وشرَّقَ بعد أن غرَّب ؛ وَورد بُخَارى ؛ وَصَحب أَبَا عَلىٍّ البلعمىَّ ؛ فَلم يحمد صحبته ؛ وفارقه وهجاه .

ووافى نيسابور ؛ فاتصل بالأمير أبى نصر أحْمَد بن عَلىٍّ المكالىٍّ ؛ واستكثر من مدحه ؛ وداخل أبَا الْحسن القزْوِينِىَّ ؛ وَأبَا مَنْصُور البَغوِىَّ ؛ وَأبا الْحسن الْحكمِىَّ ؛ فارتفق بهم ؛ وارتفق من الأَمِير أحْمد ؛ ومدحه ؛ ونادم كثير بن أحْمد .

ثمَّ قصد سجستان ؛ وَتمَكَّن من واليها أبى الحُسَيْن طَاهِر بن مُحَمَّد ؛ ومدحه ؛ وَأخذ صلته ؛ ثمَّ هجاه وأوحشه حَتَّى أطَالَ سجنه .

فَجعل الله لَهُ من مضيق الحَبْسِ مخرجاً ؛ فَنَهَضَ إِلَى طبرستان ؛ وَكَانَت حَاله مَعَ صَاحبهَا كهِىَ مَعَ طَاهِر بن شار .

ثمَّ إِنَّه عاود نيسابور ؛ وَأقَام بهَا إِلَى أن وُفِّقَ التَّوْفِيق كُلّهُ بِقصد حَضْرَة الصاحب بأصبهان ولقائه بمدحه ؛ فأنجحت سفرته ؛ وربحت تِجَارَته ؛ وَسَعُدَ جَدُّهُ بخدمته ومُداخلته ؛ والحصول فِى جُمْلَة نُدمائه الْمُختصِّين بِهِ ؛ فَلم يخل من ظلِّ إحسانه ووابله ؛ وغامر إنعامه وقابله ؛ وتزوَّد من كتابٍ إِلَى حَضْرَة عضُد الدولة بشيراز : مَا كَانَ سَبباً لارتياشه ويساره ؛ فَإِنَّهُ وجد قبولاً حسناً ؛ واستفاد مِنْهَا مَالاً كثيراً ؛ وَلما انْقَلب عَنْهَا بِالْغَنِيمَةِ البَارِدَة إِلَى نيسابور ؛ استوطنها ؛ واقتنى بهَا ضِيَاعاً وعقاراً ؛ وَدرَّت عَلَيْهِ أخلاف الدُّنْيَا من الْجِهَات ؛ وَحين عاود شيراز ؛ ورد مِنْهَا عَلَلاً بعد نَهْلٍ ؛ فأجرى لَهُ عِنْدَ انْصِرَافه رسماً يصل إِلَيْهِ فِى كُلِّ سنةٍ بنيسابور مَعَ المَال الَّذِى كَانَ يحُمل من فَارس إِلَى خُرَاسَان .

وَلم يزل يحَسُن حَالهُ من رَوَاءٍ وثروةٍ واستظهارٍ ؛ يُقيمُ للأدب سُوقاً ؛ ويُعيده غضّاً وريقاً ؛ ويُدرِّس ويملى ؛ ويُشعر ويروى ؛ وَيقسم أيَّامه بَين مجَالِس الدَّرْس ومجالس الأُنس .

وَكَانَ يتعصَّبُ لآل بويه تعصُّباً شَدِيداً ؛ ويغُضُّ من سُلْطَان خُرَاسَان ؛ وَيُطلق لِسَانه بِمَا لا يقدر عَلَيْهِ ؛ إِلَى أن كَانَت أَيَّام تاش الْحَاجِب ؛ وَرجع من خُرَاسَان إِلَى نيسابور مُنْهَزِماً ؛ فشمت بِهِ ؛ وَجعل يَقُول : قُبحاً لَهُ وللوزير أبى الحسن الْعُتْبِىُّ ؛ فأُبلغ الْعُتْبِىُّ أبياتاً منسوبةً إِلَى الْخَوَارِزْمِىِّ فِى هجائه ؛ وَلم يكُن قَالَهَا ؛ فكتب إِلَى تاش فِى أخذه ومُصادرته وَقطع لِسَانه ؛ وَإِلَى أبى الْمُظفَّر الرُّعينىُّ فِى مَعْنَاه ؛ وَكَانَ يَلِى البندرة بنيسابور إذ ذَاك ؛ فَتَولَّى حَبسه وتقييده ؛ وَأخذ خطَّهُ بِمِائَتى ألف دِرْهَم ؛ واستخرج بعض المَال ؛ وَأذِنَ لَهُ فِى الرُّجُوع إِلَى منزله مَعَ الْموكَّلين بِهِ ليحمل البَاقِى ؛ فاحتال عَلَيْهِم يَوْماً وشغلهم بِالطَّعَامِ وَالشَّرَاب ؛ وهرب مُتنكِّراً إِلَى حَضْرَة الصاحب بجرجان ؛ فتجلَّت عَنهُ غُمَّة الْخَطْب ؛ وانتعش فِى ذَلِك الفناء الرَّحْب ؛ وعاود العَادة المألوفة من المبارّ والأحبَّة ؛ وَاتفقَ قتل أبى الْحسن الْعُتْبِىّ ؛ وَقيام أبى الحسن الْمُزنِىّ مقَامه ؛ وَكَانَ من أشدِّ النَّاس حُبّاً للخوارزمىِّ ؛ فاستدعاه ؛ وَأكْرم مورده ومصدره ؛ وَكتب إِلَى نيسابور فِى رَدِّ مَا أُخِذَ مِنْهُ عَلَيْهِ ؛ فَفُعِلَ ؛ وزادت حَاله ؛ وَثَبت قدمه ؛ وَنظر إِلَيْهِ وُلاة الأمر بنيسابور بِعَين الحشمة والاحتشام ؛ وَالإِكْرَام والإعظام ؛ فارتفع مِقْدَاره ؛ وطاب عيشه ؛ إِلَى أن رُمِىَ فِى آخر أَيَّامه بِحجرٍ من الهمذانىِّ الْحَافِظ البديع ؛ وَبُلِىَ بِمُساجلته ومُناظرته

ومُناضلته ؛ وأعان الهمذانيَّ الْحَافِظ البديع عَلَيْهِ قومٌ من الْوُجُوه كَانُوا مُستوحشين مِنْهُ جداً ؛ فلاقى مَا لم يكُن فِي حسابه من مُباراة الْمُزِنِيّ وقُوَّتِهِ بِهِ ؛ وَأَنِفَ من تِلْكَ الحَال ؛ وانخزل انخزالاً شَدِيداً ؛ وكُسِفَ بالُه ؛ وانخفض طرفه .

وَلم يَحُل عَلَيْهِ الْحول حَتَّى خانه عُمُرُهُ ؛ وَنفذ قَضَاء الله تَعَالَى فِيهِ ؛ وَذَلِكَ فِي : شَوَّال ؛ سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ وثلاثمائة .

وَكَانَ مولده فِي سنة : ثَلَاث وَعشْرين وثلاثمائة .

ورثاه الهمذانيُّ بِأَبْيَاتٍ دَسَّ فِيهَا سِعَايَةً ثَانِيَةً !! . » .

قُلْتُ : كَانَ الخوارزميُّ أديباً مُبَرِّزاً ؛ طارت شُهرتهُ فى الآفاق ؛ وَعَرِفَ قدرهُ القاصى والدَّانى ؛ وَأَقَرَّ أهلُ العلم بِفُحُولتهِ وقُوَّتِهِ فيما كان يتعاطاهُ من عُلُومٍ .

قُلْتُ : ولقد كان شاعراً مُفْلَقاً ؛ لهُ أشعارٌ تقفُ بحذاءِ بعض أشعار المُتنبِّى .

أورد لهُ صاحبُ « تاريخ الإسلام » ؛ (جـ ٢٧ / ٦٩) ـ نُسخة تدمرى ـ هذين البيتين ؛ وما أبدعهما !! :

« ـ

مَضَت الشَّبِيبَةُ وَالحَبِيبَةُ فَالْتَقَى
دَمْعَانِ فِى الأَحْشَاءِ يَزْدَحِمَانِ

مَا أنْصفَتْنِى الحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِى
بِمُودِّعَيْنِ وَلَيْسَ لِى قَلْبَانِ » .

قُلْتُ : وما شَانُهُ إلاَّ عقيدتهُ الفاسدة .

قال صاحبُ « الوافى بالوفيات » ؛ (جـ ٣ / ١٦٠) :

« وَذكر أَبُو إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن عَلىٍّ الحُصرىُّ فِى كتاب النورين ؛ قَال : كَانَ أَبُو بكر الْخَوَارِزْمِىُّ رَافِضِيّاً غالياً ؛ وَفِى مرتبَة الكُفْر عَالِياً . » .

وَبَعْدُ ؛ فهذا هو الخُوارزمىُّ ؛ إمامٌ من أئمَّةِ العلم والمعرفة ... ؛ وإذا كان ذلك كذلك ؛ فهل كان بديع الزَّمان وهو فى هذه السِّنِّ الصغيرةِ أفحل من الخُوارزمىِّ الذى قضى أيَّام دهرهِ مُطالعةً واكتساباً لخفايا عُلُومهِ ؛ وأذْعَنَ لهُ رجالاتُ عصره ؟!!

قالَ محمد حُسين الأعرجى ـ الأُستاذ بجامعة آدم مسكيفج فى بوزنان ؛ بولندة ـ فى مُقدِّمة تحقيق « الأمثال المولَّدة » لأبى بكر الخُوارزمىِّ (ص : ٣٢ ـ ٣٩) ما نَصُّهُ :

« واستغلَّ حُسَّاد أبى بكر وخصومه المُناخ النفسىَّ السائد ؛ فوضعوا على لسان أبى بكر شعراً يُشمِّت فيه بالوزير ؛ وسعوا به إليه ؛ فأمر صاحب الجيش تاش بقطع لسان الخوارزمىِّ وبمصادرته ؛ وكتب بذلك إلى أبى المُظفَّر الرُّعينىِّ ؛ فتولَّى حبسه وتقييده ؛ وأخذ خَطَّهُ بمائتى ألف درهم ؛ واستخرج بعض المال ؛ وَأذِنَ له فى الرُّجُوع إلى منزله مع المُوكَّلين به ليُحمل الباقى ؛

فاحتال عليهم يوماً وشغلهم بالطعام والشّراب ؛ وهرب مُتنكّراً إلى حضرة الصاحب بجرجان ؛ وورد عليه فى هروبه كتابٌ من صديقه القديم ونديم لياليه : كثير بن أبى نصر أحمد الميكالىّ : يعرض عليه فيه أن يعود إلى داره بعد أن تلطّف بالأمير حتى سَلَّ منه السَّخيمة ؛ وحمله على أن اغتفر الجريمة .

ولكن أبابكر رفض ـ كما هو مُنتظرٌ منه ـ العرض ؛ ورأى فيه مكيدة قُصاراها أن تعود به إلى ما كان عليه .

ومكث أبوبكر فى حضرة الصاحب يُجدِّد عهده القديم بصاحبه ؛ ولكنَّ هذا المُكْثَ لم يكن طويلاً ؛ ولعلّه لم يبلغ السَّنة ؛ فقد قُتِلَ خصمه الوزير أبو الحُسَيْن العيبىُّ ؛ وقام مقامه أبو الحُسَيْن المُزَنِىُّ وزيراً ؛ وكان من أشدِّ الناس حُبّاً للخوارزمىّ ؛ فاستدعاه ؛ وأكرم مورده ومصدره ؛ وكتب إلى نيسابور فى رَدِّ ما أُخِذَ منه عليه ؛ ففُعل ؛ وزادت حاله .

وعاد صاحبنا إلى داره فى نيسابور ؛ وإلى نسق حياته فيها قبل نكبته ؛ حتى بلغ عدد تلاميذه فى هذه المرحلة شيئاً كثيراً ؛ وكان ذلك فى سنة ٣٧٢ هـ .

ولكنَّ عقارب الخصومة السياسيَّة لم تكن لتهدأ ـ كما يبدو ـ ؛ وما كان لها أن تهدأ ؛ لأنَّ دواعيها ما زالت قائمة ؛ إذ هى لم تكن قائمة على حَزَازَةٍ شخصيَّةٍ تموت بموت صاحبها أو بهلاك أصحابها ؛ ولم يكن المُقدَّر أن تسلك مثل هذه الخصومة طريقاً مُباشراً واضحاً إليه بعد إذ بسط عليه الوزير المُزَنِىُّ ظلّه ؛ فكان أن دُبِّرَت له مكيدة المناظرة بينه وبين بديع الزمان الهمذانىّ ؛

عسى أن يخمل ذكره ؛ (وأعان الهمذانيُّ ... عليه قومٌ من الوجوه كانوا مُستوحشين منه جدًّا) ؛ وينبغى لى أن أفيض فى أمر هذه المناظرة ووجوه الكيد لأبى بكر فيها ؛ فأقول :

إنَّهُ ورد على نيسابور بديع الزمان الهمذانيُّ ؛ وكان قد سُلِبَ فى الطريق إليها ؛ فكتب رُقْعَةً إلى أبى بكر ؛ فاستقبله فى داره استقبالاً لم يرض عنه بديع الزمان ؛ فقد كان يُريد من أبى بكر أن يقوم له عن مجلسه قياماً تامًّا !! ؛ وكان أبوبكر يرى أنه قد أجَلَّهُ بما فيه الكفاية ؛ ولم يرفع عليه فى المجلس أحداً سوى رَجُلٍ من ذُرِيَّة رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ؛ مما جعل فى نفس بديع الزمان ـ وهو لم يخلُ من سُكْرِ الشَّباب بعد ـ ؛ شيئا أقرب ما يكون إلى الاعتقاد بأنه لم يُوفَّ حقّه !! .

ويلفت النظر فى هذه المسألة برُمَّتها : أنَّ بديع الزمان وهو ابن أربع وعشرين سنة يوم جاء إلى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ يريد من أبى بكر أن يُوفيه فضله ؛ ثم ينسى أن لأبى بكر من الفضل والسِّنِّ ما يجعلان استقبال أبى بكر إيَّاه فى داره على غير معرفةٍ سابقةٍ تشريفاً ؟!! ؛ وإلاَّ فمن هو بديع الزمان يومئذٍ إزاء مكانة أبى بكر وفضله ؟!! .

تُرَى : أكان بديع الزمان يجهل هذا الأمر ؟!! ؛ أم أنَّ هُنالك جماعة من خصوم أبى بكر فى نيسابور يستغلُّون حداثة سِنِّ بديع الزمان وإعجابه الزائد بنفسه فيدفعون به إلى حيث يُريدون ؟!! .

أمَّا بديع الزمان ـ وهو يكاد يكون المصدر الوحيد فى رواية ما وقع له مع أبى بكر ـ ؛ فيعترف بأنَّ طائفة من الناس كانت تسعى إليه بما يتفوَّه به أبو بكر ؛ ويلغ البديع من تصديق ما يُنقل إليه أن كتب إلى أبى بكر رُقعةً يتهمه فيها بالتعالى عليه !! ؛ ويلغ أبوبكر ـ على ما يبدو ـ من الضيق بهذه المسألة الطارئة ؛ وَرُبَّما من العلم بما يُراد لها أن تصل إليه ؛ بحيث قال : « لو أنَّ بهذا البلد رَجُلاً تأخذه أريحيَّة الكرم ... ؛ يجمع ... » بينه وبين البديع ؛ فَتَلَقَّفَ خصومه قوله يُوجِّهونه الوجهة التى يرضونها ؛ ونشط من بينهم أبو الطَّيِّب سهل الصُّعلوكىُّ ؛ فجمع بين أبى بكر والبديع فى داره ؛ وحاول البديع أن يَجُرَّ أبابكر إلى شىءٍ مما يُمكن أن يُسمَّى مُناظرة فلم يستطع ؛ وَظَلَّ البديع ينتظر أن يُنْجِدَ هو وأبوبكر ـ كما يقول ـ فى الفضل وَيُغْوِر ؛ فكان انتظاره سراباً .

وَلَعَلَّ ما جعل أبا بكر يُحجم عن مُفاوضة البديع : علمه بما ينطوى عليه صدر أبى الطَّيِّب إزاءه .

أمَّا لماذا حضر داره ؛ واستجاب إلى دعوته : فلعلَّ ذلك كان ضرباً من مُجاملته ؛ وسعياً إلى التخلُّص من مُشكلة البديع الطارئة على أىِّ وجهٍ يكون ميسوراً .

وهكذا أخفقت المحاولة الأولى فى جَرِّ أبى بكر إلى حلبة البديع ؛ فانعقد العزم على محاولةٍ ثانيةٍ لا يرتاب بها كثيراً ؛ وأىُّ ريبةٍ فى مجلسٍ يعقده نقيب العلويين بنيسابور أبو علىٍّ للغناء ؛ ويكون من حُضَّاره البديع ؛ ثم يُدعى إليه

أبوبكر ؟!!! .

وكُوتِبَ أبوبكر بالحضور ؛ فاعتذر ؛ فما كان من أهل المجلس إلاَّ أن يخرجوا أبابكر ؛ فيبعثوا إليه بمركوبٍ يجيء به إليهم ؛ فدخل وهو يتحدَّث عن سباقٍ وعن حُبَالَةٍ وكأنه يعلم بما يُراد به ؛ ولكنَّه يُريد أن ينأى بنفسه عنه .

والحَقُّ أن حديث أبى بكر عن الفَخِّ الذى نُصِبَ له : حديثٌ أقرب إلى الحكمة ؛ فإنَّه وُضِعَ بين حالتين لا تُشرِّفه أية منهما :

- الأولى : أن يُناظر البديع وأن يغلبه ؛ ولكن أىُّ فضلٍ لأبى بكر فى هذا والبديع شَابٌّ فى أوَّل الطريق ؟!!! .

- والثانية : أن يغلبه البديع ؛ ولكن أىُّ حَرَجٍ سيلحق به بعد هذا وهو إمام عصره علماً وأدباً ؟!!! .

إن مجُرَّد رضاه أن يجلس من البديع مجلس المُناظر : فيه غَضٌّ من قيمته ؛ واعترافٌ بمكانة البديع ؛ ولكنَّ الحُبَالَة كانت قد أُعِدَّت بإحكامٍ .

وراح البديع يُلِحُّ على أبى بكر ؛ وأبوبكر يتحاماه ؛ حتى أذْعَنَ آخر الأمر ؛ وما كان له إلاَّ أن يُذْعِنَ ؛ وإلاَّ فُسِّرَ تحاميه بالعجز .

ولا أُرِيدُ أن أُصَدِّقَ ما نقله البديع مما دار فى هذا المجلس : من أنه أشعر من أبى بكر ؛ وأعلم باللغة منه ؛ وما إلى ذلك مما ساقه !! ؛ ولكنني أُرِيدُ أن أقول إنه كان قد أُعِدَّ لنهاية المجلس أن يحكم بعض القوم بغلبة البديع ؛ وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمىِّ .

ونهايةٌ مثل هذه من شأنها أن تُرْغِمَ صاحبنا على حضور مجلس مُناظرةٍ آخرٍ ؛ أو يُقِرُّ بالعجز ؛ (وكان بعض الرُّؤساء مُستوحشاً من الخوارزميِّ ؛ وهيَّأ مجمعاً فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير ؛ وحضر أبو الطيِّب سهل الصُّعلوكيُّ ؛ والسيِّد أبو الحسين العالم ؛ فاستمال البديع قلب السيد أبى الحسين بقصيدةٍ قالها فى أهل البيت ؛ ثم حضر المجلس القاضى أبو عمر البسطاميُّ ؛ وأبو القاسم بن حبيب ؛ والقاضى أبو الهيثم ؛ والشيخ أبو نصر ابن المرزبان ؛ وأبو نصر الماسرجسيُّ) .

وكان قد أُعِدَّ لهذا المجلس أن يحكم أبو الطيِّب والبسطاميُّ وصاحب الدار أبو القاسم المستوفى الوزير بغلبة البديع .

وأقول : إنه أُعِدَّ للمجلس هذه النهاية : لا للدِّفاع عن أبى بكر ؛ ولكن لأننى قرأت ما كتبه البديع نفسه عنها ؛ وما أثبته من كلامه وكلام أبى بكر ؛ فلم أجد فيه شيئاً ينتهى إلى هذا الحُكم !! ؛ اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون المُنصفون من حُضَّار المجلس قد اشتُرِيت ذممهم من قبل كما اشتُرِيت ذِمَّةُ أبى الحسين العالم بمديح أهل البيت ؛ فقد زَلَّ قلم البديع فقال عن حال أبى الحسين بعد سماعه القصيدة قبل حضور الخوارزميِّ : إنه : (انحلَّت له العُقدة ؛ وصار سِلْمَاً ؛ يُوسعنا حلماً) .

وأقول : (اشتُرِيت ذممهم) ؛ لأننى لا أستطيع أن أُصَدِّق ـ وقد قرأت شيئاً من شعر أبى بكر ـ أن قائله ـ أعنى الخوارزميَّ ـ قال فى المجلس (تسعة أبيات ... ؛ جمع فيها بين : إقواء ؛ وإكفاء ؛ وإخطاء ؛ وإيطاء) !! .

أمَّا ما أثبته البديع من نثره فى الدِّينار والدِّرهم ؛ فهو يُمكن أن يدخل فى عزائم السَّحَرَة وَرُقَى العقارب ؛ ولكنه لا يُمكن أن يكون له أدنى صلة بالفنِّ والنثر الفنِّىِّ ؛ إذ هو من قبيل قوله ـ وقد أثبته كما قلت ـ بنفسه : (الله شاء إن المحاضر ؛ صدور بها وتملأ المنابر ؛ ظهور لها وتفرغ الدفاتر ؛ وجوه بها ومشق المحابر ... ؛) ؛ فهل يُعقل أن يكون البديع قد غلب أبابكر بمثل هذا ؟!! .

أمَّا إذا لم تُشتر ذممهم ؛ فإنَّهم كانوا من انعدام الحِسِّ النقدىِّ فى تقويم النثر بمهوىً سحيقٍ !! .

ولم يكن لمثل هذه الحال أن تَسُرَّ أبابكر حتى ولو حُكِمَ له بالغلبة ؛ فأنف ـ كما هى طبيعة الأمور ـ منها ؛ (وانخزل انخزالاً شديداً ؛ وكُسِفَ باله ؛ وانخفض طَرْفُهُ ؛ ولم يَحُل عليه الحَوْل حتى خانه عمره ؛ ونفذ قضاء الله تعالى فيه .

وذلك فى شوَّال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة) ؛ فى نيسابور .

ولم يكتف البديع بوفاته ؛ ولا من هم وراءه ؛ فرثاه (بأبياتٍ دَسَّ فيها سِعَايَةً ثانيةً) !! .

أمَّا هذه السعاية ؛ فهى ـ كما تُستَشَفُّ من الأبيات ـ : تحريض أولى الأمر فى نيسابور على مُصادرة ما خَلَّفَهُ أبوبكر لابنه من إرثٍ !! :

تَحَمَّلْتُ فِيكَ مِنَ الحُزْنِ مَا
تَحَمَّلَهُ ابْنُكَ مِن صَامِتٍ

وهكذا طُويت صفحة حياة أبي بكر ـ عليه رحمة الله ـ بمُؤامرةٍ من خصومه ـ وهو ابن ستين سنة أو يكاد ـ ؛ نفَّذها لهم بديع الزمان الهمذانيُّ ؛ وواصلها بعد وفاته ؛ وهو ـ بزعمه ـ يرثيه !! ـ » .أهـ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ :

ـ ثَالِثاً : المَرْحَلَةُ الأَخِيرَةُ فِى العَلاقَةِ بَيْنَ

الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

جاء فى «مُعجم الأُدباء» ؛ (ج ١ / ٢٤٥ ـ ٢٥١) :

« قال البديع يمدح الصحابة ويهجو الخُوارزميَّ ويجُيبه عن قصيدةٍ رُويت له فى الطعن عليهم :

وكَّلـنـى بالـهـمِّ والـكـآبـهْ
. ؛ طعَّـانـةٌ لعَّـانـةٌ سبَّابـهْ
للسَّلف الصالح والصحابهْ
أسـاء سمـعاً فـأسـاء جـابـهْ

تـأملوا يـا كُبـراء الشيـعـهْ
لعشرة الإسلام والشريعهْ
أتُستحلُّ هـذه الـوقـيـعـهْ
فى بيع الكفر وأهل البيعَهْ

فكيف من صدَّق بالرِّسالهْ
.. ؛ وقام للدين بكُلِّ آلهْ
وأحرز الله يد العُقبى لهْ
ذلكمُ الصِّدِّيق لا محالهْ

إمام من أُجمع فى السقيفهْ
قطعاً عليه أنَّهُ الخليفهْ
ناهيك من آثاره الشريفهْ
فى ردِّه كيد بنى حنيفهْ

سَل الجبال الشُّمَّ والبحارا
.. ؛ وسائل المنبر والمنارا
واستعلم الآفاق والأقطارا
من أظهر الدِّين بها شعارا

ثم سَل الفُرس وبيت النَّار
من الذى فَلَّ شَبَا الكُفَّار
هل هذه البيض من الآثار
إلا لثانى المُصطفى فى الغار ؟!!

وسائل الإسلامَ من قوَّاه
وقال إذ لم تَقُل الأفواه
واستنجز الوعد فأومى الله
من قام لمَّا قعدوا إلا هو ؟!!

ثانى النَّبِىِّ فى سِنِى الولادهْ
ثانيه فى الغارة بعد العادهْ
ثانيه فى الدعوة والشَّهادهْ
ثانيه فى القبر بلا وِسَادهْ

ثانيه فى منزلة الزَّعامه
نُبُوَّةٌ أفضت إلى إمامه
أتأملُ الجَنَّة يا شتَّامه ؟!!
ليست بمأواك ولا كرامه

إنَّ امرءا أثنى عليه المُصطفى
ثَمَّتَ والاهُ الوصىُّ المُرتضى
واجتمعت على معاليه الورى
واختاره خليفةً رَبُّ العُلَى

.... ؛ واتَّبَعَتْهُ أُمَّـةُ الأُمِّيّ
... ؛ وبايعته راحة الوصيّ
وباسمه استسقى حَيَا الوسميّ
ما ضَرَّهُ هجو الخُوارزميّ

سبحان من لم يُلقم الصخر فَمَهْ
. ؛ ولم يُعده حجراً ما أحمله
يا نَـذِلُ يا مَأْبُونُ أفطرت فَمَهْ
لَشَدَّ ما اشتاقت إليك الحُطَمَهْ

إِنَّ أمير المُؤمنين المرتضى
وجعفرا الصادق أو مُوسى الرضى
. ؛ لو سمعوك بالخنا مُعَرِّضَا
ما ادخروا عنك الحُسَام المُنتضى

ويلك لِمْ تنبح يا كلب القمر ؟!!
ما لك يا مأبون تغتاب عُمر ؟!!
سيِّد من صام وحجّ واعتمر ؟!!
صرَّح بإلحادك لا تمش الخمر ؟!!

يا من هجا الصِّدِّيق والفاروقا
كيما يُقيم عند قومٍ سُوقا
نفخت يا طبل علينا بُوقا
فما لك اليوم كذا موهوقا ؟!!

إنك فى الطعن على الشيخينِ
والقدح فى السيِّد ذى النُّورين
لَوَاهِنُ الظهر سَخِينُ العَيْنِ
مُعترِضٌ للحَيْنِ بعد الحَيْنِ

هلا شغلت باستك المَغْلُومَهْ ؟!!
وهامةٍ تحملها مشؤومهْ ؟!!
هلا نهتك الوجنة الموشومهْ ؟!!
عن مُشترى الخلد ببئر رُومهْ ؟!!

كفى من الغيبة أدنى شَمَّهْ
من استجاز القدح فى الأئمهْ
... ؛ ولم يُعظِّم أمناء الأُمَّهْ
.. ؛ فلا تلُومُوه ولُوموا أُمَّهْ

ما لك يا نذل وللزَّكِيَّةْ ؟!!
عائشة الرَّاضية المرضيَّةْ ؟!!
يا ساقط الغيرة والحَمِيَّةْ !!
ألم تكن للمُصطفى حَظِيَّةْ ؟!!

من مُبلغٌ عنِّى الخُوارزميًّا
.؛ يُخبره أن ابنه عليًّا
قد اشترينا منه لحما نيًّا
بشرط أن يُفهمنا المَعْنِيَّا

يا أسَدَ الخلوة خنزير الملا
مالك فى الحُرِّى تقود الجملا ؟!!
يا ذا الذى يثلبنى إذا خلا
وفى الخلا أطعمه ما فى الخلا

وقلت لما احتفل المضمارُ
واحتفَّت الأسماع والأبصارُ
سوف ترى إذا انجلى الغُبارُ
..؛ أفرسٌ تحتى أم حمارُ .» .

ـ عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ.... ؛
مَعَ البَدِيعِ الهَمَذَانِىِّ

٧ ـ ذِكْرُ أَصْحَابِهِ ؛ وَتَلامِذَتِهِ ؛
وَمَن حَمَلَ عَنْهُ العِلْم :

قَالَ ياقُوت فى «مُعجم الأُدباء» ؛(ج ١ / ٢٣٤) :

« روى عنه : أخوه أبو سعد بن الصَّفَّار ؛ والقاضى أبو محمد عبد الله بن الحُسين النيسابورىُّ . » .

وفى «مُعجم الأُدباء» ؛(ج ١ / ٢٣٤) :

« قال المُؤلِّف : وقد رأيت ذكر البديع فى عِدَّة تصانيف من كُتُبِ العُلماء ؛ فلم يستقص أحدٌ خبره أحسن مما اقتصَّه الثعالبىُّ ؛ وكان قد لقيه ؛ وكتب عنه . » .

٨ ـ ذِكْرُ ثَنَاءِ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا وَصَفُوهُ بِهِ :

قَالَ شيرْويه ـ على ما فى « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٥) ـ :
« كان فى الحديث ثقة ؛ ويُتَّهم بمذهب الأشعريَّة . » .
قَالَ نِزَار : مَن كَانَ ثِقَةً فِى الحَدِيثِ ؛ فَهُوَ ثِقَةٌ فِى كُلِّ أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الحَدِيثِ لا يُوَثِّقُونَ إِلاَّ مَن قُبِلَت جَمِيعُ أَحْوَالِهِ ؛ وَرُضِيَت كَافَّةُ أَخْبَارِهِ .
ثُمَّ قَالَ شيرويه ـ على ما فى « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٥) ـ :
« وسمعت بعض أصحابنا يقول : كان يعرف الرِّجال والمُتُون . » .
وَقَالَ صاحبُ « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٥) :

« وقد رأيت ذكر البديع فى عِدَّة تصانيف من كُتُب العُلماء ؛ فلم يستقص أحدٌ خبره أحسن مما اقتصَّه الثعالبيُّ ؛ وكان قد لقيه وكتب عنه ؛ فنقلت خبره من كتابه ؛ ولخَّصته من بعض سجعه .

قال : بديع الزمان ؛ ومُعجزة همذان ؛ ونادرة الفلك ؛ وبكر عطارد ؛ وفرد الدهر ؛ وَغُرَّة العصر ؛ ولم نر نظيره : فى الذكاء ؛ وسُرعة الخاطر ؛ وشرف الطبع ؛ وصفاء الذهن ؛ وقُوَّة النَّفس ؛ ولم نُدرك نظيره فى طُرف النثر ومُلحه ؛ وغُرر النَّظم ونُكته ؛ وكان صاحب عجائب وبدائع ؛ فمنها : أنه كان يُنشد الشِّعْر لم يسمعه قط - وهو أكثر من خمسين بيتاً - إلاَّ مرَّةً واحدةً ؛ فيحفظها كُلَّها ؛ ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرها لا يخرم حرفاً !! ؛ وينظر فى الأربعة والخمسة الأوراق من كتابٍ لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدةً خفيفةً ؛ ثم يَهُذُّهَا عن ظهر قلبه هَذّاً ويسردها سرداً !! ؛ وهذا حاله فى الكُتُبِ الواردة وغيرها !! ؛ وكان يُقترح عليه عمل قصيدةٍ وإنشاء رسالةٍ فى معنىً بديعٍ وبابٍ غريبٍ ؛ فيفرغ منها فى الوقت والساعة !! ؛ وكان ربما كتب الكتاب المُقترح عليه ؛ فيبتدىء بآخره ؛ ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا إلى أوَّله ؛ ويُخرجه كأحسن شىءٍ وأملحه ؛ ويُوشِّح القصيدة الفريدة من قيله بالرسالة الشريفة من إنشائه ؛ فيقرأ من النَّظم النثر ؛ ويروى من النثر النظم ؛ ويُعطى القوافى الكثيرة ؛ فيصل بها الأبيات الرشيقة ؛ ويُقترح عليه كُلُّ عويصٍ وعسيرٍ من النظم والنثر ؛ فيرتجله أسرع من الطَّرف ؛ على ريقٍ لا يبلعه ؛ ونفسٍ لا يقطعه ؛ وكلامه كُلُّهُ عفو السَّاعة ؛ وفيض اليد ؛ ومُسارقة القلم ؛ ومُسابقة اليد للفم .

وكان يُترجم ما يُقترح عليه من الأبيات الفارسيَّة المُشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربيَّة ؛ فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع !! ؛ إلى عجائبٍ كثيرةٍ لا تُحصى !! ؛ ولطائف تطول أن تُستقصى .

وكان مع ذلك مقبول الصورة ؛ حسن العشرة . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » - أيضاً - (ج ١ / ٢٣٧) :

« وذكر أبو إسحاق الحُصرىُّ فى كتاب (زهر الآداب » وقد ذكر أبا الفضل الهمذانىَّ بديع الزمان ؛ فقال :

وهذا اسمٌ وافق مُسمَّاه ؛ ولفظٌ طابق معناه ؛ كلامه غضُّ المكاسر ؛ أنيق الجواهر ؛ يكاد الهواء يسرقه لُطفاً ؛ والهوى يعشقه ظرفاً . » .

وقال صاحبُ « وفيات الأعيان » ؛ (ج ١ / ١٢٧ - ١٢٨) :

« الحافظ المعروف ببديع الزمان ؛ صاحب الرَّسائل الرائقة ؛ والمقامات الفائقة ؛ وعلى منواله نسج الحريرىُّ مقاماته ؛ واحتذى حذوه ؛ واقتفى أثره ؛ واعترف فى خُطبته بفضله ؛ وأنه الذى أرشده إلى سُلُوك ذلك المنهج ؛ وهو أحد الفُضلاء الفُصحاء ... ؛ وله الرسائل البديعة ؛ والنَّظم المليح . » .

وجاء بهذا المصدر أيضاً (جـ١ / ٤٠٢) :

« وكان مع هذا كُلِّهُ مقبول الصورة ؛ خفيف الرُّوح ؛ حسن العشرة ؛ شريف النفس ؛ كريم العهد ؛ خالص الود ؛ حلو الصداقة ؛ مُر العداوة . » .

قَالَ نِزَار : كانَ أُعْجُوبَةً فِى الحِفْظِ ؛ قَلَّ أن تَرَى العُيُونُ مِثْلَهُ فِى هَذَا الأَمْر ؛ وَفِى سُرْعَةِ البَدِيهَةِ ؛ وَقُوَّةِ الخَاطِرِ ؛ عَلاَّمَةٌ فِى فُنُونِهِ الَّتِى مَارَسَهَا .

٩ ـ نَمَاذِجُ مِن كِتَابَاتِهِ وَطَرِيقَتِهِ الأُسْلُوبِيَّة :

جاء فى « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩) :

« وكتب بديع الزمان إلى مُستميحٍ عاوده مراراً ؛ وقال له : لِمَ لا تُديم الجود بالذهب ؛ كما تُديمه بالادب ؟!!

فكتب البديع :

عافاك الله ؛ مثل الإنسان فى الإحسان ؛ مثل الأشجار فى الإثمار ؛ وسبيل من ابتدأ بالحسنة ؛ أن يُرَفِّهَ إلى السَّنَة ؛ وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ؛ وهُما فُؤادى ويدى ؛ أما اليد فتولع بالجود ؛ وأما الفؤاد فيتعلّق بالوفود ؛ ولكن هذا الخُلق النَّفيس ؛ لا يُساعده الكيس ؛ وهذا الخُلق الكريم ؛ لا يحتمله الغريم ؛ ولا قرابة بين الأدب والذهب ؛ فلم جمعت بينهما ؟!!

والأدب لا يُمكن ثرده فى قصعة ؛ ولا صرفه فى ثمن سلعة ؛ قد جهدت جهدى بالطبَّاخ أن يطبخ لى من جيمية الشمَّاخ لوناً فلم يفعل ؛ وبالقصَّاب أن يذبح (أدب الكُتَّاب) فلم يقبل ؛ وأنشدت فى الحمَّام : ديوان أبى تمام ؛ فلم ينجع ؛ ودفعت إلى الحجَّام : مُقطَّعات اللحام ؛ فلم يأخذ ؛ واُحتِيجَ فى البيت : إلى شىءٍ من الزيت ؛ فأنشدت ألفا ومائتى بيت : من شعر الكُميت ؛ فلم تُغْنِ ؛ ودفعت أرجوزة العجَّاج ؛ فى توابل السكباج ؛ فلم تنفع !! .

وأنت لم تقنع !! ؛ فما أصنع ؟!!

فإن كنت تحسب اختلافك إلىَّ : إفضالاً منك علىَّ ؛ فراحتى ألاَّ تطرق ساحتى ؛ وفرجى ألاَّ تجى .

والسلام . ›› .

وفى ‹‹ وفيات الأعيان ›› ؛ (جـ ١ / ١٢٧) :

‹‹ ـ وله من تعزية :

الموتُ خطبٌ قد عَظُمَ حتى هان ؛ ومَسٌّ قد خَشُنَ حتى لان ؛ والدُّنيا قد تنكَّرت حتى صار الموت أخف خطوبها ؛ وجنت حتى صار أصغر ذنوبها ؛ فلتنظُر يمنةً : هل ترى إلاَّ محنة ؟!! ؛ ثم انظر يسرة : هل ترى إلا حسرة ؟!! . ›› .

وقالَ صاحبُ ‹‹ وفيات الأعيان ›› ـ أيْضاً ـ ؛ (جـ ١ / ٤٠٢ ـ ٤٠٣) :

‹‹ وأنا ذاكرٌ من طُرَفِ مُلَحِهِ ؛ ولفظ غُرَرِه : ما هو غذاء القلب ؛ وقوت النفس ؛ ومادة الأُنس .

ـ فصل :

وفيما يقول الناس من حكايتهم : أن أعرابيّاً نام ليلةً عن جمله ؛ ففقده ؛ فلمَّا طلع القمر وجده ؛ فرفع إلى الله يده ؛ وقال : أشهدُ لقد أعليته ؛ وجعلت السماء بيته !! ؛ ثم نظر إلى القمر ؛ فقال : إن الله صوَّرك ؛ ونوَّرك ؛ وعلى البُرُوج دوَّرك ؛ وإذا شاء كوَّرك ؛ ولا أعلم مزيداً أسأله لك !! ؛ ولئن أهديت قلبى سُرُوراً ؛ لقد أهدى الله إليك نوراً .

والشيخ ذلك القمر المُنير : لقد أعلى الله قدره ؛ وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره ؛ ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه : فجعله فوقهم ؛ وجعلهم دُونه .

ـ فصول قصار :

ما كل مائعٍ ماء ؛ ولا كُلُّ سقف سماء ؛ ولا كل محمدٍ رَسُول .

وله :

المرء لا يُعرف بِبُرْدِه ؛ والسيف لا يُعرف بِغِمْدِه . » .

قَالَ نِزَار : كَانَ الهَمَذَانِيُّ إِمَامَاً فِى اللُّغَةِ ؛ وَمُقَدَّمَاً فِى الأَدَب ؛ صَارَت الأَسَالِيبُ طَوْعَ بَنَانِهِ ؛ وَمَا مِن شَارِدَةٍ وَلا وَارِدَةٍ إِلاَّ وَتَجْرِى عَلَى لِسَانِهِ .

ثُمَّ :

١٠ ـ شَاعِرِيَّةُ البَدِيع ؛ وَمَنْزِلَتُهُ فِى فَنِّ القَرِيض :

جاء فى « معجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٨) :

« وقد ذكره أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الجبَّار الفامى فى (تاريخ هراة) من تأليفه ؛ وأنشد للبديع :

خَـرَجَ الأَمِيرُ وَمِـن وَرَاءِ رِكَـابِهِ
غَيْرِى وَعَـزَّ عَلَىَّ أن لَـم أَخْـرُجِ !!
أَصْبَحْتُ لا أَدْرِى أَأَدْعُو طَغْمَشِى
أم يَكْتَلِينى أم أَصِيحُ بِنَدْغَجِى !؟
وَبَقِيتُ لا أَدْرِى أَأَرْكَـبُ أَبْرَشِى
أم أَدْهَمِى أم أَشْبَهِى أم دَيْزَجِى !؟
يَا سَيِّدَ الأُمَـرَاءِ مَا لِى خَيْـمَةٌ
؛ إِلاَّ السَّمَاءَ إِلَى ذُرَاهَـا أَلْتَجِى !!

كَتِفِى بَعِيرِى إِن ظَعَنْتُ ؛ وَمَفْرَشِى
كُمِّى ؛ وَجُنْحُ اللَّيْلِ مَطْرَحُ هَوْدَجِى !! » .

وفى « وفيات الأعيان » ؛ (جـ ١ / ١٢٧) :

« ومن شعره من جُملة قصيدةٍ طويلةٍ :

وكَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ الغَيْثِ مُنْسَكِباً
لَو كَانَ طَلْقُ المُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا
وَالدَّهْرُ لَو لَم يَخُن ؛ وَالشَّمْسُ لَو نَطَقَت
وَاللَّيْثُ لَو لَم يُصَد ؛ وَالبَحْرُ لَو عَذُبَا » .

قُلْتُ : وَقَد نُسِبَ لَهُ مِنَ الشِّعْرِ مَا لَيْسَ لَهُ

قَالَ ابنُ خَلِّكَان فى « الوفيات » ؛ (جـ ١ / ١٢٧) :

« ومن شعره فى ذَمِّ همذان ؛ ثم وجدتهما لأبى العلاء محمد بن علىٍّ بن حسول الهمذانىِّ :

هَمَذَانُ لِى بَلَدٌ أَقُولُ بِفَضْلِهِ
.. ؛ لَكِنَّهُ مِن أَقْبَحِ البُلْدَانِ
صِبْيَانُهُ فِى القُبْحِ مِثْلُ شُيُوخِهِ
وَشُيُوخُهُ فِى العَقْلِ كَالصِّبْيَانِ » .

١١ ـ قِصَّةُ مَقَامَاتِ الهَمَذَانِيِّ :

قَالَ يَاقُوتُ الحمويُّ في «معجم الأدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨) :

« ولَمَّا رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دُريد الأزديَّ أغرب بأربعين حديثاً ؛ وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ؛ وانتخبها من معادن فكره ؛ وأبداها للأبصار والبصائر ؛ وأهداها إلى الأفكار والضمائر ؛ في معارض حُوشيَّة ؛ وألفاظٍ عنجهيَّة ؛ فجاء أكثرها تنبو عن قبوله الطباع ؛ ولا تُرفع له حُجُبُ الأسماع ؛ وتوسَّع فيها ؛ إذ صرَّف ألفاظها ومعانيها ؛ في وُجُوهٍ مُختلفة ؛ وَضُرُوبٍ مُنصرفة : عارضه بأربعين مقامةٍ في الكُدْيَة ؛ تذوب ظرفاً ؛ وتقطر حُسناً ؛ لا مُناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ؛ عطف مُساجلتها ؛ ووقف مُناقلتها : بين رَجُلَيْن : سمَّى أحدهما : عيسى بن هشام ؛ والآخر : أبا الفتح الإسكندريَّ ؛ وجعلهما يتهاديان الدُّر ؛ ويتنافثان السِّحْر ؛ في معانٍ تُضحك الحزين ؛ وَتحرِّك الرَّصين ؛ وتُطالع منها كل طريفة ؛ ويُوقف منها على كل لطيفة ؛ وربما أفرد بعضهما بالحكاية ؛ وخصَّ أحدهما بالرواية . » .

١٢ ـ وَفَاةُ الهَمَذَانِيِّ :

في «مُعجم الأدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٥) :

« ويُقال : جُنَّ في آخر عُمره إلى أن مات . » .

قُلْتُ : « وَيُقَال » : صِيغَةٌ تَمْرِيضِيَّةٌ لا عَلاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اليَقِين !!.

قَالَ الحمويُّ في «مُعجم الأدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٦) :

« وحين بلغ أَشُدَّهُ وأربى على أربعين سنة : ناداه الله ؛ فلبَّاه ؛ وفارق دُنياه .

في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » .

وَقَالَ في (جـ ١ / ٢٣٥) :

« وُلِدَ في ثالث عشر جُمادى الآخرة ؛ سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

ومات في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » .

قُلْتُ : اُخْتُرِمَ وَهُوَ فِي شَبَابِهِ لَم يَزَل ؛ وَلَو طَالَ عُمُرُهُ لَجَادَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَأَهْلِهَا ... ؛ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار .

وَقَد ذَهَبَ بَعْضُهُم فِي سَبَبِ مَوْتِهِ مَذَاهِب ؛ كَحَالِ مَن يَمُوتُ مِنَ العَبَاقِرَةِ بَعْدَ أن يَمْلأَ الدُّنيَا وَيَشْغَلَ النَّاس ؛ فَقَد جَاءَ فِي « وفيات الأعيان » ؛ (ج ١ / ١٢٩) :

« وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموماً بمدينة هراة .

ـ رحمه الله تعالى ـ .

ثم وجدت في آخر رسائله التي جمعها الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست ؛ ما مثاله :

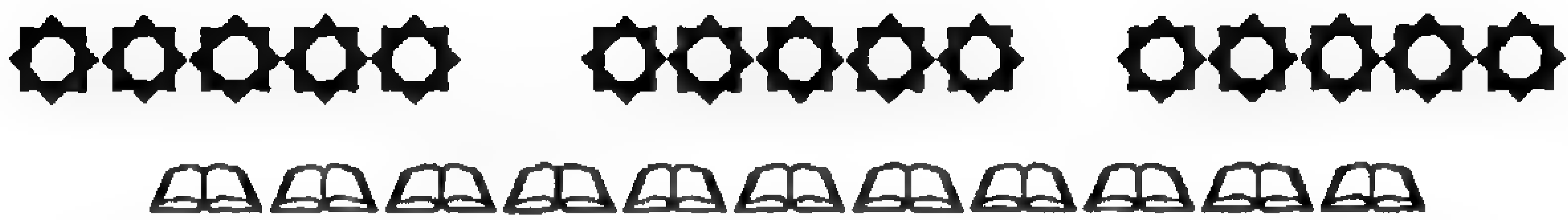
هذا آخر الرسائل ؛ وتُوفِّيَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ بهراة : يوم الجُمعة ؛ الحادي عشر من جُمادى الآخرة ؛ سنة ثمان وتسعين وثلثمائة .

قال الحاكم المذكور : وسمعت الثِّقات يحكون أنه مات من السكتة ؛ وَعُجِّلَ دفنه ؛ فأفاق في قبره !! ؛ وَسُمِعَ صوته بالليل !! ؛ وأنه نُبِشَ عنه ؛ فوجدوه قد قبض على لحيته ؛ ومات من هول القبر !! . » .

قُلْتُ : رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ؛ وَلِلَّهِ دَرُّ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ خَلِّكَان : حِينَ قَالَ فِي آخِرِ تَرْجَمَتِهِ بِـ « وَفَيَاتِهِ » ؛ (جـ١ / ٤٠٢) :

« قامت عليه نوادب الأدب ؛ وانثلم حَدُّ القلم !! .

على أنه ما مات من لم يمت ذكره ؛ ولقد خُلِّدَ من بقيَ على الأيام نثره ونظمه . » .



المُنْتَخَب

مِن مَقَامَات

بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانِىّ

﴿ ت ٣٩٨هـ ﴾

❁ - المَقَامَةُ القَرِيضِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَام ؛ قَال : طَرَحَتْنِى النَّوَى مَطَارِحَهَا ؛ حَتَّى إِذَا وَطِئْتُ جُرْجَان الأَقْصى ؛ فاستَظْهَرْتُ عَلَى الأَيَّامِ بِضِياعٍ أَجَلْتُ فِيهاَ يَدَ العِمَارةِ ؛ وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلى التِّجَارَةِ ؛ وَحَانُوتٍ جَعَلْتُهُ مَثَابَةً ؛ وَرُفْقَةٍ اتَّخَذْتُهَا صَحَابَةً ؛ وَجَعَلْتُ لِلدَّار ؛ حَاشِيَتَى النَّهَار ؛ وللحَانُوتِ بَيْنَهُمَا ؛ فَجَلَسْنَا يَوْماً نَتَذَاكَرُ القَرِيضَ وَأَهْلَهُ ؛ وَتِلْقَاءَنَا شَابٌّ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ ؛ وَيَسْكُتُ وَكَأَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ ؛ حَتَّى إِذَا مَالَ الكَلاَمُ بِنَا مَيْلَهُ ؛ وَجَرَّ الْجِدَالُ فِينَا ذَيْلَهُ ؛ قَال : قَدْ أَصَبْتُم عُذَيْقَهُ ؛ وَوَافَيْتُم جُذَيْلَهُ ؛ وَلَوْ شِئْتُ لَلَفَظْتُ وَأَفَضْتُ ؛ وَلَوْ قُلْتُ لأَصْدَرْتُ وَأَوْرَدْتُ ؛ وَلَجَلَوْتُ الْحقَّ فى مَعْرَضِ بَيَانٍ يُسْمِعُ الصُّمَّ ؛ وَيُنْزِلُ العُصْمَ ؛ فقُلْتُ : يَا فَاضِل ! ؛ أُدْنُ فَقَدْ مَنَّيْت ؛ وَهَات فَقَدْ أَثْنَيت ؛ فَدَنَا ؛ وَقَال : سَلُونِى أُجِبْكُم ؛ وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُم ؛ فَقُلْنَا : مَا تَقُولُ فِى امْرِىءِ القَيس؟ ؛ قَال : هُوَ أَوَّلُ مَن وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا ؛ وَاغْتَدَى وَالطَّيرُ فِى وَكُنَاتِهَا ؛ وَوَصَفَ الْخيلَ بِصِفَاتِهَا ؛ وَلَمْ يَقُل الشِّعْرَ كَاسِياً ؛ وَلَمْ يُجِد القَوْلَ رَاغِباً ؛ فَفَضَلَ مَن تَفَتَّقَ لِلْحِيلةِ لِسَانُهُ ؛ وَانْتَجَعَ لِلرَّغْبَة بَنَانُهُ ؛ قُلْنَا : فما تَقُولُ فِى النَّابِغَة؟ ؛ قَال : يَثْلِبُ إِذَا حَنِقَ ؛ وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ ؛ وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ ؛ فَلاَ يَرْمِى إِلاَّ صَائِباً ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى زُهَيرٍ ؟ ؛ قَال : يُذِيبُ الشِّعرَ وَالشِّعْرُ يُذِيبُهُ ؛ وَيَدعُو القَولَ وَالسِّحْرُ يُجِيبُهُ ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى طَرَفَةَ ؟ ؛ قَالَ : هُوَ مَاءُ الأَشْعَارِ وَطِينَتُهَا ؛ وَكَنْزُ القَوَافِى وَمَدِينَتُهَا ؛ مَاتَ وَلَمْ تَظْهَر

أَسْرَارُ دَفَاتِرِه ؛ وَلَم تُفْتَح أَغْلاَقُ خَزَائِنِه ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَق؟ أَيُّهُمَا أَسْبَق؟ ؛ فَقَالَ : جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْراً ؛ وَأَغْزَرُ غَزْرًا ؛ وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْرًا ؛ وَأَكْثَرُ فَخْراً ؛ وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْواً ؛ وَأَشْرَفُ يَوْماً ؛ وَالْفَرَزْدَقُ أَكْثَرُ رَوْماً ؛ وَأَكْرَمُ قَوْماً ؛ وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى ؛ وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى ؛ وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى ؛ وَالْفَرزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى ؛ وَإِذَا احْتَقَرَ أَزرَى ؛ وَإِذا وصَفَ أوفَى ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى الْمُحْدَثِينَ مِنَ الشُّعَراءِ والمُتَقَدِّمينَ مِنهُم ؟ ؛ قال : الْمُتَقَدِّمونَ أَشْرفُ لَفْظاً ؛ وَأَكثرُ من المَعَانى حَظّاً ؛ وَالْمُتَأَخِّرونَ أَلْطَفُ صُنْعاً ؛ وَأَرَقُّ نَسْجاً ؛ قُلْنا : فَلَو أَرَيْتَ مِن أَشْعارِك ؛ وَرَوَيْتَ لَنا مِن أَخْبارِك ؟ ؛ قالَ : خُذْهُما فى معْرِضٍ واحِدٍ ؛ وَقال :

أَمَا تَـرَوْنِى أَتَغَشَّى طِمْرَا
مُمْتَطِياً فِى الضُّرِّ أَمْراً مُرًّا
مُضْطَبِناً عَلَى اللَّيَالِى غِمَرَا
مُلاقِياً مِنْهَا صُرُوفاً حُمْرَا
أَقْصَى أَمَانِيَّ طُلُوعُ الشِّعْرَى
فَقَد عُنِينَا بِالأَمَانِى دَهْرَا
وَكَانَ هَذَا الحُرُّ أَعْلَى قَدْرَا
وَمَاءُ هَذَا الوَجْهِ أَغْلَى سِعْرَا
ضَرَبْتُ لِلسُّرَّا قِبَاباً خُضْرَا
؛ فِى دَارِ دَارَا وَإِوَانِ كِسْرَى

فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنٍ ظَهْرَا
وَعَادَ عُرْفُ العَيْشِ عِنْدِي نُكْرَا
لَم يُبْقِ مِن وَفْرِي إِلاَّ ذِكْرَا
ثُمَّ إِلَى اليَوْمِ هَلُمَّ جَرَّا ؛ .
لَوْلا عَجُوزٌ لِي بِسُرَّ مَن رَا
وَأَفْرُخٌ دونَ جِبَالِ بُصْرَى
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِم ضُرَّا
قَتَلْتَ يَا سَادَةُ نَفْسِي صَبْرَا

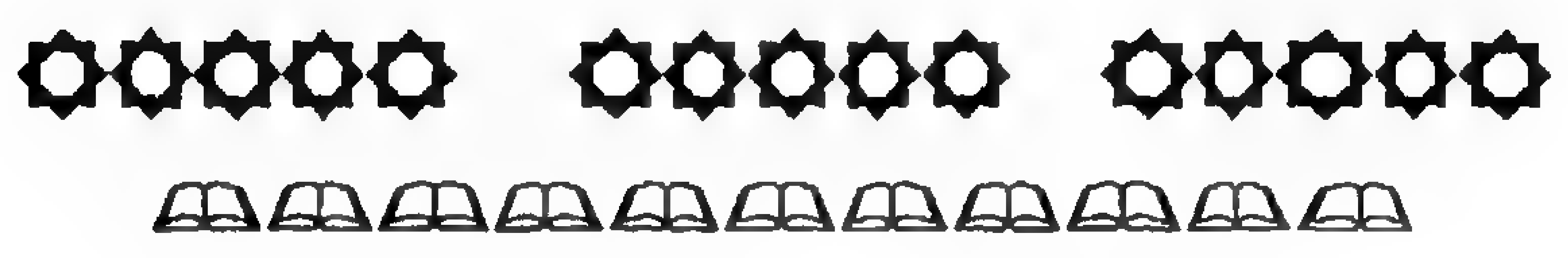
قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ :

فَانَلْتُهُ مَا تَاح ؛ وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاح ؛ فَجَعَلْتُ أَنفيهِ وَأُثبتُه ؛ وَأَنْكِرُهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُه ؛ ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَاياه ؛ فَقُلْتُ : الإِسْكَنْدَرِيُّ وَاللَّه !! ؛ فَقَدْ كَانَ فَارَقَنَا خِشْفاً ؛ وَوَافانا جِلْفاً ؛ وَنَهَضْتُ عَلى إِثْرِه ؛ ثُمَّ قَبَضْتُ عَلَى خَصْرِه ؛ وَقُلْتُ : أَلَسْتَ أَبَا الفَتْحِ ؟!! ؛ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِين ؟!! ؛ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بِسُرَّ مَنْ رَا ؟!!.

فَضَحِكَ إِلَيَّ وَقَال :

وَيْحَكَ هَذَا الزَّمَان زُورُ
فَلا يَغُرَّنَّكَ الغُرُورُ

لاَ تَلْتَزِمْ حَالَةً ؛ وَلَكِنْ
دُرْ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ



❁ - الْمَقَامَةُ البَلْخِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسى بْنُ هِشَام ؛ قَال : نَهَضَتْ بِى إِلى بَلخَ تِجَارَةُ الْبَزِّ ؛ فَوَرَدْتُهَا وَأَنَا بِعُذْرَةِ الشَّبَابِ ؛ وَبَالِ الفَرَاغِ ؛ وَحِلْيَةِ الثَّرْوَةِ ؛ لا يُهِمُّنِى إِلاَّ مُهْرَةُ فِكْرٍ أَسْتَقِيدُهَا ؛ أَوْ شَرُودٌ مِنَ الكَلِمِ أَصِيدُهَا ؛ فَمَا اسْتَأْذَنَ عَلَى سَمْعِى مَسَافَةَ مُقَامِى ؛ أَفْصَحُ مِن كَلامى ؛ وَلَمَّا حَنَى الْفِراقُ بِنَاقُوسَهِ أو كَاد ؛ دَخَلَ عَلَىَّ شَابٌّ فى زِىٍّ مِلءِ العَيْن ؛ وَلِحيَةٍ تَشُوكُ الأَخْدَعَيْن ؛ وَطَرْفٍ قَد شَرِبَ مَاءَ الرَّافِدَيْن ؛ وَلَقِيَنِى مِنَ الْبِرِّ فِى السَّناء ؛ بِمَا زِدْتُهُ فِى الثَّنَاء ؛ ثُمَّ قَال : أَظَعْناً تُرِيدُ ؟ ؛ فَقُلْتُ : إِى وَاللهِ ؛ فَقَال : أَخْصَبَ رَائِدُك ؛ وَلاَ ضَلَّ قَائِدُك ؛ فَمَتَى عَزَمْتَ ؟ ؛ فَقُلْتُ : غَدَاةَ غَدٍ ؛ فَقَال :

صَبَاحُ اللهِ لا صُبْحُ انطِلاقِ
وَطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

فأَيْنَ تُرِيدُ ؟ ؛ قُلْتُ : الوَطَن ؛ فَقَال : بَلَّغْت الوَطَن ؛ وَقَضَيْتَ الوَطَر ؛ فَمَتَى العَوْدُ ؟ ؛ قُلْتُ : القَابِل ؛ فقَال : طَوَيْتُ الرَّبْط ؛ وَثَنَيْتَ الْخَيْط ؛ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الكَرَمِ ؟ ؛ فَقُلْتُ : بِحَيْثُ أَرَدْتَ ؛ فَقَال : إِذَا أَرْجَعَكَ اللهُ سَالِماً مِن هَذَا الطَّرِيق ؛ فَاستَصْحِبْ لى عَدُوّاً فى بُرْدَةِ صَدِيق ؛ مِن نِجَار الصُّفْر ؛ يَدْعُو إِلى الكُفْر ؛ وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفر ؛ كَدَارَةِ العَيْن ؛ يَحُطُّ ثِقْلَ الدَّيْن ؛ وَيُنافِقُ بِوَجْهَيْن .

قَالَ عِيسى بْنُ هِشَام : فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَلْتَمِسُ دِيناراً ؛ فَقُلْتُ : لَكَ ذلِك نَقْداً ؛ وَمِثْلُهُ وَعْداً ؛ فَأَنْشأ يَقُول :

رَأيُكَ مِمَّا خَطَبْتُ أَعْلَى
لا زِلْتَ لِلمَكْرُمَاتِ أَهْلا
صَلُبْتَ عُوداً ؛ وَدُمْتَ جُوداً
وَفُقْتَ فَرْعاً ؛ وَطِبْتَ أَصْلا
لا أَستَطِيعُ العَطَاءَ حَمْلاً
؛وَلا أُطِيقُ السُّؤَالَ ثِقْلا
قَصُرْتُ عَن مُنْتَهَاكَ ظَنّاً
وَطُلْتَ عَمَّا ظَنَنْتُ فِعْلا
يَا رُجْمَةَ الدَّهْرِ وَالمَعَالِى
لا لَقِىَ الدَّهْرُ مِنْكَ ثُكْلا

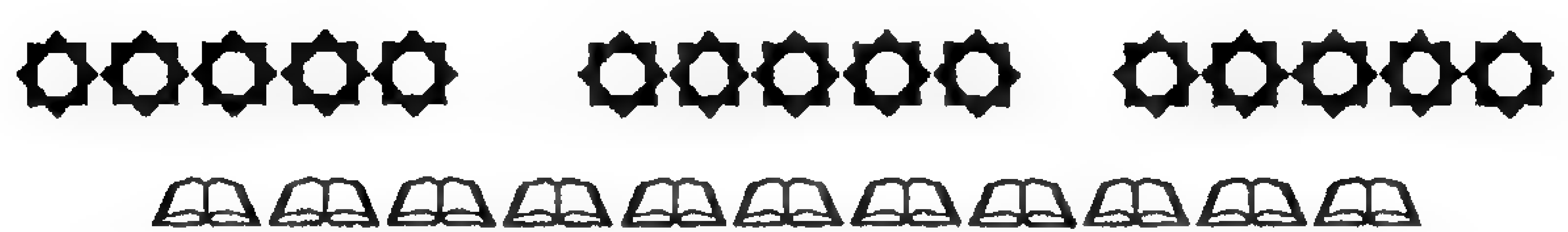
قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَام : فَنَلْتُهُ الدِّينَارَ ؛ وَقُلتُ : أَينَ مَنْبِتُ هَذا الفَضْل ؟ ؛ فَقَالَ : نَمَتْنِى قُرَيشٌ ؛ وَمَهَّدَ لِىَ الشَّرفُ فِى بَطَائِحِهَا .

فَقالَ بَعْضُ مَن حَضَر : أَلَسْتَ بِأَبِى الْفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِىِّ ؟! ؛ أَلَمْ أَرَكَ بِالْعِراق ؟ ؛ تَطُوفُ فِى الأَسْواق ؟! ؛ مُكَدِياً بِالأَوْرَاق ؟!!

فَأَنْشَأَ يَقُول:

إِنَّ لِلَّـهِ عَبِيداً أَخَذُوا الْعُمْرَ خَلِيطَا

فَهُمُ يُمْسُونَ أَعْرَا بًا ؛ وَيُضْحُونَ نَبِيطَا



۞ - المَقَامَةُ الكُوفِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ ؛ قَال :

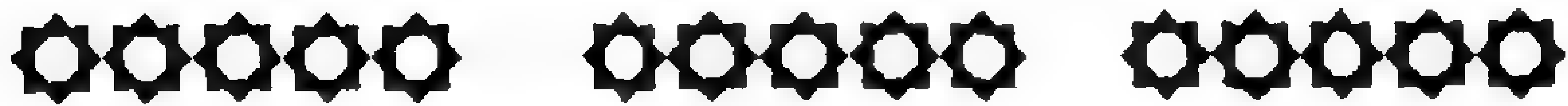
كُنتُ وَأَنَا فَتِيُّ السِّنِّ أَشُدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَايَةٍ ؛ وَأَرْكِضُ طَرْفِي إِلَى كُلِّ غِوَايَةٍ ؛ حَتَّى شَرِبْتُ مِنَ العُمْرِ سَائِغَهُ ؛ وَلَبِسْتُ مِنَ الدَّهْرِ سابِغَهُ ؛ فَلَمَّا انْصَاحَ النَّهَارُ بِجَانِبِ لَيْلِي ؛ وَجَمَعْتُ للمَعَادِ ذَيْلِي ؛ وَطِئْتُ ظَهْرَ المَرُوضَةِ ؛ لأداءِ المَفْرُوضَةِ ؛ وَصَحِبَنِي فِي الطَّرِيقِ رَفِيقٌ لَمْ أُنْكِرْهُ مِن سُوءٍ ؛ فَلَمَّا تَجَالَيْنَا ؛ وَخَبَّرْنا بِحالَيْنا ؛ سَفَرَتِ القِصَّةُ عَن أَصْلٍ كُوفِيٍّ ؛ وَمَذْهَبٍ صُوفِيٍّ ؛ وَسِرْنا ؛ فَلَمَّا أَحَلَّتْنا الكُوفَةُ مِلْنا إِلى دَارِهِ ؛ وَدَخلْنَاهَا وَقَدْ بَقَلَ وَجْهُ النَّهَارِ وَاخْضَرَّ جَانِبُهُ ؛ وَلَما اغْتَمَضَ جَفْنُ اللَّيْلِ وَطَرَّ شَارِبُهُ ؛ قُرِعَ عَلَيْنا الباب ؛ فَقُلْنا : مَنِ القارِعُ المُنْتَاب ؟ ؛ فقالَ : وَفْدُ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ ؛ وَفَلُّ الجُوعِ وَطَرِيدُهُ ؛ وَحُرٌّ قَادَهُ الضُّرُّ ؛ والزَّمَنُ المُرُّ ؛ وَضَيْفٌ وَطْؤُهُ خَفِيف ؛ وَضَالَّتُهُ رَغِيف ؛ وَجَارٌ يَسْتَعْدِي عَلى الجُوعِ ؛ وَالجَيبِ المَرْقُوعِ ؛ وَغَرِيبٌ أُوقِدَتِ النَّارُ عَلى سَفَرِهِ ؛ وَنَبَحَ العَوَّاءُ عَلَى أَثَرِهِ ؛ وَنُبِذَتْ خَلْفَهُ الحُصَيَّات ؛ وَكُنِسَتْ بَعْدَهُ العَرَصات ؛ فَنِضْوُهُ طَلِيح ؛ وَعَيْشُهُ تَبْرِيح ؛ وَمِن دُونِ فَرْخَيْهِ مَهامِهُ فِيح .

قَالَ عِيسى بْنُ هِشَامٍ : فَقَبَضْتُ مِن كِيسى قَبْضَةَ اللَّيْث ؛ وَبَعَثْتُها إِلَيهِ ؛ وَقُلْتُ : زِدْنا سُؤَالاً ؛ نَزِدْكَ نَوَالاً ؛ فَقَال : ما عُرِضَ عَرْفُ العُود ؛ عَلى أَحَرَّ مِن نَارِ الجُود ؛ وَلا لُقِيَ وَفْدُ البِر ؛ بِأَحْسَنَ مِن بَرِيدِ الشُّكْر ؛ وَمَن مَلَكَ الفَضْلَ فَلْيُوَاس ؛ فَلَن يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاس ؛ وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللهُ آمَالَك ؛

وَجَعَلَ اليَدَ العُلْيا لَك .

قَالَ عِيسى بْنُ هِشام : فَفَتَحْنا لَهُ البَابَ ؛ وَقُلْنا : ادْخُلْ ؛ فَإِذا هُوَ وَاللهِ شَيْخُنا أَبو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ !! ؛ فَقُلْتُ : يا أَبا الفَتْح !! ؛ شَدَّ ما بَلَغتْ مِنْكَ الخصَاصَة ؛ وَهذا الزِّيُّ خَاصَّة ؛ فَتَبَسَّمَ ؛ وَأَنْشأ يَقول :

لاَ يَغُرَّنَّكَ الَّذِي
أَنَا فِيهِ مِنَ الطَّلَبْ
أَنَا فِي ثَرْوَةٍ تُشَـ
قُّ لَهَا بُرْدَةُ الطَّرَبْ
أَنَا لَو شِئْتُ لاتَّخَذْ
تُ سُقُوفاً مِنَ الذَّهَبْ



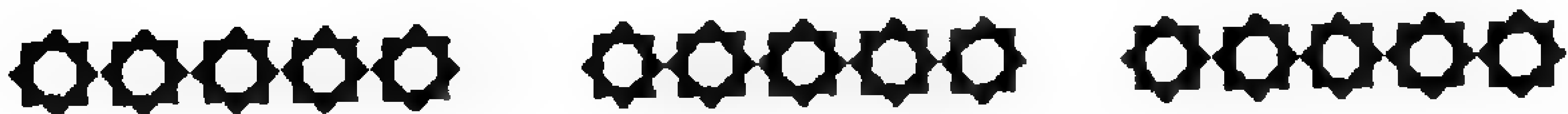

۞ - المَقَامَةُ البَغْدَاذِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ ؛ قَال :

اشْتَهَيْتُ الأَزَاذ ؛ وأَنَا بِبَغْدَاذ ؛ وَلَيسَ مَعِي عَقْدٌ عَلَى نَقْد ؛ فَخَرَجْتُ أَنْتَهِزُ مَحَالَّهُ ؛ حَتَّى أَحَلَّنِي الكَرْخ ؛ فَإِذَا أَنَا بِسَوادِيٍّ يَسُوقُ بِالجَهْدِ حِمارَهُ ؛ وَيُطَرِّفُ بِالعَقْدِ إِزَارَهُ ؛ فَقُلْتُ : ظَفِرْنَا وَاللهِ بِصَيْد !! ؛ وَحَيَّاكَ اللهُ أَبَا زَيْد ؛ مِن أَيْنَ أَقْبَلْت؟ ؛ وَأَيْنَ نَزَلْت؟ ؛ وَمَتَى وَافَيْت؟ ؛ وَهَلُمَّ إِلَى البَيْت ؛ فَقَالَ السَّوادِيُّ : لَسْتُ بِأَبِي زَيْد !! ؛ وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْد ؛ فَقُلْتُ : نَعَم ؛ لَعَنَ اللهُ الشَّيطَان !! ؛ وَأَبْعَدَ النِّسْيان !! ؛ أَنْسَانِيكَ طُولُ العَهْد ؛ وَاتِّصَالُ البُعْد !! ؛ فَكَيْفَ حَالُ أَبِيك ؟!! ؛ أَشَابٌّ كَعَهْدِي؟ ؛ أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ ؛ فَقَالَ : قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِه ؛ وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللهُ إِلَى جَنَّتِه ؛ فَقُلْتُ : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون !! ؛ وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم !! ؛ وَمَدَدْتُ يَدَ البِدَار ؛ إِلى الصِّدَار ؛ أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ ؛ فَقَبَضَ السَّوادِيُّ عَلى خَصْرِي بِجُمْعِهِ ؛ وَقَالَ : نَشَدْتُكَ اللهَ لا مَزَّقْتَهُ !! ؛ فَقُلْتُ : هَلُمَّ إِلى البَيْتِ نُصِبْ غَدَاءً ؛ أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِواءً ؛ وَالسُّوقُ أَقْرَبُ ؛ وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ ؛ فَاسْتَفَزَّتْهُ حُمَةُ القَرَم ؛ وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقَم ؛ وَطَمِع ؛ وَلَم يَعْلَم أَنَّهُ وَقَع !! ؛ ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقاً ؛ وَتَتَسَايَلُ جُوذَابَاتُهُ مَرَقاً ؛ فَقُلْتُ : افْرِزْ لأَبِي زَيْدٍ مِن هَذا الشِّواء ؛ ثُمَّ زِنْ لَهُ مِن تِلْكَ الحَلْواء ؛ واخْتَرْ لَهُ مِن تِلْكَ الأَطْبَاق ؛ وانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاق ؛ وَرُشَّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِن مَاءِ السُّمَّاق ؛ لِيأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيّاً ؛ فَأَنْحَى الشَّوَّاءُ بِسَاطُورِهِ ؛

عَلَى زُبْدَةِ تَنُّورِهِ ؛ فَجَعَلَها كَالكُحْلِ سَحْقاً ؛ وَكَالطَّحْنِ دَقّاً ؛ ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ ؛ ولا يَئِسَ وَلا يَئِسْتُ ؛ حَتَّى استَوفَيْنَا ؛ وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الحَلْوَى : زِنْ لأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِينجِ رِطْلَيْن ؛ فَهُوَ أَجْرَى فِي الحُلُوقِ ؛ وَأَمْضَى فِي العُرُوقِ ؛ وَلْيَكُن لَيْلِي العُمْرِ ؛ يَوْمِيَّ النَّشْرِ ؛ رَقِيقَ القِشْرِ ؛ كَثِيفَ الحَشْوِ ؛ لُؤْلُؤِيَّ الدُّهْنِ ؛ كَوْكَبِيَّ اللَّوْنِ ؛ يَذُوبُ كَالصَّمْغِ ؛ قَبْلَ المَضْغِ ؛ لِيَأْكُلَهُ أَبو زَيْدٍ هَنِيّاً ؛ قَالَ : فَوَزَنَهُ ؛ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعدْتُ ؛ وَجَرَّدَ وَجَرَّدْتُ ؛ حَتى اسْتَوْفَيْنَاه ؛ ثُمَّ قُلْتُ : يَا أَبَا زَيْدٍ !! ؛ مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعْشَعُ بِالثَّلْجِ ؛ لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَّةَ ؛ وَيَفْثأَ هذِهِ اللُّقَمَ الحَارَّةَ ؛ اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نَأتِيكَ بِسَقَّاء ؛ يَأتِيكَ بِشَرْبَةِ ماء ؛ ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ ولاَ يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ ؛ فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ ؛ فَاعْتَلَقَ الشَّوَّاءُ بِإِزَارِهِ ؛ وَقَالَ : أَيْنَ ثَمَنُ ما أَكَلْتَ ؟!! ؛ فَقَالَ أَبو زَيْدٍ : أَكَلْتُهُ ضَيْفاً ؛ فَلَكَمَهُ لَكْمَة ؛ وَثَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَة ؛ ثُمَّ قَالَ الشَّوَّاءُ : هَاكَ !! ؛ وَمَتَى دَعَوْنَاكَ ؟!! ؛ زِنْ يَا أَخَا القِحَةِ عِشْرِين ؛ فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عُقَدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ : كَمْ قُلْتُ لِذَاكَ القُرَيْد ؛ أَنَا أَبُو عُبَيْد !! ؛ وَهُوَ يَقُولُ : أَنْتَ أَبُو زَيْد !! ؛ فَأَنْشَدْتُ :

اعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَهْ ... لاَ تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَهْ
وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لاَ مَحَالَهْ




۞- المَقَامَةُ الوَعْظِيَّة

حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ:

بَيْنَا أَنا بِالْبَصْرَةِ أَمِيسُ؛ حَتَّى أَدَّانِى السَّيْرُ إِلَى فُرْضَةٍ قَدْ كَثُرَ فِيها قَوْمٌ عَلَى قَائِمٍ يَعِظُهُم؛ وَهُوَ يَقُول: أَيُّها النَّاسُ ؟!!؛ إِنَّكُمْ لَمْ تُتْرَكُوا سُدَى؛ وَإِنَّ مَعَ اليَوْمِ غَداً؛ وَإِنَّكُمْ وَارِدُو هُوَّة؛ فَأَعِدُّوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّة؛ وَإِنَّ بَعْدَ المَعَاشِ مَعاداً؛ فَأَعِدُّوا لهُ زَاداً؛ أَلا لاَ عُذْرَ فَقَدْ بُيِّنَت لَكُمُ المَحَجَّة؛ وَأُخِذَت عَلَيْكُمُ الحُجَّة؛ مِنَ السَّماءِ بِالخَبَر؛ وَمِنَ الأَرْضِ بَالعِبَر؛ أَلا وَإِنَّ الَّذِى بَدَأَ الخَلْقَ عَلِيماً؛ يُحْيِى العَظامَ رَمِيماً؛ أَلا وَإِنَّ الدُّنْيا دَارُ جِهَاز؛ وَقَنْطَرَةُ جَوَاز؛ مَن عَبَرَها سَلِم؛ وَمَنْ عَمَرَها نَدِم؛ أَلا وَقَد نَصَبَت لَكُمُ الفَخَّ وَنَثَرَت لَكُمُ الْحَبَّ؛ فَمَن يَرْتَع؛ يَقَع؛ وَمَن يَلْقُط؛ يَسْقُط؛ أَلا وَإِنَّ الفَقْرَ حِلْيَةُ نَبِيِّكُم فَاكْتَسُوهَا؛ وَالغِنَى حُلَّةُ الطُّغْيَانِ فَلاَ تَلْبَسُوها؛ كَذَبَت ظُنُونُ المُلْحِدِين؛ الَّذِينَ جَحَدُوا الدِّين؛ وَجَعَلُوا القُرآنَ عِضِين؛ إِنَّ بَعْدَ الحَدثِ جَدَثاً؛ وَإِنَّكُم لَم تُخْلَقُوا عَبَثاً؛ فَحَذَارِ حَرَّ النَّار؛ وَبِدَار عُقْبَى الدَّار؛ أَلا وَإِنَّ العِلْمَ أَحْسَنُ عَلَى عِلاَّتِهِ؛ وَالجَهْلَ أَقْبَحُ عَلَى حَالاتِهِ؛ وَإِنَّكُمْ أَشْقَى مَن أَظَلَّتْهُ السَّماء؛ إِنْ شَقِىَ بِكُمُ العُلَماء؛ النَّاسُ بِأَئِمَّتِهم؛ فَإِنِ انْقَادُوا بِأَزِمَّتِهِم؛ نَجَوْا بِذِمَّتِهم؛ وَالنَّاسُ رَجُلاَنِ: عَالِمٌ يَرْعَى؛ وَمُتَعَلِّمٌ يَسْعَى؛ وَالبَاقُونَ هَامِلُ نَعَام؛ وَرَاتِعُ أَنْعَام؛ وَيْلُ عَالِ أَمِرَ مِن سَافِلِه؛ وَعَالِمِ شَىْءٍ مِن جَاهِلِه؛ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ عَلِىَّ بْنَ الحُسَيْنِ كَانَ قَائِماً يَعِظُ النَّاسَ وَيَقُول: يا نَفْسُ حَتَّامَ إِلَى الحَيَاةِ رُكُونُك ؟!!؛

وَإِلَى الدُّنْيَا وَعِمَارَتِهَا سُكُونُك ؟!! ؛ أما اعتَبَرْتَ بِمَنْ مَضَى مِن أَسْلافِك ؟!! ؛ وَبِمَن وَارَتْهُ الأَرْضُ مِنْ أُلاَّفِك ؟!! ؛ وَمَن فُجِعْتَ بِهِ مِن إِخْوَانِك ؟!! ؛ وَنُقِلَ إِلَى دَارِ البِلَى مِن أَقْرَانِك ؟!!

فَهُـم فِي بُطُونِ الأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا
مَحَاسِنُهُـم فِيهَـا بَـوَالٍ دَوَاثِـرُ
خَلَت دُورُهُم مِنْهُم وَأَقْوَتْ عِرَاصُهُم
وَسَاقَتْهُـمُ نَحْوَ المَنَايَا المَقَادِرُ
وَخَلَّوْا عَنِ الدُّنْيَا وِمَا جَمَعُوا لَهَا
وَضَمَّتْهُمُ تَحْتَ التُّرَابِ الحَفَائِرُ

كَم اختَلَسَت أَيْدِى المَنُون ؛ مِن قُرُونٍ بَعْدَ قُرُون !! ؛ وكَمْ غَيَّرَت بِبِلاهَا !! ؛ وَغَيَّبَتْ أَكْثَرَ الرِّجَالِ فِى ثَرَاها !!

وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيَا مُكِبٌّ مُنَافِسٌ
لِخُطَّابِهَا فِيهَـا حَرِيصٌ مُكَاثِرُ
عَلَى خَطَرٍ تَمْشِى وَتُصْبِحُ لاهِيَاً
أَتَـدْرِى بِمَاذَا لَوْ عَقَلْتَ تُخَاطِرُ؟!!
وَإِنَّ امْرَأً يَسْعَى لِدُنْيَاهُ جَاهِدَاً
وَيَذْهَلُ عَن أُخْرَاهُ لا شَكَّ خَاسِرُ !!

انْظُرْ إِلى الأُمَمِ الخَالِية ؛ وَالمُلُوكِ الفَانِيَة ؛ كَيْفَ انْتَسَفَتْهُمُ الأَيَّام ؛ وَأَفْنَاهُمُ الحِمَام ؛ فَانْمَحَت آثارُهُم ؛ وَبَقِيَتْ أَخْبَارُهم؟!!

فَأَضْحَوْا رَمِيماً فِى التُّرَابِ وَأَقْفَرَت
مَجَالِسُ مِنْهُم عُطِّلَت وَمَقَاصِرُ
وَخَلُّوا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا بِها
وَمَا فَازَ مِنْهُم غَيْرُ مَن هُوَ صَابِرُ
وَحَلُّوا بِدَارٍ لاَ تَزَاوُرَ بَيْنَهُم ....
.. ؛ وَأَنَّى لِسُكَّانِ القُبُورِ التَّزَاوُرُ
فَمَا إِن تَرَى إِلاَّ رُمُوساً ثَوَوا بِهَا
مُسَطَّحَةً تَسْفِى عَلَيْهَا الأَعَاصِرُ

كَمْ عَايَنْتَ مِن ذِى عِزَّةٍ وَسُلْطَان ؛ وَجُنُودٍ وَأَعْوَان ؛ قَد تَمَكَّنَ مِن دُنْيَاه ؛ وَنَالَ مِنْهَا مُنَاه ؛ فَبَنَى الحُصُونَ وَالدَّسَاكِر ؛ وَجَمَعَ الأَعْلاَقَ وَالعَسَاكِر !!

فَمَا صَرَفَتْ كَفَّ المَنِيَّةِ إِذْ أَتَتْ
. ؛ مُبَادِرَةً تَهْوِى إِلَيْهِ الذَّخَائِرُ
وَلا دَفَعَت عَنْهُ الحُصُونُ الَّتِى بَنَى
وَحَفَّت بِهَا أَنْهَارُهَا والدَّسَاكِرُ
وَلا قَارَعَت عَنْهُ المَنِيَّةَ حِيلَةٌ
وَلا طَمِعَتْ فِى الذَّبِّ عَنْهُ العَسَاكِرُ

يا قَوْمُ الحَذَرَ الحَذَر !! ؛ وَالبِدارَ البِدار !! ؛ مِن الدُّنيا وَمَكَايِدِهَا ؛ وَمَا نَصَبَت لَكُم من مَصَايِدِها ؛ وَتَجَلَّت لَكُم مِن زِينَتِها ؛ واستَشْرَفَت لَكُم مِن بَهْجَتِهَا .

وَفِى دُونِ مَاعَايَنْتَ مِن فَجَعاتِهَا
إِلَى رَفْضِهَا دَاعٍ وَبِالزُّهْدِ آمِرُ
فَجِدٌّ وَلا تَغْفَل فَعَيْشُكَ بَائِدٌ
.. ؛ وَأَنتَ إِلَى دارِ المَنِيَّةِ صائِرُ
وَلا تَطْلُبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ طِلابَهَا
وَإِن نِلْتَ مِنْهَا رَغْبَةً لَكَ ضَائِرُ

وَكَيْفَ يَحْرِصُ عَلَيْها لَبيب ؛ أَوْ يُسَرُّ بِهَا أَريب ؛ وَهُوَ عَلى ثِقَةٍ مِن فَنَائِهَا ؟!!! ؛ أَلاَ تَعْجَبُونَ مِمَّن يَنامُ وَهُوَ يَخْشى المَوت ؛ وَلا يَرْجُو الفَوْت ؟!!! ؛ أَلاَ ؛ لاَ

وَلكِنَّا نَغُرُّ نُفُوسَنَا وَتَشْغَلُهَا اللَّذَّاتُ عَمَّا نُحَاذِرُ
وكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَن هُوَ مُوقِنٌ
بِمَوْقِفِ عَدْلٍ حَيْثُ تُبْلَى السَّرَائِرُ
كَأَنَّا نَرَى أَن لا نُشُورَ ؛ وَأَنَّناسُدَىً ؛ مَا لَنَا بَعْدَ الفَنَاءِ مَصَائِرُ

كَمْ غَرَّتِ الدُّنيا مِنْ مُخْلِدٍ إِلَيْهَا !! ؛ وَصَرَعَت مِن مُكِبٍّ عَلَيْهَا !! ؛ فَلَم تُنْعِشْهُ مِن عَثْرَتِه !! ؛ وَلَمْ تُقِلْهُ مِن صَرْعَتِه !! ؛ وَلَمْ تُداوِهِ مِن سَقَمِه !! ؛ وَلَمْ تَشْفِهِ مِن أَلَمِه !!

بَلَى أَوْرَدَتْهُ بَعْدَ عِزٍّ وَرِفْعَةٍ
مَوَارِدَ سُوءٍ مَا لَهُنَّ مَصَادِرُ
فَلَمَّا رَأَى أَن لاَ نَجَاةَ وَأَنَّهُ
هُوَ المَوْتُ لاَ يُنْجِيهِ مِنْهُ المُوازِرُ

تَنَدَّمَ لَو أَغْنَاهُ طُولُ نَدَامَةٍ
عَلَيْهِ وَأَبْكَتْهُ الذُّنُوبُ الكَبَائِرُ

بَكَى عَلى مَا سَلَفَ مِن خَطَايَاه ؛ وَتَحَسَّرَ عَلى مَا خَلَّفَ مِن دُنْيَاه ؛ حَيْثُ لَم يَنْفَعْهُ الاسْتِعْبَار!! ؛ وَلَمْ يُنْجِهِ الاعْتِذَار !!

أَحَاطَت بِهِ أَحْزَانُهُ وَهُمُومُهُ
وَأَبْلَسَ لَمَّا أَعْجَزَتْهُ المَعَاذِرُ
فَلَيْسَ لَهُ مِن كُرْبَةِ المَوْتِ فَارِجٌ
وَلَيْسَ لَهُ مِمَّا يُحَاذِرُ نَاصِرُ
وَقَدْ خَسِئَتْ فَوْقَ المَنِيَّةِ نَفْسُهُ
تُرَدِّدُهَا مِنْهُ اللُّهَى وَالحَنَاجِرُ

فَإِلَى مَتَى تُرَقِّعُ بِآخِرَتِكَ دُنْيَاك ؟!! ؛ وَتَرْكَبُ فِى ذَاكَ هوَاك ؟!! ؛ إِنِّى أَرَاكَ ضَعِيفَ اليَقِين !! ؛ يَا رَاقِعَ الدُّنْيَا بِالدِّين !! ؛ أَبِهذا أَمَرَكَ الرَّحْمَن ؟!! ؛ أَم عَلى هَذا دَلَّكَ القُرْآن ؟!!

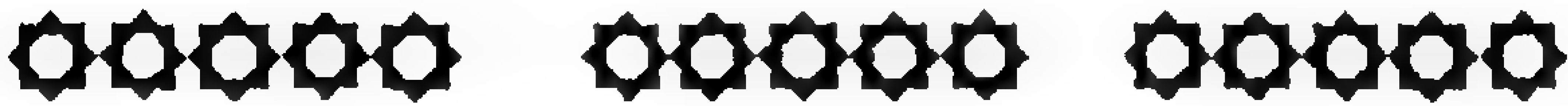
تُخَرِّبُ مَا يَبْقَى ؛ وَتَعْمُرُ فَانِيَاً
فَلاَ ذَاكَ مَوْفُورٌ ؛ وَلاَ ذَاكَ عَامِرُ !!
فَهَل لَكَ إِن وَافَاكَ حَتْفُكَ بَغْتَةً
وَلَم تَكْتَسِب خَيْراً لَدَى اللهِ عَاذِرُ ؟!!

أَتَرْضَى بِأَن تُقْضَى الحَيَاةُ وَتَنْقَضِى
؛ وَدِينُكَ مَنْقُوصٌ وَمَالُكَ وَافِرُ ؟!!

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ : فَقُلْتُ لِبَعْضِ الحَاضِرِين : مَن هَذا ؟ ؛ قَال : غَرِيبٌ قَد طَرَأَ لاَ أَعْرِفُ شَخْصَهُ ؛ فَاصبِرْ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ مَقَامَتِهِ ؛ لَعَلَّهُ يُنْبِئُ بِعَلاَمَتِهِ ؛ فَصَبَرْتُ ؛ فَقَال : زَيِّنُوا العِلْمَ بِالعَمَل ؛ وَاشْكُرُوا القُدْرَةَ بِالْعَفْو ؛ وَخُذُوا الصَّفْوَ وَدَعوا الكَدَر ؛ يَغْفِرِ اللهُ لِى وَلَكُم .

ثُمَّ أَرَادَ الذَّهَاب ؛ فَمَضَيْتُ عَلى أَثَرِهِ ؛ فَقُلْتُ : مَن أَنْتَ يَا شَيْخ ؟ ؛ فَقَال : سُبْحَانَ الله !! ؛ لَمْ تَرْضَ بِالْحِلْيَةِ غَيَّرْتَها ؛ حَتَّى عَمَدْتَ إِلى المَعْرِفَةِ فَأَنْكَرْتَهَا !! أَنَا أَبو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِىُّ ؛ فَقُلْتُ : حَفِظَكَ الله ؛ فَمَا هَذا الشَّيب ؟!! ؛ فَقَال :

نَذِيرٌ ؛ وَلَكِنَّهُ سَاكِتُ
ضَعِيفٌ ؛ وَلَكِنَّهُ شَامِتُ
وَأَشْخَاصُ مَوْتٍ ؛ وَلَكِنَّهُ
.... ؛ إِلَى أَن أُشَيِّعَهُ ثَابِتُ





- فَائِدَة :

❁ - فَنُّ المَقَامَة

.....

- المَقَامَةُ القَرَدِيَّةُ

الفِكْرَةُ ... وَالبِنَاء (❁)

لا رَيْبَ فى أن الحديث عن المقامة القرديَّة التى تخيَّرتها موضوعاً للدِّراسة والقراءة والتذوق ؛ يقتضى من الجهة الصُّوريَّة شيئاً من القول المُعاد فى :

- تعريف المقامات .
- نشأتها فى العصر العبَّاسىِّ .
- أغراضها .
- أنواعها .
- طبيعتها الفنيَّة والسَّرديَّة .

ولا شكَّ أن شيئاً :

« من الحديث عن بديع الزمان : سيُوضِّح لنا رسالته العلميَّة والحضاريَّة التى أودعها مقاماته ؛ وقد شرح فيها طبيعة الحياة فى العصر العباسىِّ ؛ وهى

(❁) - د : عبد الكريم محمد حُسَيْن .

تُظهر قُوَّةً وتخفى تكلُّفاً ؛ وتُبدى إيماناً وتُبطن زندقةً ؛ وتدَّعِى زُهداً ؛ وتُضمر جَشَعاً .

لكن دراسة المقامة وتحليلها لن تقف على ذلك إلا بمقدار ما يمسُّ محُيطُ القراءة فكرة المقامة وبناءها ؛ لأن المقامات كانت تصور :

- انشطار الشَّكل عن المضمون .
- واختلال التوازن بين النظريَّة والواقع .
- والاعتناء بالشكل على حساب المضمون .

ولك أن تنظر فى كتاب « أخلاق الوزيرين » لأبى حيَّان التوحيديِّ (١) ؛ لتعلم مقدار الخليج الفاصل بين الرُّؤية والواقع ؛ وتعلم مساحة الخلخلة بين الشكل والمضمون فى فنِّ المقامات ؛ وكان فنُّها عباسيٌّ :

- النَّشأة .
- والموضوع .
- والجوهر .
- والشَّكل .

ولسوف تقف هذه الدراسة على بعض هذه المعانى بمقدار حاجة دراسة منهج بناء المقامة القرديَّة لبديع الزمان الهمذانيِّ (٢) إليها ؛ وذلك يوجب إثبات نصِّ المقامة أوَّلاً ؛ ليكون البحث فى نصٍّ حاضرٍ ؛ وتزداد مُشاركة المتلقى فيه ؛ ويقضى بعرض آراء بعض الباحثين المُعاصرين فيه لتفتح الدروب إليه ثانياً ؛ وتعرف مواضع التجديد والتقليد ؛ والفروق بين نظرةٍ

تستغرق النص برؤيةٍ كُلِّيَّةٍ شاملةٍ ؛ وأُخرى تقتبس منه جُزئيَّةً تحملها لغرضٍ من أغراض البحث ؛ وإثبات تحليل النص ثالثاً لنقدم وجهاً من وجوه التأويل ؛ ولوناً من ألوان التذوق .

على أن الخُطَّة فى عنوان المقال توجب تقديم الفكرة على البناء ؛ لكن وجود الفكرة مُحاصرٌ بالبناء ؛ ومضروبٌ عليه سورٌ من خيوط المناهج ؛ فكان لابُدَّ من عبور السور ؛ ودخول البناء لتحرير الفكرة من تلك الشبكات المتعددة والمعقدة ؛ على ما فى الأمر من اشتباكٍ والتباس .

وتبدأ الدراسة بإثبات النَّص :

ـ نَصُّ المَقَامَة :

(المقامة القرديَّة

حدثنا عيسى بن هشامٍ ؛ قال :

بينا أنا بمدينة السَّلام ؛ قافلاً من البلد الحرام ؛ أميس ميسَ الرَّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة ؛ أتأملُ تلك الطرائف ؛ وأتقصَّى تلك الزخارف ؛ إذ انتهيتُ إلى حلقةِ رجالٍ مُزدحمين ؛ يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشقُّ الضحكُ أشداقهم !! .

فساقنى الحرصُ إلى ما ساقَهم ؛ حتى وقفتُ بمسمعِ صوتِ رَجُلٍ ؛ دونَ مرأى وجهِهِ ؛ لشدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرطِ الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قرَّادٌ يُرَقِّصُ قردَهُ ؛ ويُضحِكُ مَن عندَهُ ؛ فرقصتُ رقصَ المُحَرَّجِ ؛ وسرتُ سير الأعرجِ ؛ فوق رقاب الناس ؛ يلفظنى عاتق هذا لِسُرَّة ذاك ؛ حتى افترشتُ لحية رجلين ؛ وقعدتُ بعد

الأَيْن ؛ وقد أشرقني الخجلُ بريقه ؛ وأرهقني المكانُ بضيقه ؛ فلما فَرِغَ القرَّادُ من شُغلِه ؛ وانتفضَ المجلسُ عن أهلِهِ ؛ قمتُ وقد كساني الدَّهشُ حُلَّتَهُ ؛ ووقفتُ لأرى صورتَهُ ؛ فإذا هو - والله - أبو الفتح الإسكندريُّ !! .

فقلتُ : ماهذه الدناءةُ ويحَك ؟!!

فأنشأ يقول :

الذَّنبُ للأيَّامِ لا لي
فاعتِبْ على صَرْفِ الليالي
بالحُمقِ أدركتُ المُنى
ورفلتُ في حُللِ الجمالِ ﴾ (٣).

بعد إثبات النَّص ؛ لابُدَّ من الإشارة إلى أن دراسة منهج بناء المقامة تتناول :

١ـ تسميتها وعُنوانُها .

٢ـ إسنادها .

٣ـ زمانها .

٤ ـ مكانها .

٥ ـ موضوعها .

٦ـ حركة شخصيَّاتها .

٧ـ لغتها وبيانها خدمة لبنيانها .

٨ ـ مقاصدها القريبة والبعيدة .

٩ـ طريقة عرضها .

١٠ـ ختامها .

ولابُدَّ من الإشارة إلى كُتُبٍ عِدَّة تناولت المقامة القرديَّة تناولاً عارضاً فى بحث فنِّ المقامة : جنساً أدبيًّا ؛ أو دراسةً تاريخيَّةً ؛ أو وقفت عندها مُطوَّلاً ؛ ونقف عند الآراء التى تتصل بالمقامة القرديَّة فقط ؛ وتخيرنا آراء العلماء الآتية أسماؤهم على جهة التمثيل من غير استقصاء :

ـ شوقى ضيف .

ـ هادى حسن حمودى .

ـ عبد المالك مرتاض .

ـ د/ شوقى ضيف :

عرض د. شوقى ضيف للمقامة القرديَّة فى سياق مُعالجته فنَّ المقامة ؛ فقال : « ومن يرجع إلى مقامة البديع : يُلاحظ فيها كثيراً من اللفظ الغريب يحشو به أساليبه ؛ كقوله فى المقامة القرديَّة على لسان عيسى بن هشام :

بينا أنا بمدينة السلام ؛ قافلاً من البلد الحرام ؛ أميس ميس الرِّجلة ؛ على شاطئ الدجلة .

فقد استخدم كلمة : أميس : بمعنى أتبختر ؛ وليس هذا مانريد أن نقف عنده ؛ إنما نقف عند كلمة : الرِّجلة ؛ فهى جمع رَجُل ؛ وهو جمعٌ شاذٌّ ؛ ولم تكن هناك ضرورة لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . » . (٤) .

فالعلاَّمة ضيف يرى غرابة لفظ (أميس) ؛ثم يُراجع نفسه ؛ ويذهب إلى لفظ (الرِّجلة) ويتوهم أنها جمع (رَجُل) على غير القياس ؛ فجعل الشاذ عن القياس برُتبة الغريب فى اللفظ أو المعنى ؛ وقد جاء فى اللغة أن الرِّجلة : هى البقلة الحمقاء (٥) .

ولا ريب فى أنها من زلاَّت القلم ؛ وبحار علم الشيخ فوق مثل هذا اللمم ؛ ولا أُريد أن أفتح ملف ما يُعَدُّ غريباً ؛ وما يُعَدُّ شاذاً ؛ ومتى يكون الشاذ غريباً ؛ إلخ ؛ مما ليس ههنا موضع بسطه .

المهم أن شوقيّاً تنبَّه لشىءٍ من لُغة النَّصِّ التى رأى فيها باحثٌ آخرٌ أنها جاءت خاليةً من الحيل البلاغيَّة ؛ فقال :

« ونُلاحظ الإسكندرىَّ فى هذه المقامة يكتفى بحيلته وحدها ؛ ولا يستعين ببلاغته. » .(٦) .

مما يعنى أن بلاغة المقامات التى تنحصر فى غريب لُغتها وبديع عبارتها ؛ ومواقف شخصيَّاتها قد خلت من الغريب والبديع ؛ وقامت لغة أبى الفتح فى هذه المقامة على الحيلة وحدها ؛ أى جعل بلاغتها فى حيلته للوصول إلى المُنَى بالموقف (مشهد القَرَّاد وهو يُرقِّصُ قرده ؛ ويُضحك من عنده) نظراً لسهولة اللغة عند الباحث ؛ لكنه لم يتنبَّه إلى أن اللغة فى المقامة لم تكن خاليةً من الحيل البلاغيَّة - كما سيأتى من بعد فى بيان بعض التشبيهات والمجازات العقليَّة وبعض وجوه البديع - ؛ على حين نظر شوقى ضيف إلى مسألة الشاذ والغريب فى النَّص ؛ فلم يحظ بالدليل المُوفَّق .

ـ د/ هادى حسن حمودى :

حاول هادى الوقوف على بعض مكونات منهج بناء المقامة البغداديَّة فى أثناء تحليلها ؛ فوقف على العناصر الآتية :

ـ الراوية ؛ وصفاته ؛ ودوره فى المقامة .

ـ والبطل أبو الفتح الإسكندرىُّ ؛ وصفاته ؛ ودوره فى المقامة .

ـ وموضوع المقامة ؛ وأجزاؤها : عيسى بن هشام يزور بغداد (٧) ... ؛ إلخ .

مايؤخذ عليه :

ـ تعلقه بالجُزئيات .

ـ وإغفاله النظرة الكُلِّيَّة لبناء المقامة .

ـ واكتفاؤه بالجهة الوصفيَّة من غير تعليلٍ أو تفسيرٍ للمواقف .

على أنه لم يحمل منطق النَّصِّ فى بعض تعبيراته عنه ؛ من ذلك قوله :
« عيسى بن هشام يزور بغداد » .

ومنطق النَّصِّ أنه واحدٌ من أبنائها ؛ آب إليها من البلد الحرام ؛ وليس من منطق النص أنه زائر ؛ ولو كان وقوفه عند مشهد القَرَّاد دون وصوله إلى بيته فى المدينة يُوحى بشىءٍ مما ذهب إليه الباحث الكريم ؛ لكنه قافل إليها ؛ فَخَصُّ المدينة موضع اهتمامه دون تحديد أهله ليدُلَّ على أنه فى هذا التقمُّص للشخصيَّة لا يُشير إلى أحدٍ مُحدَّدٍ ؛ بل يعرض مثالاً لبعض أهل مدينة السلام عاصمة الدنيا يومها .

ـ د/ عبد المالك مرتاض :

فى بحثه القيِّم عن فنِّ المقامات : وقف د. عبد المالك مرتاض وقفةً علميَّةً جادَّةً على المقامات ؛ واختص المقامة القرديَّة بشىءٍ من بحثه واهتمامه بالجانب الاجتماعىِّ فيها ؛ فقال :

« فأما فى القرديَّة ؛ فقد وجدنا البديع ينقد من طرفٍ خفىٍّ حلقات المشعوذين التى يجتمع حولها الناس فى الأسواق والشوارع ليُضيِّعُوا أوقاتهم عبثاً ؛ فلم يرعوِ منهم حتى شيوخهم أن يجتمعوا فى هذه الحِلَق ليستمعوا إلى ما يقوله المشعوذون والمُحتالون الذين لا يُريدون أن ينالوا الرزق عن طريقٍ ما ؛ وإنما ضَعُفَ همُّهُم ؛ فغدوا يلتمسونه بواسطة ما يحتالون» . (٨) .

وتناول المرتاض المقامة بتحليلٍ ضافٍ للُغتها من الجهة الاجتماعيَّة ؛ وَخَلُصَ إلى أن المؤلف ساخطٌ على تلك الأحوال الاجتماعيَّة (٩) .

فالمرتاض سلَّطَ الضوء على طبقة المُحتالين ؛ وأغفل طبقة المُترفين ؛ ونظر فى السُّخط ؛ ولم يكشف عن فساد الذِّمم والأخلاق فى جهتى البِنَى الاجتماعيَّة الفوقيَّة والتحتيَّة ؛ وكان مُتعاطفاً فى عرضه مع المُحتالين ؛ ولم يكشف اللثام عن غرض البديع فى فضح الأحوال الاجتماعيَّة الفاسدة بغرض صحوة المسؤولين لعلاجها .

مما تقدَّم :

تبدو المقامات عند بديع الزمان ومثلها عند أبى محمد القاسم بن علىّ بن محمد بن عثمان « ٥١٦هـ » تعملان فى اتجاهٍ واحدٍ ؛ فقد كانت مقامات الحريرىّ (١٠) على نسق مقامات البديع ؛ تقوم على : الرواية عن الحارث بن همَّام ؛ وبطولة أبى زيد السروجىّ ؛ وخطوات منهج البناء الكُلىّ واحدةٌ من تسمية المقامة إلى خواتيمها المتنوعة .

واستعار الزمخشرىُّ « ٥٣٨هـ » فى مقاماته (١١) المنهج العام من مقامات البديع مُستغنياً عن أمرين :

- الأول : الرَّاوية ؛ فليس لديه رُواة ؛ لأنه بنى عمله فى مقاماته على المُناجاة الداخليَّة ؛ فروى عن حياته ونفسه .

- والثانى : أنه جعل سيرته الذاتيَّة موضوعاً للمقامات (١٢) مُستغنياً عن حياة الفُقراء واللُّصوص والمُحتالين والمُترفين ؛ مُعرضاً عنها إلى حياة العُلماء الذين أظهروا الدِّين وقد طلبوه للدُّنيا وللسَّلاطين ؛ فكان مُجدِّداً فى فنِّ المقامات من هاتين الجهتين .

- تسميتها أو عنوانها :

لكُلِّ مقامةٍ من مقامات بديع الزمان اسم اشتقه لها من مكان المقامة الذى جرت به ؛ أو الذى قصد إليه ؛ أو جاء منه ؛ أو نسبه إلى زمن حدوث المقامة من جهة زمن السرد الداخلىّ ؛ أو من جهة موضوعها ؛ أو من جهة شىءٍ مُهمٍّ ذُكِرَ فيها ؛ كالقرد فى مقامته القرديَّة ؛ لا ريب فى أن بديع الزمان كان مُتأثِّراً

على وجهٍ من الوجوه بالقرآن الكريم ؛ من جهة وضع اسمٍ لكُلِّ مقامةٍ ؛ ولا أظنُّهُ كان يذهب إلى مُعارضة القُرآن ؛ ولا أظنُّ صنعته المُتكلِّفة يُمكن أن تكون شبيهةً بالفاصلة القُرآنيَّة ؛ ولا جمله القصيرة مُعبَّأة بما تحمله جُمل القُرآن التى لا تأتى على نحوٍ واحدٍ ؛ بل تطول وتقصر بمُقتضى الحال التى يُقدِّرها الحَقُّ - تَبَارَكَ اسْمُهُ - ؛ لكن ما غلب على ظَنِّى أنه رأى القُرآن يُسمِّى بعض سوره باسم بعض الحيوان ؛ كالبقرة والفيل ؛ وبعض الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت : لغرض التنبيه على موقع القضيَّة المُحيطة بالحيوان أو الحشرة ؛ وما كانت تسمية المقامة بالمقامة القرديَّة بعيدة من هذا المنهج فى التسمية ؛ من باب تسمية النص ببعضه ؛ أو ما يريد صاحب النَّصِّ صرف الأذهان إليه قبل سواه من عمله إبرازاً لأهميَّته ؛ أو تنبيهاً على حقارته .

كانت العرب لا تُسمِّى نصوصها الإبداعيَّة إلا من جهةٍ نقديَّةٍ ؛ كتسمية بعض القصائد الشعريَّة فى الجاهليَّة بـ « سمط الدهر » (١٣) أو « الفاضحة» (١٤) ؛ أو « البتَّارة » (١٥) ؛ أو « اليتيمة » (١٦) ؛ أو... ؛ إلخ . بَيْدَ أن القُرآن أَلَحَّ على إعطاء كُلِّ سُورةٍ من سُوره عُنواناً أو اسماً يُميِّزها من سواها ؛ حرصاً منه على بيان أن لِكُلِّ سورةٍ شخصيَّةً توافق أخواتها من جهةٍ ؛ وتُباينها من جهاتٍ أُخر .

وللقرد فى هذه المقامة موقعٌ سنأتى على ذكره ووظيفته عندما نتناول موضوعها ؛ ونفصل فى دراسة حكايتها تفصيلاً يدرس شخصياتها ؛ ويُوضِّح وظيفة القرد فى هذا النَّص أو المقامة ؛ وهذه الوظيفة تُشيرُ ابتداءً إلى

أن المجتمع المُترف مُندهشٌ من تعلُّم قردٍ سلوك الرقص ؛ وهو فى ظنِّهم سلوكٌ إنسانيٌّ ؛ ونلحظ اجتماع الرجال حول القرد وانشغالهم به وبأحواله عن أحوال صاحبه ؛ فعلت رُتبةُ القرد وسلوكه رُتبةَ الأديب أو العالم ؛ ليدلك بهذا التنبيه على خطرٍ يحُيط بالأُمَّة عندما تتقدَّم فيها إيقاعات اللهو على الجِدِّ والعمل المنتج من غير أن تعبأ بحال الحيوان أو الإنسان ؛ وقد التقت حالهما (القرد ؛ والقَرَّاد) على الكُره والاضطرار .

ـ إسنادها :

سبقت الإشارة إلى أن البديع يُسند مقاماته إلى عيسى بن هشام ؛ وبطولة حكاياته إلى أبى الفتح الإسكندريّ .

هذا الجانب الإسناديُّ يُشيرُ ضمناً إلى اشتباك المقامة من جهة سردها بفُنُونٍ عِدَّة ؛ منها :

ـ فَنُّ الحديث النبويّ .

ـ ومنها الخبر التاريخيُّ .

ـ وفَنُّ الحكاية الشعبيَّة .

فهذا التشابك يُوقع المقامة على محُيط مُربَّعٍ دائري ؛ فهى من جهةٍ : أدبُ حكايةٍ صرف ؛ ومن جهةٍ ثانيةٍ : تقتفى القُرآن بالعُنوان ؛ ومن جهةٍ ثالثةٍ : تأخذ شيئاً من سمت الحديث ؛ ومن جهةٍ رابعةٍ : تقتفى التاريخ... ؛ فأين تضع المقامة لو أردت النظر إليها من جهة طبيعتها الفنيَّة : الشكليَّة والسرديَّة؟!!

إذا نظرت إلى الإسناد من جهة الحديث : حضرت إليك قواعد السند

وشروط الضبط والعدالة التى اشترطها المُحدِّثون لرواية الحديث .

فإذا وجدت الشخصيَّة مجهولة : سقطت روايتها ؛ ولكن ما قيمة الخبر الذى تَحَمَّلَهُ عيسى بن هشام ديانةً؟!!! ؛ وماذا يترتَّب على مُتلقِّيه من واجباتٍ شرعيَّةٍ؟!!! ؛ وما حاجتك لمعرفة حواسه وسلامتها إذا كان ما يرويه ليس ديناً؟!!! ؛ فكأنه يهزأ بالإسناد سراً وخفيةً ؛ ويُظهره للناس بُغية المُحاكاة المُثيرة للابتسام ؛ فإذا كان المُحدِّثون يُسقطون رواية المجهول ؛ فإن بديع الزمان فى الأدب يُجيزها ؛ ويُسند حكاية الحدث أو الفعل السرديّ إلى عيسى بن هشام ؛ ليكف عن نفسه تُهمة الكذب أو شهادة الزُّور ؛ فمن أراد أن يُكَذِّبَ الخبر أو يتحقق من صحة وقوعه فعليه مُساءلة عيسى بن هشام ؛ فإذا لم يجد له سجلاً فى الأحوال الشخصيَّة ؛ فقد بلع حبَّة الدواء ؛ فصدَّق شيئاً مُحتمل الوقوع ومُحتمل الدُّفوع ؛ وهو بذلك يوقع غامزاً ولامزاً بالرواية الشفويَّة التى لم تكن تثق بالمكتوب ؛ وتثق بالمرويّ ؛ حتى ما يعيشه الإنسان صار مُفتقراً إلى إسنادٍ ؛ ومُحتاجاً إلى توثيقٍ .

وفى الإسناد شاهدٌ سامعٌ ؛ مما يدعو إلى قبول الخبر ولو كان بعيد الوقوع ؛ فما قولك إذا كان مما يقع لكثيرٍ من أبناء العصر كُلّ يومٍ من أيَّام حياتهم؟!!!

والإسناد إلى معلومٍ : انتقالٌ بسند الحكايات من الإسناد إلى مجهول ؛ مما يزيد الثقة بها ؛ ويخرجها من عُنق الوهم إلى حيِّز المُمكن والمعقول والمُحتمل .

والجانب التاريخىُّ فى الإسناد يعود إلى أن الرواية التى تحكيها المقامة هى واقعة من حياة الناس فى العصر العبَّاسىّ تفتقر إلى شهودٍ تحكيها على

طريقة المؤرخين فى اتباعهم حركة المُحَدِّثين بإثبات الإسناد ليكون ذلك عوناً لهم على قبول متلقيه على أنه واقعٌ تاريخىٌّ عاشه الناس ؛ لا خيالاً صنعه الأُدباء بأخيلتهم ؛ ولوَّنوه بأقلامهم ؛ وما تشتهيه أنفسهم .

فكأن الجانب التاريخىَّ أوجب عليه الإسناد ؛ أو أن مُضاهاة المؤرخين والمُحَدِّثين كانت شهوة لديه ليجعل عمله يحفظ الصورة الشكليَّة للأخبار المرويَّة حديثاً كانت أو تاريخاً أو أدباً سردياً يرقى فى صدقه وحُجَّته إلى مستوى الدين والتاريخ ؛ على عُمقه الفنىِّ والتعليمىِّ .

إن الإسناد نفسه يجعل المقامة جنساً أدبيًّا يُقاطع أجناساً أُخرى من فُنُون الأدب القديم ؛ كفنِّ الحديث ؛ وفنِّ الخبر التاريخىِّ ؛ وفنِّ الحكايات المرويَّة القائمة على الأساطير والخُرافات البعيدة والمُستحيلة عقلاً ونقلاً ؛ لكنها لا تُطابق شيئاً من هذا مُطابقةً تامَّةً .

ولا يُدخلها سردها عوالم الفنِّ القصصىِّ إلا بشىءٍ من المجاز ؛ لأن القصص الفنىَّ له مُواصفاتٌ مُتطوِّرةٌ ومُتغيِّرةٌ ؛ وله أجناسٌ كثيرةٌ ؛ ولا يُدخلها ما فيها من حوارٍ فنَّ المسرحيَّة ؛ ولا المشاهد الحيَّة والمُتحرِّكة بمُدخلةٍ لها فى فنِّ المسرح ؛ ولا تدخل فنَّ الخاطرة ؛ ولو أنها حملت هواجس الأبطال وخواطرهم أحياناً .

إنها جنسٌ أدبىٌّ مُتفرِّدٌ ؛ نبت فى العصر العبَّاسىِّ ؛ ثم عاد فى القرن العشرين على استحياءٍ ؛ وذلك فى طور استلهام حركة إحياء التراث العربىِّ فى عصور القُوَّة ؛ وخير تعريفٍ لها ما قاله الأديب توفيق الحكيم ـ على ما أثبتناه

آنفاً من اعتراضٍ على وصفه بالفنِّ القصصيِّ ـ ؛ وذلك إذ يقول :

« والمقامات أعمالٌ قصصيَّةٌ ؛ قُصِدَ بها سردُ حكايةٍ وتصوير أشخاصٍ ؛ ولكن الإغراق في الوشي اللفظيِّ ؛ والاحتفال بالوضع اللُّغويِّ : صرف هَمَّ الكاتب عن :

ـ التعمُّق في التحليل .

ـ والإضافة في السَّرد .

ـ والإجادة في البناء . » .(١٧) .

وسيكون لنا عودةٌ على بعض مُكوِّنات هذا التعريف لبيان معانيه ؛ وندع رأى الرَّجُل له ؛ ونُثبت ما يتبيَّن لنا بالبحث في القراءة من تهيئةٍ مُسبقةٍ .

ـ زمانها ومكانها :

لَعَلَّ إعادة القول في وظائف الزَّمان والمكان في الفنِّ الأدبيِّ عموماً ؛ والفُنُون السرديَّة خصوصاً : يكون نافعاً ؛ من جهة توكيد المعاني الكُلِّيَّة لتؤلِّف مدخلاً للمعاني الجُزئيَّة ؛ ذلك أن الأعمال السرديَّة ؛ كالقصة ؛ والرواية ؛ والمسرحيَّة ؛ والصورة القصصيَّة ؛ والأُقصوصة ؛ والتمثيليَّة ؛ والحكايات الخُرافيَّة أو الأُسطوريَّة ؛ وقصص الخيال العلميِّ : كُلُّ فنٍّ من هذه الفُنُون لا يخلو من حدثٍ قصصيٍّ أو فعلٍ قصصيٍّ يُزلزل الواقع والمعهود والمعقول للناس ؛ ولكثرة ما يأتي أهل القص أو السرد بما يجوز الواقع والمعقول : تجد بعض الناس إذا أراد أن يطعن في كلام أحد المُتكلِّمين قال

لك : فلان يقص عليك ؛ أى لا تحمل كلامه على وجه الجِدِّ ولا على وجه الحقيقة ؛ ومثل هذا الحدث يُواجهه بعض أبناء البادية بقولهم : فلانٌ يسرد ؛ أى يقص ويكذب ؛ وهو (سرهود) : أى كذوب .

وابتغاء أن يُبعد أهل الفُنُون السرديَّة أو القصصيَّة صفة الكذب عن أعمالهم الإبداعيَّة : اتخذوا وسائل فنيَّة للقص ؛ منها الإسناد ؛ ومنها ربط الفعل القصصىِّ وحوادثه بزمانٍ ومكانٍ ؛ ومُجرَّد ربطهما بالزمان والمكان تتهيأ قاعدة نفسيَّة لقبول العمل القصصىِّ ؛ أو بالقياس إلى الإسناد ؛ وانتسابه إلى زمانٍ معلومٍ ومكانٍ معلومٍ ؛ وشهادة الراوى على الحدث والفعل القصصىِّ ؛ واختيار أسماء مُحدَّدة لأُناسٍ يعيشون فى الحىِّ الذى يحيا فيه المُؤلِّف ؛ أو بتخيُّل عيشهم فى بيئةٍ أُخرى من بيئات المُجتمع المُحيط به ؛ وذلك كله للتوثيق وتصديق ما يقترن بهذه اللوازم .

فالزمان والمكان يُقرِّبان الفعل من إمكانيَّة الوقوع للحدث أو الموضوع أو المشهد القصصىِّ ؛ وبهما يخطو المُؤلِّف خُطوةً تربط العمل الافتراضىَّ بالوجود الواقعىِّ ؛ لأنه لا وجود حسىٌّ من غير زمانٍ ومكانٍ يُحيطان بالموجود ؛ فإذا خرج الحدث أو الفعل أو الشخصيَّة من حيِّز الزمان والمكان : دخل فى أبواب الغيب والمجهول ؛ واضطرب المُمكن بالخيال والوهم ؛ والحق بالباطل ؛ وتبادرت الظُّنُون الداعية لإنكار المادة المسرودة على الجمهور.

فالزمان والمكان من شروط الوجود المعقول عند البشر ؛ مما يُقرِّب عالم القصِّ الافتراضىِّ من عالم البشر المحدود بحُدُود الزمان والمكان والحركة والنسبيَّة.

وللزمان والمكان وظيفة الارتباط بتجارب الشخصيَّة المُبدعة للعمل القصصىِّ (المُؤلِّف) ؛ وبارتباط الزمان والمكان بتجاربه فى الحياة بمواقفٍ مُرَّةٍ أو حُلوةٍ تُؤلِّفُ خَزَّاناً مُلهما لإبداع أىِّ فنٍّ من الفُنُون السرديَّة المذكورة سابقاً أو غيرها ؛ فإن هذا الارتباط يُحرِّض قوى الإبداع النفسيَّة والعقليَّة على إبداع عملٍ جديدٍ ؛ والوظيفة نفسها للزمان والمكان تعمل على تقريب شخصيَّات القصِّ التى تجرى فى عالم السَّرْدِ القصصىِّ مُحاكيةً البشر فى عالمنا الواقعىِّ على أكثر من وجهٍ من الوجوه من الواقع ؛ فهى أيضاً تتألم أو تفرح أو تُفكِّر أو تثور أو تهدأ بعامل الزمان أو المكان أيهما أشد سُلطاناً على نفسه أو مُحرِّضات سلوكه ومُقوِّمات شخصيَّته الاعتباريَّة فى بنية المسرود القصصىِّ .

مثل هذه الوظيفة قائمٌ فى حال المتلقى ؛ مما يجعل الزمان والمكان مما يشد القاص إلى شخصياته ؛ ويشدهما معاً إلى مُتلقِّى النَّصِّ باختلاف درجات الاستجابة ومراتب الوعى بها ؛ لكنها حقيقةٌ قائمةٌ فى الوعى الظاهر أو الباطن لكُلِّ بُعْدٍ إنسانىٍّ يُحيط بالنَّصِّ أو يدخل فيه .

ومن وظائف الزمان والمكان أن كُلاً منهما داخلٌ فى التشكيل اللغوىِّ للنصِّ

القصصىِّ ؛ ليعطيه لون الحياة بطبيعتها الحسيَّة والنفسيَّة والافتراضيَّة ضمن رُؤى المؤلِّف الكُليَّة الضابطة ؛ ورُؤى الشخصيَّة القصصيَّة ومواقعها من بقيَّة عناصر القصِّ الأُخرى الداخلة فى تشكيل البُنيان اللغوىِّ وتنوعه كتنوع الحياة نفسها .

ومن وظائف الزمان والمكان : أنهما يدخلان فى التشكيل الفنىِّ والجمالىِّ المُعِين على رسم الصور أو المشاهد الحيَّة التى تُضفى على النَّصِّ واقعيته الحسيَّة أو ظلاله النفسيَّة والإيحائيَّة عقلاً ونفساً وشعوراً جماليَّاً بالحُسْنِ أو القُبح .

ذلك كله مُرتبطٌ بالخبرة الحسيَّة السابقة لِمُبدع النَّصِّ أو شخصيَّات بنائه ؛ أو مُتلقيه بالمكان والزمان والقرائن المُصاحبة التى تُثير الشعور بالتشكيل الجمالىِّ للنَّص ؛ بحسب القُدرة على التمثُّل عند كُلِّ فريقٍ من فرقاء العمليَّة الجماليَّة إبداعاً ونصَّاً وتلقياً .

بعد هذه المُقدِّمة العامة التى تُوضِّح بعضاً من جوانب الوظائف السرديَّة للزمان والمكان فى العمل السردىِّ ؛ نعود إلى فكرة الزمان والمكان فى المقامة القرديَّة ؛ وقد جاءا مُقترنين معاً من غير انفصالٍ ؛ كشأنهما فى الحياة التى يحياها الإنسان ؛ فليس ثمة مكان من غير زمانٍ يُحيط به ويحتويه ؛ ولا زمان من غير مكانٍ يُعين على إدراك البشر لمعنى حركة الحياة بحركة الزمان .

ودع عنك قولهم : إن فكرة الزمان تنشأ من دوران الأرض حول نفسها ؛ وأنه مفهومٌ مُتولِّدٌ من الحركة نفسها ؛ وخُذ بنا إلى بديع الزمان ليُحدِّثنا عن

عالمه القصصيّ الذى لم يدعه مُعلّقاً بأرضٍ مجهولةٍ ؛ ولا بأزمانٍ بعيدةٍ ؛ بل جعل ذلك مرتبطاً بشخصيته السرديّة والإسناديّة ؛ أعنى شخصية عيسى بن هشام ؛ وذلك إذ يقول :

« حدثنا عيسى بن هشامٍ ؛ قال :

بينما أنا بمدينة السَّلام ؛ قافلاً من البلد الحرام » .

لإدراك الوقتِ لابُدَّ من إنسان ؛ والإنسان هُنا قائمٌ فى عالم المقامة الافتراضىّ ؛ وزمنه غير الزمن الذى يسرد فيه عيسى بن هشام نفسه الحادثة على أصحابه ؛ ذلك أنه يستعيدها من زمنٍ مضى ؛ لم يُحدِّدهُ بيومٍ أو شهرٍ أو سنةٍ ؛ بل جعله مُرتبطاً بشخصيَّته ؛ وبأحوالها ؛ وبسلوكها ؛ فهو زمنٌ نسبىٌّ مُتعدِّد الألوان ؛ لأنه مشدودٌ للواقع الخارجىّ للشخصيَّة ؛ ومُرتبطٌ بحالها النفسيَّة ؛ ومشدودٌ إلى ضروبٍ مُختلفةٍ للسُّلوك ؛ وهو زمنٌ مُتخلِّصٌ من فكرة التاريخ الدقيق للحدث النفسىّ أو الواقعىّ ؛ لكنه مُرتبطٌ بتاريخ الأحوال والحوادث ومُوجبات الرضى عن النفس - كما سنرى - .

لعل المُؤلِّف جعل شخصيَّته عربيَّةً لا تعبأ بالتدقيق فى ساعات الزمن دقيقةً أو ساعةً أو يوماً أو شهراً أو سنةً ؛ بل إن الزمن يأخذ قيمته من وقعه على شخصيَّة الإنسان وارتباطه بتجاربه وما تتركه من أثرٍ فيها .

ولعله كان يرى أن زمنه زمنٌ فنىٌّ خالدٌ ؛ وليس زمناً تاريخيّاً زائلاً ؛ وهو زمنٌ إنسانىٌّ مُرتبطٌ بشُعُورِ الشخصيَّة النُّموذجيَّة للإنسان الذى تناوله فى عالمه القصصىّ الافتراضىّ ؛ والمُفترض أنها شخصيَّةٌ تُوافق الشخصيَّات فى العالم

الواقعىِّ من جهة التسمية وصور التجربة ؛ ولكنها خالدةٌ بعدم ارتباطها بزمانٍ يعرضها للكبر والشيخوخة والهرم والموت المُحقَّق ؛ وبانخلاع الشخصيَّة من المعنى التاريخىِّ للزمن تتجرَّد وتتخلَّص لمفهوم الزمن الفنىِّ الذى يجعل الشخصيَّة قابلةً للخلود على ارتباطها بعنصر من عناصر الفناء ؛ وهو الزمن المفتوح من غير حدودٍ أو قيودٍ سوى الحوادث والوقائع .

ولا شكَّ عندى : أن لبديع الزمان شيئاً من تأمُّل الحياة العربيَّة من جهة تكوينه للشخصيَّة ؛ وتأمُّلاً آخر فى طريقة القُرآن وهو يبنى الشخصيَّات الخالدة التى أعتقها القُرآن من قيود الزمان ؛ وإلى حَدٍّ ما من قيود المكان ؛ لتكون موضع تفكُّرٍ واعتبارٍ على مدى الأيَّام وتغيُّر المكان ؛ خارجة من مفهوم النسبيَّة الذى يُحطِّمُ خلودها وينفى استمرارها مُنطلقاً بها إلى شواطئ الخلود ؛ ويُطلق قيودها فيُخرجها من الخصوص إلى العموم ؛ ومن الفناء إلى البناء.

فهل كان الرَّجُل يُدرك سِرَّ خلود الشخصيَّات الفنيَّة والنماذج البشريَّة التى يرسمها بكلماته ؛ فجاءت شخصية عيسى بن هشام تحدثنا عن الزمن الذى أحاط بحالها عندما كان قافلاً من البلد الحرام - أى عائداً مع قافلةٍ كانت فى البلد الحرام - ؟!!!

لعلَّك تظن أنه أومأ إلى الزمن ؛ أو أنه زمن قفول الحجيج ؛ وليس فى الكلام ما يدلُّ أنها قافلة للحاج أو للعُمَّار ؛ فضاع علينا تقريب الزمن ؛ ذلك أن الشخصية لم يكن الزمن موضع اهتمامها ؛ بل كان هَمُّهَا شعوراً بالفرح

لقضاء واجبٍ شرعىٍّ جعله يتخفَّف من آثامه ويشعر بالفرح والانطلاق فى الحياة ؛ هو موضع اهتمامها ؛ فكأنما وُلِدَ من جديدٍ (١٨) ؛ فانجذب إلى الحياة يتطلَّعُ إليها ويتأمَّل ضروبها ودروبها فى موازين الناس وسلوكهم ؛ ليعيد التجربة ؛ وينغمس فيها زماناً مُقترناً بحال الفرح ؛ ومكاناً بالانتقال من مكة المكرَّمة دار العبادة والخشوع والمُحاسبة والتحسُّر والتعرِّى أمام الخالق ؛ والمكاشفة فى محاسبة النفس من آثامها ؛ حتى تكاد تسمع بعض القاطنين فيها يقول فى هؤلاء العُمَّار عابثاً : ما قصدوا مكة إلا لغُفران الذنوب .

فهناك حال التطهُّر التى تُعيد الإنسان حُرّاً من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّه ؛ فكأنه خُلِقَ من جديدٍ ؛ فانتقل من مكة مُمتلئاً بالفرح والزهو والتطلع إلى الحياة والرغبة فى استطلاعها من جديدٍ بخفَّةٍ من غير تثاقُلٍ يعوق الحركة ـ كالشعور بالإثم ـ ؛ وانتقل من مكة عاصمة الرُّوح والضعف الإنسانىِّ ؛ إلى بغداد عاصمة السياسة والقوة والسطوة والترف والزينة : بومضة عينٍ من غير أن يُحدثنا عمَّا جرى له فى الطريق ؛ فقد طوت أشواقه زمان الطريق ومشاقه ومكانه ؛ تعبيراً عن شِدَّة الشوق لدار السلام وغلبة الحال على ما سواها ؛ فتغيَّر المكان من عاصمة الديانة والشعور بالمحاسبة والخوف من الله والرهبة من الحساب والطمع بالعفو والمغفرة والشعور بضيافة الرحمن وكرمه ؛ وأدب الضيف ؛ وواجباته فى ذلك المكان الذى يقع فى القلب المؤمن موقعاً يدعو للتوقُّف والتفكُّر والمهابة والضعف ؛ على خلاف بغداد : دولة السلطان الأرضىِّ ؛ والعيش بغير حسابٍ ؛ والانغماس باللهو والغفلة والترف والزينة .

هذه الحركة سمة للزمان ؛ وقد التبس بالمكان ؛ فلبس كُلٌّ منهما الآخر ؛ كما التقت المواقيت الزمانيَّة بأماكنها فى شعائر الحج والعُمرة ؛ فقد انتقل عيسى ابن هشام من زيارة البيت الحرام إلى زمن العيش فى بغداد ؛ وَقُبَيْلَ الوصول إلى بيته : وجد أنه لا يشعر بانقضاء زمن زيارة البلد الحرام ؛ لأنه مازال يتبختر فى مشيته مزهُوّاً بتخففُّه من الذنوب ؛ بل لقد خامره شعوره بالولادة من جديد ؛ على أنه فى حُريته ونشاطه وخروجه من الشعور بالقيود التى تَشُلُّ حركة الإنسان بأنه صار كبقلةٍ طريَّةٍ بريئةٍ هانئةٍ بحياتها على ضفاف دجلة ؛ تَعُبُّ من الماء غذاءها ؛ وتحركها النسائم العليلة ؛ فتهتز لها فَرِحَةً بالحياة مزهوةً بها مُقبلةً عليها .

فهو مزهوٌّ ومُعتزٌّ ؛ يرقص عالمه الداخلىُّ ؛ يُعزِّزُ فرحه بالوصول إلى بغداد عاصمة القوة وسيِّدة العالم فى زمنها ؛ سالماً آمناً مُطمئناً مُستقبلاً الحياة بخفةٍ ووثبةٍ جديدةٍ .

ما كُنَّا ندرى كيف ستكون صورتها ؛ لولا ما بَيَّنَهُ لنا من أن المدينة تصبغ حياة أبنائها بصبغتها نفسها ؛ فمكَّة صبغته بلونٍ ظلٌّ يُلاحقه ويعيش معه طول الطريق ؛ إلى أن بدأ زمن المدينة المُترفة ؛ فحركة زمانه فى مكة المدينة التى طواها جِسْمُهُ دون بقايا من بقاياها ما تزال فى شعوره ؛ وَعَبَّرَ عنه بالفرح والخفة والانطلاق ؛ لكن زمن حياته فى بغداد لحظة الوصول هى موضوع السرد على خطوات وحركات ومشاهد تبصرك معه أن المكان نفسه المدينة (دار السلام) قد تغيَّرت أيضاً .

فالتغيُّر (الحركة والتحول) ليس سمة الزمن وحده عنده فانقضى بانقضاء الزيارة للبيت الحرام ؛ بل امتد الزمان إلى بغداد امتداداً شعورياً نفسياً ؛ لأن نفسيَّة عيسى بن هشام تحرَّكت مُتأثرةً بالبيت الحرام ؛ واستطالت وتشوَّقت وتطلَّعت لحياةٍ جديدةٍ ؛ وبغداد نفسها ـ وهى المكان ـ تغيَّرت بغياب عيسى ابن هشام ؛ فماذا تغيَّرَ فيها ؟!!! ؛ أو ماذا بقىَ منها ؟!!! ؛ ذلك ما يُحدِّثنا عنه عيسى بن هشام بقوله :

« أتأملُ تلك الطرائفَ ؛ وأتقصَّى تلك الزخارفَ » .

فدار السلام تغيَّرت حالها ؛ فلم تَعُد كما تركها عيسى بن هشام يوم ذهب إلى البلد الحرام ؛ فقد تغيَّرت بيوتها من خارجها ؛ واستحدثت المدينة مُستحدثات جديدة ؛ تناولت زخرفة واجهات البيوت ونقشها ؛ فلبست ثوباً جديداً شغل بصر عيسى بن هشام الراوى والشاهد والمُشارك فى بُنيان العالم السردىِّ للمقامة ؛ فكأنه يدخل المدينة لأول مرةٍ ؛ يدلُّك على ذلك لفظ التأمُّل الذى يعنى إعمال الفكر والعقل والبصر للوصول إلى استجلاء معالم الجِدَّةِ فى بناء المدينة وأبنيتها ؛ ولم تكتف المدينة بتغيير جلدها الخارجىِّ أو واجهات البيوت ؛ بل أوغلت فى التعبير عن ترفها وزهوها بالمُبالغة فى فَنِّ الزخرفة التى شغلت بصر عيسى بن هشام وقلبه وعقله ؛ وذهب يستقصى آفاقها ليصل ببصره إلى أبعادها العميقة وفلسفتها العالقة بها ؛ فهى مَحَطَّةُ إدهاشٍ للشخصيَّة ؛ تكشف عن حركة المكان ببعض معانى الحركة وبعض معانى المكان والبيئة بِمُدَّةٍ قصيرةٍ .

يتنبَّه بديع الزمان على لسان شخصيَّته إلى أمرٍ مُهمٍّ ؛ وهو انعدام التوازن فى البناء على مُستوى الفرد والمدينة .

أما الفرد ؛ فقد حاول أن يُصلحه عالمه الخفىُّ الداخلىُّ ؛ لكنه أغفل عالمه السلوكىَّ الخارجىَّ ؛ فمازالت روح القطيع تحكم سلوكه وتُوجِّه حركته فى المدينة ؛ فكأنه لم يغزُ ولم يعد ؛ وكذلك المدينة غيَّرت ظاهرها ولم تُغيِّر باطنها ؛ فظلت مُترفةً تعنى بالشكل وتُهمل المضمون ؛ ومن هنا نشأت الخلخلة الاجتماعيَّة بانكسار نظريَّة الأطوار المُتوازنة ؛ فقامت رَدَّةُ الفعل على مُتع المُترفين بقوَّةٍ حركة المتصوفين الذين انصرفوا لبناء باطنهم على حساب عالمهم الحسىِّ الخارجىِّ .

فإذا كان تعيين الزمن غير مُهِمٍّ عند الشخصية ؛ فإن تحديد المكان بدار السلام كان ذا غايةٍ مُحدَّدةٍ للتعبير عن الفرق بينها وبين البلد الحرام من جهة :

- المدينة .
- وغايتها .
- ورسالتها .
- وأثر ذلك فى الناس حياةً وشعوراً .

وكان فى تحديد الأماكن : « البلد الحرام ؛ ودار السلام » مجال للتعيين المُساعد على شَدِّ السرد من عالم الافتراض إلى حيِّزِ الواقع ومُحيطه ؛ ليكون القبول على أشُدِّه ؛ والانتقال من عالم التخيُّل القصصىِّ إلى عالم المُمكن والمُتحقِّق فى حياة تلك المدينة يومئذٍ .

فالمدينة (دار السلام - أو بغداد -) هى المكان ؛ لكنها تشعر بالحيويَّة والتجدُّد والزينة والتخفُّف من صور الماضى والانتقال إلى حالٍ توافق الحاضر الجديد ؛ مما يعنى أن النقلة كانت شاملةً ؛ فهى نقلةٌ فى الزمانِ وأُخرى فى المكانِ وثالثة فى حال عيسى بن هشام فى سعيه بين البلد الحرام ومدينة دار السلام ؛ وكذلك المدينة الدنيويَّة (دار السلام) : تغيَّرت حالها العُمرانيَّة وسعت نحو الكمال الجمالىِّ ؛ مما يعكس تغيُّراً فى أذواق أهلها ؛ وترقيًّا فى الذائقة الجماليَّة ومُبالغة فى ذلك الأمر ؛ مما يُعطى المدينة شعوراً بالقوة والعظمة والفرح والانطلاق بالناس إلى أحوال المُترفين اللاهثين وراء الفرح والتراخى واللعب والزهو بكُلِّ ما يجرى .

إنها مدينةٌ مُنفلتةٌ من شواغل الفقر والحُزن والشعور بالخوف من المستقبل ؛ كأنها أخذت من اسمها بعضاً من معانى العيش فيها ؛ فهى كالجنَّة للناس ؛ فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يَدَّعُون ؛ ليس فيها حُدُودٌ للمُباح ؛ ولا قُيُودٌ تحجز عن الممنوع ؛ ولا يُشغل أهلوها بشىءٍ مما يشغل بال الناس فى المُدُن الأُخرى ؛ إنها دار الشهوات والملذَّات ؛ مثلها فى ذلك الانطلاق كمثل عيسى بن هشام وقد رمى أثقاله بزيارة البلد الحرام ؛ مما يَدُلُّ على أن شعور الشخصيَّة بالفرح جعلها تُلوِّن الزمان بلونها ؛ وترسم أبعاد المكان وامتداده بما لديها من الشعور بالحيويَّة والتبختُر والجمال والقُوَّة والسعادة بكُلِّ ما يُفرح النفس والقلب ؛ فكان المكان والزمان معروضين لنا وفق رؤية الشخصية التى تقوم بالسرد القصصىِّ ؛ وتُشارك فى بناء عوالم المقامة ؛ وتنسج حياتها على

نحوٍ مُتجانسٍ ومُنسجمٍ من جميع الجهات ؛ مما يُمهِّد السبيل للحديث عن أحوال الناس بعد معرفة أحوال العُمران ؛ وموقع هذا القافل من البلد الحرام في المدينة وأهلها .

ـ الشخصيَّات في المقامة :

لا تجد فُرصةً تنفك فيها الشخصيَّات عن الزمان والمكان وموقعهم في عين عيسى بن هشام ونفسه وشعوره ورؤيته ؛ وإظهار سطوة عقليَّة القطيع في الحياة الاجتماعيَّة ؛ على مُحافظة كُلِّ إنسانٍ على سمته وطابعه الشخصيِّ غير المُنفصل من الطابع العام للمدينة وطابعها الحضاريِّ وحالها العامة ؛ فلم يشأ أن يقول لنا بعبارةٍ مُوجزةٍ : إن أهل هذه المدينة يعيشون خالين من هموم المُدُن الأُخرى ؛ فهم لا يجدون ما يشغلون أنفسهم به سوى اللهو والعبث ومُشاهدة المشاهد المُضحكة على تفاهة ما يرونه ؛ فكأنهم بسلواهم عن نازعات الدنيا يعيشون عالم الجنَّة (دار السلام) في هذه الفانية .

المُهِمُّ أن الفراغ والترف والشعور بالقوة الطاغية : جعلت همومهم تنوس وتتضاءل إلى حَدٍّ الانشغال بقَرَّادٍ يُرقص قرده ويُضحك من عنده ؛ ولو تساءلت عن موضع عيسى بن هشام القادم من البلد الحرام ماذا فعل ؟ ؛ لوجدته يُخبرك أن الفضول والحرص الذى ساقهم إلى ما هُم فيه ؛ ساقه أيضاً ؛ فهو واحدٌ منهم ؛ ولم تترك مسألة الزيارة إلى البيت الحرام أثراً يدفع شيئاً من سطوة الحياة المدنيَّةِ وقوة غريزة القطيع في سعيه وسلوكه ؛ فجاء يرتع حيث يرتعون ؛ ويشغل نفسه بما شغلوا أنفسهم به وله .

الشخصيَّات فى دار السلام لها ثلاثة نماذج إنسانيَّة :

- الأول : يُشير إليه بديع الزمان بعيسى بن هشام ؛ ويجعله رمزاً للشخصيَّة التى فهمت الدِّين فهماً رُوحيَّاً يقوم على غسل أوحال الترف وانحراف السُّلوك الإنسانىِّ بالزيارة والتبرُّك وسيل الثقة بغُفران الذنوب من غير إصرارٍ على ترك طريق الأمس ؛ أو الاحتباس عن السير بمسيرة قطيع اللهو والغرائز ؛ ولا التفرُّد فى السُّلوك الحىِّ بترك عبث اللاهين ؛ فتجده يُنكر رقص الأعرج وطوق الكلب المُحرج ؛ ولا يكف عن المُشاركة بما يزعم أنه من تفاهة الأمر وضحالته ؛ فلم تمنعه زيارته التى انقضت عمليَّاً بتمامها عن العودة إلى طريق الغرائز ؛ والانغماس بمُستنقع التفسُّخ الحضارىِّ ؛ فهو مُستعِدٌّ للعودة مَرَّةً ثانيةً ليستحم بماء المغفرة (زمزم) .

إن السُّلوك فى حِسِّ المُؤلِّف : يُؤلِّف قاعدة الفصل الحَقِّ بين رُؤى الناس وواقع حالهم ؛ فإذا ادَّعَى أحدٌ الدِّيانة والحرص على الزمنِ والبُعد من اللهو ؛ فلا ينبغى أن تُصدِّقه إلا إذا وجدته يربط القول بالعمل ؛ وهذه آفة الدِّين ؛ سجَّلها القُرآن وَنَبَّهَ المُؤمنين من كُلِّ دينٍ عليها ؛ فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ؟!! ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ !! ۞ ﴾ (١٩) ؛ واحترس سيِّدُنا علىٌّ بن أبى طالب مما أصاب ذلك العابد الذى لم يُنكر على الحاضرين تبذير الوقت وتدمير الحياة وضياع بضاعة الله هدراً ؛ بل أنكر إنكاراً ضعيفاً خفيَّاً ؛ لكنه رَضِىَ بصنيعهم وشارك فى سهامهم ؛ ولو أنه فى النهاية انتهى إلى التوبيخ لمن جمع الناس ؛

فقال أبو الحسن فى ذلك :

« الرَّاضِى بِفِعْلِ قَوْمٍ ؛ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُم ؛ وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِى بَاطِلٍ إِثْمَان : إِثْمُ العَمَلِ بِهِ ؛ وَإِثْمُ الرَّاضِى بِهِ » . (٢٠) .

فقدَّم العمل وجعله دليل القلب الصادق ؛ ذلك أن الإنسان قد يقول بلسانه ما ليس فى قلبه لكنه يعمل ما فى قلبه ولو لم يجرِ له ذكرٌ على لسانه .

فالنموذج الإنسانىُّ المُتديِّن تغيَّرت صورته العمليَّة فى العصر العباسىِّ ؛ وافترق قوله وعمله ؛ ولسانه وقلبه ؛ وانتهى فى المدينة إلى حياة القطيع ؛ مُتعلِّقاً بالدِّيانة لساناً ؛ مُنقطعاً عن حقيقتها قلباً وسلوكاً ؛ مُخادعاً نفسه بظواهر الأمر من غير النظر فى حقائقه وعواقبه .

ـ والنموذج الثانى : عُمُومُ المُترفين من أهل المدينة ؛ المُتنعِّمين بنعمها ؛ والآكلين من خيرها ؛ والمُتمتِّعين بكُلِّ ما فيها أو يأوى إليها من خيراتٍ ؛ وهُم الذين يبحثون عن التجديد فى المظاهر ؛ كالملابس والموضة والثياب ؛ وواجهات البيوت والأبنية وما تحتاج الظواهر الخارجية ؛ إنهم يُحِبُّون البهرجة ومظاهر العظمة والتلبُّس بلبسها ؛ ولا يجدون شعوراً بالخوف من المستقبل أو الفقر أو الضعف ؛ فهم ملكوا من الشعور بالقوة على التدمير إلى حَدِّ أنهم صاروا يُدمِّرُون أثمن ما فى الحياة ؛ ألا وهو الوقت الذى يعيشونه بتوافه الأمور ؛ وكل أمرٍ يتصدون له إنما يكون بُغية المُضاهاة ؛ حتى العلماء طلبوه للذكر والصيت وللتقرُّب من ذوى السُّلطان ـ كما تكشف عن ذلك مقامات الزمخشرىِّ (٢١) رَحِمَهُ الله ـ .

- والنموذج الثالث : للأشقياء فى هذه المدينة ممن يبحثون عن الحيلة للوصول إلى رزقهم وَسُبُلِ عيشهم من ذوى البطالة المُقنَّعة بقناعٍ من وهم العمل ؛ وهى لا تُنتج شيئاً ؛ بل تستر كرامتها بما يُوهم أنها تعمل عملاً نافعاً ؛ وقد أشار إلى هذا النموذج بشخصية أبى الفتح الإسكندرىّ : الذى هجر العلم والأدب بعد أن صارا لا يُسمنان ولا يُغنيان من جُوعٍ ؛ وصارت التقدمة للاهتمامات التافهة والأعمال غير المُنتجة ؛ مما يُهدِّد كيان المجتمع بالانهيار والسُّقوط ؛ لأن عظمته جوفاء ؛ واهتمامات أهله من نمط الغثاء .

وعبقريَّة بديع الزَّمان : أنه جمع لك النماذج البشريَّة الفاعلة فى الحياة العباسيَّة فى ساحةٍ من ساحات المدينة بمشهدٍ واحدٍ ؛ وأعطاك مؤشرات الحركة الحضاريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لكُلِّ أبنائها الفاعلين ؛ فالرجال - وهُم بُناة المُجتمع وحُماته فى تلك الأزمان - كانوا فى الساحة لاهين عابثين ؛ ولا شَكَّ أن الأطفال والنساء كانوا فى بيوتهم أو شُرفاتها يُنغضون بأعناقهم إلى مشهد اللهو والعبث ؛ ويُطلقون صيحات الضحك ؛ وتلتوى أعناقهم من الطرب أيضاً ؛ لأنهم أكثر استجابةً للطرب واللهو من الرجال فى ظروف الحياة المُتوازنة ؛ فكيف إذا اختلت شروط التوازن فى البِنَى الحضاريَّة للمُجتمع ؛ فلابُدَّ من عموم البلوى - كما يقال - ؛ فالصلاح فى المُدُن قليلٌ - بصورةٍ مُدهشةٍ - كما عرضه بديع الزمان ؛ وهو يرسم شخصيات الخير فيها مُتأثراً بعُمق الرؤية القُرآنية التى تجعل رَجُلاً واحداً يتصف بالحكمة والوعى

من أهلها ؛ ويأتى دائماً من أقصى المدينة يسعى (٢٢) ؛ مما يجعله على قُرْبٍ من الحياة الوسطى بين المدينة والبادية ؛ وهو إلى المدينة أقرب ؛ ولو كان من سُكَّانها فإنه لم ينخلع من ثوبه القروىّ أو الريفىّ .

وجعل بديع الزمان الفقر سبباً فى توازنه النسبىّ ؛ ولم يترك ذلك للبيئة ؛ فكأنه يربط فضائل الحياة بالغنى والفقر ؛ أى بالحياة الاقتصادية ؛ وكأنه يُؤكِّدُ حقيقة نهاية الدورة الحضارية التى تبدأ قويَّةً بثوب البداوة ؛ وتنتهى عصبيَّتها فى المُدُن ؛ فتتلاشى الحضارة وتنتقل إلى أُمَّةٍ أُخرى تبدأ بها حركتها ونشاطها من جديدٍ ؛ إلى أن تُصاب بآفة الدورة الحضارية ؛ وهكذا ـ على نحو ما أثبت ذلك التوحيدىُّ (٢٣) ؛ وابن خلدون (٢٤) من بعده ـ .

ومن شخصيَّات المدينة غير البشرية : القرد والكلب المحرَّج ؛ وقد كشف عيسى ابن هشام بذكرهما عن موقع الحيوان عند المُترفين ؛ ذلك أن القرد كان موضع مُتعةٍ وتلذُّذٍ عند المُترفين من غير أن يرعوا حاله ولا يلحظوا عنصر إكراه الحيوان بإخراجه على نمط حياته وسلوكه المألوف ؛ فقد جعلوه موضوعاً للفُرجة واللهو ؛ بغضِّ النظر عن واجب الرِّفق به ؛ لكن الكلب قد كانوا يُطوِّقُونه بالزُّمُرُّد واليواقيت والذهب والفضة ـ كُلٌّ على حسب حاله وذوقه ـ ؛ مما يُبيِّن أن المال صار زينةً للكلاب ؛ وممنوعاً على العُلماء أو الأُدباء من أمثال أبى الفتح !! ؛ فَوُضِعَت الأمور فى غير مواضعها ؛ وخرجت عن سَنَنِهَا المُستقيم ؛ مما يُنذر بسقوط الحضارة ؛ لتقدُّم الشهوات على الواجبات ؛ والحيوان على الإنسان .

هذا إذا حملتَ مشهد القرد على أنه حقيقةٌ طبيعيَّةٌ ومقولةٌ عُرفيَّةٌ ؛ بَيْدَ أن البدعة الأدبيَّة ربما كانت افتراضيَّةً مجازيَّةً ؛ فيكون القرد مضروباً مثلُه على جهةٍ رمزيَّةٍ ؛ يقول مؤداها :

« وَاسْجُدْ لِقِرْدِ السَّوْءِ فِى زَمَانِهِ وَدَارِهِ مَادُمْتَ فِى سُلْطَانِهِ

وقالوا : أزنى من قردٍ ؛ وأحكى من قردٍ ؛ لأنه يحكى الإنسان فى أفعاله سوى المنطق .

وقالوا : أقبح من قردٍ ؛ وأولع من قردٍ . » . (٢٥) .

فالقرد رمزٌ للقول المشهور : « النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِم » : من جهة خضوعهم للهو والشهوات ؛ والمُحاكاة خوفاً من سطوة السُّلطان ؛ وطبعاً من طباع المغلوبين ؛ والفسق والفُحش صار فى السَّاحة يستمع به الناس جهاراً نهاراً ؛ لا فرق فى ظاهر الصورة بين من يُنكر بقلبه ويُظهر الطاعة بغُلبه ؛ ولا من يُقبل عليها طائعاً ؛ فغلب عنصر القهر : قهر السُّلطان ؛ وقهر الفطرة - أو الغريزة - .

- موضوع المقامة :

تناولت المقامة الوجهين : الظاهر والباطن للمدينة ؛ فالوجه الظاهر - وهو الغالب ؛ وليس الأغلب عليها - يُظهر أن للمدينة القوية مُشكلةً مُهمَّةً ؛ هى مُشكلة : الفراغ فى الوقت ؛ وانعدام الحاجة المُلِحَّة للعمل ؛ وطريقة إزجاء أوقات الفراغ فى مدينةٍ تأوى إليها خراج المُدُن الأُخرى ؛ وفضل أموالها ؛ وخير أبنائها وبناتها ؛ كُلُّ ذلك يتقاطر إلى العاصمة دار السلام والأمان

بغداد ؛ وكبار القوم يشغلون أوقاتهم بتغيير واجهات البيوت بين الفينة والأُخرى ؛ ويقومون بتقديم الجديد من الزخرفة للعمارة ؛ والمزيد من التزيين ؛ والحفاظ على مظهر العظمة السياسية والاقتصادية ؛ وربما العسكرية .

المُشكلة : مُشكلة الفراغ ؛ والقضيَّة : هى قضيَّة البحث عن الجمال فى الصورة ؛ وتجسيمها على العُمران ؛ والصورة فى مشاهد الحياة وفى علاقة الإنسان بالحيوان - البهائم والأنعام وغيرها - ؛ وبالناس الذين لم يعرفوا من أين تُؤكل الكتف ؛ وكيف يحصل المتسلقون على الأموال والثروات الكثيرة المهولة : مما يفتح نافذةً خفيَّةً على الوجه الباطن للدولة العباسيَّة ؛ لينكشف بالموقف والصورة الوجه القبيح للمُجتمع المبنىّ على ترف نُخْبةٍ واسعةٍ من الناس ؛ لكنها لا تلتفت لأولئك الذين يَكِدُّون على حساب كرامتهم الاجتماعيَّة ومكانتهم العلميَّة والأدبيَّة ابتغاء الحصول على لُقمة العيش المسروقة لِمُتع هؤلاء .

إنها الصورة العميقة التى تُبرز الخلخلة الطبقيَّة فى بِنَى المُجتمع ؛ ذلك أن الفُقراء من أهل العلم لا يجدون تكريماً لعلمهم كما أوجبت رسالة البلد الحرام ؛ وذلك لقيام الفوارق بين الناس على أساس العلم والعمل الصالح ؛ وليس على أىّ أساسٍ آخرٍ ؛ بَيْدَ أن النظام العباسىّ يُقدِّم الأُسرة على الفكرة ؛ والمال على العلم ؛ وقيمة كل امرئٍ ما يملكه ؛ وليس ما يحسنه !! .

لعلَّ خُلاصة فكرة المقامة تقوم على أن مكانة أهل العلم والأدب تدنَّت فى هذه المدينة ؛ وصار العالم أو الأديب يعمل قَرَّاداً ليكسب وفراً وغنىً

فـى الحيـاة ؛ ومبنى الفكـرة يقـوم علـى اخـتلال المـوازين بـين قـيم البلـد الحرام فى صورتها المُثلى أو الافتراضيَّة المُتسلِّطة على الأرواح والأنفس ؛ وقيم المدينة العزيزة بقُوَّتها ومالها وسُلطانها على الأبدان والشهوات والثروات (دار السلام) .

وبهزيمة العلم فى الدولة وهزيمة العمل المُنتج تُطِلُّ بشائر السُّقُوط وعـلامـاتـه .

فالمقامات تبعث بصفَّارات الإنذار لذوى السُّلطان ؛ لعلَّهم يستيقظون لما يجرى حول قصورهم وفى أعماق مجُتمعاتهم مما تخُفيه الصدور الغالبة على بطانتها ؛ والشعوب المغلوبة على غالبيها .

لكن :

- كيف عَبَّرَ بديع الزمان عن الفعل السردىِّ فى المقامة ؟ .
- وكيف صوَّر المشهد الدال على ما أراده ؟ .
- وما علاقة عيسى بن هشام بهؤلاء الناس ؟ .
- وما علاقته بالقرَّاد ؟.
- وكيف وصل بالمقامة إلى مغزاها القائم فى بنية المجُتمع المُفتقر إلى من يقوم لمُعالجة أوضاعه وبُنيانه على مستوى فهم الديانة ومُستوى وعى الحركة العلميَّة والنفسيَّة للمجتمع؟ .

ـ مشهدٌ من دار السلام :

عرض بديع الزمان موضوع المقامة مقروناً بحركة الزمان والمكان والإنسان ؛ واتخذ له مركباً على جناح مشهدٍ حيٍّ ؛ كأنه عين آلة تصويرٍ للرائى ؛ تنقل الصور حيَّةً مُتحرِّكةً ؛ وترصد الحركات والهمسات والأصوات ؛ مُثيرةً الضحك والتفكُّر والشُّعور بالبهجة مقرونةً بالمرارة ؛ وذلك فى تعبيره عَمَّا جرى أمام عيسى بن هشام ؛ وبحضرته ومشاركته ؛ وذلك بقوله :

« إذ انتهيتُ إلى حلقةِ رجالٍ مُزدحمين ؛ يلوى الطَّربُ أعناقَهم ؛ ويشقُّ الضحكُ أشداقَهم .

فساقنى الحرص إلى ما ساقهم ؛ حتى وقفتُ بمسمعِ صوتِ رَجُلٍ ؛ دون مرأى وجهِهِ ؛ لِشِدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرط الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قَرَّادٌ يُرقصُ قردَهُ ؛ ويُضحكُ مَن عندَهُ ؛ فرقصتُ رقصَ المُحَرَّج ؛ وسرتُ سيرَ الأعرج ؛ فوق رقاب الناس ؛ يلفظنى عاتقُ هذا لِسُرَّةِ ذاك ؛ حتى افترشتُ لحيةَ رَجُلين ؛ وقعدت بعد الأين ؛ وقد أشرقنى الخجلُ بريقهِ ؛ وأرهقنى المكان بضيقهِ ؛ فلما فرغ القرَّاد من شُغله ؛ وانتفض المجلس عن أهله ؛ قمتُ وقد كسانى الدَّهَشُ حُلَّتَه ؛ ووقفت لأرى صُورته ؛ فإذا هو ـ واللهِ ـ أبو الفتح الإسكندريُّ !! .

فقُلتُ : ما هذه الدناءةُ ويحَكَ ؟!!

فأنشأ يقول :

الذَّنْبُ للأَيَّامِ لا لِى
فَاعْتِبْ عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِى

بِالحُمْقِ أَدْرَكْتُ المُنَى

وَرَفَلْتُ فِى حُلَلِ الجَمَالِ ».

المشهد قائمٌ فى ساحةٍ من ساحات بغداد ؛ مُؤلَّفٌ من رجالٍ مُزدحمين ؛ مأخوذين بخِفَّة الطرب والفرح ؛ فالطرب تجده فى أعناقهم المُلتوية يميناً أو شمالاً ؛ والفرح ظاهرٌ فى ضحكاتهم ؛ وهُم فى نشوةٍ من مشهدٍ يشهدونه ويلتفون حوله ؛ ويتدافعون من أجل الإطلالة على السَّاحة لتكون العين واقعةً من قُربٍ على المشهود من المشهد.

لَمَّا رأى عيسى بن هشام حرصهم على التزاحم والمشاهد ؛ رصد الطرب فى أعناقهم المُلتوية ؛ والضحك فى أشداقهم ؛ فتحرَّكت أشواقه ؛ وتطلَّعت نفسه إلى معرفة ما أثار هذه الجموع ؛ فاتخذ سبيله إلى وسط الحلقة ليعرف سِرَّ هذه الزحمة ؛ وشِدَّة الهجمة على وسط الحلقة ؛ فوصف لنا سيره ومشهد حركته بأنه يُشبه الراقص الأعرج ؛ لأنه لا يستطيع أن يستدير فى حركة وركيه ؛ فإذا أراد اليمين دفعه من حوله إلى الشمال ؛ وإذا أراد الشمال دفعوه نحو اليمين ؛ وإذا أراد التقدُّم دفعوه نحو الخلف ؛ ولو أراد الخلف دفعوه نحو الأمام : لِشِدَّة الزِّحامِ وحرص الجميع على ما حرص عليه.

ثم عاد لِيُفصِّل لنا سَيْرَهُ هذا : بأنه يضع رجله على الأرض فإذا به يحُسُّ بحركة عاتق رجل كان قد اتخذ الأرض انكباباً على وجهه ؛ فيدفع قدم عيسى ابن هشام بعاتقه ؛ فيرفعها مُتقدِّماً أو مُتأخِّراً ؛ فإذا بها تقع على سُرَّةِ بطن رَجُلٍ آخرٍ ؛ كان مُستلقياً من شِدَّة الطرب والفرح على قفاه ؛ ليصرخ من ألم

القدم التى وقعت عليه ؛ ثم يرفعها لتفترش لحية رجلين اجتمعتا كما لو أنهما لحية رَجُلٍ واحدٍ ـ وتصور ذلك يحتاج منك أن تتصور حال اضطجاع أحدهما على جانبه الأيمن على جهةٍ من التوازى والتلاقى بين الرأسين ؛ وقد وضع الآخر رأسه مُقابل رأس صاحبه وهو مُضطجعٌ على جنبه الشمال ؛ وأخذ كُلٌّ منهما يُعبِّرُ عن الطرب الذى أصابه والفرح الذى لحق به ؛ ولا يُمكن أن تبلغ حال الطرب والفرح مبلغها من غير تصور فكرة شُرب النَّبيذ الذى استباحه بعض فقهاء بغداد فى تلك الأزمان ؛ إضافة لحضورهم هذا المشهد المشهود ـ .

أرَادَ أن يُبيِّنَ شيئاً غريباً فى حياة المدينة عندما شَبَّهَ نفسه بالكلب المُطوَّق المُدلَّل الَّذِى يُزيِّنُهُ أصحابه بأطواقٍ من الجواهر الثمينة ؛ وهو تشبيهٌ ماكرٌ بالمدينة وأهلها ؛ وحقيقتها الجوفاء ؛ وضجيجها الفارغ الذى تَبيَّنَ له فى نهاية المطاف بعد أن أقعده التعب وبذل المجهود عن السعى ؛ وسمع صوت قَرَّادٍ دون أن يتمكَّن من مُشاهدته ؛ وكان يُرقص قرده ؛ ويُضحك من عنده ؛ فاستبان له تفاهة اهتمام المُترفين من أهل المُدُن ؛ ودنو هِمَّتهم عن معالى الأمور ؛ وانشغالهم بقضايا الزينة والشكل على حساب الحقيقة والجوهر ؛ فكأن الكلب المُطوَّق صورة اقتبستها المُدُن المترفة فى أوربا والغرب من حياة المدينة العربيَّة التى لا نعلم من أين اجتذبتها إليها ؟!!! ؛ ذلك أن الكلب ممنوعٌ معاشرته على أهل المدينة العربيَّة الإسلاميَّة ؛ ومسموحٌ به للأعراب فقط يحمون به أغنامهم ومواشيهم(٢٦) ؛ فليس من سمة المدينة العربيَّة تربية

الكلاب ؛ ولا الاهتمام برقصة القرد من هَمٍّ أهل المُدُن العربيَّة وَهَمٍّ الذين حملوا أمانة الحضارة والمدنيَّة للأُمم والإنسانيَّة ؛ بَيْدَ أن المُؤلِّف أراد أن يُظهر لحظات السُّقوط والعوامل المُساعدة لها ؛ ليجتنبها من يستطيع وقف دواعى السُّقوط أو الانهيار ؛ لكنها صيحةٌ فى وادٍ !! ؛ ذلك أن وعى فردٍ لا يستطيع أن يُوقف سقوط القطيع ؛ ولا كسر غريزته الراغبة بالسقوط .

خرج بنا الرَّاوى (قناع المُؤلِّف) من المشهد وانقضائه ؛ وانصراف أهله إلى مُواجهة الشخصيَّة المجهولة التى جلبت بعقلها وذكائها وفطنتها انتباه الجماعة أو الدهماء إلى ما تُحِبُّهُ وتشتهيه ؛ وما تُوجبه أطوار السُّقوط الحضاريِّ من وسائل اللهو والعبث بالزَّمن والطاقة والحياة .

إنه أديبٌ أو عالمٌ ترك أدبه وعلمه ؛ وسار إلى اقتناص الرِّزق بغضِّ النظر عن تفاهة الوسيلة وجُرم ترك الاختصاص ؛ ذلك المشهد الذى يَرُوعُكَ فى أمسه عاد اليوم إلى عالمنا العربىِّ ؛ فما أشبه اليوم بالبارحة !! .

فعلامات السُّقوط واحدة ؛ والنتائج المُنتظرة قادمة ؛ وصاحبنا الذكىُّ البطلُ الإعلامىُّ الذى قاد الناس من طربهم ولهوهم جاهزٌ لاقتناص حَقِّهِ ومالهِ من فضلات أيدى المُترفين .

وَيَرُدُّ المُؤلِّف المسؤولية إلى الشُّرُوط الاقتصاديَّة التى أغنت طبقة المُترفين وذوى الاختصاصات التافهة التى تشغل غرائز القطيع ولا تُحرِّك قلوبهم أو عقولهم للأُمَّة ومُستقبلها ؛ أو مُتابعة النُّهوض ؛ أو حراسة البناء وصيانته من عوامل الحتِّ والتعرية .

إنه أبو الفتح الإسكندرىُّ : ترك طريق العلم أو طريق الفقر ؛ وعمل بصنعةٍ يراها أهل فَنِّهِ تافهةً ؛ لكنها جعلته ينتقل من شِعارهم : ((زَادُ العُلَمَاء : خُبْزٌ وَمَاء)) ؛ إلى أن صار يَرْفَلُ بالجمال والخير .

بهذا المشهد كُلّه أراد حقيقةً أثبتها عَلِىُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ ـ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ـ عندما قال مُوضِّحاً أسباب اختلال القيم باختلال توزيع الثروة فى الأُمَّة ؛ بقوله الخالد : ((مَا جَاعَ فَقِيرٌ ؛ إِلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِىٌّ)) . (٢٧) .

هذه العبارة العَلِيَّةُ تُعَدُّ زُبْدَةً ؛ تسعى المقامة بمخيضها إلى إثباتها بخُلاصة خاتمتها التى جاءت شعراً ؛ مُنحرفةً عن نقد سياسة الدولة ؛ راميةً نبالها جهة الأيَّام والليالى القاهرة بتقلُّبها ؛ ومُشيرةً إلى المُعضلة الاقتصاديَّة ؛ مُعضلة الغِنَى والفقر ؛ التى تُعَدُّ أساساً لإصلاح السُّلوك أو إفساده ؛ من غير اقتضاءٍ حتمىٍّ .

ـ ختام المقامة :

جَدَّدَ بديع الزمان فى بِنْيَةِ النَّصِّ عند العرب عندما جعل أفكار النَّصِّ وخيوط حركته الفنيَّة تجتمع وتتكاثف قُوَّتُها فى نهايته وليس فى مطلعه على طريقة العرب فى قصائدهم ؛ فقد تقرَّبَ إليهم بأخذه التسمية طريقةً والإسناد أسلوباً للسرد أو الحكى ؛ والمقامات قُبَالَة المنازل عند العرب ؛ وهى مؤقتة مثلها لا تدوم ؛ وإن كان أهلها ثابتين ثبات شخصيتى عيسى بن هشام وأبى الفتح الإسكندرىِّ من جهة المثال الإنسانىِّ ؛ غير أن المواقف والأحوال

والمشاعر والمقامات والأقوال : كُلُّ ذلك يُصيبه التغيُّرُ كما فى المقامات تماماً .

وطبيعة الانتقال فى المقامات قائمةٌ من مدينةٍ إسلاميَّةٍ إلى أُخرى على خلاف تنقُّل المنازل عند أهل البادية من أرضٍ أصابها المَحْلُ الطبيعىُّ إلى أرضٍ أُخرى فيها كلأٌ وماءٌ ؛ أى من بَرِيَّةٍ إلى أُخرى ؛ غير أن مَحِلَّ المقامة هو المدينة الإسلاميَّة ؛ وآفاتها مُتعدِّدةٌ ؛ لكنها من صُنْعِ الإنسان وقُوى المال وطُغيان السُّلطان ؛ وليست من قسوة الطبيعة أو مَحْلِ المكان ؛ المُهِمُّ أن المقامة خُتِمَت ببيتى شعرٍ ؛ جمعا خُلاصة ما جرى ومغزاه ؛ خلافاً للقصيدة العربيَّة ونصِّ الإنشاء العربىِّ الذى يجعل جِمَاعَ النَّصِّ فى مطلعه ؛ ويترك الخاتمة مفتوحةً للحياة والتغيُّر والإضافة والحذف ؛ وليس ضربة لازبٍ أن تُختم المقامة بالشعر ؛ فقد تُختم بغيره من غير تغيُّرٍ لوظيفة الخاتمة .

- سرديَّة المقامة :

المراد بسرديَّة المقامة : طريقة بنائها : فكرةً ؛ ولُغةً ؛ وموضوعاً : مما يجمع ما تقدَّم قوله بإيجازٍ ؛ ويُضيف إلى ذلك آية وحدة النَّصِّ وتناسُبه لُغةً وفكرةً وبناءً .

أما سرديَّة بنائه فكراً ومنهجاً : فقد أوضحنا ذلك بأن منهجه فى كُلِّ مقامةٍ يقوم على الخطوات الآتية : تسمية المقامة أو عنوانها ؛ وإسنادها إلى عيسى بن هشام ؛ وتحديد زمانها ؛ ومكانها على وجه عامٍّ أو خاصٍّ ؛ وحال الراوى ؛ وحال المكان ؛ والموقف الذى يحمل الغموض يعرضه بمشهدٍ من حياة المدينة

نفسها أو فى الطريق إليها ؛ ثم الكشف عن الشخصيَّة التى تجمَّع الناس حولها ؛ وهى شخصية أبى الفتح الإسكندرىّ ؛ ويكشف عن سِرّ موقفه وغرابة سلوكه ؛ ويختم المقامة على لسانه ؛ أو على لسان الراوى نفسه .

وأما ترتيب النَّصّ وتلاحقه ؛ فلم يكن له من وسائلٍ خارجيَّةٍ سوى الإسناد والعنوان ؛ وقد بينَّا وظيفة كُلٍّ منهما من قبل ؛ وكأنه استغنى بهما عن براعة الاستهلال التى تجعل مُقدِّمة النَّصّ مُتضمِّنةً الإشارة الواضحة بلُطف لا يكاد يخفى إلى موضوعه ؛ لكنه بدأ بتقديم شخصيَّة الراوى الذى اندفع يسرد علينا ما جرى له بعد عودته من البلد الحرام ؛ وقرن ذلك بحاله وحال الزمان والمكان والمدينة : الواجهات العُمرانيَّة والسُّكَّان .

وأظهر ضعف شخصيَّة عيسى وقُوَّتَهَا النسبيَّة ووعيها الزَّائف أمام سُقُوطها وَسُلُوكها ؛ على أنها نفسٌ لوَّامةٌ تتعقب السقوط ولا تسبقه ؛ وهُنا موقع سقوطها وورطتها ؛ ليُبدى لنا أن حركة الحضارة جماعيَّةٌ لا ينفعها وعىُ القِلَّة إذا غاب الوعىُ عن ذوى القُوَّة الماليَّة والسُّلطة الحاكمة فى المدينة ؛ لأن ما دونها تَبَعٌ لها فى الحركة الحيَّة المُنتجة .

فهو قد جَدَّدَ بالهجوم المُباشر على حكاية المقامة أو الجلسة التى حملت الموضوع والفكرة والقضيَّة ـ أو أزمة المدينة إنساناً وعُمراناً ؛ ظاهراً وباطناً ؛ حاضراً ومُستقبلاً ـ ؛ وكان قد ربط حركته بحركة المدينة ؛ ففى قُفُولِهِ انضم إلى موكب اللهو فى المدينة قبل الوصول إلى بيته .

وكان من براعته : اختزال الحركة الاجتماعيَّة بتمامها بهذا المشهد المُجمل الذى اقتطعه من حياة المدينة العباسيَّة ؛ إنها عبقريَّة تكثيف المواقف والسُّلوك ؛ والقُدرة على الإيحاء بالكثير من هذا القليل .

ـ سرديَّة اللُّغة :

وأما سرديَّة اللُّغة وتسلسُلها ومُناسبتها للحكاية وموضوعها وشخصيَّاتها ؛ فهى موضوعٌ واسعٌ ؛ نُوجزُ بعض وجوه دراسته بإلماحٍ إلى عبقريَّة الاختيار لأساليبه اللغويَّة ؛ وعبقريَّة تسمية الشخصيَّات الإنسانيَّة والمكانيَّة والحيوانيَّة فى هذه المقامة ؛ ووظيفة الاختيار تُبْرِزُ حِذْقَ بديع الزمان فى تكوين نَصِّهِ الإبداعىِّ والتعليمىِّ والتربوىِّ .

اللُّغَةُ هى مادة السرد ؛ وهى اختيار المُؤلِّف المُتعلِّق بوحدة أهدافه التعليميَّة والتربويَّة معاً ؛ وهى وعاء المنهج والفكرة والبناء الفنىِّ كُلِّهِ فى هذه المقامة .

تبدأ دراستها بدراسة الأساليب اللغويَّة الخبريَّة والإنشائيَّة ووظائفها البلاغيَّة المُؤثِّرة فى المُتلقِّين ؛ من غير إغراقٍ فى هذا الأمر التعليمىِّ ؛ حتى لا تفقد الدراسة شيئاً من أهدافها فى الإيجاز ؛ لأن الاجتزاء بالقليل عن الكثير يَدُلُّ عليه ؛ ويُمَهِّدُ السبيل إليه .

فى بدء السرد قال عيسى بن هشام :

« بينا أنا بمدينة السلام ؛ قافلاً من البلدِ الحرام ؛ أميس ميسَ الرِّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة ؛ أتأمل تلك الزخارف ؛ وأتقصَّى تلك الطرائف ؛ إذ انتهيتُ إلى حلقة قومٍ ... » .

بدأ بالظرف الدال على الزمان ؛ ولفظه « بينا » ؛ وهو ظرفٌ لا يُضاف إلاَّ إلى مُتعدِّدٍ ؛ فى إشارةٍ ذكيَّةٍ منه إلى عرض شخصيَّته فى سياق حركة الزمن وتعدُّد لحظاته ؛ ذلك أن سياق الكلام يجعلها دالَّةً على الزمان ؛ فهو بين زمنٍ ماضٍ ؛ وزمانٍ قادمٍ يغمره فى حركته ليتولَّى نحو الماضى المُنقطع عن الحاضر .

والظرف هو (بينَ) ؛ والألف التى كانت فى آخره جعلها العُلماء إشباعاً للفتحة ؛ ولعلهم جعلوها حاجزاً صوتيًّاً يفتح باب الظرف إلى ضمير الرفع (أنا) ؛ وهو من جهة اللفظ مُفرد الدلالة ؛ فلا يقبل إضافة ما قبله إليه ؛ لكنه باعتبار الجُملة يقبل أن تُضاف الجملة إلى الظرف ؛ وفائدة هذا محصورةٌ عندنا بالوظيفة التى تخيَّرها المُؤلِّف ؛ فقد جعل الزمن وعاءً للإنسان والحدث والأحوال النَّفسيَّة والعقليَّة والفعل السردىِّ ؛ يشتبك فى جذوره اللغويَّة بمعانى الوصل والفراق ؛ إيحاءً بالدلالة المُعجميَّة للفظ (بين) ؛ فهو كان موصولاً بالبيت الحرام ؛ ثم انفصل بالحركة المكانيَّة والزمانيَّة عنه ؛ ووصل إلى دار السلام بعد هجرٍ وانقطاعٍ .

وفى لفظ (بين) معنى الحركة السياقيَّة لشخصيَّة الراوى فى حركةٍ زمانيَّةٍ ومكانيَّةٍ ونفسيَّة وحضاريَّة .

المُهِمُّ فى هذه الرُّؤية :

أن الحركة فى الزمان والمكان ورؤية الشخصيَّة مُتناغمةٌ من غير ثباتٍ على شىءٍ من المواقف التى يعرضها فى هذا السياق .

وفى اختياره هذا الأسلوب الشبيه بالشرط من حيث حاجته لجملتين تكون إحداهما إجابة للأخرى من غير أن تكون مترتبة عليها كجملتى الجواب والشرط ؛ وجعل هذا الأسلوب حاملاً معنى المفاجأة له بحال المدينة عمراناً وإنساناً على قِصَرِ المُدَّة التى قضاها فى البلد الحرام أو طولها ؛ مهما تكن قد طالت فى حِسِّهِ دون شعوره ؛ فإن حركة التغيير تُعَدُّ مدهشة ومفاجأة له ؛ فكان تعبيره بالجملة الظرفية الشبيهة بالشرطية فى شكل بنائها عاملَ ربطٍ للمشهد والفكرة ؛ حتى تكاد تكون المقامة نفسها قائمة على هذه الجملة المركزية « بينا أنا ... ؛ إذ... » .

صحيحٌ أن الجواب عن « بينا ؛ وبينما » بـ « إذ ؛ أو إذا » لا يُعَدُّ أفصح لغات العرب ؛ بَيْدَ أنه فصيحٌ ومسموعٌ عنهم كثيراً ؛ وهو فوق ذلك جِسْرٌ لربط الفكرة والصورة والمشهد فى هذه المقامة ؛ طوَّلهُ المؤلف من غير إملال ؛ بأساليب العطف ؛ والصفات .

وأما الجملة الأولى التى جاءت بعد ظرف الربط : « بين » ؛ ووعاء الحدث : الإنسان « عيسى بن هشام » ؛ والمكان : « دار السَّلام » ؛ فهى الجملة السرديَّة

الأولى التى بدأها بقوله : « أنا بمدينة السلام » ؛ ولك أن تُعلِّق الظرف حيث شئت ؛ فأطال مداها بحالٍ مُشتقَّةٍ (قافلاً) ؛ تندمج الفعلية الراكنة إليها برائحة الفعل (قفل) بصورةٍ اسميَّةٍ مُنحرفةٍ عن الفعل قليلاً إلى اسم الفاعل (قافلاً) : مُوحياً بعلاقة زمن الحال المُصاحبة حركة الشخصية التى تتكلم : وهى شخصيَّة الراوى عيسى بن هشام ؛ التى تُعَدُّ قناعاً للمؤلف ؛ يخفى سرده ويجعلها جُزءاً من السرد نفسه ؛ ومن الحدث والموضوع ؛ وهى حاملةٌ معنى الصفة المُؤقَّتة القابلة للزوال والانقضاء .

لم يكتف الراوى ببيان حاله قافلاً من البلد الحرام ؛ بل أراد أن يكشف عن أثر الرحلة فى نفسه وروحه وسلوكه ؛ فانتقل يصف حاله من غلبة الاسميَّة التى تعنى التوكيد والثبوت للحدث فى الزمان والمكان ؛ إلى وصف حاله النفسيَّة بصيغة الفعل : « أميس ميس الرِّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة ؛ أتأمل تلك الطرائف ؛ وأتقصَّى تلك الزخارف » ؛ مما يُعطى الحال وحدة التعلُّق بصاحبها الراوى ؛ ويُظهر طبيعتها النفسيَّة المُتغيِّرة بتغيُّر زمن الفعل وطبيعة الحدث ؛ وفيه تجد التعبير بالمحسوس « أميس » و« أتأمل » و« أتقصَّى » تتناول الجانب المادىَّ والعقلىَّ من صاحب الحال ؛ فَبَدَنُهُ كُلُّهُ يميس إشعاراً بالخِفَّة والفرحة بالوصول ؛ حتى إنه يستشعر روعة الولادة من جديدٍ ؛ فيشبه حاله بحال البقلة الطريَّة التى نبتت على ضفاف نهرٍ خصب العطاء كدجلة العرب .

وأظهرت الحال الحسيَّة بقوله : « أتأمل » مشاركةَ البصر والعقل والتفكُّر والتدبُّر بموضوعٍ جديدٍ هو حال واجهات البيوت فى دار السلام ؛ فكأنه يجعل تطهُّره بزيارة البيت الحرام سبباً للتفرُّغ والتفكُّر بالزينة والتغيُّر والتطور الذى أصاب المدينة (بغداد) فى غيابه القصير ؛ وكأن تحرُّر النفوس يقود إلى انطلاق الحسِّ نحو العقل وَعُرَاهُ القويَّة ؛ فذهب بحواسه يبحث عن عناصر الجِدَّة مُتفكِّراً بها وبأسبابها ؛ وشرع يملأ أعماقه بهذه الزخارف وما تحمله من أسرار المجتمع المُترف ؛ وما تعنيه من أثرٍ على مُستقبل الأُمَّة ؛ فكان الربط بهذه الجمل الفعلية : « أميس ميس الرجلة » ؛ « أتأمل تلك الطرائف » ؛ « وأتقصَّى تلك الزخارف » .

إضافة إلى الحال المُتقدِّمة عليهما بصورتها الاسميَّة التى تحمل رائحة الفعل (قافلاً) ؛ فهذه الأحوال مشدودة إلى صاحبها ؛ مُظهرة أحواله النفسيَّة ؛ وأثرها فى حركته الجسميَّة : « أميس ميس الرجلة » ؛ وحركته البصريَّة « أتقصى » ؛ وحركته العقليَّة « أتأمل » .

فهو قد جعل الحال اسميَّةً مَرَّةً ؛ وفعليَّةً مراراً ؛ وكان بذلك مُوفَّقاً فى تعبيره عَمَّا تَمَّ وانقضى بصيغة الحال الاسميَّة (قافلاً) : لِيَدُلَّ على ثُبُوت الأمر وتحقُّقهِ وانقضائهِ ؛ ثُمَّ أَرْدَفَ ذلك بالتعبير عن أحوالٍ كانت ما تزال مُستمرَّةً فى حياته ؛ فعبَّرَ عنها بالجُمل الفعليَّة ؛ مُتخيِّراً المُضارع : لِيَدُلَّ به على الحركة الزمنيَّة والاستمرار للحال العقليَّة والنفسيَّة ؛ فجعل لكُلِّ حالٍ ما يناسبها من التعبير .

انتقل بعدئذٍ إلى نتيجة ذلك التأمُّل ؛ فإذا هى مُفاجأةٌ فى صورة المجتمع ؛ بعد أن تفاجأ بحركة العُمران وازدياد ظواهر التَّرف وطُغيانها على شوارع المدينة .

فكانت المفاجأة مقرونة بقوله فى جملة الجواب :

« إذ انتهيتُ إلى حلقةٍ رجالٍ مُزدحمين ؛ يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشقُّ الضحكُ أشداقهم ؛ فساقنى الحرص إلى ما ساقهم ؛ حتى وقفت بمسمع صوت رَجُلٍ ؛ دون مرأى وجهِهِ ؛ لِشِدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرط الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قَرَّادٌ يُرقصُ قردَهُ ؛ ويُضحكُ مَن عندَهُ . » .

ما يجمع جملة الجواب إلى جملة السبب قبلها : هو الوقت ؛ بل سرعة الوصول إلى المفاجأة فى المدينة ؛ فصارت جملة السبب أو الحال - على تعدُّد الأحوال فيها وتنوُّعها - تَدُلُّ على تكثيفٍ وحشدٍ وإيجازٍ ؛ وقدرةٍ على شِدَّةِ الربط بالأحوال بين الجمل الفعليَّة وصاحبها ؛ مما يجعلها برُتبة المُفرد عند تقدير المعانى ؛ فكأنها لِشِدَّةِ تماسكها وقوة ربطها جملة واحدة ؛ والتراخى فيها جاء بعطف جملة « أتقصَّى » على جملة « أتأمل » ؛ ولو تنبَّهت إلى أن « أتأمل » جملة فعليَّة حاليَّة من باب تعدُّد الحال ؛ وجعلتها برُتبة اللفظ المفرد من الجملة : كان المعطوف عليها بالفعل « أتقصَّى » تراخياً فى ربط اسم باسم وليس جملة بجملة ؛ على وحدة التعلُّق بصاحب الحال - وهو الراوى ؛ أو قناع المؤلف - .

ثم عاد بالظرف (إذ) : ليُعلِّق الجميع بالزَّمان ؛ من غير أن يترك تعلُّق الأمر بواقعٍ هو المكان ؛ وترك لِقُوى النَّفْسِ أن تَبُثَّ انتشارها فى الجهات جميعها ؛ ويُعطيها وحدة الزمن المُقترن بالسرد والحدث معاً ؛ فكأنه لم يستعد الحدث من الذاكرة ؛ بل استعاد الزمان والمكان والصورة والمشهد الذى سبقت دراسته بالحركة الحسيَّة والنَّفسيَّة من قبل : لتُؤلِّف جملة مشهد المقامة وروحها وقوامها ؛ وتكون أكثر دخولاً فى لُغة الفنِّ العالية ؛ وأبلغ أثراً فى العقول ؛ ذلك أنه مهَّد له بالتأمل والتقصِّى والنظر بعد أن جعل النفس تفرغ من نصبها ؛ وترغب فى دنياها على نحوٍ جمالىٍّ ونقدىٍّ معاً .

استطاع الراوى أن يُدمج الزمان والمكان وحاله بحدث المقامة على نحوٍ مُتَّحِدٍ ؛ وحاول الانفصال بنقل ما يراه أمامه نقلاً مغرضاً بالتوقيت ؛ ليعكس ذلك كُلَّهُ بجملة عطفٍ على جملة الجواب نفسها ؛ مما يُلِمُّ شمل العطف والمعطوف عليه فى وعاء الجواب المشدود أصلاً بجملة الإضافة إلى ظرف الزمان ؛ فكان ذلك ربطاً لموقفه مما رأى ؛ ووسيلةً ذكيَّةً للكشف عن بعض عورات المدينة الدنيويَّة بانشغال أهلها بالزينة ووسائل الترف والتبذير وما لا تدفع الحاجة إليه كتربية الكلاب وتزيينها بأطواق الذهب والفضة ؛ وسوى ذلك كالعُكُوف على قَرَّادٍ يُرقص قرده ويُضحك من عنده ؛ بغير فائدةٍ تُرجى ؛ وبضياع الوقت الذى هو فى نهاية المطاف بضاعة الله وأمانته عند الإنسان .

المُهِمُّ أن جملة الشرط والجواب وما عُطِفَ على الجواب جاءت بقوله :

« فساقنى الحرص إلى ماساقهم ؛ حتى وقفت بمسمع صوت رَجُلٍ ؛ دون مرأى وجهِهِ ؛ لِشِدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرط الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قَرَّادٌ يُرقصُ قردَهُ ؛ ويُضحكُ مَن عندَهُ ؛ فرقصتُ رقصَ المحرَّج ؛ وسرتُ سيرَ الأعرج ؛ فوق رقاب النَّاس ؛ يلفظنى عاتق هذا لِسُرَّةِ ذاك ؛ حتى افترشتُ لحية رَجُلين ؛ وقعدت بعد الأَيْن ؛ وقد أشرقنى الخجلُ بريقهِ ؛ وأرهقنى المكان بضيقهِ ؛ فلمَّا فرغ القرَّاد من شُغله ؛ وانتفض المجلس عن أهله ؛ قمتُ وقد كسانى الدَّهَشُ حُلَّته ؛ ووقفت لأرى صورته ؛ فإذا هو ـ واللهِ ـ أبو الفتح الإسكندريُّ !! . » .

كان انتهاؤه إلى مجلسهم سبباً للمُشاركة فى الموقف والمشهد ؛ والتعب والإرهاق ؛ والمفاجأة لم تقتصر على عامة المُترفين ؛ بل كانت فى صاحبه الذى ترك حرفة الأدب ـ أو العلم ـ ؛ وأخذ يُرقص القرد ؛ ويشد الجمهور إلى أمرٍ تافهٍ !! .

كانت الجُملة « إذ انتهيت » بداية الجواب ؛ وكانت مدخلاً للحديث عن رجال المدينة ؛ وقد وجدهم مُتحلِّقين لغير مجلس علمٍ ؛ بل كانت حلقتهم حول قردٍ وَقَرَّادٍ ؛ ثم بعد أن وصفهم بالازدحام جعلهم كالمعروفين ؛ فأظهر أحوالهم ؛ كما كان يظهر حاله فى القسم الأول من الجملة وبالطريقة نفسها تقريباً بحفظ الفوارق التفصيليَّة ؛ ذلك أنهم يعيشون حالين ؛ هما : حال

الطرب والفرح أو الخِفَّة ؛ وحال الضحك ؛ على تفاهة الموضوع الذى اجتمعوا له ؛ فعبَّرَ عن ذلك بجُملتى الحال اللتين يُمكن رَدُّ كُلٍّ منهما إلى مُفردٍ ؛ بقوله :

« يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشق الضحك أشداقهم » .

والطرب : خِفَّةٌ تُصيبُ الإنسان بدواعٍ مُختلفةٍ ؛ والضحك : طاقةٌ زائدةٌ تُريدُ الخروج والتعبير بها عن مكنون النفس .

وبعد الانتهاء إلى مجلسهم ؛ عطف على فعل « انتهيت » فعل « فساقنى » ؛ فجعل نهايته إلى مجلسهم سبباً لمشاركتهم ؛ وهُنا تبدأ الجملة الثانية التى هى الأولى باعتبار أن الحال وعطفها من الجملتين السابقتين تُؤلِّفان عطفاً للمُفرد عند التقدير والتأويل ؛ فتظل الجُمل : « فساقنى الحرص ؛ فرقصت ؛ وسرت » ؛ هى الجُمل التى ترتبط بالجُملة الأُولى لها ؛ وبضمير المُتكلِّم من جهةٍ ثانيةٍ ؛ وبجملة الجواب من جهةٍ ثالثةٍ ؛ مما يجعلها جُزءاً من تركيبٍ لفظيٍّ بسيطٍ قائمٍ على الغنى فى الدلالة والتعدُّد فى المعانى .

والجُملة الخبريَّة التى احتفت بنهاية المجلس وانفضاضه جاءت على مشهد الدهشة الذى جمع عيسى بن هشام بصاحبه أبى الفتح الإسكندريِّ ؛ جمعتهم على الاستفهام القائم على إنكارٍ وَجُحُودٍ للرؤية من جهة عيسى ابن هشام ؛ وتهشيمٍ لحلمه بشخصيَّة صاحبه أبى الفتح ؛ وقابلها أبو الفتح بإعلانه عن رغبته فى تحقيق الغاية بغضِّ النَّظر عن الوسيلة ؛ وَرَدِّ المسؤوليَّة عن نفسه ؛ وحملها للأيَّام والليالى وتقلُّبهما له ؛ مما اضطره إلى أحسن السُّبُل

وأقصرها إلى جمع المال فى ذلك الزمان .

ومن باب دراسة لُغة المقامة يُمكن أن نلحظ اختيار أسماء الشخصيَّتين : عيسى بن هشام ؛ وأبى الفتح الإسكندرىّ ؛ ومُناسبة هذه التسمية لِكُلّ شخصيَّةٍ وطبيعتها فى سلوكها ونفسيَّتها ؛ وهو أمرٌ مُدهشٌ حقّاً إذا لم يكن من باب : « رَمْيَةٌ مِن غَيْرِ رَامٍ » ؛ فعيسى بن هشام فى جوهر المعنى اللُّغوىِّ يعود إلى « عيس ؛ أو : عوس » ؛ وفيه نجد أنه مُنْبَعِثٌ من العرب ؛ ذلك من جهة دلالة العيس على الإبل العراض عند العرب ؛ ومن جهة دلالته على البياض المُشْرَب ؛ يُضاف إلى ذلك أن لفظ العيس يَدُلُّ على اليبوسة والجفاف ؛ فيُقال للزرع عند العرب : أعيس إعياساً إذا لم يكن فيه رُطب .

وبهذه التسمية تجد تردُّداً فى عروبة الشخصيَّة من جهة النسب ؛ لكن لا تردُّد فى طبيعتها العربيَّة من جهة السُّلُوك بين البلد الحرام ودار السلام ؛ ولا تردُّد فى أن موقفها القائم على نقد الواقع الجديد المُتْرَف المُنحرف عن العلم والعمل إلى اللهو والطرب هو جُزْءٌ من العقليَّة العربيَّة التى أخذت تتهشَّم على أرصفة المدينة الجديدة « بغداد » ؛ وفى لفظ عيسى انكفاءٌ للمُرُونة فى قِيَمِ الأجداد أمام واقع الحياة ؛ ولذلك كان من الانسجام فى السُّلُوك أن تجد التردُّد النظرىَّ ؛ وتهشيم هذا التردُّد بالسُّلُوك الحىِّ ؛ على ميلٍ للقيم القديمة أو الماضى ؛ وهذا جُزْءٌ من طبع العربىِّ أصالةً أو ولاءً .

وأما أبو الفتح الإسكندرىُّ ؛ ففى نسبه إلى الإسكندر ما يُشير إلى جذره العجمىِّ ؛ وفى تسميته بأبى الفتح إشارة إلى أن الطُّرُق مفتوحة أمامه على

غُربته ؛ وهو بحسب كونه من البلاد المفتوحة ؛ وبحسب سيره فى ضوء صوالحه وما تقتضيه : يجد السُّبُل مفتوحة ؛ ولا تعنيه المُفارقة بين المثال العربىّ والواقع المادىّ الذى يحصل عليه ؛ فرؤيته واقعيَّةٌ بمعنى أنها تتعامل مع الواقع على مرارته من غير التفاتٍ إلى المثال فى الغاية والسُّلُوك ؛ فهى شخصية مُتناسبة مع أصلها فى سلوكها وطبعها .

وفى اختيار الأسماء ضربٌ من المُناسبة بين عيسى وهشام : من جهة قابليَّة عيسى للتهشيم ؛ ومن حيث تحيُّره وتردُّده والفراغ الحاصل بين مثاله وواقعه .

وفى تسمية أبى الفتح الإسكندرىّ : مُبادرةٌ لتعويض المواقع ؛ بالفتح الجديد للعجم فى بنية المُجتمع العربىّ الإسلامىّ ؛ وفى المدينة خاصَّةً ؛ حيث تنكسر قيم العرب ونظرتهم إلى طرائق تحصيل الرِّزْق .

إنهما صورتان للإنسان فى المدينة : صورة من له مثالٌ ويشدُّه الواقع ؛ وصورة من له مصلحةٌ ويسعى لتحقيقها بغضّ النظر عن تشويه المثال أو تحطيمه أو تجاوزه أو مُوافقته ؛ لأن الصالح الفردىّ مُقَدَّمٌ على صالح الجماعة ؛ والحاضر غالبٌ على الماضى والمستقبل معاً ؛ فلا حيرة ولا تردُّد فى مُواجهة الحياة عند أبى الفتح .

والجذور عند الشخصيَّتين حاضرةٌ غائبةٌ كحضورهما وغيابهما ؛ فما أعجب هذه الشخصيَّات فى المقامات كُلِّهَا على ما تُوحى به أسماؤها ؛ وليس ذلك موقوفاً على هذه المقامة وحدها .

وسأوجز دراسة لُغة المقامة بإشارةٍ صغيرةٍ إلى أساليبها البيانيَّة ؛ ولُغتها البديعيَّة التى زَيَّنَ بها البديع مقاماته عامَّة ؛ ومقامته القرديَّة خاصَّة .

أما أساليبه البيانيَّة ؛ فنتخيَّرُ بعض تشبيهاته وبعض مجاز أساليبه ؛ كقوله :

« أميس ميس الرِّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة » ؛ « ورقصت رقص المحرَّج ؛ وسرت سير الأعرج » ؛ وكُلُّها تشبيهاتٌ حُذِفَت منها أداة التشبيه ؛ لتُؤكِّد وقوع النسبة الإسناديَّة حقيقة مُطلقة الوقوع على النسبة الموضوعة ؛ وَحُذِفَ منها وجه الشبه ؛ لِتَدُلَّ على الإجمال والإيجاز ؛ وتركٍ للفُسحة لخيال المُتلقِّى فى رسم التفاصيل من خبرته السابقة .

والتشبيهات تُوحى بالضيق ؛ وتصوير الهيئة والحال ؛ وتربط وجه الشبه بالمُتعدِّد من هيئة المُشبَّه به ؛ لأنَّهُ ساق ذلك على جهة التمثيل ؛ ولك أن تربط هيئته مرَّةً بهيئة البقلة على شاطئ دجلة ؛ وبالكلب المُطوَّق ؛ وبالإنسان الأعرج فى موطن الزحام ؛ وهى تشبيهاتٌ تدور حول الراوى ؛ لكن الجماعة لم يشغلها الزِّحام عن الفُرجة ومُشاهدة القرد والقَرَّاد ؛ فذهب الراوى يُشاركها ؛ ويُصوِّرُها حيَّةً بالأفعال ؛ مُتَّخذاً المجاز العقلىَّ وسيلةً فنيَّةً تنقذ العمل من المباشرةِ إلى الحسيَّةِ إلى المُكوِّنات العقليَّةِ المُشتبكة بالقُوَّة الخياليَّة ؛ وذلك بقوله :

« يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشقُّ الضحك أشداقهم ؛ فساقنى الحرص إلى ماساقهم . » .

« وانتفض المجلس عن أهله » ؛ « وقد كسانى الدَّهَشُ حُلَّته » .

فالطرب سُلطانٌ يلوى الأعناق ؛ والضحك سيفٌ يشقُّ الأشداق ؛ والحرص راعٍ يسوق رعيَّته ؛ والمجلس طائرٌ مُبَلَّلٌ ينتفض عن بَلَلِهِ - أى أهله - ؛ والدَّهَشُ أميرٌ على الراوى يكسوة حُلَّةً ؛ والمكان إنسانٌ يتفل فى حلق الراوى فيخجل من فعلته .

فالراوى أحاط موقفه بالتشبيهات على الأغلب ؛ وأحاط الجماعة بالمجاز العقلىِّ ؛ وحاول الهروب من جمعهم ليربطهم بجهاتٍ نفسيَّةٍ وحسيَّةٍ ؛ لكنه لم ينفصل من قُوَّةِ القطيع ولا سُلطانه .

وأما البديع فى المقامة ؛ فحسبك قراءة جُملته الأولى :

« بينا أنا بمدينة السَّلام ؛ قافلاً من البلد الحرام » .

ففى هذه الجملة لفظان ؛ هما : السَّلام ؛ والحرام ؛ وتخلُّصاً من شعورك بثقل اللام الشمسيَّة وَخِفَّةِ اللام القمريَّة ؛ بجعلهما : سلام ؛ وحرام ؛ وهما بالميزان الصرفىِّ على وزن فعال ؛ وهى صيغةٌ تَدُلُّ فى أصل وضعها على الحركة ؛ وفى : السلام ؛ والحرام : حركتان للرُّوح : أحدهما السلام ؛ وهى الأمان ؛ والأُخرى الحرام ؛ الحاملة معانى الخوف وعدم الشُّعُور بالأمان ؛ وهُما صُورتان تُوحيان بحركة النَّفْسِ والعقلِ والقلب ؛ لكن إلى جهتين مُختلفتين فى السَّمْت والرغبة : واحدةٌ تسعى إلى الله راهبةً من عذابه ؛ والأُخرى تسعى إلى الله راغبةً فى دُنياها غافلةً عمَّا يلقاها بعد ساعتها الحاضرة ؛ وذاك التوافق فى

الميزان الصرفىّ يُسمّيه أهل البديع : التوازن ؛ وهو هُنا توازنٌ بين حاجات الدُّنيا وحاجات الآخرة باختلاف درجة السعى نحوهما باختلاف الساعين أنفسهم ؛ فوق توافقهما فى الميزان الصرفىّ .

وهُما أيضاً لفظان يتفقان بالحرف الأخير ـ وهو الميم ـ ؛ فلهما توقيعٌ فى الأُذن ؛ وَجَرْسٌ وموسيقىً داخليّةٌ تُنبِّهُ على وحدةٍ للحركة فى المكان من مَكّةَ إلى مبلغ الغاية دار السّلام ؛ وَلَمَّا أراد الانتقال إلى وصف حاله عند دخوله دار السلام غَيَّرَ الإيقاع ؛ فتحوَّل من الميم إلى الهاء عند السكت أو التاء المربوطة عند الوصل ؛ فكان تغيُّرُ السَّجع مُؤذناً بتغيُّرِ الفكرة من جهة حركة المعنى الجُزئيّة المُوضحة لأطوار الفكرة الكُليّة الخاضعة لقصدها الكُلىّ من بناء المقامة .

لم يكن السَّجع وحده مُوجباً لانتقال بديع الزّمان باسم مدينة بغداد من اسمها المشهور عند العامة إلى اسمها المشهور عند الخاصة من عُلماء العربيّة (دار السلام) ؛ بل كان ذلك يبغى مُراعاة التناسب بين الشخصيّة ولُغتها ؛ فعيسى بن هشام : العربىُّ فى ذوقه وحركته فى هذه المقامة ؛ لابُدَّ أن يأخذ بمذهب الأصمعىِّ الذى كان يكره أن يُسمِّيها بغداد ؛ ذلك أن معناها بالفارسية القديمة : « هدية الصنم » ؛ أو : « عطيّة الصنم » ؛ وكان الأصمعىُّ يُسمِّيها دار السلام : أى دار الله (٢٨) .

فالانتقال طبيعىٌّ مُناسبٌ للشخصيّة وللموقف ؛ وليس تكلُّفاً وافتعالاً كما قد يُظن ؛ فالسَّجع هُنا مُوظَّفٌ لصالح النَّصِّ : بنيةً ؛ وفكرةً ؛ وموقفاً ؛ وإيقاعاً ؛

أو موسيقىً داخليَّةً على لُغة الثقافة الوافدة ؛ وصاحبه مُتأثّرٌ على نحوٍ عميقٍ بالفاصلة القُرآنيَّة وتمكّنها ؛ فهو ذو وظيفةٍ جماليَّةٍ ؛ وأُخرى معنويَّة .

وكذلك الجناس الناقص الموجود بين لفظى : سلام ؛ وحرام : لاتفاقهما فى أكثر أصوات الكلمة أو حروفها ؛ ممَّا يُحقّقُ انسجاماً صوتيّاً ؛ ويُومئ إلى انسجامٍ فى المعانى على خلافٍ فى توجُّه الدّلالة بين البلد الحرام ودار السلام ؛ مما يُعيدنا إلى فكرة التوازن المعنوىّ فى التشكيل المكانىّ وأبعاده النفسيَّة والرُّوحيَّة ؛ ذلك أن البلد الحرام عاصمة الرُّوح وَسُلّم مِعراجها إلى السماء .

ولك أن تتصور مقدار الخوف والشُّعور بالرقابة بكلمة : « الحرام » : التى تعنى : الممنوع ؛ و : الرهبة من الله .

ولك أن تستشعر معانى الذُّل والانكسار عند الناس الذين قصدوا البيت الحرام ليرموا أثقالهم فيه بالاعتراف لله ؛ والتذلُّل والخضوع ؛ وإظهار أعلى درجات المذلّة والمسكنة والخجل مما أحدثه الإنسان بسقوطه عن منهج الحَقّ وطرائقه .

هذه الصورة للبلد الحرام ببعض أبعادها النَّفسيَّة والرُّوحيَّة والجسديَّة : اختصرها لك المؤلف وجعلها جُزءاً من ماضى رحلته ؛ وأسدل الستار عليها وجعلها جُزءاً مما مضى ؛ وترك لآثارها أن تسير إلى الله مستورة ؛ ليُبيِّن لك حركةً أُخرى تَرُدُّكَ إلى الصورة المقابلة ؛ ليكون الحاضر الذى يحياه مُوازناً للماضى القريب الذى تعدّاه ؛ فمكّة : عاصمة الرُّوح والقلب والصعود إلى

أعلى ؛ وبغداد : عاصمة الطرب والضحك والقُوَّة ؛ مما يجعل مكّة متوجهة بهموم الإنسان إلى السماء ؛ ويصور دار السلام على أنها دار الله التى يشعر فيها الناس بأمان الدُّنيا وسُلطانها ؛ كأنهم ليس وراءهم دارٌ أُخرى يحُاسَبُونَ فيها ؛ فهى دار العظمة ؛ يظُنُّ خُدَّامُها أنهم مالكوها ؛ فيتصرُّفون من غير اكتراثٍ لصوتٍ يعترض ؛ وينغمسون فى ملذَّاتها ؛ ويُضيعون أوقاتهم لا يهتمون لعدوٍّ ولا يُنصتون لمُصلحٍ ؛ فكأنهما داران :

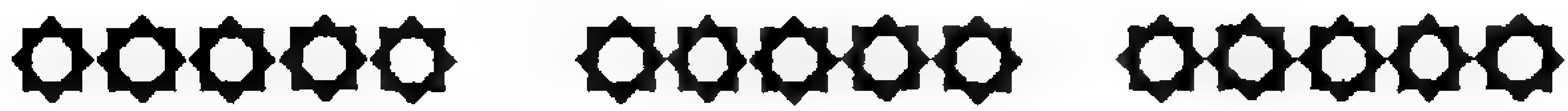
- واحدةٌ لله : تتطلّع للعفو ونعيم الآخرة .
- والأُخرى للناس : تتطلّع إلى الدُّنيا ونعيمها وأمنها وسُلطانها ؛ ولا تكاد ترجو حساباً أو تخاف عقاباً ؛ مُنغمسة باللحظة الحاضرة غير عابئةٍ باللحظة الماضية أو القادمة ؛ فكأنها جنَّة المأوى .

إنه بناءٌ مُتوازنٌ بين : حالين ؛ ومكانين ؛ ونظرتين ؛ على نحوٍ يُدمج الفكرة بالبناء ؛ والبناء بالفكرة ؛ إلى حَدٍّ التجانس والإدهاش من فطنة المؤلف وحضوره فى نَصِّهِ ؛ وقُدرته على تكثيف المواقف ؛ وَشَدِّ الصنعة إلى حَدٍّ دمجها بالمادة المعروضة :

- لُغةً .
- وحكايةً .
- وجمالاً .

مما يكسر أقوال المُدَّعِين بانفصال الفكرة عن البناء ؛ والجمال المُحيط بها وفيها ؛ وهذه النَّتيجة عامَّةٌ ؛ يُراد بها خاصٌّ :

هو هذه المقامة ؛ ولا تنطبق على كثيرٍ من المقامات .





ـ المصادر والمراجع :

١ـ أخلاق الوزيرين : لأبى حيَّان التوحيدىّ / بتحقيق : محمد بن تاويت الطنجىّ / بيروت : دار صادر : ١٩٩٢م .

٢ـ الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانىّ علىّ بن الحُسَيْن / بيروت : مؤسسة جمال عبد الناصر للطباعة والنشر .

٣ـ الإمتاع والمؤانسة : لأبى حيَّان التوحيدىّ / بتحقيق : الدكتور أحمد أمين ؛ وأحمد الزين / صيدا ؛ المكتبة العصريَّة .

٤ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرَّسُول : لمجد الدين أبى السَّعادات المُبارك بن محمد « ابن الأثير الجزرىّ » / بتحقيق : الشيخ عبد القادر الأرناؤوط / دمشق ؛ مكتبة الحلوانى = ودار الملاح = ودار البيان : ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م .

٥ ـ حياة الحيوان الكُبرى : لكمال الدِّين محمد بن موسى الدميرىّ / بيروت = ودمشق : دار الألباب .

٦ ـ زهر الآداب وثمر الألباب : لأبى إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصرىّ القيروانىّ / بتحقيق : صلاح الدين هوارى / صيدا ؛ المكتبة العصريَّة / ط : ١٤٢١هـ =٢٠٠١م .

٧ ـ زهرة العمر : توفيق الحكيم / القاهرة / المطبعة النموذجيَّة .

٨ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانىّ / تحقيق : يوسف البقاعى / بيروت / الشركة العالميَّة للكتاب / ط : ١٩٩٠م .

٩ـ شرح مقامات الحريرى : لأبى العبَّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسىّ الشريشىّ / بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم / صيدا ؛ المكتبة العصريَّة ؛ ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

١٠ـ شرح مقامات الزمخشرىّ : محمود بن عُمر جار الله الزمخشرىُّ / تحقيق : يوسف البقاعى / بيروت ؛ دار الكتاب اللبنانىّ /ط : ١٩٨١م .

١١ـ صحيح مسلم : للإمام أبى الحُسَيْن مُسلم بن الحَجَّاج القُشيرىّ النيسابورىّ / بتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى / بيروت ؛ دار إحياء التراث العربىّ .

١٢ـ فَنُّ المقامات بين المشرق والمغرب : الدكتور يوسف نور عوض / بيروت / دار القلم / ١٩٧٩م .

١٣ـ فَنُّ المقامات فى الأدب العربىّ : الدكتور عبد المالك مُرتاض / تونس : الدار التونسيَّة للنشر / ط (٢) : ١٩٨٨م .

١٤ـ الفَنُّ ومذاهبه فى النثر العربىّ : الدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ط : ١٩٦٥م .

١٥ـ مقامات الزمخشرىّ وَفَنُّ السيرة الذاتيَّة : عبد الكريم محمد حسين « نُشِرَ باسم : عبد الكريم المحمد » /مجلة الثقافة الإسلاميَّة / دمشق /العدد : (٤٤) : ١٩٩٢م .

١٦ ـ المصباح المُنير : للعلاَّمة أحمد بن محمد بن علىّ الفيومىّ / بيروت / مكتبة لُبنان / ١٩٨٧م .

١٧ـ مُعجم البُلدان: ياقوت الحمويّ / بيروت/دار صادر = ودار بيروت / ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م .

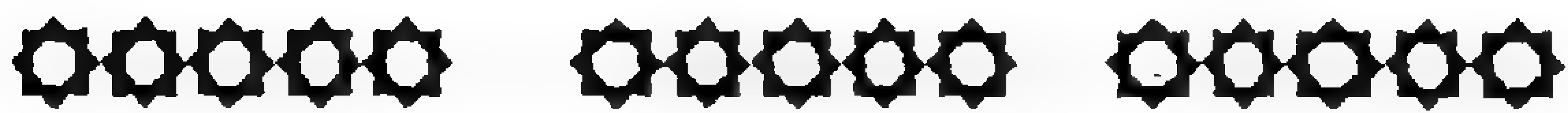
١٨ـ المقامات الأدبيَّة: لأبى محمد القاسم بن علىّ الحريرىّ / القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى البابى وأولاده بمصر/ ط:(٣): ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م .

١٩ـ المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان: الدكتورهادى حسن حمودى / بيروت / منشورات دار الآفاق الجديدة / ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م .

٢٠ـ المقامة: شوقى ضيف/ دار المعارف بمصر/ ١٩٥٤م (تاريخ المقدمة) .

٢١ـ مُقدِّمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون / بيروت ؛ دار القلم / ط: ١٤٠٩ هـ =١٩٨٩م .

٢٢ـ نهج البلاغة: اختيار الشّريف الرضىّ/شرح الأُستاذ الإمام محمد عبده / تحقيق: عبد العزيز سيِّد الأهل / بيروت ؛ دار الأندلس / ط: ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣م .





- التَّعْلِيقَات :

(❁) أستاذٌ مُساعدٌ في جامعة دمشق : قسم اللغة العربيَّة .

(١) - انظر : أخلاق الوزيرين : لأبى حيَّان التوحيدىّ / بتحقيق : محمد بن تاويت الطنجىّ / بيروت : دار صادر : ١٩٩٢م .

(٢) - قال أبو إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصرىُّ فى وصف أُسلوب مقامات بديع الزمان:

« جُملة كلام أبى الفضل أحمد بن الحُسَيْنِ الهمذانىّ بديع الزمان .

وهذا اسمٌ وافق مُسمَّاه ؛ ولفظٌ طابق معناه ؛ وكلامٌ غَضُّ المكاسر ؛ أنيق الجواهر ؛ يكاد الهواء يسرقه لُطفاً ؛ والهوى يعشقه ظرفاً » .

« زهر الآداب وثمر الألباب » : لأبى إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصَرِىّ القيروانىّ / بتحقيق : الدكتور صلاح الدين الهوارى / صيدا : المكتبة العصريَّة / ط : (١) : ١٤٢١هـ =٢٠٠١م : (١ / ٣١٥) .

(٣) - شرح مقامات بديع الزمان الهمذانىّ / بتحقيق : يوسف البقاعىّ / الشركة العالميَّة للكتاب / ط : ١م / ١٩٩٠م : (٧٠) .

(٤) - المقامة : الدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ١٩٥٤م (تاريخ المقدمة) : (٤٣) .

و انظر : « الفَنُّ ومذاهبه فى النثر العربىّ » : الدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ط : (٤) : سنة : ١٩٦٥م : (٢٥٣) .

(٥) ـ انظر : « المصباح المُنير » : للعلاّمة أحمد بن محمد بن عليّ الفيوميّ / بيروت : مكتبة لُبنان : ط : ١٩٨٧م : (رجل) .

(٦) ـ « فَنُّ المقامات بين المشرق والمغرب » : الدكتور يوسف نور عوض / بيروت : دار القلم : ١٩٧٩م : (٩٤) .

(٧) ـ انظر : « المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان » : الدكتو هادى حسن حمودى /بيروت : منشورات دار الآفاق الجديدة : ط : ١٩٨٥م : (٥٨) .

(٨) ـ « فَنُّ المقامات فى الأدب العربىّ » : الدكتورعبد المالك مرتاض / تونس : الدار التونسيَّة للنشر : ط : ١٩٨٨م : (٣٢١) .

(٩) ـ انظر : « فَنُّ المقامات فى الأدب العربىّ » : (٣٢٤) .

(١٠) ـ انظر : « شرح مقامات الحريرىّ » : لأبى العبَّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسىّ الشريشىّ / بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم / صيدا : المكتبة العصريَّة : ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م : (١ / ٤٨) .

(١١) ـ انظر : « شرح مقامات الزمخشرىّ » : لجار الله محمود بن عُمر / بتحقيق يوسف البقاعى / بيروت : دار الكتاب اللبنانىّ / ط : (١) : سنة : ١٩٨١م : (٢٥) .

(١٢) ـ انظر : « مقامات الزمخشرىّ ؛ وَفَنُّ السيرة الذاتيَّة » : لعبد الكريم محمد حسين « وَنُشِرَ باسم : عبد الكريم المحمد » / مجلة الثقافة الإسلاميَّة / دمشق / العدد : (٤٤) /ط : ١٩٩٢م : (٢١١) .

(١٣) ـ انظر: « الأغانى »: لأبى الفرج الأصبهانىِّ علىِّ بن الحُسَيْن / بيروت: مؤسسة جمال عبد الناصر للطبع والنشر: (٢١/٢٠٠).

(١٤) ـ انظر: « الأغانى »: (٥ / ١٤).

(١٥) ـ انظر: « الأغانى »: (١٥ / ١٥٩).

(١٦) ـ انظر: « الأغانى »: (١٣ / ١٠٢).

(١٧) ـ « زهرة العمر »: توفيق الحكيم / القاهرة: المطبعة النموذجيَّة: (١٨٤).

(١٨) ـ جاء فى الحديث الشريف:

« من أتى هذا البيت: فلم يرفث؛ ولم يفسق: رجع كما ولدته أُمُّهُ »: « صحيح مسلم »: للإمام أبى الحُسَيْن مُسلم بن الحجَّاج القُشيرىِّ النيسابورىِّ / بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى /بيروت/ دار إحياء التراث العربىِّ / : (٢ / ٩٨٣): رقم الحديث: (١٣٥٠).

(١٩) ـ سورة الصف: [٢ـ ٣].

(٢٠) ـ « نهج البلاغة »: اختيار الشَّريف الرضىِّ: شرح الإمام محمد عبده: تحقيق: عبد العزيز سيِّد الأهل / بيروت: دار الأندلس / ط: ٢/ ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م: (ص: ٥٩٨).

(٢١) ـ انظر: « شرح مقامات الزمخشرىِّ »: للإمام محمود بن عمر الزمخشرىِّ/ تحقيق: يوسف البقاعى / بيروت: دار الكتاب اللبنانىِّ / ط: ١٩٨١م: (٢٤٧، ٢١٢، ١٤٨، ١٠٠).

(٢٢) ـ انظر الآية : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِن أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ ـ [سورة القصص : ٢٨ / ٢٠] ؛ و الآية : ﴿ وَجَاءَ مِن أَقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ ؛ [سورة يس : ٣٦ / ٢٠] .

(٢٣) ـ انظر : ((الإمتاع والمُؤانسة)) : لأبي حيَّان التوحيديّ / بتحقيق : أحمد أمين ؛ وأحمد الزين / صيدا : المكتبة العصريَّة : (١ / ٧٤) .

(٢٤) ـ انظر : ((مُقدِّمة ابن خلدون)) : عبد الرحمن بن خلدون / بيروت : دار القلم / ط : ، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م : (١٢٢ ؛ ١٢٣) .

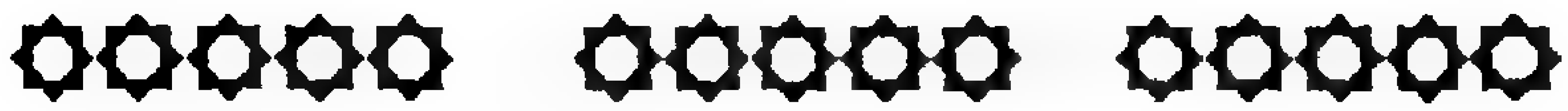
(٢٥) ـ ((حياة الحيوان الكُبرى)) : لكمال الدين محمد بن موسى الدميريّ / بيروت = دمشق / دار الألباب : (٢ / ١٨٤) .

(٢٦) ـ انظر : ((جامع الأصول في أحاديث الرَّسُول)) : للإمام مجد الدين أبي السَّعادات المُبارك بن محمد بن الأثير الجزريّ / بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط / دمشق : مكتبة الحلواني = دار الملاح = دار البيان : ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م : (٩ / ٢٣٨ـ ٢٤١) .

(٢٧) ـ ((نهج البلاغة)) : (٦٣٢) .

(٢٨) ـ انظر : ((مُعجم البُلدان)) : ياقوت الحمويّ / أيُّ طبعةٍ شئت : (بغداد) .

مجلة التراث العربيّ ـ مجلّةٌ فصليَّةٌ تصدر عن اتحاد الكُتَّاب العرب ـ : دمشق / العدد : (٩١) : السنة الثالثة والعشرون : أيلول ـ سبتمبر ـ ٢٠٠٣ = رجب ١٤٢٤هـ .





مَقَامَات

أَبِى مُحَمَّد

القَاسِمِ بْنِ عَلِيٍّ الحَرِيرِيِّ

(ت ٥١٦هـ)

٢ـ التَّعْرِيفُ بِالرَّجُل :

.....

❁ ـ أَبُو مُحَمَّد القَاسِمُ بْنُ عَلِىٍّ الحَرِيرِىُّ (✿).

.....

١ـ اسْمُهُ ؛ وَنِسْبَتُهُ ؛ وَمَوْلِدُهُ ؛ وَمَوْطِنُه :

قَالَ أبو الحُسَيْن الدُّمياطىُّ فى « ذيل تاريخ بغداد » :

(✿) ـ انظر ترجمته فى هذهِ المصادر :

« ذيل تاريخ بغداد » ؛ (جـ ٢١ / ١٦٥ ـ ١٦٧ ؛ رقم الترجمة : ١٦٨) ؛ لابن الدمياطىِّ ؛ « مُعجم السفر » ؛ (صـ : ٤١٩ ؛ رقم : ١٤٢٣) ؛ « نزهة الألِبَّاء فى طبقات الأُدباء » ؛ (صـ : ٢٧٨ ـ ٢٨١) ؛ « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ٥ / ٢٢٠٢ ـ ٢٢١٦) ؛ « طبقات الفقهاء الشافعيَّة » ؛ (جـ ٢ / ٦٦٢ ـ ٦٦٤ ؛ رقم : ٢٥٥) لأبى عمرو بن الصَّلاح ؛ « إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة » ؛ (جـ ٣ / ٢٣ ـ ٢٧ ؛ رقم : ٥٥١) ؛ « وفيات الأعيان » ؛ (جـ ٤ / ٦٣ ـ ٦٨) ؛ « سير أعلام النُّبلاء » ؛ (جـ ١٤ / ٣٣٨ ـ ٣٤٠ ؛ قم : ٤٦٩١) ؛ « تذكرة الحُفَّاظ » ؛ (جـ ٤ / ٣٧) ؛ « طبقات الشافعيين » ؛ (صـ : ٥٥٢ ـ ٥٥٦) لابن كثير ؛ « طبقات الشَّافعيَّة الكُبرى » للسُّبكى ؛ (جـ ٧ / ٢٦٦ ـ ٢٧٠ ؛ رقم : ٩٦٧) .

« ـ القاسم بن عليٍّ بن محمد بن عثمان الحريريُّ ؛ أبو محمد .

من أهل البصرة .

...... ؛ قال ابْنُ السَّمْعَانِيّ : مولد ابن الحريريِّ فى سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة . » .

وَقَالَ صاحبُ « مُعجم الأُدباء » :

« أبو محمد البصريُّ : من أهل بلدٍ قريبٍ من البصرة يُسَمَّى المشان ؛ مولده ومنشؤه به ؛ وسكن البصرة فى مَحِلَّة بنى حرام .

ومولده فى حُدُود سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة ؛ عن سبعين سنة فى خلافة المُسترشد . » .

وَقَالَ صاحبُ « وفيات الأعيان » :

« ـ أبو محمد ؛ القاسم بن عليٍّ بن محمد بن عُثمان ؛ الحريريُّ ؛ البصريُّ ؛ الحراميُّ ؛ صاحب المقامات .

... ؛ نسبته بالحراميِّ إلى هذه السِّكَّة ـ رحمه الله تعالى ـ : وهى بفتح الحاء المُهملة ؛ والراء ؛ وبعدها ألف ؛ بعده ميم .

وبنو حرام : قبيلةٌ من العرب سكنوا فى هذه السكة ؛ فنُسِبَت إليهم .

والحريريُّ : نسبة إلى الحرير وعمله ؛ أو بيعه .

والمشان : بفتح الميم ؛ والشين المُعجمة ؛ وبعد الألف نون : بُليدةٌ فوق البصرة ؛ كثيرة النَّخل ؛ موصوفة بشدَّة الوخم ؛ وكان أصل الحريريِّ منها .

ويُقال إنه كان له بها ثمانية عشر ألف نخلة ؛ وإنه كان من ذوى اليسار . » .

.....

٢ـ ذِكْرُ شُيُوخِهِ وَمَن حَمَلَ عَنْهُم العِلْم :

قَالَ أبو الحُسَيْن الدِّمياطيُّ فى « ذيل تاريخ بغداد » :

« قرأ الأدب على : أبى الفضل بن محمد القصبانىِّ بالبصرة .

ثم قدم بغداد ؛ وقرأ على : أبى الحسن علىِّ بن فضال المُجاشعىِّ .

وتفقَّه على : أبى نصر بن الصبَّاغ ؛ وأبى إسحاق الشيرازىِّ .

وقرأ الفرائض والحساب على : أبى حكيم الخبرىِّ .

وسمع الحديث بالبصرة من : أبى تمَّام محمد بن الحسن المُقرئ ؛ وأبى القاسم الفضل بن محمد بن علىِّ النَّحوىِّ ؛ وأبى القاسم الحُسَيْن بن أحمد بن الحُسَيْن الباقلانىِّ ؛ وغيرهم . » .

قالَ كمال الدين الأنبارىُّ فى « نُزهة الألِبَّاء في طبقات الأُدباء » :

« وأخذ عن أبى القاسم الفضل بن محمد القصبانىِّ ؛ وكان القصبانىُّ نحويـًا فاضلاً .

قال الحريرىُّ : ذكر شيخنا أبو القاسم القصبانىُّ أنك إذا قلت : ما أسود زيداً ! وما أسمر عمراً ! وما أصفر هذا الطائر ! وما أبيض هذه الحمامة ! وما أحمر هذه الفرس ! ؛ فسدت كل مسألة منها من وجهٍ ؛ وصحَّت من وجهٍ : فيفسد جميعها إذا أردت بها التعجُّب من الألوان ؛ وتصح جميعها إذا أردت بها التعجُّب من سواد زيد ؛ وسمر عمرو ـ وهو الحديث بالليل خاصة ـ ؛ ومن صفير الطائر ؛ وكثرة بيض الحمامة ؛ ومن حمر الفرس ـ وهو أن ينتن

فوه ..)).

.....

٢ـ مَذْهَبُهُ الفِقْهِيُّ :

قَالَ تقيُّ الدِّين بنُ الصَّلاح فى ((طبقات الفقهاء الشافعيَّة)) :

((كَانَ شَافِعِيَّ الْمَذْهَب ؛ وَذَلِكَ بَيِّنٌ من (مقاماته) فِى فتاويه الَّتِى ضـمَّنهَا المقامة الثَّانِيَة وَالثَّلاثُونَ مِنْهَا ؛ ناسباً لَهَا إِلَى فَقِيه العَرَب ؛ وَإِنَّمَا فَقِيه العَرَب عبارَة عَن عَالم العَرَب ؛ وَلَيْسَ عبارَة عَن شخصٍ مُعَيَّنٍ ؛ فَذكر من فَتَاوِيهِ قَالَ : أيجوزُ بيع الْخلِّ بِلَحْم الْجمل ؟ ؛ قَالَ : لا ؛ وَلا بِلَحْم الْحمل .

قَالَ الحريرىُّ : الْخلُّ : ابْنُ الْمَخَاض ؛ وَلا يَحِلُّ بيع اللَّحْم بِالْحَيَوَان ؛ سَوَاء كَانَ من جنسه أَو غير جنسه .

وَقَالَ أَيْضاً : قَالَ : مَا يجب على الْمُختفى فِى الشَّرْع ؟ ؛ قَـالَ : الْقطع لإِقَامَة الردع.

الْمُختفى : نبَّاش القُبُور .

وَقَالَ : قَالَ : أينعقد نِكَاحٌ لم يشهده القوارى ؛ قَالَ : لا والخالق الْبَارِى .

القوارى : الشُّهُود ؛ لأَنَّهم يقرونَ الأَشْيَاء ؛ أى : يتبعونها .

فَهَـذِهِ أجوبـةُ شَـافِعِيٍّ لَيْسَ غير ؛ لُمخَالفَـة الأوَّل لَمذْهَب أَحْمد ؛ فَإِنَّـهُ يجـوز بِغَيْر الْجِنْس ؛ وَالثَّانِى لَمذْهَب أَبى حنيفَة ؛ وَالثَّالِث لَمذْهَب مَالك ـ رضـى الله عَنْهُم ـ.

وَقد قَالَ فِى خاتمتها :

فَقُلتُ لَهُ : خَفِّض الأحزان ؛ لا تلُم الزَّمَان ؛ واشكره لمن فَتلك عَن مَذْهَبِ إبْلِيس ؛ إلَى مَذْهَب ابْنِ إدْرِيس . » .

.....

٣ـ ذِكْرُ مَكَانَتِهِ العِلْمِيَّةِ ؛ وَثَنَاءِ الأَئِمَّةِ عَلَيْهِ ؛

وَمَا رُوِىَ مِن أَخْبَارِهِ وَسِيرَتِه :

قَالَ الدِّمياطىُّ فى « ذيل تاريخ بغداد » :

« قَدِمَ بغداد بعد الخمسمائة ؛ وحدَّثَ بها ؛ بحرف حديثه عن شيوخه ؛ وبالمقامات .

... ؛ وكان من الفصاحة ؛ والبلاغة ؛ وَحُسْنِ العبارة ؛ ورشاقة الألفاظ ؛ وملاحة النَّثر ؛ وحلاوة النَّظم : على طريقةٍ لم يسبقه من كان قبله !! ؛ ولم يُدركه من جاء بعده !! .

وجمع المقامات الخمسين التى سارت فى الدُّنيا سير الشمس ؛ وتلقَّاها الناس بالقبول ؛ وَعُقِدَ على بلاغتها الخناصر .

... ؛ حُكِىَ : لَمَّا قدم ابن الحريرىُّ بغداد ؛ وكان الناس يهتفون بفضائله ؛ ويُسارعون إلى إلقائه وسماع كلامه ؛ فحضر إليه فيمن حضر ابن حكينا الحريمىُّ المنبوز بالبرغوث ؛ فلم يجده على ما كان يظُنُّه من الفصاحة واللَّسَن ؛ فنظم أبياتاً ؛ منها :

شَيْخٌ لَنَا مِن رَبِيعَةِ الفَرَسِ
يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ مِنَ الهَوَسِ
أَنْطَقَهُ اللهُ بِالمَشَانِ وَقَد
أَلْجَمَهُ فِى العِرَاقِ بِالخَرَسِ . » .

وَقَالَ أبو طاهر السِّلَفِىُّ فى « مُعجم السفر » :

« سَمِعت أَبَا مُحَمَّدٍ هِبَةَ اللَّهِ بْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ تَغْلِبَ الوَاسِطِىَّ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْمُوَذَا التَّاجِرَ بِدِيَارِ مصر سنة عشرين وَخَمْسِمِائة يَقُول : حَضَرْتُ الْقَاسِمَ بْنَ عَلِىٍّ الْحَرِيرِىَّ صَاحِبَ الْمَقَامَاتِ بِالْبَصْرَةِ ؛ وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَئِيسٌ مِن رُؤَسَائِهَا ؛ فَقَالَ : إِنْ قَصَدْتَ بِفَضْلِكَ ؛ وَإِنْ قُصِدْتَ فَلِفَضْلِكَ . » .

وَقَالَ كمال الدين الأنبارىُّ فى « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » :

« كان أديباً فاضلاً ؛ بارعاً ؛ فصيحاً ؛ بليغاً .

صَنَّفَ كُتباً حسنةً ؛ عذبة العبارة ؛ رائقة ؛ منها : (كتاب المقامات) الشهيرة فى أيدى الناس ؛ وكتاب (دُرَّة الغوَّاص فيما يلحن فيه الخواص) ؛ وكتاب الرسائل ؛ و (مُلحة الإعراب) و (شرحها) ؛ إلى غير ذلك من الكُتُب .

... ؛ ويُحكى أنَّهُ لَمَّا قَدِمَ بغداد ؛ حضره شيخنا أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقىُّ ؛ وهو يقرأ عليه كتاب المقامات : فلما بلغ المقامة الحادية والعشرين إلى قوله :

وَلَيَحْشَرَنْ أَذَلَّ مِن فَقْعِ الفَلا
وَيُحَاسَبَنَّ عَلَى النَّقِيصَةِ وَالشَّغَا

قال له الشيخ أبو منصور : ما الشغا ؟ ؛ فقال : الزيادة ؛ فقال له الشيخ أبو منصور : إنما الشغا : اختلاف منابت الأسنان ؛ ولا معنى له هاهنا !! .

وكان الحريرىُّ دميم الخِلْقَة ؛ فيُحكى أن رَجُلاً قصده ليقرأ عليه ؛ فاستدل على مسجده الذى يقرأ فيه ؛ فلمَّا أراد الدخول ؛ رأى شخصاً دميم الخَلْقِ ؛ فاحتقره !! ؛ وقال : لعلَّهُ ليس هو هذا !! ؛ فرجع ؛ ثم قال فى نفسه : لعلَّهُ يكون هذا !! ؛ ثم استبعد أن يكون هو !! ؛ والشيخ يلحظه ؛ فلما تكرَّر ذلك منه ؛ تفرَّس الشيخ منه ذلك ؛ فلما كان فى المرَّة الأخيرة قال له : ادخل ؛ فأنا من تطلب ؛ أكثر من قردٍ محُنَّك !! .

ويُحكى أنه كان مُولعاً بالعبث بلحيته بحيث يتشوَّه بذلك ؛ فنهاه الأمير وتوعَّده على ذلك ؛ وكان كثير المُجالسة له ؛ فبقىَ كالمُقيَّد لا يتجاسر أن يعبث بها !! ؛ فتكلَّم فى بعض الأيَّام عند الأمير بكلامٍ استحسنه منه ؛ فقال له الأمير : سلنى ما شئت حتى أعطيك ؛ فقال له : أقطعنى لحيتى ؛ فقال له : قد فعلت !! .

ويُحكى أنه كتب إليه الوزير علىُّ بن صدقة : خادمه ؛ فكتب إليه يستعفى من ذلك ؛ فكتب إليه : إن عُدت تستعفى من ذلك كتبت إليك : الخادم . » .

وَقَالَ يَاقُوت فى « مُعجم الأُدباء » :

« كان غايةً فى : الذكاء ؛ والفطنة ؛ والفصاحة ؛ والبلاغة .

وله تصانيفٌ تشهد بفضله وتقرُّ بِنُبله ؛ وكفاه شاهداً (كتاب المقامات) التى أبرَّ بها على الأوائل وأعجز الأواخر !! .

وكان مع هذا الفضل : قذراً فى نفسه ؛ وصورته ؛ ولبسته ؛ وهيئته ؛ قصيراً ؛ دميماً ؛ بخيلاً ؛ مُبتلى بنتف لحيته !! .

حدثنى أبو عبد الله الدُّبيثىُّ ؛ قال : حدثنى أبو الحسن علىُّ بن جابر ؛ حدثنى أبى أبو الفضل جابر بن زُهَيْر ؛ قال : حضرنا مع ابن الحريرىِّ فى دعوةٍ لظهير الدين بن الوجيه رئيس البصرة فى ختان ابنه أبى الغنائم ؛ وكان هُناك مُغَنٍّ يُعرف بمحمد المصرىِّ ؛ وكان غايةً فى امتداد الصوت وطِيب النَّغمة ؛ فغنَّى :

بالذى ألهم تعذيـ بى ثناياك العذابا
ما الذى قالته عينا ك لقلبى فأجابا ؟!!

فطرب الحاضرون ؛ وسألوا ابن الحريرىِّ أن يزيد فيها شيئاً ؛ فقال :

قُل لمن عذَّب قلبى وهو محبوبٌ مُحَابَى
والذى إن سُمْتُهُ الوصل تغالى وتغابى

ثم البيتان ؛ فاستحسنها الجماعة ؛ وأقسموا على المُغنِّى أن لا يُغنِّيهم غيرها !! فمضى يومهم أجمع بهذه الأبيات .

حدَّثنى أبو عبد الله محمد بن سعيد بن الدُّبيثىُّ ؛ قال : سمعت القاضى أبا الحسن علىَّ بن جابر بن زُهَيْر يقول : سمعت أبى أبا الفضل جابر بن زهير يقول : كُنتُ عند أبى محمد القاسم بن الحريرىِّ البصرىِّ بالمشان أقرأ عليه المقامات ؛ فبلغه أن صاحبه أبا زيد المطهر بن سلاَّم البصرىَّ الذى عَمِلَ المقامات عنه قد شرب مُسكراً ؛ فكتب إليه وأنشدناه لنفسه :

أبا زيدٍ اعلم أنَّ من شرب الطلا

تدنَّس فافهم سِرَّ قولى المُهذَّبِ

ومن قبل سُمِّيت المُطهَّر والفتى

يُصدِّق بالأفعالِ تسمية الأبِ

فلا تَحْسُهَا كيما تكون مُطهَّراً

وإلا فغيِّر ذلك الاسم واشربِ

قال : فلمَّا بلغه الأبيات ؛ أقبل حافياً إلى الشيخ أبى محمد وبيده مُصحف ؛ فأقسم به ألاَّ يعود إلى شُرب مُسْكِرٍ ؛ فقال له الشيخ : ولا تُحاضر من يشرب .

... ؛ وكتب ابن الحريرىُّ إلى سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنبارىُّ كتاباً على يد ولده ؛ قال فيه :

كتب الخادم وعنده من تباريح الأشواق إلى الخدمة : ما يصدع الأطواد ؛ فكيف الفُؤاد؟!! ؛ ويُوهى الجبال ؛ فكيف البال ؟!! ؛ ولكنه يستدفع الخوف : بسوف ؛ ويُبرد حَرَّ الأسى : بعسى ؛ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير :

ألا ليت شِعْرِى والتمنِّى خُرافةٌ

وإن كان فيه راحةٌ لأخى الكربِ

أتدرون أنى مُذ تناءت دياركم

وشطَّ اقترابى من جنابكمُ الرَّحبِ

أُكابِدُ شوقاً ما يزال أُوارُهُ ... ؛

يُقَلِّبُني بالليل جنباً إلى جنبِ (١)

... ؛ هذه على عاهتها بنت ساعتها ؛ فإن حظيت منه بالقبول المأمول : فيا بُشرى للحامل والمحمول !! ؛ وإن لُحِيَت لحة المُستثقل : فيا خيبة المُرسِلِ وَالمُرْسَل ؛ والسَّلام .

وقال الرَّئيس أبو الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد بن التلميذ الكاتب : كان الشيخ الأَجَلُّ الإمام الأوحد أبو محمد القاسم بن عليٌّ بن الحريريٌّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ ؛ الإمام المشهور الفضل : من أعيان دهره ؛ وفريد عصره ؛ وممن لحق طبقة الأوائل ؛ وَغَبَّرَ عليهم فى الفضائل ؛ وكانت بينى وبينه مُكاتبةٌ قديمةٌ فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ؛ عند ابتدائه حمل المقامات التى أنشأ ؛ وَلَمَّا وقع الاجتماع به فى سنة أربع وخمسمائة ببغداد ؛ وسماعها منه عِدَّة دفعات ؛ جاريته وسألته أن ينظم فى النَّحو مُختصراً يحفظه المُبتدئون ؛ فشرع فى نظم هذه الأُرجوزة ؛ وأملى علىَّ منها أبواباً يسيرةً ؛ وانحدر من غير إتمامها ؛ واستعاد مِنِّى ما أملاه ليُحرِّره ؛ فكاتبته دفعات أقتضيه بها وأُذكِّره بإنفاذها وإنفاذ كتابه (دُرَّة الغوَّاص فى أوهام الخواص) ؛ فكتب إلىَّ جوابين ؛ نُسخة الأول منهما :

(١) ـ قُلْتُ : وَهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ وَقَد انْتَخَبْنَا مَا رَأَيْتَ مِنْهَا وَاقْتَصَرْنَا عَلَيْه .

(وصل من حضرة سيِّدنا ـ أطال الله بقاءه ومُدَّته ؛ وحرس عِزَّهُ ونعمته ؛ وضاعف سعادته ؛ وكَبَتَ حسدته ـ : كتابٌ كريمٌ ؛ مُودعه طَوْلٌ جسيمٌ ؛ وفى ضمنه دُرٌّ نظيمٌ : فابتهجت بتناوله ؛ وَقَرَرْتُ عيناً بتأمُّله ؛ وتذكَّرت الأوقات التى أسعد الدهر فيها برؤيته ؛ وأحظى باجتلاء فضله وروايته ؛ وشكرت الله على ما يُوليه من حُسْنِ صُنْعِهِ ؛ وسألته ـ جَلَّت عظمته ـ أن يجعل النِّعمة راهنةً بربعه ؛ والسعادة جاذبةً أبداً بضبعه ؛ وسُررت بما بشَّرنى به من نجابة السَّيِّد الرَّئيس ؛ الولد النَّفيس ـ أمتع الله ببقائه ؛ وأتاح لى تجدُّد الأُنس بلقائه ـ ؛ ولم أستبعد أن يقمر هلاله ؛ بل يبدر ؛ ولا استبعدت أن يُورق غُصْنُ دوحته الزَّكيَّة ويُثمر ؛ والله تعالى يُمليه أطول الأعمار ؛ فى رفاهة الأسرار ؛ ومُواتاة الأقدار ؛ حتى يُعاين أسباطه ؛ ويُضاعف باجتماعهم وتضاعفهم بحوزته اغتباطه .

فأما « المُلحة » : إن أمكن تنفيذها مع أحد المُتردِّدين إلى هذا المكان لأُلحق بها الزِّيادة ؛ وأُهذِّبها كما يُطابق الإرادة .

وأما « دُرَّة الغوَّاص فى أوهام الخواص » : فأرجو أن يُنسأ الإصعاد ؛ إلى بغداد : لتصفُّحها من البدء ؛ وكأن قد ؛ وإلى أن يسهل المأمول من الالتقاء ؛ فما أولى هِمَّته الكريمة بإتحافى بالأنباء ؛ وانهاضى بما يسنح من الأوطار والأهواء ؛ ورأيه أعلى إن شاء الله .) .

نُسخة الكتاب الثانى ؛ وهو المُنفذ مع (المُلحة) المذكورة :

(لئن كانت الأيام أَحْسَنَّ مَرَّةً   إلىَّ ؛ لقد عادت لهُنَّ ذُنُوبُ

إذا فكرت ـ أطال الله بقاء سيِّدنا ؛ وضاعف سعادته ؛ وكبت حسدته ـ فيما كان سمح به الزَّمان من تلك المُلاقاة الحُلوة ـ وإن كانت أقلَّ من الحسوة ـ ؛ أعظمت قيمة حُسناه ؛ ووجدتها أحلى إسعاف وأسناه ؛ ثُمَّ إذا فكرت فيما أعقب من الفُرقة ؛ وألهب في الصدر من الحُرقة : وجدته كمن رجع في المنحة ؛ وطمس الفرحة بالتَّرحة ؛ ولولا تعلّة القلب المشجوّ ؛ بالتلاقي المرجُوّ : لذاب من اتقاد الشوق ؛ ولقال : شبَّ عمرو عن الطوق .

وفي لوامح تلك الألمعيَّة ؛ ما يُغني عن تبيان تلك الطويَّة ؛ وكان وصل من حضرته ـ آنسَهَا اللهُ تَعَالَى ـ ما أعرب فيه عن كريم عهده ؛ وتباريح وجده ؛ فلم أستبدع العذوبة من ورده ؛ ولا استغربت ما تولّى من بِرِّهِ وَحُسْنِ عهده ؛ وَبِمُقتضى هذه الأوامر ؛ والطَّوْل المُتناصر : انعكافي على الشُّكر ؛ واعترافي بعوارفه الغُر .

فأما استطلاع «مُلحة الإعراب» ؛ المُشتبهة بالسَّراب : فقد آثرت خزائنه ـ عمرها الله تعالى ـ بمسودتها ؛ على شعث بنيتها ؛ وشوه خلقتها ؛ ولو لم تعرض حادثة العرب ؛ العائقة عن كل أرَب ؛ لزففتها كما تُزَفُّ العروس المُقيَّنة ؛ والخُطب المُزيَّنة ؛ غير أنِّي أرجو أن تُرزق حظوة القباح ؛ وألا تجبه بالذَّمّ الصُّرَاح ؛ ولكتبه ـ حرس الله نعمته ـ عندي موقع أنفس التُّحَف ؛ وشُكري على التكرُّم بها شُكر من اتَّشَحَ بها والتحف ؛ وسيِّدنا أمين الدولة رئيس الحُكماء : مخدومٌ بأفضل دُعاء ؛ وأطيب ثناء وسلام .

ولرأيه ـ أدام الله نعمته ـ فى الإيعاز بالوقوف على ما شرحته ؛ وتمثُّل ما أوضحته : علوُّهُ إن شاء الله تعالى .) .

نُسخة كتابٍ كتبه ابن الحريرىّ إلى أبى الفتح بن التلميذ قبل اللقاء :

(ـ

جزى اللهُ خيراً والجزاء بكفِّه

بنى صاعدٍ أهل السِّيادة والمجدِ

هُمُ ذكّرونى والمَهَامِهُ بيننا ؛

كما ارْفَضَّ غيثٌ من تهامة فى نجدِ

لو أخذت فى وصف شغفى بمناقب سيِّدنا ـ أطال الله بقاءه ؛ وأدام علاءه ؛ وحرس نعماءه ؛ وكبت حُسَّاده وأعداءه ـ ؛ وما أنا بصدده من مدح سُؤدده ؛ وشرح تطوُّله وتودُّده ؛ لكُنت بمثابة المُغترِّين ؛ فى مُحاولة عَدِّ رمل يبرين ؛ لكننى راجٍ أن أحظى من ألمعيَّته الثاقبة ؛ وبصيرته الصائبة ؛ بما يُمَثِّلُ له عقيدتى ؛ ويُطلعه على نخيلة مودَّتى ؛ وما أملك فى مُقابلة مُفاتحته التى أخلصت له إيجاب الحق ؛ وفضيلة السَّبق ؛ إلا الثناء الذى أتلو صحائفه ؛ والدُّعاء الذى أُقيم فى كُلِّ وقتٍ وظائفه .

والله ـ سُبْحَانَهُ ـ يُحسن توفيقى لما يُشيِّد مبانى المودَّة ؛ التى أعتدُّها أفضل معانى العُدَّة .

ثُمَّ إنى لفرط اللَّهَجِ باستملاء فضائله النَّيِّرة ؛ واستطلاع محاسنه المُسَيَّرة : أُسائل عن خصائصه الرُّكبان ؛ وأطرب بسماعها ولا طرب النَّشْوَان !! .

ولمّا حضر الشيخ الأديب الرَّئيس أبو القاسم بن الموذ ـ أدام الله تمكينه ـ : ألفيتهُ مُوالياً مُغالياً ؛ وداعيةً إليه وداعياً ؛ فازددت كلفاً بما وعيته منه ؛ وشغفاً بما استوضحته عنه .

واستدللت على كمال سيِّدنا باستخلاص شُكر مثله ؛ وتحقَّقت وفور أفضاله وفضله ؛ فافتتحت المُكاتبة بتأدية هذه الشَّهادة ؛ واستمداد سُنَّة المُواصلة المُعتادة ؛ والتكرمة التى تقتضيها بواعث السِّيادة .

ولرأيه فى الوقوف على ما كتبته ؛ والتطوُّل فيه بما توجبه أريحيَّته : علوه ـ إن شاء الله تعالى ـ ـ) .

وكتب إلى سديد الدولة رسالةً صدَّرها بهذين البيتين :

عندى بشُكرك ناطقان فواحدٌ
؛ آثارُ طَوْلِكَ واللسانُ الثَّانى
ومجالُ مِنَّتكَ التى أوليتنى
فى الشُّكر أفصح من مجال لسانى

وصدَّر رسالةً أُخرى إليه بهذه الأبيات :

أُهنِّيك ؛ بل نفسى أُهنِّى بما سَنَّى
لك الله من نَيْلِ المُنَى وبما أسنى
شكرت زمانى بعد ما كنت عاتباً
عليه لما أسدى إليك من الحُسنى

وكتب إلى المُؤيِّد أبى إسماعيل الطُّغرائىِّ يُهنِّئه بولاية الطُّغرائىِّ فى سنة تسع وخمسمائة ؛ فأجابه الطغرائىُّ بجوابٍ هذا نُسخته :

(-

ما الرَّوضُ أضحكت السَّحَابُ ثُغُورَهُ

...... ؛ وأفاح أنفاسُ الصَّبَا مَنْثُورَهُ

. ؛ يوماً بأبهج من كتابٍ نَمْنَمَت

. ؛ يُمناك يا شرف الكُفاة سُطُورَهُ (١).

وصل من المجلس السَّامى المُؤيَّدىِّ - ضاعف الله علوه ؛ وأضعف عدوه ؛ وأكمل سعوده ؛ وأكمد حسوده - كتابٌ اتسم بالمكرمة الغَرَّاء ؛ وابتسم عن التكرمة العذراء ؛ فخلته كتاب الأمان من الزَّمان ؛ وتلقيته كما يتلقَّى الإنسان صحيفة الإحسان ؛ وقابلت ما أودع من البر ؛ والطَّوْل المُبر ؛ بالشُّكر الذى هو جهد المُقِل ؛ ونُسْك المُستقل ؛ ووجدت ما ألحف من التجميل ؛ وأتحف من الجميل ؛ ما كانت أطماعى تتوق إليه ؛ وآمالى تحوم حواليه ؛ إذ مازلت مُنْذُ استمليت وصف المناقب المؤيديَّة ؛ ورويت خبرها عن الراوية الشريفة الشرفيَّة : أبعث قلمى على أن يُفاتح ؛ وأن يكون الرائد لى والماتح ؛ وهو ينكص نكوص الهيوبة ؛ وينكل نكول الهام عن الضريبة ؛ فأُكابد لإحجامه الأسى ؛ وأُزجى الأيَّام بـ : لعلَّ وعسى ؛ إلى أن بديت ؛ وهُديت وأُريت ؛

(١) - وَهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ وَهَذَا هُوَ مَا احْتَجَجْنَا بِهِ .

كيف يحيى الله من يُميت ؛ فلم يبق بعد أن أنشط العقال ؛ واستدعى المقال ؛ إلا أن أنقل الحشف إلى هجر ؛ وَأَزُفّ الهشيم إلى الشَّجر ؛ فأصدرت هذه الخدمة المتشحة بالخجل ؛ المُرتعشة من الوجل ؛ وأنا مُعترفٌ بسالف التقصير ؛ ومُعتذرٌ عنه باللسان القصير ؛ فإن قرِّبت عند الوصول ؛ وقرنت بحظوة القبول ؛ فذلك الذى كانت تتمنّى ؛ وَحُقَّ لى ولها أن تُهنّى ؛ وإن ألغيت إلغاء الحوار فى الدية ؛ ونُدّد بمفاضحها فى الأندية ؛ فما هضمت فيما قوبلت ؛ ولا ظلمت إذ ما قبلت ؛ على أنَّ لكُلِّ امرئٍ ما نوى ؛ وأن تعفوا أقرب للتقوى .

وإن كان وضح اجتهادى فيما وقف من الوطر ؛ الذى تأكّد فيه اعتراض القدر ؛ وانتقاص النَّظر ؛ فيا بردها على الكبد !! ؛ وبُشرى خادمه المُجتهد !! .

ثم إن استخدمت بعد فى خدمةٍ واجتهدت ؛ وانتهزت فرصة فريضتها ولو جاهدت ؛ فللرأى الشريف فى الإمام بتحسين ما يتأمّل ؛ وتحقيق ما يُؤمّل ؛ مزيد السُّمُو - إن شاء الله تعالى - .)) .

ثُمَّ :

وَقَالَ جمال الدِّين القفطىُّ فى ((إنباه الرواة على أنباه النُّحاة)) :

((أحد أئمَّة أهل الأدب واللُّغة ؛ ومن لم يكُن له فى فَنِّهِ نظيرٌ فى عصره .

فاق أهل زمانه بـ : الذكاء ؛ والفصاحة ؛ وتنميق العبارة ؛ وتحسينها .

... ؛ وكان القاسم - رحمه الله - من ذوى اليَسَار ؛ له مُلْكٌ حَسَنٌ بالمشان ؛ يُقالُ إنه كان له ثمانية عشر ألف نخلة .

وكان لفكرته فى الأدب يشتغل بجذب لحيته ؛ فينتفها وهو غافلٌ لفكرته ! » .

وَقَالَ صَاحِبُ « وفيات الأعيان » :

« كان أحد أئمَّة عصره .

... ؛ ويُحكى أنه كان دميماً قبيح المنظر ؛ فجاءه شخصٌ غريبٌ يزوره ويأخذ عنه شيئاً ؛ فلما رآه استزرى شكله !! ؛ ففهم الحريريُّ ذلك منه ؛ فلما التمس منه أن يُملى عليه ؛ قال له : اكتُب :

ما أنت أول سارٍ غره قمرٌ
ورائدٍ أعجبته خضرة الدِّمَنِ
فاختر لنفسك غيرى إننى رَجُلٌ
مثل المُعيدىِّ ؛ فاسمع بى ولا ترنى

فخجل الرَّجُل منه وانصرف !! . » .

وَقَالَ شَمْسُ الدِّينِ الذَّهَبِىُّ فِى « سير أعلام النُّبلاء » :

« العَلاَّمَةُ البَارِعُ ؛ ذُو البلاغتين .

... ؛ ثُمَّ قَدِمَ بَغْدَادَ سَنَةَ خَمْس مائَة ؛ وَحَدَّثَ بِهَا بِجُزْءٍ مِن حَدِيثِهِ وَبِمقَامَاتِهِ .

قُلْتُ : وَأَملَى بِالبَصْرَةِ مَجَالِسَ ؛ وَعَمِلَ (دُرَّةَ الغَوَّاص فِى وَهْمِ الخَوَاص) ؛ وَ (المُلْحَة) وَ (شَرْحَهَا) ، وَ (دِيْوَاناً فِى الترسُّل) ؛ وغير ذلك .

وخضع لنظمه ونثره البُلَغَاءُ .

وَقِيْلَ : كَانَ عَفِشاً ؛ زَرِىَّ اللِّباس ؛ فِيْهِ بُخْلٌ ؛ فَنَهَاهُ الأَمِيرُ عَن نَتْفِ لِحْيته ؛ وَتوعَّده ؛ فَتكلَّم يَوْمَاً بِشَىْءٍ أَعْجَبَ الأَمِيْرَ ؛ فَقَالَ : سَلْنِى مَا شِئْت ؛ قَال :

أقطعنِى لحيتِى ؛ فَضَحِكَ !! ؛ وَقَال : قَدْ فَعَلْت . » .

وَقَالَ السُّبْكِيُّ فِى « طبقات الشَّافعيَّة الكُبرى » :

« وكَانَ من البلاغة والفصاحة بِالْمَحِلِّ الرَّفيع الَّذِى تشهد بِهِ مقاماته الَّتِى لا نظير لَهَا !! ؛ رَشِيق النَّظم والنَّثر ؛ حُلْو الأَلْفَاظ ؛ عذب العبارَة ؛ إِمَامٌ مُقَدَّمٌ فِى الأَدَب وفنونه .

قَالَ ابْنُ السَّمْعَانِيُّ : لَو قُلْتُ إِن مُفتتح الإِحْسَان فِى شعره ؛ كَمَا أن مُختتم الإبداع بنثره ؛ وَأن مسير الْحُسْنِ تَحت لِوَاء كَلامه ؛ كَمَا أن مُخَيَّمَ السِّحْرِ عِنْدَ أقلامه : لما زَلَقْتُ من شَاهِق الإِنْصَاف إِلَى حضيض الاعتساف .

وَقَالَ أَيْضاً فِيهِ أحد الأَئِمَّة فِى الأَدَب واللُّغة : وَمن لم يكُن لَهُ فِى فَنِّهِ نَظِيرٌ فِى عصره ؛ فاق أهل زَمَانه بـ : الذكاء ؛ والفصاحة ؛ وتنميق العبارَة ؛ وتجنيسها .

وكَانَ فِيمَا يُذكر غَنِيّاً كثير المَال . » .

وَقَالَ الحافظُ ابْنُ كثير فِى « طبقات الشافعيين » :

« أحد الأئمَّة فى : النَّظم ؛ والنثر ؛ والبلاغة ؛ والفصاحة . » .

.....

٤ ـ شَاعِرِيَّتُه :

قَالَ صاحبُ « مُعجم الأُدباء » :

« ومن شعره :

خُـذ يا بُنَىَّ بما أقـول ولا تـزغ
ما عشت عنه تعش وأنت سليمُ
لا تغترر ببنى الزَّمان ولا تقُل
عند الشَّدائد ... : لى أخٌ ونديمُ
.. ؛ جَرَّبْتُهُم فإذا المعاقر عاقرٌ
... ؛ والآل آلٌ ؛ والحَميمُ حميمُ » .

.....

٥ـ ذِكْرُ أصْحَابِهِ وَمَن حَمَلَ عَنْهُ العِلْم :

قَالَ أبو الحُسَيْن الدِّمياطِىُّ فى « ذيل تاريخ بغداد » :

« روى عنه : الشَّريف أبو علىٍّ الحسن بن جعفر بن عبد الصمد بن المتوكل على الله ؛ وأبو الفضل بن ناصر الحافظ . » .

وَقَالَ شَمْسُ الدِّينِ الذَّهَبِىُّ فِى « سير أعلام النُّبلاء » :

« رَوَى عَنْهُ : ابْنُهُ أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الله ؛ وَالوَزِيرُ عَلِىُّ بْنُ طِرَاد ؛ وَقِوَامُ الدِّين عَلِىُّ بْنُ صَدَقَةَ ؛ وَالحَافِظُ ابْنُ نَاصر ؛ وَأَبُو العَبَّاسِ المَنْدَائِىُّ ؛ وَأَبُو بَكْرِ بنُ النَّقُّور ؛ وَمُحَمَّدُ بنُ أَسْعَد العِرَاقِىُّ ؛ وَالمُبَارَكُ بن أَحْمَدَ الأَزَجِىُّ ؛ وَعَلِىُّ بنُ المُظَفَّر الظهيرِىُّ ؛ وَأَحْمَد بن النَّاعم ؛ ومنوجهر بن تركانشاه ؛ وأبو الكرام الكَرَابِيسِىُّ ؛ وَأَبُو عَلِىٍّ بنُ المُتَوَكِّل ؛ وَآخَرُوْن .

وَآخِرُ مَنْ رَوَى عَنْهُ بِالإِجَازَةِ : أَبُو طَاهِرٍ الخُشُوعِىُّ ـ الَّذِى أَجَازَ لِشُيُوْخنا ـ » .

.....

٦ ـ المَقَامَات :

قَالَ أبو الحُسَيْنِ الدِّمياطىُّ فى ((ذيل تاريخ بغداد)) :

((قال أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أحمد بن النَّقُّور البزَّاز : سمعت أبا محمد الحريرىَّ صاحب المقامات يقول:

أبو زيد السروجىُّ : كان سجَّاعاً بليغاً ؛ ورد علينا البصرة ؛ فوقف يوماً فى مسجدٍ يتكلّم ؛ ويسأل الناس شيئاً ؛ وكان بعض الولاة حاضراً ؛ والمسجد غاصٌّ بالفُضلاء ؛ فأعجبهم بفصاحته ؛ وذكر أسر الرُّوم ابنته ـ كما ذكرنا فى المقامة الحراميَّة ؛ وهى الثامنة والأربعون ـ ؛ قال : فاجتمع عندى عشيَّة ذلك اليوم جماعةٌ من الفُضلاء ؛ فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السَّائل من لطافة عبارته فى تحصيل مُراده ؛ فحكى كُلُّ واحدٍ من جُلسائى أنَّهُ شاهد من هذا السَّائل مثل ما شاهدت ؛ وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت ؛ وكان يُغَيِّرُ فى كُلِّ مسجدٍ زِيَّه وشكله ؛ ويُظهر فى فُنُون احتياله فضله ؛ فتعجَّبُوا من جرأته فى ميدانه !! ؛ وإمعانه فى إحسانه !! .

قال الحريرىُّ : فابتدأت فى إنشاء المقامة الحراميَّة تلك الليلة حاذياً حذوه ؛ فلما فرغت منها أقرأنيها جماعةٌ من الأعيان ؛ فاستحسنوها فى غاية الاستحسان !! ؛ وأنهوا ذلك إلى وزير السُّلطان ؛ واقترحوا علىَّ أخواتها ؛ والله المُستعان .)) .

وَقَالَ صَاحِبُ « مُعجم الأُدباء » :

« قال المؤلف :

وذكر ابن الجوزىُّ فى تاريخه مثل هذه الحكاية ؛ وزاد فيها أنَّ ابن الحريرىَّ عرض المقامة الحراميَّة على أنوشروان بن خالد وزير السُّلطان ؛ فاستحسنها وأمره أن يُضيف إليها ما يُشاكلها ؛ فأتمها خمسين مقامة .

حدَّثنى من أثق به :

أن الحريرىَّ لمَّا صنع المقامة الحراميَّة ؛ وتعانى الكتابة فأتقنها ؛ وخالط الكُتَّاب ؛ أصعد إلى بغداد ؛ فدخل يوماً إلى ديوان السُّلطان وهو مُنغصٌّ بذوى الفضل والبلاغة ؛ مُحتفلٌ بأهل الكفاية والبراعة ؛ وقد بلغهم ورود ابن الحريرىِّ ؛ إلا أنهم لم يعرفوا فضله ؛ ولا اشتهر بينهم بلاغته ونُبله .

فقال له بعض الكُتَّاب : أىُّ شىءٍ تتعانى من صناعة الكتابة حتى نُباحثك فيه؟

فأخذ بيده قلماً ؛ وقال : كُلُّ ما يتعلق بهذا ـ وأشار إلى القلم ـ !!

فقيل له : هذه دعوى عظيمة !!

فقال : امتحنوا تخبروا .

فسأله كُلُّ واحدٍ عمَّا يعتقد فى نفسه إتقانه من أنواع الكتابة ؛ فأجاب عن الجميع أحسن جواب ؛ وخاطبهم بأتمِّ خطاب ؛ حتى بهرهم !! ؛ فانتهى خبره إلى الوزير أنوشروان بن خالد ؛ فأدخله عليه ؛ ومال بكُلِّيَّتِهِ إليه ؛ وأكرمه وأدناه ؛ فتحادثا يوماً فى مجلسه حتى انتهى الحديث إلى ذكر أبى زيد

السروجىّ المُقدَّم ذكره ؛ وأورد ابن الحريرىّ المقامة الحراميَّة التى عملها فيه ؛ فاستحسنها أنوشروان جِداً !! ؛ وقال : ينبغى أن يُضاف إلى هذه أمثالها ؛ ويُنسج على منوالها عِدَّةٌ من أشكالها !!

فقال : أفعل ذلك مع رُجُوعى إلى البصرة وتجمُّع خاطرى بها .

ثم انحدر إلى البصرة ؛ فصنع أربعين مقامة ؛ ثم أصعد إلى بغداد وهى معه ؛ وعرضها على انوشروان ؛ فاستحسنها ؛ وتداولها الناس .

واتهمه من يحسده بأن قال : ليست هذه من عمله ؛ لأنها لا تُناسب رسائله ولا تُشاكل ألفاظه !! ؛ وقالوا : هذا من صناعة رَجُلٍ كان استضاف به ومات عنده فادَّعاها لنفسه !! .

وقال آخرون : بل العرب أخذت بعض القوافل ؛ وكان مما أخذ جراب بعض المغاربة وباعه العرب بالبصرة ؛ فاشتراه ابن الحريرىّ وادَّعاه !! ؛ فإن كان صادقاً فى أنها من عمله فليصنع مقامةً أخرى ؟!!

فقال : نعم ؛ سأصنع .

وجلس فى منزله ببغداد أربعين يوماً ؛ فلم يتهيَّأ له ترتيب كلمتين والجمع بين لفظتين !! ؛ وَسَوَّدَ كثيراً من الكَاغَد ؛ فلم يصنع شيئاً !! ؛ فعاد إلى البصرة والناس يقعون فيه ويعيطون فى قفاه كما تقول العامة !! ؛ فما غاب عنهم إلا مُديدةً حتى عمل عشر مقامات وأضافها إلى تلك ؛ وأصعد بها إلى بغداد ؛ فحينئذٍ بان فضله ؛ وعلموا أنها من عمله .

... ؛ وقرأتُ بخطِّ صديقنا الكمال عُمر بن أبى بكر الدَّبَّاس رحمه الله ؛ حدَّثنى علىُّ بن جابر بن هبة الله بن علىٍّ حاكم ساقية سُليمان ؛ قال : حدَّثنى والدى جابر بن هبة الله : أنه قرأ على القاسم بن علىٍّ الحريرىِّ المقامات فى شهور سنة أربع عشرة وخمسمائة ؛ قال : وكنت أظُنُّ أن قوله :

يا أهل ذا المغنى وُقيتم شرًّا

ولا لقيتم ما بقيتم ضرًّا

قد دفع الليل الذى اكفهرًّا

إلى ذراكم شعثاً مُغبرًّا

أنه (سغبا مُعترًّا) ؛ فقرأت كما ظننت (سغباً مُعترًّا) ؛ ففكَّر ساعةً ؛ ثم قال : والله لقد أجدت فى التصحيف فإنه أجود !! ؛ فَرُبَّ شَعِثٍ مُغْبَرٍّ غير محتاج ؛ والسَّغِبُ المُعتر موضع الحاجة !! ؛ ولولا أننى قد كتبت خطِّى إلى هذا اليوم على سبعمائة نُسخةٍ قُرئت علىَّ لغيَّرت الشعث بالسغب والمغبر بالمعتر !! . » .

وَقَالَ مُصَنِّفُ « وفيات الأعيان »:

« وكان سبب وضعه لها :

ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله ؛ قال : كان أبى جالساً فى مسجده ببنى حرام ؛ فدخل شيخٌ ذو طمرين ؛ عليه أُهبة السَّفر ؛ رَثُّ الحال ؛ فصيح الكلام ؛ حسن العبارة ؛ فسألته الجماعة : من أين الشيخ ؟ ؛ فقال : من سروج ؛ فاستخبروه عن كُنيته ؟ ؛ فقال : أبو زيد ؛ فعمل أبى المقامة المعروفة بالحراميَّة ــ وهى الثامنة والأربعون ــ ؛ وعزاها إلى أبى زيد المذكور ؛

واشتهرت ؛ فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنوشروان بن خالد بن محمد القاشانىُّ وزير الإمام المُسترشد بالله ؛ فلمَّا وقف عليها أعجبته ؛ وأشار على والدى أن يَضُمَّ إليها غيرها ؛ فأتمها خمسين مقامة .

وإلى الوزير المذكور أشار الحريرىُّ فى خُطبة المقامات بقوله : (فأشار من إشارته حُكم ؛ وطاعته غُنم : إلى أن أُنشئ مقامات أتلو فيها البديع ؛ وإن لم يُدرك الظالع شأو الضليع) .

هكذا وجدته فى عِدَّة تواريخ .

ثم رأيت فى بعض شهور سنة ست وخمسين وستمائة بالقاهرة المحروسة نُسخة مقامات ؛ وجميعها بخطِّ مُصنِّفها الحريرىِّ ؛ وقد كتب بخطه أيضاً على ظهرها : إنه صنَّفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبى علىِّ الحسن بن أبى العِز علىِّ بن صدقة وزير المُسترشد أيضاً .

ولا شَكَّ أن هذا أصح من الرواية الأولى ؛ لكونه بخط المُصنِّف .

وتُوفِّى الوزير المذكور فى رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

فهذا كان مُستنده فى نسبتها إلى أبى زيد السروجىِّ .

وذكر القاضى الأكرم جمال الدين أبو الحسن علىُّ بن يوسف الشيبانىُّ القفطىُّ وزير حلب فى كتابه الذى سمَّاه (إنباه الرواة على أنباه النُّحاه) : أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلار ؛ وكان بصريـاً نحويـاً لُغويًّا ؛ صحب الحريرىَّ المذكور ؛ واشتغل عليه بالبصرة وتخرَّج به ؛ وروى عنه القاضى

أبو الفتح محمد بن أحمد بن المندائيُّ الواسطيُّ (مُلحة الإعراب) للحريريِّ ؛ وذكر أنه سمعها منه عن الحريريِّ ؛ وقال : قَدِمَ علينا واسط في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ؛ فسمعتها منه ؛ وتوجَّه منها مُصعداً إلى بغداد ؛ فوصلها وأقام بها مُدَّةً يسيرةً وتُوفِّي بها ـ رحمه الله تعالى ـ .

وكذا ذكره السمعانيُّ في (الذيل) والعماد في (الخريدة) ؛ وقال : لقبه فخر الدِّين ؛ وتولَّى صدرية المشان ؛ ومات بها بعد سنة أربعين وخمسمائة .

وأما تسمية الراوي لها بالحارث بن همَّام : فإنما عنى به نفسه ؛ هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات ؛ وهو مأخوذٌ من قوله ﷺ :
﴿ كُلُّكُم حَارِثٌ ؛ وكُلُّكُم هَمَّامٌ ﴾ (١) .

---

(١) ـ قَالَ إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحيُّ العجلونيُّ الدِّمشقيُّ (ت سنة ١١٦٢هـ) في « كشف الخفاء ومزيل الإلباس » ؛ (جـ ٢ / ١٣٥) ؛ (رقم : ١٩٤٥) ـ نُسخة المكتبة العصريَّة ـ :
((ـ ﴿ كُلُّكُم حَارِثٌ ؛ وكُلُّكُم هَمَّامٌ ﴾ قال في (التمييز) : ليس بحديث ؛ ويقرب منه (أصدق الأسماء : حارثٌ ؛ وهمَّام) . وقال النَّجم تبعاً للمقاصد : ذكره الحريريُّ في صدر مقاماته وجعله مقولة . والوارد ما عند البُخاريِّ في (الأدب) ؛ وأبي داود ؛ والنسائيِّ : عن أبي وهب الجشميِّ ـ وكانت له صُحبةٌ ـ : تسمُّوا بأسماء الأنبياء ؛ وأحب الأسماء إلى الله : عبد الله ؛ وعبد الرحمن ؛ وأصدقها : حارث ؛ وهمَّام ؛ وأقبحها : حرب ؛ ومُرَّة) . قال المُنذريُّ : وإنما

فالحارث : الكاسب ؛ والهمَّام : الكثير الاهتمام ؛ وما من شخصٍ إلا وهو حارثٌ وهمَّام ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ كاسب ومهتم بأموره.)) .أهـ .

.....

٧ـ شُهْرَةُ المَقَامَات ... فِى الأَمْصَارِ وَالآفَاق :

قَالَ تَقِىُّ الدِّينِ بْنُ الصَّلاح فى ((طبقات الفُقهاء الشَّافعيَّة)) :

((وَلَقَد بلغت بِهِ هَذِه (المقامات) أعلَى المقامات ؛ وأحلَّته من عُلُوِّ الذِّكر وبُعْدِ الصيت بأرفع الدَّرَجَات .)) .

وَقَالَ مُصَنِّفُ ((إنباه الرُّواة على أنباه النُّحَاة)) :

((وأنشأ المقامات المنسوبة إلى الحارث بن همَّام ؛ التى سار فى الآفاق ذكرها وانتشرت ؛ وكُتِبَت بها النُّسخ الكثيرة المُتعدِّدة .

ومن تأمَّلها : علم أن صاحبها ومُنشئها كان بحراً فى علم النَّحو واللغة .

... ؛ وكان يحضر إلى بغداذ فى الأحيان لأجل ما يلزمه من الخراج ؛ فسمع عليه كتاب المقامات بها ؛ وحضره الجَمُّ الغفير .)) .

وَقَالَ صَاحِبُ ((مُعجم الأُدباء)) :

كان حارث وهمَّام أصدق الأسماء : لأن الحارث : الكاسب ؛ والهمَّام : الذى يهيم مَرَّةً بعد أُخرى ؛ وكُلُّ إنسانٍ لا ينفك عن
ذين . والله أعلم .)) .

« قال مُؤلِّف الكتاب : ولقد وافق كتاب المقامات من السُّعد ما لم يوافق مثله كتابٌ ألبتَّة ؛ فإنه جمع بين : حقيقة الجودة ؛ والبلاغة ؛ واتسعت له الألفاظ ؛ وانقادت له وفود البراعة ؛ حتى أخذ بأزمَّتها ؛ وملك رِبقَتَهَا ؛ فاختار ألفاظها ؛ وأحسن نسقها ؛ حتى لو ادَّعى بها الإعجاز : لما وجد من يدفع فى صدره ؛ ولا يرُدُّ قوله ؛ ولا يأتى بما يُقاربها ؛ فضلاً عن أن يأتى بمثلها !! .

ثم رُزِقَت مع ذلك من الشُّهرة وبُعْدِ الصِّيت والاتفاق على استحسانها من المُوافق والمُخالف ما استحقَّت وأكثر !! .

ومن عجيب ما رأيته وشاهدته :

أنى وردت آمد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا فى عُنفوان الشباب وريعه ؛ فبلغنى أن بها علىُّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحِلِىّ ؛ وكان من العلم بمكانٍ مكين ؛ واعتلق من حباله برُكنٍ ركين ؛ إلا أنه كان لا يُقيم لأحدٍ من أهل العلم المُتقدِّمين ولا المُتأخِّرين وزناً !! ؛ ولا يعتقد لأحدٍ فضيلة !! ؛ ولا يقرُّ لأحدٍ بإحسانٍ فى شىءٍ من العلوم ولا حُسْنٍ !! ؛ فحضرتُ عنده ؛ وسمعت من لفظه إزراءه على أُولى الفضل ؛ وتنديده بالمعيب عليهم بالقول والفعل !! ؛ فلما أبرمنى وأضجر ؛ وامتدَّ فى غَيِّه وأصحر !! ؛ قُلْتُ لهُ : أما كان فى من تقدَّم على كثرتهم وشغف الناس بهم عندك قطّ مجيد ؟!! .

فقال : لا أعلم !! ؛ إلا أن يكون ثلاثة رجال :
١ - المُتنبِّى فى مديحه خاصَّة ؛ ولو سلكت طريقه لما برز علىَّ ؛ ولسُقت فضيلته نحوى ونسبتها إلىَّ .
٢ - والثانى ابن نُباتة فى خُطبه ؛ وإن كانت خُطبى أحسن منها ؛ وأسير ؛ وأظهر عند الناس قاطبةً ؛ وأشهر .
٣ - والثالث ابن الحريرىّ فى مقاماته .
قُلْتُ : فما منعك أن تسلك طريقته ؛ وتُنشىء مقامات تُخمد بها جمرته ؛ وتملك بها دولته ؟!!
فقال : يا بُنىَّ ! ؛ الرُّجوع إلى الحقِّ خيرٌ من التمادى فى الباطل !! ؛ ولقد أنشأتها ثلاث مرَّات ؛ ثم أتأملها فأسترذلها ؛ فأعمد إلى البركة فأغسلها !! ؛ ثم قال :
ما أظُنُّ الله خلقنى إلا لإظهار فضل الحريرىِّ .
وشرح مقاماته بشرحٍ قُرِىءَ عليه ؛ وأُخِذَ عنه . » .
وَقَالَ صَاحِبُ « وفيات الأعيان » :
« وَرُزِقَ الحظوة التامة فى عمل المقامات ؛ واشتملت على شىءٍ كثيرٍ من كلام العرب : من لُغاتها ؛ وأمثالها ؛ ورموز أسرار كلامها .
ومن عرفها حَقَّ معرفتها : استدلَّ بها على فضل هذا الرَّجُل ؛ وكثرة اطلاعه ؛ وغزارة مادته .
وقد اعتنى بشرحها خلقٌ كثيرٌ : فمنهم من طَوَّلَ ، ؛ ومنهم من اختصر .

... ؛ وقال أبو منصور الجواليقيُّ : أجازني المقامات : نجم الدين عبد الله ؛ وقاضي قضاة البصرة ضياء الإسلام عبيد الله : عن أبيهما مُنشئها .)) .

وَقَالَ السُّبْكِيُّ فِي ((طبقات الشافعيَّة الكُبرى)) :

((ثمَّ انتشرت هَذِه المقامات فِي زَمَانه ؛ وَكَثُرَت النُّسخ بهَا ؛ وَزَاد إقبال الْخَلْقِ عَلَيْهَا .)) .

وفي ((نزهة الألباء في طبقات الأدباء)) :

((وأخذ عن الحريريِّ المقامات : شريف الدين عليُّ بن طراد الزينبيُّ الوزير ؛ وقوام الدين عليُّ بن صدقة الوزير ؛ وابن الماندائيُّ قاضي واسط ؛ وابن المتوكل ؛ وابن النَّقُّور ؛ وجماعةٌ كثيرةٌ من أهل الأدب وغيرهم .)) .

ـ فَائِـدَة :

في ((طبقات الشافعيَّة الكُبرى)) :

((ـ وَمن الْفَوَائِد الْمُتَعَلِّقَة بالمقامات :

سَأَلَ يعِيش النَّحْوِيُّ زيد بن الْحسن الكِنْدِيَّ عَن قَول الحريريِّ فِي المقامة الْعَاشِرَة :

(حَتَّى إِذا لألأ الأُفق ذَنَب السِّرحان ؛ وآن انبلاج الفَجْر وحان) .

مَا يجوز فِي قَوْله : (الأُفق ذَنَب السِّرحان) من الإِعْرَاب ؟ ؛ وأُشكل عَلَيْهِ الْجَواب .

حُكِيَ ذَلِك ابْنِ خَلِّكان ؛ وَذكر أن البندهيَّ جوَّز فِي شرح المقامات رفعهما ونصبهما ؛ وَرفع الأول وَنصب الثَّانِي ؛ وَعَكسه .

قَالَ ابْنُ خلّكان : وَلَوْلا خوف الإطالة ؛ لأوردت ذَلِك .

قَال : وَالْمُخْتَار : نصب (الأُفق) وَرفع (ذَنْب) .

قُلْتُ : وَقَالَ الشَّيْخُ جمال الدِّين بْنُ هِشَام ـ رَحمَه الله ـ ؛ وَمن خطِّه نقلته : كَانَ يرفعهما على حذف مفعول (لألأ) ؛ وَتَقْدِير (ذَنْب) بَدَلاً ؛ أَى : حَتَّى إِذا لألأ الْوُجُود الأُفق ذَنْب السرحان ؛ وَهُوَ بدل اشْتِمَال ؛ وَنَظِيره : سرق زيد فرسه ؛ ويضعفه أو يردُّهُ عدم الضَّمِير .

وَقد يُقَال : إِن (أل) خلف عَن الإِضَافَة ؛ أَى : (ذَنْب سرحانه) ؛ وَمثله ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّار ﴾ ؛ أَى : ناره .

أَو على حذف الضَّمير كَمَا قَالُوا فِى الآيَة ؛ أَى : ذَنْب السرحان فِيهِ ؛ وَالنَّار فِيهِ .

وَأما نصبهما : فعلى أن الْفَاعِل : ضمير اسمه تَعَالَى ؛ والأفق : مفعولٌ بِهِ ؛ وذنب : بدلٌ مِنْهُ ؛ أَى : لألأ الله الأُفق ذَنْب السرحان ؛ أَى : سرحانة أَو السرحان فِيهِ .

وَرفع الذَّنب ؛ وَنصب الأُفق : وَاضحٌ .

وَعَكسه مُشكَلٌ جِداً ؛ إِذْ الأُفق لم ينور الذَّنب ؛ نعم إِن كَانَ تجويزه على أنه من بَاب المقلوب اتجه ؛ كَمَا قَالُوا كسر الزُّجاج الْحجر ؛ وخرق الثَّوْب المسمار : لأمن الإلباس . » .

.....

٨ـ وَفَاةُ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَرِيرِيِّ:

قَالَ أبو الحُسَيْن الدِّمياطيُّ في « ذيل تاريخ بغداد »:

« تُوفِّي في ثامن رجب ؛ سنة ست عشرة وخمسمائة بالبصرة ؛ وعمره سبعون سنة . ».

وفي « نزهة الألباء في طبقات الأدباء »:

« قال ابن السَّمعانيِّ: سألت أبا القاسم بن أبي محمد الحريريِّ عن وفاة أبيه ؟ فقال: تُوفِّي سنة ست عشرة وخمسمائة ؛ ببني حرام ؛ من البصرة .

وسألته عن مولده ؟ ؛ فقال: لا أدري ؛ غير أنه قال لي: كان له وقت أن تُوفِّي سبعون سنة . ».

وَقَالَ ياقُوت الحمويُّ في « معجم الأُدباء »: « ومات ابن الحريريِّ في سادس رجب ».

وَقَالَ الشَّمْسُ الذَّهبيُّ في « سير أعلام النُّبلاء »: « تُوُفِّيَ الحَرِيرِيُّ فِي سَادِس رَجَب . ».

وَقَالَ السُّبْكِيُّ فِي « طبقات الشافعيَّة الكُبرى »: « تُوفِّيَ فِي يَوْم الاثْنَيْنِ: ثامن رَجَب . ».

.....

٩ـ وَفَيَاتٌ فِي سَنَةِ وَفَاةِ الحَرِيرِيِّ:

قَالَ الشَّمْسُ الذَّهَبِيُّ فِي « تذكرة الحُفَّاظ »:

« قُلْتُ : فيها :

- مات المسند أبو علىٍّ الحسن بن محمد بن إسحاق الباخرحىُّ ببغداد عن تسع وسبعين سنة .

- والمُسند الكبير أبو طالب عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادىُّ عن بضع وثمانين سنة .

- والعلامة شيخ الأدب أبو محمد القاسم بن علىٍّ بن محمد ؛ الحرامىُّ ؛ البصرىُّ ؛ الحريرىُّ ؛ صاحب المقامات .

- وشيخ المُقرئين أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى بكر عتيق بن خلف الصقلىُّ مُصنِّف (التجريد) ؛ بالإسكندرية .

- والحافظ أبو محمد السمرقندىُّ .

- ومُحيى السُّنَّة أبو محمد البغوىُّ . » .

.....

وبعد :

قَالَ الذَّهبىُّ فى « سير أعلام النُّبلاء » :

« وخلَّف ابْنَيْن :

- نَجم الدِّين عَبْد الله .

- وَقَاضِى البَصْرَةِ ضِيَاء الإِسْلاَم عُبَيْد الله . » .



المُنْتَخَب

مِن

مَقَامَاتِ أَبِى مُحَمَّد

القَاسِمِ بْنِ عَلِىٍّ الحَرِيرِىِّ

(ت ٥١٦ هـ)

.....

۞ ـ المَقَامَةُ الصَّنْعَانِيَّة



حدَّثَ الحارثُ بنُ هَمَّامٍ ؛ قالَ :

لَمَّا اقتَعدْتُ غاربَ الاغتِراب ؛ وأنْأتْني المَترَبَةُ عنِ الأتْرَاب ؛ طوَّحَتْ بي طَوائِحُ الزَّمَن ؛ إلى صنْعَاء اليَمَن ؛ فدَخَلْتُها خاوي الوِفاض ؛ بادي الإنْفاض ؛ لا أمْلِكُ بُلْغَة ؛ ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَة ؛ فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثْلَ الهائِم ؛ وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِم ؛ وأرُودُ في مَسارِحِ لَمحاتي ؛ ومَسايحِ غدَواتي ورَوحاتي ؛ كريماً أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي ؛ وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي ؛ أو أديباً تُفَرِّجُ رؤيَتُه غُمَّتي ؛ وتروي رِوايتُه غُلَّتي ؛ حتى أدَّتْني خاتِمَةُ المَطاف ؛ وهدَتْني فاتِحةُ الألْطاف ؛ إلى نادٍ رَحيب ؛ مُحتَوٍ على زِحامٍ ونَحيب ؛ فولَجْتُ غابةَ الجَمْع ؛ لأسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدَّمْع ؛ فرأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَة ؛ شخْصاً شخْتَ الخِلْقَة ؛ عليْهِ أُهبَةُ السِّياحَة ؛ وله رنَّةُ النِّياحَة ؛ وهوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بجَواهِرِ لفظِه ؛ ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِه ؛ وقدْ أحاطَتْ بهِ أخلاطُ الزُّمَر ؛ إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَر ؛ والأكْمامِ بالثَّمر ؛ فدَلَفْتُ إليهِ لأقْتَبِسَ من فوائِدِه ؛ وألْتَقِطَ بعْضَ فرائِدِه ؛ فسمِعْتُهُ يقولُ حينَ خبَّ في مجالِه ؛ وهَدَرَتْ شَقاشِقُ ارتِجالِه :

أيُّها السَّادِرُ فى غُلَوائِه ؛ السَّادِلُ ثوْبَ خُيَلائِه ؛ الجامِحُ فى جَهالاتِه ؛ الجانِحُ إلى خُزَعْبلاتِه !! ؛ إلامَ تستَمِرُّ على غَيِّك ؟!! ؛ وتَستَمْرِئُ مرْعَى بغْيِك ؟!! ؛ وحَتَّامَ تتَناهَى فى زهوِك ؛ ولا تَنْتهى عن لَهوِك ؟!! ؛ تُبارِزُ بمَعصيَتِك ؛ مالِكَ ناصيَتِك ؟!! ؛ وتَجْتَرِئُ بقُبْحِ سيرَتِك ؛ على عالِمِ سَريرَتِك ؟!! ؛ وتَتَوارَى عَن قَريبك ؟!! ؛ وأنتَ بمَرْأى رَقيبك ؟!! ؛ وتَستَخْفى مِن مَملوكِك ؛ وما تَخْفى خافِيَةٌ على مَليكِك ؟!! ؛ أتَظُنُّ أنْ ستَنْفَعُكَ حالُك ؛ إذا آنَ ارتِحالُك ؟!! ؛ أو يُنْقِذُكَ مالُك ؛ حينَ توبِقُكَ أعمالُك ؟!! ؛ أو يُغْنى عنْكَ ندَمُك ؛ إذا زلَّتْ قَدَمُك ؟!! ؛ أو يعْطِفُ عليْكَ معشَرُك ؛ يومَ يضُمُّكَ مَحْشَرُك ؟!! ؛ هلاَّ انتَهَجْتَ مَحَجَّةَ اهتِدائِك ؟!! ؛ وعجَّلْتَ مُعالجَةَ دائِك ؟!! ؛ وفَلَلْتَ شَباةَ اعتِدائِك ؟!! ؛ وقدَعْتَ نفْسَكَ فهِىَ أكبرُ أعدائِك ؟!! ؛ أما الحِمام ميعادُك ؟!! ؛ فما إعدادُك ؟!! ؛ وبالمَشيبِ إنذارُك ؟!! ؛ فما أعذارُك ؟!! ؛ وفى اللَّحْدِ مَقيلُك ؛ فما قِيلُك ؟!! ؛ وإلى الله مَصيرُك ؛ فمَن نصيرُك ؟!! ؛ طالما أيْقَظَكَ الدَّهْرُ فتَناعَسْت !! ؛ وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْت !! ؛ وتجلَّتْ لكَ العِبَرُ فتَعامَيْت !! ؛ وحَصْحَصَ لكَ الحقُّ فتمارَيْت !! ؛ وأذْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيت !! ؛ وأمكنَكَ أنْ تُؤاسِى فما آسيْت !! ؛ تُؤثِرُ فِلساً توعِيه ؛ على ذِكْرٍ تَعيه !! ؛ وتَختارُ قَصْراً تُعْليه ؛ على بِرٍّ تُوليه !! ؛ وتَرْغَبُ عَن هادٍ تَسْتَهْديه ؛ إلى زادٍ تَستَهْديه !! ؛ وتُغلِّبُ حُبَّ ثوبٍ تشتَهيه ؛ على ثوابٍ تشْتَريه !! ؛ يَواقيتُ الصِّلات ؛ أعْلَقُ بقَلبِك من مَواقيتِ الصَّلاة !! ؛ ومُغالاةُ الصَّدُقات ؛ آثَرُ عندَكَ من مُوالاةِ الصَّدَقات !! ؛ وصِحافُ الألْوان ؛ أشْهى إلَيْكَ من صَحائِفِ الأدْيان !! ؛

ودُعابَةُ الأقْران ؛ آنسُ لكَ من تِلاوَةِ القُرآن !! ؛ تأمُرُ بالعُرْفِ وتَنتَهِكُ حِماه !! وتَحْمى عنِ النُّكْرِ ولا تَتحاماه !! ؛ وتُزحزِحُ عنِ الظُّلْمِ ثم تغْشاه !! ؛ وتخْشَى النَّاسَ ؛ واللهُ أحقُّ أنْ تخْشاهُ !! .

ثُمَّ أنْشَدَ :

تَبّاً لِطَالِبِ دُنْيَا

ثَنَى إلَيها انصِبابَهْ

ما يستَفيقُ غَراماً

بها وفَرْطَ صَبابَهْ

ولوْ دَرى لَكفَاهُ

مما يَرومُ صُبابَهْ

ثُمَّ إنَّهُ لبَّدَ عَجاجَتَه ؛ وغيَّضَ مُجاجتَه ؛ واعتَضَدَ شكْوَتَه ؛ وتأبَّطَ هِراوَتَه ؛ فلمَّا رنَتِ الجَماعَةُ الى تحفُّزِه ؛ ورأتْ تأهُّبَهُ لمُزايَلَةِ مركَزِه ؛ أدْخَلَ كُلٌّ منهُم يدَهُ فى جيْبِه ؛ فأفْعَمَ لهُ سَجْلاً من سَيْبِه ؛ وقال : اصْرِفْ هَذا فى نفقَتِك ؛ أو فرِّقْهُ على رُفْقَتِك ؛ فقبِلَهُ منهُم مُغضِياً ؛ وانْثَنى عنْهُم مُثْنِياً ؛ وجعَلَ يودِّعُ مَنْ يُشيِّعُه ؛ ليَخْفَى علَيْهِ مَهْيَعُه ؛ ويُسرِّبُ من يتْبَعُه ؛ لكَى يُجْهَلَ مرْبَعُه .

قال الحارِثُ بنُ هَمَّامٍ :

فاتَّبعْتُهُ مُوارِياً عنْهُ عِيانى ؛ وقَفَوْتُ أثرَهُ من حيثُ لا يَرانى ؛ حتَّى انْتَهى إلى مَغارَة ؛ فانْسابَ فيها على غِرارَة ؛ فأمْهَلْتُه ريثَما خلَعَ نعْلَيْه ؛ وغسَل رِجلَيْه ؛

ثُمَّ هجَمْتُ علَيه ؛ فوجدتُهُ مُشافِناً لتِلْميذ ؛ على خبْزٍ سَميذ ؛ وجَدْيٍ حَنيذ ؛ وقُبالَتَهُما خابيةُ نبيذ !! ؛ فقلتُ لهُ : يا هذا !! أيَكونُ ذاكَ خَبَرُك ؛ وهذا مَخْبَرُك ؟!!.

فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظ !! ؛ وكادَ يتميَّزُ منَ الغيْظ !! ؛ ولم يزَلْ يحْمْلِقُ إليّ ؛ حتَّى خِفْتُ أن يسطُو عليّ !! ؛ فلمَّا أن خبَت نارُه ؛ وتَوارَى أُوارُه ؛ أنْشَد :

لبِسْتُ الخَميصةَ أبغى الخَبيصَهْ
وأنْشَبْتُ شِصِّيَ في كُلِّ شِيصَهْ
..... ؛ وصيَّرتُ وعْظيَ أُحبولَةً
. ؛ أُريغُ القَنيصَ بها والقَنيصَهْ
وألْجانى الدَّهْرُ حتَّى ولَجْتُ
بلُطْفِ احتِيالى على اللَّيثِ عيصَهْ
.. ؛ على أنَّنى لم أهَبْ صرفَهُ
... ؛ ولا نبَضَتْ لى مِنْهُ فَريصَهْ
... ؛ ولا شرَعت بى على مَورِدٍ
؛ يُدنِّسُ عِرضىَ نفْسٌ حَريصَهْ
؛ ولو أنْصَفَ الدَّهرُ فى حُكمِهِ
لَمَا ملَّكَ الحُكْمَ أهلَ النَّقيصَهْ

ثُمَّ قال لى : ادْنُ فكُلْ ؛ وإنْ شِئْتَ فقُم وقُلْ ؛ فالتَفَتُّ إلى تِلميذِه وقُلتُ :

عزَمْتُ عليْكَ بمَن تستَدفِعُ بهِ الأذى ؛ لتُخْبرَنِّى مَن ذا ؟!!

فقال : هذا أبو زيْدٍ السَّروجىُّ ؛ سِراجُ الغُرَباء ؛ وتاجُ الأُدَباء .

فانصرَفْتُ من حيثُ أتيت ؛ وقضَيْتُ العجَبَ مِمَّا رأيْت .





.....

۞ ـ المَقَامَةُ الإِسْكَنْدَرِيَّة



قالَ الحارثُ بنُ هَمَّامٍ :

طَحا بى مَرَحُ الشَّباب ؛ وهوَى الاكتِساب ؛ إلى أن جُبْتُ ما بينَ فرْغانَة ؛ وغانَة ؛ أخوضُ الغِمار ؛ لأجْنى الثِّمار ؛ وأقْتَحِمُ الأخْطار ؛ لكَى أُدرِكَ الأوْطار ؛ وكُنتُ لَقِفْتُ من أفْواهِ العُلَماء ؛ وثَقِفْتُ من وَصايا الحُكَماء :

أنهُ يلْزَمُ الأديبَ الأريب ؛ إذا دخَلَ البلَدَ الغريب :

أنْ يَستَميلَ قاضيَه ؛ ويستَخْلِصَ مَراضيَه ؛ ليشتَدَّ ظهرُهُ عندَ الخصام ؛ ويأمَنَ فى الغُربَةِ جَوْرَ الحُكَّام ؛ فاتَّخذْتُ هذا الأدَبَ إماماً ؛ وجعلْتُهُ لَمصالحى زِماماً ؛ فما دَخلْتُ مَدينةً ؛ ولا ولَجْتُ عَرينَةً ؛ إلا وامتزجْتُ بحاكمِها امتِزاجَ الماءِ بالرَّاح ؛ وتقوَّيْتُ بعِنايَتِهِ تقوِّى الأجْسادِ بالأرْواح ؛ فبَينَما أنا عِندَ حاكِمِ الإسكنْدَريَّة ؛ فى عشيَّةٍ عريَّة ؛ وقد أحضَرَ مالَ الصَّدَقات ؛ ليَفُضَّهُ على ذوى الفاقات ؛ إذْ دخَل شيخٌ عِفْرِيَةٌ ؛ تعتُلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ!! .

فقالت : أيَّدَ اللهُ القاضى ؛ وأدامَ بهِ التَّراضى ؛ إنى امرأةٌ من أكرَمِ جُرثومَة ؛ وأطْهَرِ أرومة ؛ وأشرَفِ خُؤولَةٍ وعُمومَة ؛ ميسَمى الصَّون ؛ وشيمَتى

الهَوْن ؛ وخُلُقى نِعْمَ العَوْن ؛ وبينى وبينَ جاراتى بوْن ؛ وكان أبى إذا خطَبَنى بُناةُ المجْد ؛ وأرْبابُ الجَد ؛ سكّتَهُم ويكّتَهُم ؛ وعافَ وُصلَتَهُم وصِلتَهم ؛ واحتجَّ بأنَّهُ عاهَدَ اللهَ تَعالى بحَلْفَةٍ ؛ أن لا يُصاهِرُ غيرَ ذى حِرفَةٍ ؛ فقيّضَ القدَرُ لنَصَبى !! ؛ ووَصَبى !! ؛ أنْ حضَرَ هذا الخُدَعَةُ نادىَ أبى ؛ فأقسَمَ بينَ رهْطِهِ ؛ أنَّهُ وُفْقَ شرْطِهِ ؛ وادَّعى أنهُ طالَما نظَمَ دُرَّةً الى دُرَّة ؛ فباعَهُما ببَدْرَة ؛ فاغْتَرَّ أبى بزَخرَفَةِ مُحالِه ؛ وزوّجَنيهِ قبْلَ اختِبارِ حالِه ؛ فلمَّا استَخرَجَنى من كناسى ؛ ورحَّلَنى عن أُناسى ؛ ونقَلَنى الى كسْرِهِ ؛ وحصَّلَنى تحتَ أسرِهِ ؛ وجدْتُهُ قُعَدَةً جُثَمَة !! ؛ وألفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُوَمَة !! ؛ وكُنتُ صحِبْتُهُ برِياشٍ وزِىٍّ ؛ وأثاثٍ ورِىٍّ ؛ فما برِحَ يَبيعُهُ فى سوقِ الهضْم ؛ ويُتْلِفُ ثمَنَهُ فى الخَضْم ؛ والقَضْم !! ؛ إلى أنْ مزَّقَ ما لى بأسْرِهِ ؛ وأنْفَقَ مالى فى عُسْرِهِ !! ؛ فلمَّا أنسانى طَعْمَ الرَّاحة ؛ وغادرَ بيْتى أنْقَى منَ الرَّاحة ؛ قُلْتُ له : يا هَذا !! إنَّهُ لا مخْبأ بعْدَ بوس ؛ ولا عِطْرَ بعْدَ عَروس ؛ فانهَضْ للاكتِسابِ بصِناعَتِك ؛ واجْنِنى ثمَرَةَ براعَتِك ؛ فزعَمَ أن صِناعَتَهُ قد رُمِيت بالكَساد ؛ لِما ظهرَ فى الأرضِ من الفَساد ؛ ولى منهُ سُلالةٌ ؛ كأنَّهُ خِلالَةٌ ؛ وكِلانا ما يَنالُ معَهُ شِبْعَة ؛ ولا ترْقأُ لهُ منَ الطَّوى دمعَة ؛ وقد قُدتُهُ إليْك ؛ وأحضَرْتُهُ لديْك ؛ لتَعْجُمَ عودَ دعْواه ؛ وتحْكُمَ بيْنَنا بما أراكَ الله .

فأقْبَلَ القاضى عليْه ؛ وقال لهُ : قد وعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِك ؛ فبرْهِنِ الآنَ عن نفسِك ؛ وإلا كشَفْتُ عن لَبْسِك ؛ وأمرْتُ بحَبْسِك .

فأطْرَقَ إطْراقَ الأُفعُوان ؛ ثُمَّ شمَّرَ للحرْبِ العَوان ؛ وقال :

اسْمَعْ حَديثى فإنَّهُ عَجَبُ

يُضحَكُ من شرحِهِ ويُنتحَبُ

أنا امرؤٌ ليسَ فى خَصائِصِهِ

عَيْبٌ ولا فى فَخارِهِ رِيَبُ . ؛

سَروجُ دارى التى وُلِدْتُ بها

والأصلُ غسَّانُ حينَ أنتسِبُ

وشُغلىَ الدَّرسُ والتبحُّرُ فى الـ

عِلمِ طِلابى وحبَّذا الطَّلَبُ

ورأسُ مالى سِحْرُ الكَلامِ الذى

مِنْهُ يُصاغُ القَريضُ والخُطَبُ

أغوصُ فى لُجَّةِ البَيان فأخـ

تارُ اللآلى منها وأنتَخِبُ

وأجْتَنى اليَانِعَ الجَنىَّ مِنَ الـ

قَوْلِ وغيرى للعودِ يحْتَطِبُ

.... ؛ وآخُذُ اللفْظَ فِضَّةً فإذا

... ؛ ما صُغْتُهُ قيلَ إنَّهُ ذَهَبُ

وكُنتُ من قبلُ أمْترى نَشَبَاً

.. ؛ بالأدَبِ المُقْتَنى وأحتَلِبُ

. ؛ ويُمتَطى اخمُصى لُرمَّتِهِ

.. ؛ مَراتِباً ليسَ فوقَها رُتَبُ

وطالَما زُفَّتِ الصِّلاتُ إلى

رَبْعِى فلم أرْضَ كُلَّ من يهَبُ

فاليومَ مَن يعْلَقُ الرَّجاءُ بِهِ

أكسَدُ شىءٍ فى سُوقِه الأدَبُ

لا عِرْضُ أبْنائِهِ يُصانُ ولا

يُرقَبُ فيهِم إلٌّ ولا نسَبُ

كأنَّهُمْ فى عِراصِهِم جِيَفٌ

. ؛ يُبْعَدُ من نَتْنِها ويُجْتَنَبُ

.. ؛ فحارَ لُبِّى لِما مُنيتُ بِهِ

منَ اللَّيالى وصرْفُها عَجَبُ

وضاقَ ذرْعى لضيقِ ذاتِ يَدى

وساوَرَتنى الهُمُومُ والكُرَبُ

. ؛ وقادَنى دَهْرِى المُليمُ إلى

سُلُوكِ ما يستَشينُهُ الحسَبُ

فبعتُ حتَّى لم يبْقَ لى سبَدٌ

...... ؛ ولا بَتاتٌ إليْهِ أنقَلِبُ

وادَّنتُ حتَّى أثقلتُ سالِفَتى

بحَملِ دَينٍ من دونه العطَبُ

ثُمَّ طوَيتُ الحَشا على سغَبٍ

خمْساً ؛ فلما أمَضَّنى السَّغَبُ

... ؛ لم أرَ إلا جِهازَها عرَضاً

. ؛ أجُولُ فى بيعِه واضْطَرِبُ

فجُلتُ فيهِ والنَّفْسُ كارهَةٌ

والعينُ عَبْرَى والقلبُ مُكتَئِبُ

؛ وما تجاوزْتُ إذ عبثْتُ بهِ

حَدَّ التَّراضى فيحدُثَ الغضَبُ

؛ فإنْ يكُن غاظَها توهُّمُها

. ؛ أنَّ بَنانى بالنَّظْمِ تكتسِبُ

أو أنَّنى إذ عزَمتُ خِطبَتَها

زخْرَفتُ قولى لينجَحَ الأرَبُ

فوالَّذى سارَتِ الرِّفاقُ إلى

. ؛ كعْبَتِهِ تستَحثُّها النُّجُبُ

مـا المكْرُ بالمُحصَنـاتِ من خُلُقى

ولا شِعـارى التَّمويـهُ والـكذِبُ

؛ ولا يَدى مُـذْ نـشأتُ نِيطَ بهـا

.. ؛ إلا مَـواضـى اليَـراعِ والكُـتُبُ

بـل فِكْرَتـى تنظِمُ القَـلائِدَ لا كفِّـ

ـى ؛ وشعرى المنظوم لا السُّحُبُ

... ؛ فهَـذِهِ الحِـرفَـةُ المُشارُ إلـى

مـا كُنتُ أحـوى بهـا وأجتَلِبُ

فـأذَنْ لـشَرْحـى كـمـا أذِنـتَ لهـا

ولا تُـراقِبْ واحـكُمْ بـمـا يـجِبُ

قال :

فلمَّا أحكَم ما شادَه ؛ وأكملَ إنشادَه ؛ عطَفَ القاضى الى الفَتاة ؛ بَعْدَ أن شُعِفَ بالأبيات !! ؛ وقال :

أمَا إنَّهُ قدْ ثبَتَ عندَ جميع الحُكَّام ؛ ووُلاةِ الأحْكام ؛ انقِراض جيلِ الكِرام ؛ وميل الأيَّامِ إلى اللِّئام ؛ وإنى لإخالُ بعْلَكِ صَدوقاً فى الكلام ؛ برِيًّاً من المَلام ؛ وها هو قد اعترَفَ لكِ بالقَرْض ؛ وصرَّحَ عن المَحْض ؛ وبيَّنَ مِصْداقَ النَّظْم ؛ وتبيَّنَ أنَّه مَعروقُ العظْم ؛ وإعْنـاتُ المُعْذِرِ مَلأمَة ؛ وحبْسُ المُعسِرِ مأثَمة ؛ وكِتْمانُ الفَقْرِ زَهادَة ؛ وانتِظارُ الفَرَجِ بالصَّبرِ عِبادَة ؛ فارْجِعى إلى

خِدرِكِ ؛ واعذُرى أبا عُذْرِكِ ؛ ونَهْنِهى عن غَرْبِكِ ؛ وسلِّمى لقَضاءِ ربِّكِ . ثُمَّ إنَّهُ فرضَ لهُما فى الصَّدقاتِ حِصَّة ؛ وناوَلَهُما من دَراهِمِهِما قَبصَة ؛ وقال لهُما : تعلَّلا بهذه العُلالَة ؛ وتندَّيا بهذِهِ البُلالَة ؛ واصْبِرا على كَيْدِ الزَّمانِ وكدِّهِ ؛ فعَسى اللهُ أن يأتىَ بالفَتْحِ أو أمْرٍ من عِندِهِ ؛ فنَهَضا وللشَّيخِ فرْحَةُ المُطْلَقِ من الإسار ؛ وهِزَّةُ المُوسِرِ بعْدَ الإعْسار !! .

قال الرَّاوى :

وكُنتُ عرفْتُ أنهُ أبو زيدٍ ساعةَ بزغَت شمسُهُ ؛ ونزغَت عِرسُهُ ؛ وكدْتُ أُفصِحُ عن افتِنانِه ؛ وأثمارِ أفْنانِه ؛ ثُمَّ أشفَقْتُ من عُثورِ القاضى على بُهتانِه ؛ وتزْويقِ لِسانِه ؛ فلا يرَى عندَ عِرْفانِه ؛ أن يُرشِّحَهُ لإحسانِه ؛ فأحْجَمْتُ عنِ القَوْلِ إحْجامَ المُرْتاب ؛ وطوَيتُ ذكْرَهُ كطَىِّ السِّجِلِّ للكِتاب ؛ إلا أنى قُلْتُ بعدَما فصَل ؛ ووصلَ إلى ما وصَل : لو أنَّ لَنا مَن ينطَلِقُ فى أثرِه ؛ لأتانا بفَصِّ خبَرِه ؛ وبما يُنْشَرُ من حِبَرِه ؛ فأتبَعَه القاضى أحدَ أُمنائِه ؛ وأمرَهُ بالتَّجسُّسِ عن أنبائِه ؛ فما لبِثَ أن رجَعَ مُتَدَهْدِهاً ؛ وقهْقَرَ مُقهْقِهاً !! .

فقال له القاضى :

مَهْيَم !! ؛ يا أبا مرْيَم ؟!!

فقال : لقدْ عايَنْتُ عجَباً !! ؛ وسمعْتُ ما أنْشأ لى طرَباً !!

فقال لهُ : ماذا رأيت ؟!! ؛ وما الذى وعَيْت ؟!!

قال : لم يزَلِ الشَّيخُ مُذْ خرَجَ يُصفِّقُ بيدَيْه ؛ ويخُالِفُ بينَ رِجلَيْه ؛ ويُغرِّدُ بمِلْءِ شِدْقَيْه ؛ ويقول :

كِذتُ أصْلَى بِبَلِيَّهْ

من وَقَاحٍ شَمَّرِيَّهْ

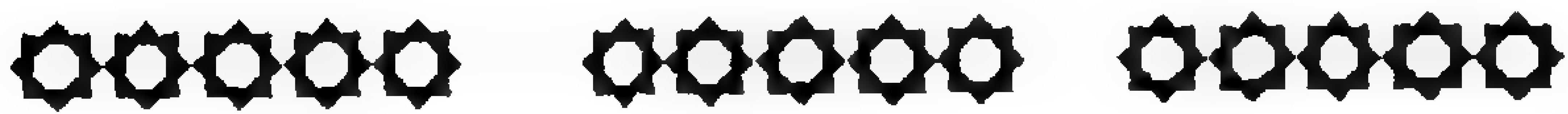
وأزورُ السِّجْنَ لوْلا

حاكِمُ الإسكندريَّهْ

فضحِكَ القاضى حتى هوَتْ دنَّيَّتُه ؛ وذوَت سكينَتُه !! ؛ فلمَّا فاء إلى الوَقار ؛ وعقَّبَ الاستِغْراب بالاستِغْفار ؛ قال : اللهُمَّ بحُرمَةِ عِبادِكَ المُقرَّبين ؛ حرِّم حبسى على المُتأدِّبين ؛ ثُمَّ قال لذلِكَ الأمين : علىَّ به ؛ فانطلقَ مُجِدّاً بطلَبِه ؛ ثُمَّ عادَ بعدَ لأيه ؛ مُخبراً بنأيه ؛ فقال لهُ القاضى : أمَا إنَّهُ لو حضَرَ ؛ لكُفىَ الحذر ؛ ثُمَّ لأوْلَيْتُهُ ما هو به أولى ؛ ولأرَيْتُهُ أنَّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأولى .

قال الحارثُ بنُ همَّام :

فلمَّا رأيتُ صَغْوَ القاضى إليه ؛ وفَوْتَ ثمرَةِ التَّنبيهِ علَيْه ؛ غَشِيَتنى نَدامَةُ الفرَزْدَقِ حينَ أبانَ النَّوار ؛ والكُسَعىِّ لَمَّا استَبانَ النَّهار.





.....

❁- المَقَامَةُ الدِّمَشْقِيَّة



حكى الحارثُ بْنُ همَّام، قال:

شَخَصْتُ مِنَ العِراقِ الى الغُوطَة، وأنا ذو جُرْدٍ مربوطة، وجِدَةٍ مغْبوطَة، يُلْهِينى خُلوُّ الذَّرْع، ويزْدَهينى حُفولُ الضَّرْع، فلمَّا بلغْتُها بعدَ شِقِّ النَّفْس، وإنْضَاء العنْس، ألفيْتُها كما تصِفُها الألسُن، وفيها ما تشتَهى الأنفُسُ وتلَذُّ الأعيُن، فشكرْتُ يدَ النَّوى، وجريْتُ طلقاً مع الهَوى، وطفِقْتُ أفُضُّ خُتُومَ الشَّهَوات، وأجْتَنى قُطُوفَ اللَّذَّات، إلى أن شرعَ سفرٌ فى الإعْراق، وقد استفَقْتُ منَ الإغْراق، فعادَنى عيدٌ من تَذْكارِ الوطَن، والحَنينِ إلى العَطَن، فقوَّضْتُ خِيامَ الغَيْبَة، وأسرَجْتُ جَوادَ الأوبَة.

ولَمَّا تأهَّبَتِ الرِّفَاق، واستتبَّ الاتِّفاق، ألَحْنا منَ المسير، دُونَ استِصْحابِ الخَفير، فرُدْناهُ من كُلِّ قَبيلة، وأعْمَلنا فى تحصيلِه ألفَ حيلة، فأعْوَزَ وِجْدانُه فى الأحياء، حتَّى خِلْنَا أنه ليس من الأحياء، فخارت لعوزه عُزومُ السيَّارَة، وانْتَدَوْا ببابِ جَيْرونَ للاستِشارَة، فمازالوا بينَ عَقْدٍ وحل، وشزْرٍ وسحْل، الى أن نفِدَ التَّناجى، وَقَنَطَ الرَّاجى، وكان حِذَتَهُم شخْصٌ مِيسَمُهُ ميسَمُ الشُّبَّان، ولَبوسُهُ لَبوسُ الرُّهبان، وبيَدِه سُبْحَةُ النُّسْوان، وفى عينِهِ ترجمَةُ النَّشوان، وقد قيَّدَ لحظَهُ بالجَمْع، وأرهَفَ أُذُنَهُ لاستِراقِ السَّمْع، فلمَّا أنى

انْكِفاؤهُم ؛ وقد برحَ لهُ خَفاؤهُم ؛ قال لهُم : يا قومُ !! ليُفْرِخْ كرْبُكُم ؛ وليَأمَنْ سِرْبُكُم ؛ فسأخْبِرُكُم بما يسْرو روْعَكُم ؛ ويبدو طوعَكُم .

قال الرَّاوى :

فاستَطْلَعنا منهُ طِلْعَ الخِفارَة ؛ وأسْنَينا لهُ الجَعالَةَ عنِ السِّفارة ؛ فزعَم أنها كلِماتٌ لُقِّنَها فى المَنام ؛ ليحتَرِسَ بها من كيْدِ الأنام ؛ فجعَلَ بعْضُنا يُومِضُ إلى بعْض ؛ ويُقلِّبُ طرْفَيْهِ بينَ لَحْظٍ وغَض ؛ وتبيَّنَ لهُ أنَّا استَضْعَفنا الخبَر ؛ واستَشْعَرْنا الخَوَر !! .

فقال : ما بالُكُمُ اتَّخذْتُمْ جِدِّى عبثاً ؟!! ؛ وجعلتُم تِبرى خَبَثاً ؟!! ؛ ولَطالَما واللهِ جُبْتُ مَخاوِفَ الأقْطار ؛ وولَجْتُ مَقاحِم الأخْطار ؛ فغَنيتُ بها عن مُصاحبَةِ خَفير ؛ واستِصْحابِ جَفير ؛ ثم إنى سأنفى ما رابَكُم ؛ وأستَسِلُّ الحذَرَ الذى نابَكُم ؛ بأن أوافِقَكُم فى البَداوة ؛ وأُرافِقَكُم فى السَّماوَة ؛ فإن صدقَكُم وعْدى ؛ فأجِدُّوا سعْدى ؛ وأسْعِدوا جَدِّى ؛ وإن كذبَكم فَمى ؛ فمزِّقُوا أدَمى ؛ وأريقوا دَمى .

قال الحارثُ بنُ هَمَّام :

فأُلهِمْنا تصْديقَ رُؤياه ؛ وتحْقيقَ ما رَواه ؛ فنزَعْنا عن مُجادَلَتِه ؛ واستَهَمْنا على مُعادلَتِه ؛ وفصَمْنا بقوْلِهِ عُرى الرَّبائِث ؛ وألغَيْنا اتِّقاءَ العايِثِ والعائِث ؛ ولمَّا

عُكِمَتِ الرِّحَال ؛ وأزِفَ التَّرْحَال ؛ استَنزَلْنا كلماته الرَّاقية ؛ لنجْعَلَها الواقيَةَ الباقيَة .

فقال : ليقْرأ كُلٌّ منكم أمَّ القُرآن ؛ كُلَّما أظَلَّ المَلَوان ؛ ثم ليَقُلْ بلِسانٍ خاضع ؛ وصوْتٍ خاشِع :

اللهُمَّ يا مُحْيى الرُّفات ؛ ويا دافِعَ الآفات ؛ ويا واقىَ المخافات ؛ ويا كريمَ المُكافاة ؛ ويا موئِلَ العُفاة ؛ ويا ولىَّ العفْوِ والمُعافاة ؛ صلِّ على محمَّدٍ خاتِمِ أنبيائِك ؛ ومبلِّغ أنبائِك ؛ وعلى مصابيحِ أُسرتِه ؛ ومفاتيحِ نُصرتِه ؛ وأعِذْنى من نزَغاتِ الشياطين ؛ ونَزَواتِ السَّلاطين ؛ وإعناتِ الباغين ؛ ومُعاناةِ الطَّاغين ؛ ومُعاداةِ العادين ؛ وعُدْوانِ المُعادين ؛ وغلَبِ الغالِبين ؛ وسلَبِ السَّالِبين ؛ وحِيَلِ المُحْتالين ؛ وغِيَلِ المُغْتالين ؛ وأجِرْنى اللهُمَّ من جَوْرِ المُجاوِرين ؛ ومُجاوَرَةِ الجائِرين ؛ وكُفَّ عنِّى أكُفَّ الضَّائِمين ؛ وأخرِجْنى من ظُلُماتِ الظَّالمين ؛ وأدْخِلْنى برحْمَتِكَ فى عِبادِكَ الصَّالِحين ؛ اللهُمَّ حُطْنى فى تُرْبَتى ؛ وغُرْبَتى ؛ وغيْبَتى ؛ وأوبَتى ؛ ونُجْعَتى ؛ ورجْعَتى ؛ وتصرُّفى ؛ ومُنصَرَفى ؛ وتقلُّبى ؛ ومُنقلَبى ؛ واحْفَظْنى فى نفْسى ؛ ونفائِسى ؛ وعِرْضى ؛ وعرَضى ؛ وعدَدى ؛ وعُدَدى ؛ وسكَنى ؛ ومسْكَنى ؛ وحَوْلى ؛ وحالى ؛ ومالى ؛ ومآلى ؛ ولا تُلحِقْ بى تغييراً ؛ ولا تُسلِّط علىَّ مُغيراً ؛ واجْعَل لى من لدُنْكَ سُلطاناً نَصيراً ؛ اللهُمَّ احرُسْنى بعينِك ؛ وعونِك ؛ واخْصُصْنى بأمنِك ؛ ومنِّك ؛ وتولَّنى باختِيارِك ؛ وخيرِك ؛ ولا تكِلْنى إلى كلاءَةِ غيرِك ؛ وهَبْ لى عافيَةً غيرَ عافِيَة ؛ وارْزُقْنى رَفاهيَةً غيرَ واهيَة ؛ واكفِنى مَخاشىَ اللأْوَاء ؛ واكْنُفْنى بغواشى

الآلاء ؛ ولا تُظْفِرْ بى أظفارَ الأعداء ؛ إنَّك سميعُ الدُّعاء .

ثُمَّ أطرَقَ لا يُديرُ لحظاً ؛ ولا يُحيرُ لفظاً ؛ حتى قُلْنا : قد أبلَسَتْهُ خشية ؛ أو أخرَسَتْهُ غشيَة ؛ ثم أقنعَ رأسَه ؛ وصعَّدَ أنفاسَه ؛ وقال :

أُقسِمُ بالسَّماء ذاتِ الأبراج ؛ والأرضِ ذاتِ الفِجاج ؛ والماءِ الثَّجَّاج ؛ والسِّراجِ الوهَّاج ؛ والبحْرِ العجَّاج ؛ والهواءِ والعَجاج : إنها لَمِن أيمَنِ العُوَذ ؛ وأغنى عنكُم من لابِسى الخُوَذ ؛ مَن درَسها عندَ ابتِسامِ الفلَق ؛ لم يُشفِق من خطْبٍ إلى الشَّفَق ؛ ومن ناجَى بها طَليعَةَ الغسَق ؛ أمِنَ ليلَتَهُ منَ السَّرَق .

قال :

فتلقَّناها حتى أتقَنَّاها ؛ وتدارَسْناها لكى لا نَنْساها ؛ ثم سِرْنا نُزجِى الحَمولات ؛ بالدَّعَواتِ لا بالحُداة ؛ ونحمى الحُمولات ؛ بالكَلِماتِ لا بالكُماة ؛ وصاحِبُنا يتعَهَّدُنا بالعِشىِّ والغداة ؛ ولا يستَنْجِزُ منَّا العِدَات ؛ حتى إذا عايَنَّا أطْلالَ عانَة ؛ قال لنا : الإعانَةَ الإعانَة !! ؛ فأحْضَرْناهُ المَعْلومَ والمكتوم ؛ وأرَيْناهُ المَكومَ والمخْتوم ؛ وقُلْنا لهُ : اقْضِ ما أنتَ قاض ؛ فما تجِدُ فينا غيرَ راض ؛ فما استَخفَّهُ سِوى الخِفِّ والزِّين ؛ ولا حَلِىَ بعينِهِ غيرُ الحَلْى والعَين ؛ فاحتَمَلَ منهُما وِقْرَه ؛ وناءَ بما يسُدُّ فَقْرَه ؛ ثمَّ خالَسَنا مُخالَسَةَ الطَّرَّار ؛ وانْصلَتَ منَّا انصِلاتَ الفَرَّار ؛ فأوحَشَنا فِراقُه ؛ وأدْهَشَنا امتِراقُه ؛ ولم نزَل نَنْشُدُهُ بكُلِّ ناد ؛ ونستَخْبِرُ عنهُ كُلَّ مُغْوٍ وهاد ؛ إلى أن قيل : إنَّه مُذْ دخَل عانَة ؛ ما زايلَ الحانة ؛ فأغْرانى خُبْثُ هذا القول بسَبْكِه ؛ والانسلاكِ فيما

لستُ من سلْكِه ؛ فادَّلجتُ الى الدَّسْكَرَة ؛ في هيئةٍ مُنكَّرَة ؛ فإذا الشيخُ فى حُلَّةٍ مُمصَّرَة ؛ بينَ دِنانٍ ومِعصَرَة ؛ وحولَهُ سُقاةٌ تبهَر ؛ وشُموعٌ تزْهَر ؛ وآسٌ وعبْهَر ؛ ومِزْمارٌ ومِزْهَر ؛ وهوَ تارةً يستَبْزِلُ الدِّنان ؛ وطَوْراً يستَنطِقُ العِيدان ؛ ودَفعةً يستنشِقُ الرَّيحان ؛ وأُخرَى يُغازِلُ الغِزْلان !! .

فلمَّا عثرتُ على لَبْسِه ؛ وتفاوُتِ يومِهِ من أمْسِه ؛ قُلْتُ : أولى لكَ يا ملْعون !! أأنسيتَ يومَ جَيْرون ؟!!!

فضحِكَ مُستَغرِباً ؛ ثم أنشدَ مُطَرِّباً :

لـزِمـتُ السِّفـارَ وجُبـتُ القِفـارَ
وعِفْـتُ النِّفـارَ لأجْنـى الفـرَحْ
وخُضتُ السُّيولَ ورُضتُ الخيولَ
.. ؛ لجَـرِّ ذُيـولِ الصِّبـى والمَـرَحْ
ومِطـتُ الـوَقـارَ وبِعْـتُ العَـقـارَ
[لِشُـرْبِ] العُـقـارِ ورشْفِ القَدَحْ
؛ ولـولا الـطِّماحُ إلـى شُربِ راحٍ
..... ؛ لـمـا كـانَ بـاحَ فَـمـى بالمُلَـحْ
. ؛ ولا كـان سـاقَ دَهـائـى الرِّفـاقَ
لأرضِ الـعِـراقِ بـحـمـلِ الـسُّـبَـحْ

..... ؛ فلا تغضَبَنَّ ولا تصخَبَنَّ

.... ؛ ولا تعتُبَنَّ فعُذْرى وضَحْ

.... ؛ ولا تعجَبَنَّ لشيْخٍ أبَنَّ

.... ؛ بمغْنىً أغَنَّ ودَنٍّ طفَحْ

... ؛ فإنَّ المُدامَ تُقوِّى العِظامَ

وتَشْفى السَّقامَ وتنفى التَّرَحْ

وأصفى السُّرورِ إذا ما الوَقورُ

... ؛ أماطَ سُتُورَ الحَيَا واطَّرَحْ

. ؛ وأحْلى الغَرام إذا المُستهامَ

. ؛ أزالَ اكتِتامَ الهَوى وافتضَحْ

... ؛ فبُحْ بهَواكَ وبرِّدْ حَشاكَ

.... ؛ فزَنْدُ أساكَ بهِ قدْ قدَحْ

.. ؛ وداوِ الكُلُومَ وسلِّ الهُمُومَ

. ؛ ببنْتِ الكُرُوم التى تُقترحْ

وخُصَّ الغَبُوقَ بساقٍ يسوقُ

.. ؛ بَلاءَ المَشُوقِ إذا ما طمَحْ

. ؛ وشادٍ يُشيدُ بصوتٍ تَميدُ

. ؛ جِبالُ الحديدِ لهُ إن صدَحْ

وعاصِ النَّصيحَ الذى لا يُبيحُ

. ؛ وِصالَ المليحِ إذا ما سمَحْ

وجُلْ فى المحالِ ولو بالمُحالِ

. ؛ ودعْ ما يُقالُ وخُذْ ما صلَحْ

..... ؛ وفارِقْ أباكَ إذا ما أباكَ

؛ ومُدَّ الشِّباكَ وصِدْ مَن سنَحْ

وصافِ الخليلَ ونافِ البَخيلَ

.. ؛ وأوْلِ الجميلَ ووالِ المِنَحْ

.. ؛ ولُذْ بالمَتابِ أمام الذَّهابِ

... ؛ فمَنْ دقَّ بابَ كريمٍ فتَحْ

فقُلتُ لهُ : بَخٍ بخٍ لرِوايتِك !! ؛ وأُفٍّ وتُفٍّ لغَوايَتِك !! ؛ فباللهِ من أىِّ الأعياصِ عِيصُك ؟!! ؛ فقد أعضَلَنى عَويصُك ؟!!

فقال : ما أُحبُّ أن أُفصِحَ عنِّى ؛ ولكِن سأُكَنِّى :

أنا أُطروفَةُ الزَّما

نِ وأُعجوبَةُ الأُمَمْ

وأنا الحُوَّلُ الذى احْـ

تالَ فى العُرْبِ والعجَمْ

غيرَ أنّى ابنُ حاجَةٍ
هاضَهُ الدَّهرُ فاهتضَمْ
؛ وأبو صِبيَـةٍ بـدَوْا
مثلَ لحْمٍ على وضَمْ
وأخو العَيْلَـةِ المُعيـ
ـلُ إذا احْتالَ لم يُلَمْ

قال الرَّاوى :

فعرفتُ حينَئِذٍ أنَّه أبو زيدٍ ذو الرِّيبِ والعَيْب ؛ ومُسوِّدُ وجْهِ الشَّيْب ؛ وساءنى عِظَمُ تمرُّدِه ؛ وقُبْحُ تورُّدِه !! ؛ فقُلتُ لهُ بلِسانِ الأنَفَة ؛ وإدلالِ المعرِفَة : ألم يأنِ لكَ يا شيخَنا : أن تُقلِعَ عنِ الخَنا ؟!!

فتضَجَّرَ وزمْجَر ؛ وتنكَّرَ وفكَّر ؛ ثم قال :

إنها ليلَةُ مِراحٍ لا تَلاح ؛ ونُهْزَةُ شُرْبِ راحٍ لا كِفاح ؛ فعَدِّ عمَّا بَدا ؛ إلى أن نتَلاقَى غَدا .

ففارَقْتُه فرَقاً من عربَدَتِه ؛ لا تعلُّقاً بعِدَتِه ؛ وبِتُّ ليلَتى لابِساً حِدادَ النَّدَم ؛ على نقلى خُطَى القدَم ؛ إلى ابنَةِ الكَرْمِ لا الكَرَم !! ؛ وعاهدتُ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى أن لا أحضُر بعدَها حانَةَ نَبَّاذ ؛ ولو أُعطيتُ مُلكَ بغداذ ؛ وأن لا أشهدَ معصَرَةَ الشَّراب ؛ ولو رُدَّ علىَّ عصرُ الشَّباب !!.

ثم إنَّنا رَحَّلْنا العِيسَ وقتَ التَّغليس ؛ وخلَّيْنا بينَ الشَّيْخَينِ أبى زيدٍ وإبليس .

.....

❁ - المَقَامَةُ الشِّيرَازِيَّة



حَكَى الحارثُ بنُ همَّام؛ قال:

مَرَرْتُ فى تَطْوافى بشيراز؛ على نادٍ يستَوقِفُ المُجْتاز؛ ولو كان على أوْفاز؛ فلم أستَطِعْ تعَدِّيه؛ ولا خطَتْ قدَمى فى تخَطِّيه؛ فعُجْتُ إليْهِ لأسْبُكَ سِرَّ جوهَرِه؛ وأنظُرَ كيفَ ثمَرُهُ من زَهَرِه؛ فإذا أهْلُهُ أفْراد؛ والعائِجُ إلَيْهِم مُفاد؛ وبينَما نحنُ فى فُكاهَةٍ أطْرَبَ منَ الأغاريد؛ وأطيَبَ من حلَبِ العَناقيد؛ إذِ احتَفَّ بِنا ذو طِمْرَين؛ قد كاد يُناهِزُ العُمْرَين؛ فحيَّا بلِسانٍ طَليق؛ وأبانَ إبانَةَ مِنطيق؛ ثُمَّ احتَبى حُبوَةَ المُنتَدين؛ وقال: اللهُمَّ اجْعَلْنا منَ المُهتَدين؛ فازْدَراهُ القومُ لطِمْرَيْه؛ ونَسوا أنَّ المرءَ بأصغَرَيْه؛ وأخَذوا يتَداعَوْنَ فصْلَ الخِطاب؛ ويعْتدُّونَ عودَهُ من الأحْطاب؛ وهوَ لا يُفيصُ بكلِمَة؛ ولا يُبينُ عن سِمَة؛ إلى أنْ سبَرَ قرائِحَهُم؛ وخبَرَ شائِلَهُم وراجِحَهُم؛ فحينَ استخْرَجَ دفائِنَهُم؛ واستَنْثَلَ كنائِنَهُم؛ قال:

يا قومُ!! لوْ علِمتُم أنَّ وراء الفِدام؛ صَفْوَ المُدام؛ لَمَا احتقَرْتُم ذا أخْلاق؛ وقُلتُم ما لَهُ من خَلاقٍ!!.

ثُمَّ فَجَّرَ من ينابيعِ الأدَبِ والنُّكَتِ النُّخَب؛ ما جلَبَ بِهِ بَدائعَ العجَب!!؛

واستَوْجَبَ أن يُكتَبَ بذَوْبِ الذَّهَب !! ؛ فلمَّا خلَبَ كُلَّ خِلْب ؛ وقلَبَ إليْهِ كلَّ قلْب ؛ تحلْحَل ؛ ليَرْحَل ؛ وتأهَّب ؛ ليَذْهَب ؛ فعلِقَتِ الجماعَةُ بذَيلِه ؛ وعاقَت مسْرَبَ سيْلِه !! ؛ وقالتْ لهُ : قد أرَيْتَنا وسْمَ قِدْحِك ؛ فخبِّرْنا عن قَيضِكَ ومُحّك ؟.

فصمَتَ صُموتَ مَن أُفحِم ؛ ثم أغْوَلَ حتى رُجِم !! .

قال الرَّاوى :

فلمَّا رأيتُ شوْبَ أبى زيدٍ ورَوْبَه ؛ وأُسلوبَهُ المألوفَ وصَوْبَه ؛ تأمَّلْتُ الشيخَ على سُهومَةِ مُحَيَّاه ؛ وسُهوكَةِ ريَّاه ؛ فإذا هوَ إيَّاه !! ؛ فكتَمْتُ سِرَّهُ كما يُكتَمُ الداءُ الدَّخيل ؛ وستَرْتُ مكرَهُ وإن لم يكُن يُخيل ؛ حتى إذا نزَعَ عن إعْوالِه ؛ وقدْ عرَفَ عُثورى على حالِه ؛ رمَقَنى بعَينِ مِضْحاك ؛ ثم طَفِقَ يُنشِدُ بلِسانِ مُتباك :

.... ؛ أستَغْفِرُ اللهَ وأعْنو لهُ
من فرَطاتٍ أثقَلَت ظَهْرِيَهْ
يا قَوْمُ كم من عاتِقٍ عانسٍ
ممدوحَةِ الأوْصافِ فى الأنديَهْ
... ؛ قتَلْتُها لا أتَّقى وارِثاً
. ؛ يَطْلُبُ منِّى قوداً أو دِيَهْ

وكُلَّمَا استَذْنَبْتُ فى قَتْلِها
أحلْتُ بالذّنبِ على الأقضيَةْ
؛ ولـم تـزَلْ نفسى فى غَيِّها
؛ وقتْلِها الأبكارَ مُستَشْرِيَةْ
حتى نَهانى الشَّيبُ لمَّا بَدا
فى مَفْرِقى عن تِلكمُ المَعصيَةْ
فلم أُرِق مُذْ شابَ فَوْدى دماً
من عاتِقٍ يوماً ولا مُصْبِيَةْ
وها أنا الآن على ما يُرى
منى ومِن حِرْفَتى المُكْدِيَةْ
أرُبُّ بِكْراً طالَ تعْنيسُها
وحجْبُها حتى عنِ الأهوِيَةْ
وهْىَ على التَّعنيسِ مخطوبَةٌ
.. ؛ كخِطبَةِ الغانِيَةِ المُغْنِيَةْ
؛ وليسَ يكْفينى لتَجْهيزِها
على الرِّضى بالدُّونِ إلا مِيَةْ

واليَدُ لا توكى على دِرْهَمِ
والأرضُ قَفْرٌ والسَّما مُصْحِيَهْ
فهلْ مُعينٌ لى على نقلِها
مصحوبَةً بالقَيْنَةِ المُلْهِيَهْ
... ؛ فيغسِل الهمَّ بصابونِهِ
والقلْبُ من أفكارِهِ المُضْنِيَهْ
. ؛ ويقْتَنى منى الثَّناءَ الذى
.. ؛ تَضُوعُ رَيَّاهُ معَ الأَدْعِيَهْ

قال الرَّاوى :

فلم يبْقَ فى الجَماعَةِ إلا من نديَت لهُ كفُّه ؛ وانْبَاعَ إليْهِ عُرْفُه ؛ فلمَّا نجَحَت بُغيَتُه ؛ وكمُلَت مِنَّته ؛ أخذَ يُثْنى عليْهِم بصالِح ؛ ويُشمِّرُ عن ساقٍ سارح ؛ فتبِعْتُهُ لأستَعْرِفَ رَبِيبَةَ خِدْرِه ؛ ومن قتَلَ فى حِدْثانِ أمرِه ؛ فكأنَّ وشْكَ قِيامى ؛ مثَّلَ لهُ مَرامى ؛ فازْدَلَفَ منى ؛ وقال : افْقَهْ عنِّى :

قتْلُ مِثلى يا صاحِ مزْجُ المُدام
؛ ليسَ قتْلى بلَهْذَمٍ أو حُسام
والتى عُنسَتْ هى البكرُ بنتُ ال
كَرْمِ لا البِكْرُ من بَناتِ الكِرام

ولتَجْهيزِها إلى الكاسِ والطّا
سِ قِيامى الذى تَرى ومُقامى
...... ؛ فتَفَهَّم ما قُلتُهُ وتَحَكَّمْ
فى التَّغاضى إن شِئتَ أو فى المَلامِ

ثُمَّ قال : أنا عِرْبيد ؛ وأنتَ رِعْديد ؛ وبيْنَنا بوْنٌ بَعيد .
ثُمَّ ودَّعَنى وانطَلَق ؛ وزوَّدَنى نظرَةً من ذى علَق .




.....

۞ـ المَقَامَةُ البَصْرِيَّة



حَكَى الحارثُ بنُ همَّامٍ ؛ قال :

أشْعِرْتُ فى بعضِ الأيَّامِ همًّا برَحَ بى استِعارُه !! ؛ ولاحَ علىَّ شِعارُه !! ؛ وكنتُ سمِعتُ أنَّ غشيانَ مجالِسِ الذِّكْر ؛ يسْرو غَواشىَ الفِكْر ؛ فلم أرَ لإطفاء ما بى منَ الجمْرَة ؛ إلاَّ قصْد الجامِعِ بالبَصرَة ؛ وكانَ إذ ذاكَ مأهولَ المسانِد ؛ مَشْفوهَ المَوارِد ؛ يُجتَنى من رِياضِهِ أزاهيرُ الكَلام ؛ ويُسمَعُ فى أرْجائِهِ صَريرُ الأقْلام ؛ فانطلَقْتُ إليْهِ غير وان ؛ ولا لاوٍ على شان ؛ فلمَّا وطِئْتُ حَصاه ؛ واستَشْرَفْتُ أقْصاه ؛ تَراءى لى ذو أطْمارٍ بالِيَة ؛ فوْقَ صخْرَةٍ عالِيَة ؛ وقد عُصِبَت بِهِ عُصَبٌ لا يُحصى عديدُهُم ؛ ولا يُنادَى وَليدُهُم ؛ فابتَدأتُ قصْدَه ؛ وتورَّدْتُ وِرْدَه ؛ ورجَوْتُ أن أجِدَ شِفائى عندَه ؛ ولم أزَل أتنقَّلُ فى المَراكِز ؛ وأُغْضِى للأكِزِ والواكِز ؛ إلى أن جلسْتُ تُجاهَه ؛ بحَيْثُ أمِنْتُ اشْتِباهَه ؛ فإذا هوَ شيخُنا السَّروجىُّ لا ريْبَ فيه ؛ ولا لَبْسَ يُخْفيه !! ؛ فانْسَرى بمَرْآهُ همِّى ؛ وارْفَضَّت كتيبَةُ غمِّى ؛ وحينَ رآنى ؛ وبصُرَ بمكانى ؛ قال :

يَا أهْلَ البصرَةِ !! ؛ رعاكُمُ اللهُ ووقاكُم ؛ وقوَّى تُقاكُم ؛ فما أضْوَعَ ريَّاكُم !! ؛ وأفضلَ مَزاياكُم !! بلَدُكُم أوْفَى البِلادِ طُهرَةً ؛ وأزْكاها فِطرَةً ؛ وأفسَحُه رُقعَةً ؛ وأمرَعُها نُجعَةً ؛ وأقوَمُها قِبلَةً ؛ وأوسَعُها دِجلَةً ؛ وأكثرُها نهَراً

ونَخلَةً ؛ وأحسَنُها تَفْصيلاً وجُملَةً ؛ دِهْليزُ البلَدِ الحَرام ؛ وقُبالَةُ البابِ والمَقام ؛ وأحدُ جَناحَى الدُّنيا ؛ والمِصْرُ المُؤسَّسُ على التَّقْوى ؛ لم يتدنَّس ببُيوتِ النِّيران ؛ ولا طِيفَ فيهِ بالأوْثان ؛ ولا سُجِدَ على أديمِهِ لغَيرِ الرَّحْمَن ؛ ذو المَشاهِدِ المَشْهودَة ؛ والمساجِدِ المقصودَة ؛ والمَعالِمِ المشْهورَة ؛ والمقابِرِ المَزورَة ؛ والآثارِ المَحْمودَة ؛ والخُطَطِ المَحْدودَة ؛ بِهِ تلْتَقى الفُلْكُ والرِّكاب ؛ والحيتانُ والضِّباب ؛ والحادِى والمَلاَّح ؛ والقانصُ والفلاَّح ؛ والناشِبُ والرَّامِح ؛ والسَّارِحُ والسَّابِح ؛ ولهُ آيةُ المدِّ الفائِض ؛ والجَزْرِ الغائِض ؛ وأما أنتم فممَّنْ لا يختلِفُ فى خَصائِصِهِم اثنان ؛ ولا يُنكِرُها ذو شَنآن ؛ دَهْماؤكُم أطْوَعُ رَعِيَّةٍ لسُلْطان ؛ وأشكَرُهُم لإحْسان ؛ وزاهِدكُم أوْرَعُ الخليقَة ؛ وأحسنُهُم طَريقَةً على الحَقيقَة ؛ وعالِمُكُم علاَّمَةُ كُلِّ زمان ؛ والحُجَّةُ البالِغَةُ فى كُلِّ أوان ؛ ومنكُم منِ استنبَطَ عِلمَ النَّحْوِ ووضَعَه ؛ والذى ابتدَعَ ميزانَ الشِّعْرِ واخترَعَه ؛ وما من فَخْرٍ إلاَّ ولَكُم فيهِ اليَدُ الطُّولى ؛ والقِدْحُ المُعَلَّى ؛ ولا صيت إلا وأنتُم أحَقُّ بهِ وأوْلى ؛ ثُمَّ إنكُم أكثرُ أهلِ مِصرٍ مؤذِّنين ؛ وأحسَنُهُم فى النُّسكِ قَوانين ؛ وبكُمُ اقتُدِىَ فى التَّعريف ؛ وعُرِفَ التَّسحيرُ فى الشَّهرِ الشَّريف ؛ ولكُم إذا قرُتِ المضاجِعُ ؛ وهجَعَ الهاجِعُ ؛ تَذْكارٌ يوقِظُ النَّائِم ؛ ويؤنِسُ القائِم ؛ وما ابتسَمَ ثغْرُ فجر ؛ ولا بزَغَ نورُهُ فى بَرْدٍ ولا حَر ؛ إلا ولتأذينِكُم بالأسْحار ؛ دُوِىٌّ كدوِىِّ الرِّيحِ فى البِحار ؛ وبهذا صدَعَ عنكُمُ النَّقْلُ ؛ وأخبرَ النَّبِىُّ - عليهِ السَّلامُ - من قبلُ ؛ وبيَّنَ أنَّ دُوِيَّكُم بالأسْحَار ؛ كدُوِىِّ النَّحْلِ فى القِفار ؛ فشرَفاً لكُم ببِشارَةِ المُصطَفى !! ؛ وواهاً لمِصرِكُم

وإن كانَ قد عفَا !! ؛ ولم يبْقَ منهُ إلا شَفا !! ؛ ثم إنهُ خزَنَ لسانَهُ ؛ وخطَمَ بيانَهُ ؛ حتى خُدِجَ بالأبْصَار ؛ وقُرِفَ بالإقصار ؛ ووُسِمَ بالاستِقْصار ؛ فتنفَّسَ تنفُّسَ مَن قِيدَ لقَود ؛ أو ضَبَثَت بهِ براثِنُ أسَد !! .

ثُمَّ قال :

أما أنتُم يَا أهلَ البَصرةِ !! ؛ فما منْكُم إلا العَلَمُ المعروف ؛ ومن لهُ المعرفَةُ والمعروف ؛ وأما أنا !! ؛ فمَن عرفَني فأنا ذاك ؛ وشرُّ المَعارِفِ من آذاك ؛ ومن لم يُثبِت عِرْفَتي ؛ فساصْدُقُهُ صِفَتي ؛ أنا الذي أنجدَ وأتهَم ؛ وأيْمَنَ وأشأم ؛ وأصْحرَ وأبحَر ؛ وأدْلَجَ وأسْحَر ؛ نشأتُ بسَروج ؛ ورَبيتُ على السُّروج ؛ ثم ولَجْتُ المَضايق ؛ وفتحْتُ المغالِق ؛ وشهِدْتُ المَعارك ؛ وألَنْتُ العَرائِك ؛ واقتَدتُ الشَّوامِس ؛ وأرْغَمْتُ المَعاطِس ؛ وأذَبْتُ الجَوامِد ؛ وأمَعْتُ الجَلامِد ؛ سَلوا عنِّي المشارِقَ والمَغارِب ؛ والمَناسِمَ والغَوارِب ؛ والمَحافِلَ والجَحافِل ؛ والقَبائِلَ والقَنابِل ؛ واستَوْضِحوني من نقلَةِ الأخبار ؛ ورُواةِ الأسمار ؛ وحُداةِ الرُّكْبان ؛ وحُذّاقِ الكُهّان ؛ لتَعلَموا كم فجٍّ سلَكْتُ ؛ وحِجابٍ هتكْتُ ؛ ومَهلَكةٍ اقتَحمْتُ ؛ ومَلحَمَةٍ ألْحَمْتُ ؛ وكم ألْبابٍ خدَعْتُ ؛ وبِدَعٍ ابتَدَعْتُ ؛ وفُرَصٍ اختلَسْتُ ؛ وأُسْدٍ افترَسْتُ ؛ وكم مُحَلِّقٍ غادَرْتُهُ لَقَى ؛ وكامِنٍ استَخرَجْتُهُ بالرُّقَى ؛ وحجَرٍ شحذْتُهُ حتى انصدَع ؛ واستَنْبَطْتُ زُلالَهُ بالخُدَع ؛ ولكِن فرَطَ ما فرَطَ والغُصْنُ رَطيب ؛ والفَوْدُ غِرْبيب ؛ وبُرْدُ الشَّبابِ قَشيب ؛ فأمَّا الآنَ وقدِ استشَنَّ الأديم ؛ وتأوَّدَ القَويم ؛ واستَنارَ اللَّيلُ البَهيم ؛ فليسَ إلا النَّدَمُ إن نفَع ؛ وترْقِيعُ الخَرْقِ الذي قد اتَّسَع ؛ وكُنْتُ رُوِّيتُ منَ الأخبارِ

المُسندَة ؛ والآثارِ المُعتَمَدة : أنَّ لكُم منَ اللهِ تعالى فى كُلِّ يومٍ نَظرَة ؛ وأنَّ سلاحَ الناسِ كُلِّهِم الحَديد ؛ وسِلاحَكُمُ الأدْعِيَةُ والتَّوْحيد ؛ فقصَدْتُكم أُنضِى الرَّواحِل ؛ وأطْوى المَراحِل ؛ حتى قُمْتُ هذا المَقامَ لَديْكُم ؛ ولا مَنَّ لى عليكُم ؛ إذ ما سعَيْتُ إلا فى حاجَتى ؛ ولا تعِبْتُ إلا لراحَتى ؛ ولسْتُ أبْغِى أعطِيَتَكُم ؛ بل أستَدْعى أدعِيتَكُم ؛ ولا أسْألُكُم أموالَكُم ؛ بل أستنزِلُ سُؤالَكُم ؛ فادْعوا إلى اللهِ بتوْفيقى للمَتاب ؛ والإعدادِ للمآب ؛ فإنهُ رفيعُ الدَّرَجات ؛ مُجيبُ الدَّعَوات ؛ وهوَ الذى يقبلُ التَّوبَةَ عن عِبادِهِ ويعفو عنِ السَّيِّئاتِ .

ثُمَّ أنشدَ :

أستغْفِرُ اللهَ منْ ذُنوبٍ ....
.. ؛ أفرَطْتُ فيهِنَّ واعتَدَيْتُ
كم خُضْتُ بَحْرَ الضَّلالِ جهْلاً
ورُحتُ فى الغَىِّ واغْتَدَيْتُ
وكم أطَعْتُ الهَوى اغْتِراراً
واختَلَتُ واغْتَلْتُ وافْتَرَيْتُ
وكم خلَعْتُ العِذارَ رَكْضاً
.. ؛ إلى المَعاصى وما ونَيْتُ
وكم تَناهَيْتُ فى التَّخطِّى
؛ إلى الخطايا وما انتهيْتُ

..؛ فلَيتَنى كُنْتُ قبل هذا
نَسْياً ولم أجْنِ ما جنَيْتُ
فالموتُ للمُجْرِمين خيرٌ
من المساعى التى سَعَيْتُ
.؛ يا رَبُّ عفْواً فأنتَ أهلٌ
؛ للعَفْوِ عنِّى وإنْ عصَيْتُ

قال الرَّاوى :

فطفِقَتِ الجَماعَةُ تُمِدُّهُ بالدُّعاء ؛ وهوَ يُقلِّبُ وجْهَهُ فى السَّماء ؛ إلى أن دمِعَت أجفانُه ؛ وبَدا رَجفانُه ؛ فصاحَ : اللهُ أكبرُ !! ؛ بانَت أمارَةُ الاستِجابَة ؛ وانْجابَت غِشاوَةُ الاستِرابَة ؛ فجُزيتُم يا أهلَ البُصَيْرَة ؛ جَزاءَ من هدَى منَ الحَيرَة !! .

فلم يَبْقَ منَ القوْمِ إلا من سُرَّ لسُرورِه ؛ ورضخَ لهُ بمَيْسورِه ؛ فقَبِلَ عفْوَ برِّهِم ؛ وأقبلَ يُغْرِقُ فى شُكرِهِم ؛ ثم انحدَرَ منَ الصَّخرَة ؛ يؤمُّ شاطئَ البَصرَة ؛ واعتَقَبْتُهُ إلى حيثُ تخالَيْنا ؛ وأمِنَّا التَّجسُّسَ والتَّحسُّسَ علَيْنا ؛ فقُلْتُ لهُ : لقد أغْرَبْتَ فى هذِهِ النَّوبَة !! ؛ فما رأيُكَ فى التَّوبَة ؟!!

فقال :

أُقسِمُ بعَلاَّمِ الخَفيَّات ؛ وغفَّارِ الخطيَّات ؛ إنَّ شأنى لَعُجاب !! ؛ وإنَّ دُعاء قومِكَ لَمُجاب !!

فقُلتُ : زِدْنى إفْصاحاً ؛ زادَكَ اللهُ صَلاحاً !!

فقال:

وأبيكَ لقد قُمتُ فيهِم مَقامَ المُريبِ الخادِع ؛ ثم انقلَبْتُ منهُم بقَلْبِ المُنيبِ الخاشِع !! ؛ فطُوبى لِمَن صغَت قُلوبُهُم إليْه !! ؛ وويْلٌ لِمَنْ باتوا يدْعونَ عليْه !!

ثم ودَّعَنى وانطلَق ؛ وأوْدَعَنى القلَق !! ؛ فلمْ أزَلْ أُعانى لأجْلِهِ الفِكَر ؛ وأتشوَّفُ الى خِبرَةِ ما ذكر !! ؛ وكُلَّما استَنشَيْتُ خبرَهُ منَ الرُّكْبان ؛ وجَوَّابَةِ البُلْدان ؛ كُنْتُ كمَن حاورَ عجمَاء ؛ أو نادَى صخْرَةً صمَّاء !! ؛ إلى أن لَقيتُ بعْدَ تَراخى الأمَد ؛ وتَراقى الكَمَد ؛ رَكْباً قافِلينَ من سَفَر ؛ فقُلتُ : هل من مُغرِّبَة خَبَر ؟

فقالوا :

إنَّ عندَنا لخَبراً أغرَبَ منَ العَنقاء ؛ وأعْجَبَ من نظَرِ الزَّرْقاء !!

فسألتُهُم إيضاحَ ما قالوا ؟!! ؛ وأن يَكيلوا بما اكْتالوا ؟!!

فحَكَوْا أنهم ألَمُّوا بسَروج ؛ بَعْدَ أنْ فارقَها العُلُوج ؛ فرأوا أبا زَيْدِها المعْروف ؛ قد لبِسَ الصُّوف ؛ وأمَّ الصُّفُوف ؛ وصارَ بها الزَّاهِد الموصوف !!

فقُلتُ : أتعْنونَ ذا المَقامات ؟!!

فقالوا : إنهُ الآنَ ذو الكَرامات !!

فحفَّزَنى إليهِ النِّزاع ؛ ورأيتُها فُرصَةً لا تُضاعُ !! ؛ فارْتَحلْتُ رِحلَةَ المُغِدِّ ؛ وسِرْتُ نحوَهُ سيرَ المُجِدِّ ؛ حتى حللْتُ بمسْجِدِه ؛ وقرارَةِ مُتعبَّدِه ؛ فإذا هوَ قد نبَذَ صُحبَةَ أصْحابِه ؛ وانتصَبَ فى مِحْرابِه ؛ وهو ذو عَباءَةٍ مَخلولَة ؛ وشَمْلَةٍ

موصولَة !! ؛ فهيبَتُهُ مَهابَةَ من ولَجَ على الأُسُود ؛ والْفِيَتُهُ ممَّنْ سيماهُم في وُجوهِهِم من أثَرِ السُّجُود !! ؛ ولمَّا فرَغَ من سُبْحتِه ؛ حيَّاني بمُسبِّحَتِه ؛ من غيرِ أن نغَمَ بحديث ؛ ولا استخْبرَ عن قديمٍ ولا حَديث ؛ ثم أقْبلَ على أوْرادِه ؛ وتركَني أعجَبُ من اجتهادِه ؛ وأغبطُ مَن يَهدى اللهُ من عِبادِه !! ؛ ولم يزَل في قُنوتٍ وخُشوع ؛ وسُجُودٍ ورُكُوع ؛ وإخْباتٍ وخُضوع ؛ إلى أن أكْمَلَ إقامَة الخَمْس ؛ وصارَ اليومُ أمْس ؛ فحينئذٍ الْكفأ بي إلى بيتِه ؛ وأسْهَمَني في قُرْصِهِ وزَيْتِه ؛ ثم نهضَ إلى مُصلاَّه ؛ وتخلَّى بمُناجاةِ مولاه ؛ حتى إذا التمَعَ الفجر ؛ وحُقَّ للمُتهَجِّدِ الأجْر ؛ عقَّبَ تهجُّدَهُ بالتَّسْبيح ؛ ثم اضطَجَعَ ضِجْعَةَ المُستريح ؛ وجعلَ يُرجِّعُ بصوتٍ فَصيح :

خلِّ ادِّكارَ الأرْبُعِ
والمعْهَدِ المُرتَبَعِ
والظَّاعِنِ المُودِّعِ
؛ وعـدِّ عَنْهُ ودَعِ

وانْدُبْ زَماناً سلَفَا
سوَّدْتَ فيهِ الصُّحُفَا
ولم تـزَلْ مُعتكِفا
على القبيحِ الشَّنِعِ

كم ليلَةٍ أودَعْتُها
مآثِماً أبدَعْتُها
لشَهوَةٍ أطَعْتُها
فى مرْقَدٍ ومَضْجَعِ

وكم خُطىً حثَثْتُها
فى خِزْيَةٍ أحْدَثْتُها
.. ؛وتوبَةٍ نكَثْتُها
. ؛لَملْعَبٍ ومرْتَعِ

وكم تجرُّأتُ على
ربِّ السَّمَواتِ العُلى
. ؛ولم تُراقِبْهُ ولا
صدَقْتَ فى ما تدَّعى

وكم غمَصْتَ بِرَّهُ
وكم أمِنْتَ مكْرَهُ
وكم نبَذْتَ أمرَهُ
نَبْذَ الحِذا المُرقَّعِ

وكم ركَضْتُ فى اللَّعِبْ
وفُهْتُ عَمْداً بالكَذِبْ

.. ؛ولم تُراعِ ما يجِبْ
..... ؛من عَهْدِهِ المُتَّبَع

فالبسْ شِعارَ النَّدم
واسكُبْ شآبيبَ الدَّمِ
.. ؛قَبْلَ زَوالِ القَدَمِ
وقَبلَ سُوءِ المصْرَعِ

واخضَعْ خُضوعَ المُعترِفْ
.. ؛ولُذْ مَلاذَ المُقترِفْ
واعْصِ هَواكَ وانحرِفْ
. ؛عَنْهُ انحِرافَ المُقلِعِ

إلامَ تَسْهُو وتَنِى
ومُعظَمُ العُمرِ فَنِى
فى ما يضُرُّ المُقْتَنِى
؛ولسْتَ بالمُرتَدِعِ

أمَا ترَى الشَّيبَ وخَطْ
وخَطَّ فى الرَّأسِ خُطَطْ
ومن يلُحْ وخْطُ الشَّمَطْ
..... ؛بفَودِهِ فقد نُعِى

وَيْحَكِ يا نفسُ احْرِصى
على ارْتِيادِ المَخلَصِ
وطاوِعى وأخْلِصى .
واستمِعى النُّصْحَ وعِى

واعتَبِرِى بمَنْ مضى
من القُرُونِ وانقَضى
واخْشَى مُفاجاةَ القَضا
وحاذِرى أن تُخْدَعى

وانتَهِجى سُبُلَ الهُدى
وادَّكِرى وَشْكَ الرَّدَى
وأنَّ مثْواكِ غدا ....
فى قَعْرِ لَحْدٍ بَلْقَعِ

آهاً لهُ بَيْتِ البِلَى
والمنزِلِ القفْرِ الخَلا
ومورِدِ السَّفْرِ الأُلى
واللاَّحِقِ المُتَّبِعِ

بيتٌ يُرَى مَن أودِعَهْ
قد ضمَّهُ واستودِعَهْ

بَعْدَ الفَضَاء والسَّعَةْ
... ؛ قِيدُ ثلاثِ أذْرُعِ

لا فَرْقَ أن يَحُلَّهُ
.. ؛ داهِيَةٌ أو أبْلَهُ
أو مُعْسِرٌ أو من لهُ
مُلْكٌ كمُلْكِ تُبَّعِ

وبَعْدَهُ العَرْضُ الذى
يحْوى الحَيِىَّ والبَذِى
والُمبتَدى والُمحتَذِى
ومَن رعى ومن رُعى

فَيَا مَفَازَ المُتَّقِى
ورِبْحَ عبْدٍ قد وُقِى
سُوءَ الحِسابِ الُموبِقِ
؛ وهوْلَ يومِ الفزَعِ

ويا خَسارَ مَن بغَى
ومن تعدَّى وطَغى
وشَبَّ نيرانَ الوَغَى
لَمطْعَمٍ أو مطْمَعِ

يا مَن عَليْهِ المُتَّكَلْ
قدْ زادَ ما بى من وَجَلْ
لِما اجتَرَحْتُ من زَلَلْ
؛فى عُمْرىَ المُضَيَّع

فَاغْفِرْ لعَبْدٍ مُجتَرِمْ
وارْحَم بُكاهُ المُنْسَجِمْ
فأنتَ أوْلى من رَحِمْ
؛ وخيْرُ مَدْعُوٍّ دُعِى

قال الحارثُ بنُ همَّامٍ:

فلمْ يزَل يُرَدِّدُها بصوتٍ رقيق ؛ ويصِلُها بزَفيرٍ وشَهيق ؛ حتى بكيتُ لبُكاء عينيه ؛ كَما كُنتُ من قبلُ أبكى عليْه !! ؛ ثُمَّ برزَ إلى مسجِدِه ؛ بوُضوءِ تهجُّدِه ؛ فانطلَقتُ رِدْفَه ؛ وصلَّيتُ مع مَن صلَّى خلفه ؛ ولمَّا انفَضَّ مَن حَضَر ؛ وتفرَّقُوا شغَرَ بغَر ؛ أخذَ يُهَيْنِمُ بدَرْسه ؛ ويسْبِكُ يومَهُ فى قالِبِ أمْسِه ؛ وفى ضِمْنِ ذلِكَ يُرِنُّ إرْنانَ الرَّقوب ؛ ويبكى ولا بُكاءَ يعقوب ؛ حتى استَبَنْتُ أنهُ التحقَ بالأفْراد ؛ وأُشرِبَ قلبُهُ هوى الانفِراد ؛ فأخطَرْتُ بقَلْبى عَزْمَةَ الارتِحال ؛ وتخْلِيَتَهُ والتَّخلِّى بتِلكَ الحال ؛ فكأنهُ تفرَّسَ ما نويْتُ ؛ أو كُوشِفَ بما أخْفَيْتُ ؛ فزفَرَ زَفيرَ الأوَّاه ؛ ثم قرأ:

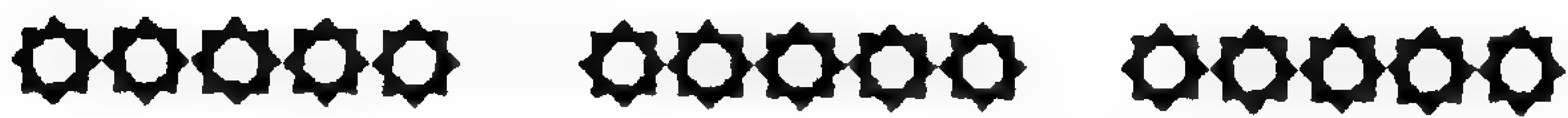
﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾

فاسْتَجَلْتُ عندَ ذلِكَ بصِدْقِ المُحَدِّثِين ؛ وأيقَنتُ أنَّ فى الأُمَّةِ مُحَـدِّثِين ؛ ثم دَنَوْتُ إليْهِ كما يدنو المُصافِحُ ؛ وقُلتُ : أَوْصِنى أيُّها العَبْدُ النَّاصِحُ !!

فقال :

اجعَلِ الموتَ نُصْبَ عينِك ؛ وهذا فِراقُ بينى وبينِك .

فودَّعتُهُ وعبَراتى يتحدَّرْنَ منَ المآقى ؛ وزَفَراتى يتصَعَّدْنَ منَ التَّراقى ؛ وكانت هذِهِ خاتِمَةُ التَّلاقى .





ـ فَائِدَة :

.....

۞ـ التَّعْقِيدُ فِى مَقَامَاتِ الحَرِيرِىِّ



قَالَ المُؤَرِّخُ الأَدَبِىُّ الكَبِير الدُّكْتُور شوقى ضيف « ت سنة ١٤٢٦هـ » فى كتابِهِ « الفن ومذاهبه فى النثر العربىِّ » ؛ (صـ: ٢٩٧ ـ ٣٠٤):

(

ـ التَّعْقِيدُ فِى مَقَامَاتِ الحَرِيرِىِّ

تُعَدُّ مقامات الحريرىِّ أهم نموذجٍ أدبىٍّ ظهر فى العصر العبَّاسىِّ بعد نماذج أبى العلاء ؛ وقد أخذ الناس يشيدون بها مُنْذُ ظهورها ؛ وَعَبَّرُوا عن هذه الإشادة بعباراتٍ مُختلفةٍ ؛ لعلَّ من أطرفها ما جاء عن الزمخشرىِّ ـ وكان يعيش فى عصر الحريرىِّ تقريباً ـ ؛ إذ يقول (١) :

أُقسمُ بالله وآياتهْ . ؛
ومِشْعَرِ الحجِّ وميقاتهْ

(١) ـ « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى / طبع دار الكتب : ٥/ ٢٢٥ .

إنَّ الحريرىَّ حَرِىٌّ بأن

نكتب بالتِّبْرِ مقاماتهْ

أما ياقوت ؛ فيقول : إن الحريرىَّ « أبَرَّ بكتاب المقامات على الأوائل ؛ وأعجز الأواخر !! » .

ويقول أيضاً :

« لقد وافق كتاب المقامات للحريرىِّ من السَّعْدِ ما لم يُوافق مثله كتاب !! ؛ فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ؛ واتسعت له الألفاظ ؛ وانقادت له البراعة... ؛ حتى لو ادَّعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره ؛ ولا من يَرُدُّ قوله ؛ ولا يأتى بما يُقاربها ؛ فضلاً عن أن يأتى بمثلها ؛ وقد رُزِقَت - مع ذلك - من الشُّهرة وبُعْدِ الصيت ؛ والاتفاق على استحسانها من المُوافق والمُخالف ما استحقَّت وأكثر . » .

ويقول ابن خلِّكان : إن الحريرىَّ « رُزِقَ الحظوة التامة بعمل المقامات . » .

وبينما يشيد هؤلاء بعمل الحريرىِّ فى مقاماته ؛ نجد آخرين يحَُطُّون من هذا العمل ؛ وعلى رأسهم ابن الطقطقىِّ ؛ إذ زعم أن المقامات البديعيَّة والحريريَّة تُصغِّر الهمَّة ؛ لأنها بُنِيت على السُّؤال والاستجداء والتحيُّل القبيح .

والطريف أن الحريرىَّ أشار فى مُقدِّمة مقاماته : إلى أن سيغض منها بعض الناس ؛ إذ يقول :

« إنى وإن أغمض لى الفَطِنُ المُتغابى ؛ ونصح عنِّى المُحبُّ المُحابى : لا أكاد أخلص من غمر جاهل ؛ أو ذى غمر ـ حقد ـ مُتجاهل : يضع معنى لهذا الوضع ؛ ويُندِّد بأنه من مناهى الشَّرع .

ومن نقد الأشياء بعين المعقول ؛ وأنعم النَّظَر فى مبانى الأُصُول : نظم هذه المقامات ؛ فى سلك الإفادات ؛ وسلكها مسلك الموضوعات ؛ عن العجماوات والجمادات ؛ ولم يسمع بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات . » .

واوضحٌ أن الحريرىَّ يحتجُّ على صواب عمله بكتاب « كليلة ودمنة » ؛ وأمثاله من القصص التى بُنِيت على الحيوان ؛ فإن أحداً لم يَذُمَّها لما فيها من حِكَمٍ وآداب ؛ ولكن هل يُفْهَمُ من ذلك أنه قصد إلى بَثِّ معانٍ أخلاقيَّةٍ فى مقاماته؟

إنَّ من يقرأها قلَّما يرى شيئاً من ذلك ؛ إلا فى « المقامة الدمشقيَّة » و « المقامة الساويَّة » ؛ ويظهر أنه كان مشغولاً عن هذه المعانى بتدبيج أساليبه وتحبيرها .

وتبلغ عِدَّة مقاماته خمسين ؛ وهى كمقامات البديع : كُلُّهَا حكاياتٌ دراميَّةٌ تفيض بالحركة التمثيليَّة ؛ وإن كان الحريرىُّ لم يقصد بها إلى القصص من حيث هو ؛ وإنما قصد بها إلى تعليم الناشئة الأساليب الأدبيَّة ؛ وقد بناها على الرِّواية ؛ إذ يروى الحارث بن همَّام أحاديثها .

ويقول ابن خلِّكان :

« إنه عنى بهذا الحارث : نفسه ؛ أخذاً من قوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ : ﴿كُلُّكُم حَارِث ؛ وكُلُّكُم هَمَّام ﴾ ؛ والحارث : الكاسب ؛ والهَمَّام : كثير الاهتمام . » .

أما الأديب المُتسوِّل الذى تُرْوَى عنه المقامات ؛ والذى يُقابل عند الحريرىّ أبا الفتح الإسكندرىّ عند بديع الزَّمان : فهو أبو زيد السروجىُّ ؛ وهو من أهل الكُدْيَة الذين احترفوا التسوُّل ؛ مُتَّخذين وسيلتهم إلى ذلك الحلب بصوغ اللسان ؛ وسحر البيان .

وَصَوَّرَ الحريرىُّ فى « المقامة السَّاسانيَّة » دواعى هذا التسول ودوافعه ؛ ويزعم ياقوت ؛ وكذلك ابن خلِّكان : أن شخصيَّة أبى زيد : شخصيَّةٌ حقيقيَّةٌ ؛ ولكن الباحثين المُحْدَثين يتَّهِمُون ذلك ويردُّونه ؛ لأنه لا مُبَرِّرَ له ؛ وما أبو زيد إلا كأبى الفتح الإسكندرىّ صاحب بديع الزمان ؛ بل كأىِّ بطلٍ لقصَّةٍ أخرى ؛ ليس من الضرورىّ أن يكون مُعبِّراً عن حقيقةٍ خلفه .

والمعروف أن الحريرىَّ استهلَّ كتابة مقاماته بالمقامة الثامنة والأربعين ؛ وهى المُسمَّاة باسم « المقامة الحراميَّة » ؛ ثم أخذ فى كتابة بقيَّة المقامات ؛ وقد بدأ فى هذا العمل عام [٤٩٥ هـ] ؛ وانتهى منه عام [٥٠٤هـ] ؛ وأقرَّ فى مُقدِّمتها بأن الذى أشار عليه بكتابتها شخصٌ : « إشارته حُكْم ؛ وطاعته غُنْم » ؛ وهو السياسىُّ الفارسىُّ المشهور أنوشروان بن خالد ؛ الذى كان وزيراً تحت إمرة الخليفة المُسترشد بالله ؛ والسُّلطان مسعود السلجوقىِّ .

ورأى ابن خلّكان على نُسْخَةٍ من المقامات كتبها الحريرىُّ نفسه : أنه صنّفها لوزيرٍ آخرٍ للمُسترشد يُسمَّى ابن صدقة ؛ فَشَكٌّ فى الرِّواية الأُولى ؛ التى تذهب إلى أن أنوشروان بن خالد هو الذى أشار عليه بها ؛ ولكن من يدرى؟ ربما كانت المسألة لا تزيد على أن الحريرىَّ كتب نُسخةً ؛ وأهداها إلى ابن صدقة .

ويُقال : إن الحريرىَّ كتب خطّهُ على سبعمائة نُسخةٍ من مقاماته قُرِئت عليه ؛ وأكبر الظنِّ أن اهتمامه بها على هذا النحو ؛ هو الذى حال بينها وبين البتر والحذف والتغيير ؛ ولذلك كانت مقاماته من هذه الوجهة : أتم وأطرف من مقامات البديع التى تبدو مبتورة فى كثيرٍ من الأحيان .

ولعلَّ أهم جانبٍ تفترق به مقامات الحريرىِّ من مقامات بديع الزَّمان : هو أنها كُتِبَت فى ظلال مذهب التصنُّع وعُقَده ؛ بينما كُتِبَت مقامات البديع فى ظلال مذهب التصنيع وزُخْرُفه ؛ وليس معنى ذلك أن الحريرىَّ لم يبن مقاماته على السجع ؛ ولا على وشى البديع ؛ بل لقد بناها على أساس هذه المواد ؛ ولكنه أخرجها فى صُورةٍ جديدةٍ ؛ هى صورة مذهب التصنُّع وما يمتاز به من تصعيب الأداء : إما بجلب أشياء غريبة عن دوائر الفنِّ من حيث هو ؛ وإما بتعقيد ما يندمج فى هذه الدوائر من جناسٍ وغير جناس ؛ وإما باستحداث طُرُقٍ جديدةٍ ؛ كالطريقة التى قابلتنا فى رسائله ؛ إذ وجدناه يبنى بعضها على حرفٍ واحدٍ ؛ ومن يرجع إلى مُقدِّمة مقامات الحريرىِّ ؛ يجده يقول فيها :

إنها تحتوى على « ما وشَّحتها به من الآيات ؛ ومحاسن الكنايات ؛ ورصَّعته فيها من الأمثال العربيَّة ؛ واللطائف الأدبيَّة ؛ والأحاجى النحويَّة ؛ والفتاوى اللُّغويَّة ؛ والرَّسائل المُبتكرة ؛ والخُطب المحُبَّرة . » .

وهذا نفسه الذى يجعلنا نقول :

إنَّ الحريرىَّ عَقَّدَ أسلُوب الكتابة فى مقاماته ؛ فهو يعترف مُنْذُ السُّطُور الأُولى فيها بأنه سيُوشِّحُها بالآيات القُرآنيَّة ؛ وكان هذا التوشيح إحدى سمات أصحاب التصنُّع ؛ وهو لا شَكَّ مقصدٌ جميلٌ فى ذاته ؛ ولكنه يقترن بأشياء أُخرى تتَّصل بتصعيب الأداء وتعقيده ؛ ولعلَّ أول ما يُلاحظ من ذلك هو الكنايات التى يُشير إليها الحريرىُّ ؛ وإنها لتُحيل كثيراً من جوانب مقاماته إلى ما يُشبه الألغاز ؛ وارجع إلى المقامة التاسعة عشرة المُلقَّبة بالمقامة النصيبيَّة ؛ تجده يُكثر من الكنايات على النَّحو المُبْعِد فى الإغراب ؛ إذ يُكنَّى عن الموت بأبى يحيى ؛ وعن الجُوع بأبى عمرة ؛ وعن الخوان بأبى جامع ؛ وعن الخُبز الحوارىِّ بأبى نُعَيْم ؛ وعن الجدى بأبى حبيب ؛ وعن الخلِّ بأبى ثقيف ؛ وعن المِلْح بأبى عون ؛ وعن البقل بأبى جميل ؛ وعن السَّكْبَاج بأُمِّ القُرى ؛ وعن الهريسة بأم جابر ؛ وعن الفالوذج بأبى العلاء ؛ وعن الطست والإبريق بالمرجفين !! .

وهو حَقّاً لا يُكثر فى مقاماته الأُخرى من هذه الكنايات ؛ ولكنها على كُلِّ حالٍ موجودة فى جوانبٍ كثيرةٍ منها ؛ وهو كما يُوشِّحُ مقاماته بهذه الكنايات

كى يُعقِّد أُسلوبها ؛ نراه يُرَصِّعُهَا - كما يقول فى المُقدِّمة - بالأمثال ؛ على نحو ما نجد فى ((المقامة الوبريَّة)) ؛ وقد قال : إنه وضع فى المقامة الحجريَّة بضعة عشر مثلاً .

وكما عَنِىَ بالأمثال ؛ عَنِىَ بالحِكَم ؛ على نحو ما نجد فى ((المقامة القهقريَّة)) ؛ أما الأحاجى النَّحْويَّة ؛ فقد خَصَّصَ لها المقامة المُسمَّاة بـ ((المقامة النحويَّة)) إذ عرض فيها طائفةً من أحاجى النحو ومشاكله .

وكما عَنِىَ بأن يُخَصِّصَ للنحو مقامة ؛ كذلك عَنِىَ بأن يُخَصِّصَ للفقه مقامةً سمَّاها ((المقامة الطيبيَّة)) : ذكر فيها مائة مسألةٍ فقهيَّةٍ .

أرأيت كيف تطور الفنُّ فى النثر العربىِّ ؛ وأنه أصبح يعتمد على أشياء لم نكن نألفها عند الكُتَّاب قديمًا ؟!! ؛ فإذا الحريرىُّ يسلك فى مقاماته مسائل النحو والفقه ؛ كما يسلك فيها الكنايات والأمثال ؛ وكل ذلك ليُقَدِّم لمعاصريه طرائفه الجديدة .

وهو لا يقف عند ذلك ؛ إذ نراه يعمد - كما يقول فى مُقدِّمته - : إلى الفتاوى اللُّغويَّة ؛ من ذكر بعض الاشتقاقات والأبنية الغريبة ؛ ولعلَّ ذلك ما جعل ابن خلِّكان يقول : إنها ((اشتملت على كثيرٍ من كلام العرب من لُغاتها)) ؛ وشكا الشريشىُّ شارحها فى مُقدِّمته من هذا الجانب فيها وصعوبته !! ؛ وما من ريبٍ فى أن ذلك يَدُلُّنا على أن الحريرىَّ كان يبحث عن وسائلٍ جديدةٍ يُوشِّى بها عمله ؛ ولكنه حين اتجه هذا الاتجاه : ضَلَّ سبيله ؛ فوقع فى هذه الطُّرُق الغريبة : من التصنُّع لشوارد اللُّغة ؛ أو شوارد الأمثال ؛ أو مسائل

النحو ؛ أو مسائل الفقه ؛ أو غرائب الكنايات ؛ كأن اللغة العربيَّة قد أجدبت ولم تَعُد تستطيع أن تُقدِّم من زخارف التعبير سوى هذه الطُّرُق المُلتوية المُعقَّدة ؛ التى لا تتصل بالفنِّ ولا بأىِّ زُخْرُفٍ من زخارفه ؛ إلا إذا جلعنا التعقيد من حيث هو زُخرفاً وفنَّاً يُقصد لذاته .

ويُشير الحريرىُّ - فى مُقدِّمة مقاماته - إلى رسائل مُبتكرة وخُطب مُحبَّرة ؛ وإذا ذهبنا نبحث عن هذه الرسائل والخُطب لنرى ما فيها من طرافةٍ يُدِلُّ بها الحريرىُّ : وجدنا هذه الطرافة تستقر فى صُورٍ مُعقَّدةٍ ؛ بل قُل : فى صُورٍ مُلتويةٍ ؛ إذ مضى يُؤلِّف رسالةً على هذا النَّمط :

« أخلاق سيِّدنا تحب ؛ وبعقوته يلب ؛ وقربه تحف ؛ ونأيه تلف ؛ وخِلَّته نسب ؛ وقطيعته نصب ؛ وغربه ذلق ؛ وشهبه تأتلق ؛ وظلفه زان ؛ وقويم نهجه بان ؛ وذهنه قلب وجرب ؛ ونعته شرق وغرب ... ؛ معاظم شرفه تأتلف ؛ وشؤبوب حباته يكف ؛ ونائل يديه فاض ؛ وشح قلبه غاض ؛ وخلف سخائه يحتلب ؛ وذهب عيابه يحترب ؛ من لَفَّ لَفَّهُ فلج وغلب ؛ وتاجر بابه جلب وخلب . » .

والرِّسَالة تمضى على هذا النحو الذى نرى فيه كُلَّ كلمةٍ تتألف من حُرُوفٍ منقوطة وغير منقوطة ؛ بحيث لا تتوالى ؛ بل دائماً تتفاصل هذا التفاصل ؛ الذى يجعل الطرف ينتقل بين حرفٍ منقوط وغير منقوط .

أرأيت إلى هذا البدع الجديد - بدع الحريرىِّ - ؟!! ؛ وإنه لبدع يُبرهن به على مقدرته ومهارته فى صوغ الكلام ؛ ولكن أىُّ صوغ ؟!! ؛ طبعاً هذا الصوغ

المُعقَّد فى الأداء ؛ فإذا هو لا يستقيم فى كتابته ؛ بل يَعْوَجُّ هذا الاعوجاج الذى يُتيح له مثل هذه الصعوبات والتعقيدات ؛ وقد ألَّفَ خُطبةً ـ فى المقامة المُسمَّاة بالواسطيَّة ـ من كلماتٍ لا تشتمل على أىِّ حرفٍ منقوط ؛ وقدَّمها بقوله : إنها « لم تفتق رتق سمع ؛ ولا خُطِبَ بمثلها فى جمع !! » .

وليست هذه هى كُلُّ طرائف الحريرىِّ ؛ فقد كان ما يزال يبحث عن طرائف جديدة يُظهر بها مهارته فى تعقيد أدائه بالقياس إلى من سبقوه وعاصروه ؛ وذهب يحُاول غريبة : هى أن يأتى بالجُملة ثم يعكسها فى الجُملة التالية ؛ وسمَّى ذلك فى المقامة المغربيَّة : ما لا يستحيل بالانعكاس ؛ ومثَّل له بقوله : « لم أخا مل ؛ كبر جاء أجر ربك من يرب إذا برينم ؛ سكت كل من نم لك تكس ؛ بكل مؤمل ؛ إذا لم وملك بذل » . ؟!!.

وهذه آخر صورة وصل إليها التعقيد عند الحريرىِّ ؛ فقد ذهب يُقَلِّبُ تعبيراته هذا القلب لتطرد له صورة من الألفاظ المُتعاكسة فى عباراته ؛ وكأنَّ ذلك هو ما يحرص عليه الفنُّ فى أساليبه !!

ولكن أىُّ أساليب ؟!! ؛ إنها طبعاً أساليب التصنُّع ؛ وما يُطوى فيه من تعقيد ؛ وتصعيب فى طُرُق الأداء على هذه الهيئة ؛ فإذا الكاتب يَفِرُّ من الأداء المُستقيم إلى الأداء المُلتوى ؛ لا ليدلَّ على شىءٍ سوى مهارته فى اللعب والعبث بالألفاظ ؛ وإنَّه لعبثٌ ينتهى به إلى هذه الصورة الهندسيَّة التى لا تحوى فنَّاً ولا جمالاً !! ؛ وإنما تحوى تعقيداً ؛ كأنما التعقيد غاية ينبغى أن

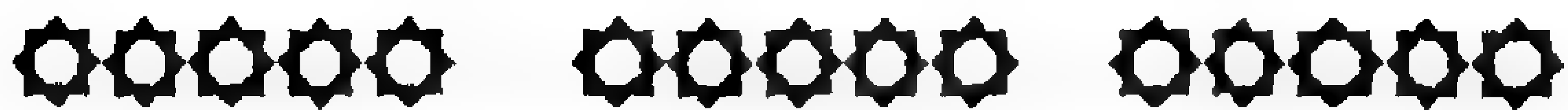
يطلبها الكاتب فى آثاره وأعماله !! ؛ ونحن فى الواقع نبحث عبثاً إذا حاولنا أن نجد كاتباً مُهِمّاً بعد أبى العلاء لا يركب مثل هذه الطُّرُق المُلتوية فى تعبيره الفنىّ ؛ إذ كانت هى المقاييس التى تُقاس بها مقدرة الكاتب وبراعته .

وليس معنى ذلك أننا نُنكر جمال مقامات الحريرىّ ؛ وتوفيقه فى كثيرٍ من جوانبها ؛ وإنما نُريد أن نُلاحظ هذه المُلاحظة ؛ وهى :

أنَّ خير نُموذجٍ أدبىٍّ قدَّمته لنا العصور التالية بعد أبى العلاء ؛ لم يستطع صاحبه أن ينفذ به إلى إعجاب الناس من حوله دون أن يضع لهم فيه ضروباً من التعقيد والتصعيب فى الأداء ؛ بجانب ما فيه من سجعٍ رشيقٍ وترصيعٍ وبديعٍ ؛ فقد مسح عليه ؛ لا بالتزامه ما لا يلزم فى نهاية سجعاته ؛ بل باستخدامه الواسع لـ : الكنايات ؛ والأمثال ؛ والمسائل النَّحويَّة ؛ والفقهيَّة ؛ والشعبذة برسالةٍ رقطاء ؛ وخُطبةٍ من ذوات الحُرُوف المُهملة ؛ وما يتَّصِلُ بذلك من استخدام ما لا يستحيل بالانعكاس ؛ فإن هذه الجوانب كلها سقطت إلى عمله عن طريق مذهب التصنُّع الذى كان يُعْجَبُ به وبأصحابه .

ومن الخطأ أن نبحث فى هذه العصور عن كاتبٍ لا يستخدم مثل هذه العُقَد والطُّرُق المُلتوية فى فَنِّه ؛ فقد كان ذلك الذوق العام للناس ؛ وكان الكاتب ما يزال يحتال على إرضاء هذا الذوق بصُورٍ وَطُرُقٍ مُختلفةٍ ؛ وما من شكٍّ فى أن الحريرىَّ كان يعرف ذلك معرفةً دقيقةً ؛ ومن أجله ذهب يُغرب على الناس فى مقاماته بهذه المواد التى قدَّمناها حتى يظفر بإعجابهم ؛ وقد

استمرَّت به رغبته تلك حتى استطاع أن يستحدث هذه الطُّرفة الغريبة : طرفة ما لا يستحيل بالانعكاس ؛ وهى طُرفةٌ تُعبّرُ أبلغ تعبيرٍ عمَّا انتهى إليه الفنُّ لعصر الحريريِّ من تصعيبٍ وتعقيدٍ .﴾ .





مَقَامَاتُ

أَبِي القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيِّ

(ت ٥٣٨هـ)

.....

۞ـ مَقَامَات أَبِي القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيِّ
(ت سَنَة ٥٣٨هـ)



ـ أوَّلاً :

ـ التَّعْرِيفُ بِالرَّجُل :

.....

۞ـ أَبُو القَاسِم الزَّمَخْشَرِيُّ (١)

---

(١) ـ انْظُر تَرْجَمَتَهُ فِى هَذِهِ المَصَادِرِ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ لا الحَصْر: «المُنتظم» لابن الجوزىّ؛ (جـ ١٨ / ٣٧ ـ ٣٨)؛ (رقم: ٤١٠٤)؛ «الكامل فى التاريخ»؛ (جـ ٩ / ١٣٠)؛ «المختصر فى أخبار البشر»؛ (٣ / ١٦ـ ١٧)؛ «العِبَر فى خبر من غبر»؛ (٢ / ٤٥٣ ـ ٤٥٥)؛ «تاريخ الإسلام» ـ نُسخة تدمرى ـ؛ (٤٨٦/٣٦ ـ ٤٩٠)؛ «تاريخ ابن الوردى»؛ (جـ ٢ / ٤٤)؛ «مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان»؛ (جـ ٣ / ٢٠٥ ـ ٢٠٧)؛ «البداية والنهاية» ـ نُسخة دار هجر ـ؛ (٣٣٥/١٦)؛ «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»؛ (٢٧٤/٥)؛ «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب»؛ (١٩٤/٦ ـ ١٩٨)؛ «المُستفاد من ذيل تاريخ بغداد»؛ (١٧٢/٢١ ـ ١٧٣)؛ «الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز»؛ (ص: ١٣٤ ـ



- اسْمُهُ ؛ ونَسَبُهُ ؛ وكُنْيَتُهُ
... ؛ ولَقَبُهُ ؛ ونِسْبَتُهُ :

هُوَ أَبُو القَاسِم مَحْمُود بن عُمر بن مُحَمَّد بن عُمر الْخَوَارِزْمِيُّ ؛ الزَّمَخْشَرِيُّ ـ وزَمَخْشَر : من قُرى خُوارَزْم ـ ؛ وكان يُقال له : جار الله ؛ لأنَّه جاوَرَ بمكَّة زماناً .

.....

١٣٥) ؛ ((نُزهة الألبَّاء في طبقات الأُدباء)) ؛ (ص : ٢٩٠ ـ ٢٩٢) ؛ ((مُعجم الأُدباء)) ؛ (٢٦٨٧/٦ ـ ٢٦٩١) ؛ ((إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة)) ؛ (٢٦٥/٣ ـ ٢٧٢) ؛ ((وفيات الأعيان)) ؛ (١٦٨/٥ ـ ١٧٤) ؛ ((تذكرة الحُفَّاظ)) ؛ (جـ٤ /٥٤) ؛ ((سير أعلام النُّبلاء)) ـ نُسخة دار الحديث ـ في ترجمة الأنماطي ؛ (١٥ / ٨) ؛ ((سير أعلام النُّبلاء)) ـ نُسخة الرِّسالة ـ ؛ (١٥١/٢٠ ـ ١٥٦) ؛ ((ميزان الاعتدال)) ؛ (٧٨/٤ ؛ قم : ٨٣٦٧) ؛ ((الجواهر المُضيَّة في طبقات الحنفيَّة)) ؛ (جـ١٦٠/٢ ـ ١٦١ ؛ رقم : ٤٩٣) ؛ ((الوفيات)) لابن قُنفُذ ؛ (ص :

(ص : ٢٧٨) ؛ ((البُلْغَة في تراجم أئمة النَّحو واللُّغة)) ؛ (ص : ٢٩١ ـ ٢٩٢) ؛ ((لسان الميزان)) ؛ (٤/٦) ؛ ((تاج التراجم في طبقات الحنفيَّة)) ؛ (جـ ١٠١/٢ ـ ١٠٢) ؛ ((طبقات المُفسِّرين)) للسُّيوطيّ ؛ (ص : ١٢٠ ـ ١٢١) ؛ ((طبقات المُفسِّرين)) للأدنه وي ؛ (ص : ١٧٢ ـ ١٧٣ ؛ رقم : ٢١٢) .

- مَوْلِدُه :

قَالَ ابنُ الجوزيُّ فى « المُنْتَظِم » ؛ (جـ ١٨ / ٣٧) : « وُلِدَ سنة سبع وستين وأربعمائة » .

زَادَ صَاحبُ « المختصر فى أخبار البشر » ؛ (٣ / ١٦) : « وُلِدَ فى رجب » .

وَقَالَ ياقُوتُ الحمويُّ فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (٦/٢٦٨٨) :

« قال ابن أُخته أبو عمرو عامر بن الحسن السمسار : وُلِدَ خالى بزمخشر ـ من أعمال خوارزم ـ : يوم الأربعاء ؛ السابع والعشرين من رجب ؛ سنة سبع وستين وأربعمائة . » .

وَقَالَ أبو طاهر السِّلَفِيُّ الأصبهانيُّ « ت ٥٧٦هـ » فى « الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز » ؛ (ص : ١٣٥) :

« كَتَبَ إِلَيَّ مِن مَكَّـةَ وَقَـدْ سَأَلْتُهُ إِعْلامِى مَوْلِدَهُ ؛ فَقَال : أَمَّا وَقْـتُ الْمِيلادِ : فَشَهْرُ اللّهِ الأَصَمُّ ؛ فِى عَامِ سَبْعَةٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبِع مئة ؛ بِقَرْيَةٍ مَجْهُولَةٍ مِن قُرَى خُوَارِزْمَ تُسَمَّى زَمَخْشَر .

وَسَمِعْتُ أَبِى رَحِمَهُ اللّهُ يَقُول : اجْتَازَ بِهَا أَعْرَابِىٌّ ؛ فَسَأَلَ عَنِ اسْمِهَا وَاسْـمِ كَبِيرِهَا ؛ فَقِيلَ : زَمَخْشَرُ وَالرَّدَّادُ ؛ فَقَال : لا خَيْرَ فِى شَرٍّ وَرَدٍّ ؛ وَلَمْ يُلْمِم بِهَا . » .

.....

٢ - نَشْأَتُهُ ؛ وَطَلَبُهُ لِلعِلْم :

قَالَ الشَّمْسُ الذَّهَبِىُّ فِى « تاريخ الإسلام » ؛ (٣٦ / ٤٨٨) :

« قدِم بغداد ؛ وسمع من : أبى الخطّاب بن البَطِر ؛ وغيره . » .

وَقَالَ ابنُ كثير فى « البداية والنهاية » ؛ (جـ ١٦ / ٣٣٥) :

« وَقَد سَمِعَ الْحَدِيث ؛ وَطَافَ البِلادَ فِى طَلَبِ العِلْم ؛ وَجَاوَرَ بِمَكّةَ مُدَّةً . » .

وَقَالَ ابن الدِّمياطىُّ فى « المُستفاد من ذيل تاريخ بغداد » ؛ (٢١ / ١٧٢) :

« قَدِمَ بغداد قبل الخمسمائة ؛ وسمع بها من أبى الخطّاب بن البَطِر ؛ وتوجَّه إلى الحجاز ؛ فحجَّ وأقام هُناك مُدَّةً مُجاوراً ؛ وعاد إلى خوارزم وأقام بها ؛ ثم قَدِمَ بغداد بعد الثلاثين وخمسمائة . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛ (٦ / ٢٦٨٨) :

« وأخذ الأدب عن أبى مُضر محمود بن جرير الضبىّ الأصبهانىّ ؛ وأبى الحسن علىّ بن المُظفَّر النيسابورىّ ؛ وسمع من شيخ الإسلام أبى منصور نصر الحارثىّ ؛ ومن أبى سعد الشفانىّ . » .

وفى « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ؛ (٥ / ٢٧٤) :

« وَقَدِمَ بغداد ؛ وسمع الحديث ؛ وتفقَّه ؛ وبرع فى فُنُون . » .

.....

- مَشَاهِدُ مِن حَيَاتِهِ :

فِي « المختصر فى أخبار البشر » ؛(٣ / ١٦) :

« وَقَدِمَ الزمخشريُّ بغداد ؛ وناظر بها ؛ثُمَّ حَجَّ ؛ وجاور بمكَّة سينين كثيرة . » .

وفى « تاريخ الإسلام » ؛(٣٦ /٤٨٨) :

« قال ابن السَّمْعانىُّ: ... ؛ ورد بغداد غير مرَّةٍ ؛ ودخل خُراسان عدَّة نُوَب . ... ؛ أقام بخُوَارَزْم ... ؛ثُمَّ خرج منها إلى الحج ؛ وأقام برهةً من الزَّمان بالحجاز حتَّى هبَّت على كلامه رياح البادية ؛ثمَّ انكفأ راجعاً إلى خُوَارَزْم . ولم يتَّفق أنِّى لقيته . » .

وفى « المُستفاد من ذيل تاريخ بغداد » ؛(٢١/١٧٢) :

« لَمَّا قَدِمَ الزمخشرىُّ بغداد للحجِّ ؛ جاءه الشريف أبو السعادات بن الشجرىِّ مُهنِّئاً له بقدومه ؛ فلما جالسه أنشده الشريف :

كَانَت مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخبِرُنِى
عَن أَحْمَدَ بْنَ عَلِىٍّ أَطْيَبَ الخَبَرِ
حَتَّى التَقَيْنَا فَلا وَاللهِ مَا سَمِعَت
أُذنِى بِأَحْسَنَ مِمَّا قَد رَأَى بَصَرِى

وأنشده :

وَأَستَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ
فَلَمَّا التَقَيْنَا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

وأثنى عليه ؛ ولم ينطق الزمخشريُّ حتى فرغ الشريف من كلامه ؛ فلما فرغ شكر الشريف وعظَّمهُ وتصاغر له ؛ وقال : إن زيد الخيل دخل على رسول الله ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ ؛ فحين بَصُرَ بالنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ رفع صوته بالشهادتين ؛ فقال له الرَّسُول : يا زيد الخيل « كُلُّ رَجُلٍ وُصِفَ لى ؛ وجدته دون الصفة ؛ إلا أنت ؛ فإنك فوق ما وصفت ؛ ودعا له وأثنى عليه .

قال : فتعجَّب الحاضرون من كلامهما ؛ لأن الخبر كان أليق بالشريف ؛ والشعر كان أليق بالزمخشريِّ ! . » .

وفى « تاريخ ابن الوردى » ؛ (جـ ٢ / ٤٤) :

« وَمن شعره يرثى شَيْخه أَبَا مُضر منصوراً :

وقائلة مَا هَـذِه الدُّرَر الَّتِى ......
تساقط من عَيْنَيْك سمطينِ سمطينِ
فَقُلتُ لَهَا الدُّرُّ الَّذِى كَانَ قد حَشا
أبُو مُضرٍ أُذْنِى تساقط من عَيْنِى . » .

وَقَالَ أبُو طاهر السِّلَفِيُّ فى كتابه « الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز » ؛ (ص : ١٣٥) :

« وَقَدْ جَاوَرَ بِمَكَّةَ مُدَّةً مَدِيدَةً تَرِدُ إِلَيْهِ مِنِّى مُكَاتَبَاتٌ وَإِلَىَّ مِنْهُ مجُاوبات . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛ (٦/٢٦٨٨) :

« وأصابه خُرَّاجٌ فى رجله ؛ فقطعها واتخذ رِجْلاً من خشب ؛ وقيل أصابه برد الثلج فى بعض أسفاره بنواحى خوارزم فسقطت رجله .

وَحُكِيَ أن الدامغانىَّ المُتكلِّم الفقيه سأله عن سبب قطع رجله ؟ ؛ فقال : دعاء الوالدة ؛ وذلك أنى أمسكت عُصفوراً وأنا صبىٌّ صغيرٌ وربطت برجله خيطاً ؛ فأفلت من يدى ودخل خرقاً ؛ فجذبته ؛ فانقطعت رجله ؛ فتألمت له والدتى ؛ وقالت : قطع الله رجلك كما قطعت رجله ؛ فلما رحلت إلى بُخارى فى طلب العلم سقطت عن الدابة فى أثناء الطريق ؛ فانكسرت رجلى وأصابنى من الألم ما أوجب قطعها !! . » .

وفى « وفيات الأعيان » ؛ (٥/١٦٩) . بعد أن ذكر هذه القِصَّة . :

« وكان بيده محضرٌ فيه شهادة خلقٍ كثيرٍ ممن اطلعوا على حقيقة ذلك ؛ خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قُطِعَت لريبةٍ ؛ والثلج والبرد كثيراً ما يؤثر فى الأطراف فى تلك البلاد فتسقط ؛ خصوصاً خوارزم ؛ فإنها فى غاية البرد ؛ ولقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ؛ فلا يستبعده من لم يعهده . » .

.....

- شَاعِرِيَّةُ أَبِى القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِىِّ :

قَالَ صَاحِبُ « المختصر فى أخبار البشر » ؛ (٣ / ١٦) :

« وللزمخشرىِّ نظمٌ حَسَنٌ ؛ فمنه من جُملة أبيات :

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت

عيونهمُ والله يجزى من اقتصرْ

مليحٌ ولكن عنده كل جفوةٍ

ولم أر فى الدنيا صفاءً بلا كدرْ » .

وَقَالَ جمال الدين القفطىُّ « ت ٦٤٦هـ » فى « إنباه الرواة على أنباه النُّحاة » ؛ (٢٦٧/٣) :

« وكان له ـ رحمه الله ـ شعرٌ كشعر النُّحاة . » .

وذكرهُ الشَّمسُ الذهبىُّ فى « سير أعلام النُّبلاء » ؛ (جـ ٢٠ / ١٥٤) ؛ فقال :

« وَلَهُ نَظْمٌ جَيِّدٌ » .

ثُمَّ ذكر البيتين السَّابقين فى جُملةِ أبياتٍ ؛ ثُمَّ قال :

« قُلْتُ : هَذَا شعرٌ ركيكٌ لاَ رَقِيق . » .

قُلْتُ : لَهُ أَبْيَاتٌ وَقَصَائِدُ سَائِرَةٌ ؛ وَلَهُ مَقْطُوعَاتٌ فِى غَايَةِ الجَوْدَةِ وَالقُوَّة ... ؛ وَقَد وَقَفْتُ عَلَى دِيوَانِهِ ؛ وَهُوَ عَظِيمُ الحَجْمِ تَتجَاوزُ النُّسْخَةُ الَّتِى كَانَت بِيَدِى السَّبْعِمِائَةِ صَفْحَةٍ ؛ وَقَد طَالَعْتُهُ مُطَالَعَةَ التَّأَنّى وَالتَّأَمُّلِ ؛ فَصَنَعْتُ لِدِيوَانِهِ تَهْذِيباً ؛ يَشْتَمِلُ عَلَى رَوَائِعِهِ الَّتِى انْتَخَبْتُهَا ؛ وَلَقَد أَخْطَأَ القِفْطِىُّ حِينَ وَصَفَ شِعْرَهُ بِأَنَّهُ كَشِعْرِ النُّحَاة !!... ؛ وَالبَوْنُ شَاسِعٌ بَيْنَ هَذَا الحُكْمِ وَحَقِيقَةِ الأَشْعَارِ المُثْبَتَةِ بِدِيوَانِهِ ؛ فَبِهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِن القَصَائِدِ الَّتِى تَدُلُّكَ عَلَى قُوَّةِ الطَّبْعِ وَالمَوْهِبَة .

.....

⚜ ـ أَصْحَابُهُ ؛ وَتَلامِذَتُهُ ؛ وَذِكْرُ مَن حَمَلُوا عَنْهُ :

قَالَ الذَّهَبِيُّ فى « تاريخ الإسلام » ؛ (٣٦ / ٤٨٨) :

« وحدَّث ؛ وأجاز لأبى طاهر السِّلَفىِّ ؛ ولزينب الشَّعْرِيَّة ؛ وغيرهما .

... ؛ وورد بغداد غير مرَّة ؛ ودخل خُراسان عدَّة نُوَب ؛ وما دخل بلداً إلاَّ واجتمعوا عليه وتلمذوا له. ... ؛ وقد كتب إليه السِّلَفىُّ إلى مكَّة يستجيزه ؛ فأجازه بجُزءٍ لطيفٍ فيه لُغة وفصاحة ؛ يُزْرى فيه على نفسه . » .

قُلْتُ : هكذا قالَ الذهبىُّ : « فأجازه » ؛ بينما نجدُ المُؤرِّخ الكبير صاحب « وفيات الأعيان » ؛ (٥ / ١٧٠ـ ١٧١) يقول :

« وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفىُّ المُقدَّم ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ قد كتب إليه من الإسكندرية ؛ وهو يومئذٍ مُجاورٌ بمكة ـ حرسها الله تعالى ـ يستجيره فى مسموعاته ومُصنَّفاته ؛ فردَّ جوابه بما لا يشفى الغليل ؛ فلما كان فى العام الثانى كتب إليه أيضاً مع الحُجَّاج استجازةً أُخرى اقترح فيها مقصوده ؛ ثم قال له فى آخرها :

(ولا يحوج ـ أدام الله توفيقه ـ إلى المراجعة ؛ فالمسافة بعيدة ؛ وقد كاتبه فى السنة الماضية فلم يجُبه بما يشفى الغليل ؛ وله فى ذلك الأجر الجزيل) .

فكتب إليه الزمخشرىُّ جوابه ؛ ولولا خوف التطويل لكتبت الاستدعاء والجواب ؛ لكن نقتصر على بعض الجواب ؛ وهو :

(ما مثلى مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء ؛ والجهام

الصفر من الرهام مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام ؛ والسكيت المخلف مع خيل السباق ؛ والبغاث مع الطير العتاق ؛ وما التقيت بالعلامة ؛ إلا شبه الرقم بالعلامة ؛ والعلم مدينة أحد بابيها الدراية ؛ والثانى الرواية ؛ وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مُزجاة ؛ ظلّى فيه أقلص من ظل حصاة ؛ أما الرواية فحديثة الميلاد ؛ قريبة الإسناد ؛ لم تستند إلى علماء نحارير ؛ ولا إلى أعلام المشاهير ؛ وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها ؛ وبرض لا يبل شفاها .) .

ثم كتب بعد هذا :

(لا يغرنَّكم قول فلان فىَّ ولا قول فلان) .

وعدَّد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر ؛ وأوردها كلها ؛ ولا حاجة إلى الإتيان بها هاهنا .

فلمَّا فرغ من إيرادها كتب :

(فإن ذلك اعتزاز منهم بالظاهر المُموَّه ؛ وجهل بالباطن المشوه ؛ ولعل الذى غرَّهم منِّى ما رأوا من حُسن منصحى للمسلمين ؛ وبالغ الشفقة على المستفيدين ؛ وقطع المطامع عنهم ؛ وإفادة المبار والصنائع عليهم ؛ وعزة النفس علىَّ عن الإسفاف للدنيَّات ؛ والإقبال على خويصتى ؛ والإعراض عمَّا يغنينى ؛ فجللت فى عيونهم ؛ وغلطوا فىَّ ونسبونى إلى ما لست منه فى قبيلٍ ولا دبير ؛ ... ؛ وإنما صدقت الفاحص عنِّى وعن كُنه روايتى ودرايتى ؛ ومن لقيت وأخذت عنه ؛ وما بلغ علمى وقُصارى فضلى ؛ وأطلعته طلع أمرى ؛ وأفضيت إليه بخبية سرِّى ؛ وألقيت إليه عجرى وبجرى ؛ وأعلمته

نجمى وشجرى ...) .

هـذا آخر الإجازة .

وقد أطال الكلام فيها ؛ ولم يُصرِّح له بمقصوده فيها ؛ وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا ؟.)) .

قُلْتُ : ترك الاحتمالَ قائماً بقولهِ : ((وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا ؟.)) وَلَكِنَّنَا نجدُ الذهبيَّ يجزمُ بصحَّةِ رأيهِ المُتقدِّم ؛ حيثُ قالَ فى ((سير أعـلام النُّبلاء)) ؛ (٢٠/١٥٤) :

((قُلْتُ : رَوَى عَنْهُ بِالإِجَازَةِ : أَبُو طَاهِرٍ السِّلَفِيُّ ؛ وَزَيْنَبُ بِنْتُ الشَّعْرِيِّ)) .

وكذلكَ نجد مُحيى الدِّين عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشىُّ الحنفىُّ ((ت ٧٧٥هـ)) يحكمُ بصحَّةِ هذا الأمر أيضاً ؛ فيقول فى ((الجواهر المُضيَّة فى طبقات الحنفيَّة)) ؛ (ج٢/١٦١ ؛ رقم : ٤٩٣) :

((وَأَجَازَ لِلْحَافِظِ السِّلَفِيِّ)) .

ثُمَّ :

فى ((سير أعـلام النُّبلاء)) ؛ (٢٠/١٥٤) :

((وَرَوَى عَنْهُ أَنَاشِيدَ : إِسْمَاعِيلُ بنُ عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ ؛ وَأَبُو سَعْدٍ أَحْمَدُ بنُ مَحْمُوْدٍ الشَّاشِيُّ ؛ وَغَيْرُهُمَا)) .

وقالَ جمال الدين القفطىُّ فى ((إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة)) ؛ (٣/٢٦٦) :

« وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه ؛ وتلمذوا له ؛ واستفادوا منه ؛ وكان علاَّمة الأدب ؛ ونسَّابة العرب ؛ أقام بخوارزم تُضرب إليه أكباد الإبل ؛ وتحطُّ بفنائه رحال الرجال ؛ وتُحْدَى باسمه مطايا الآمال . » .

.....

٤ - ذِكْرُ مَكَانَتِهِ ؛ وَثَنَاءُ النَّاسِ عَلَيْه :

فى « تاريخ الإسلام » ؛ (٣٦ /٤٨٨) :

« قال ابن السَّمْعَانِىّ : كان مِمَّن برع فى علم الأدب ؛ والنَّحْو ؛ واللُّغة ؛ لَقِىَ الكبار ؛ وصنَّف التَّصانيف فى : التَّفسير ؛ والغريب ؛ والنَّحْو .

... ؛ وما دخل بلداً إلاَّ واجتمعوا عليه ؛ وتلمذوا له ؛ وكان علاَّمة الأدب ؛ ونسَّابة العرب .

أقام بِخُوَارَزْم تُضْرَب إليه أكباد الإبل ؛ ثُمَّ خرج منها إلى الحج ؛ وأقام برهةً من الزمان بالحجاز حتَّى هبَّت على كلامه رياح البادية ؛ ثم انكفأ راجعاً إلى خُوَارَزْم . » .

وَقَالَ عماد الدِّين إسماعيل صاحب « المختصر فى أخبار البشر » ؛ (٣ / ١٦) :

« كان إماماً فى العُلُوم » .

وقالَ الذهبىُّ فى « تاريخ الإسلام » ؛ (٣٦/٤٨٧) :

« العلاَّمة ؛ أبو القاسم الزَّمَخْشَرِىُّ ؛ الخُوَارَزْمىُّ ؛ النَّحوىُّ ؛ اللُّغَوىُّ ؛ المُتكلِّم ؛ المُعتزلىُّ المُفسِّر » .

وَقَالَ أبو حفص بن الوردى « ت ٧٤٩هـ » فى « تاريخه » ؛(جـ ٢ / ٤٤) :

« إمَام عصره غير مدافع » .

وَقَالَ اليافعيُّ فى « ت ٧٦٨هـ » فى « مرآة الجنان» ؛(جـ ٣/٢٠٥):

« العلاَّمة ؛ النَّحوىُّ ؛ اللغوىُّ ؛ المُفسِّر المُعتزلىُّ ... ؛ مُتفنِّناً فى : التفسير ؛ والحديث ؛ والنَّحو ؛ واللُّغة ؛ وعلم البيان ؛ إمام عصره فى فنونه ؛ وله التصانيف البديعة الكثيرة الممدوحة الشهيرة » .

وَقَالَ صاحبُ « النُّجُوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ؛(٢٧٤/٥) :

« الشيخ ؛ الإمام ؛ العالم ؛ العلاَّمة ؛ فريد عصره ؛ ووحيد دهره ؛ وإمام وقته ... ؛ النَّحوىُّ ؛ اللُّغوىُّ ؛ الحنفىُّ ؛ المُتكلِّم ؛ المُفسِّر ؛ صاحب (الكشَّاف) فى التفسير ؛ و(المُفَصَّل) فى النحو... ؛ وصار إمام عصره فى عِدَّة علوم . » .

وَقَالَ صاحبُ « المُستفاد من ذيل تاريخ بغداد » ؛(١٧٢/٢١) :

« كان إماماً فى النَّحو واللُّغة ؛ تُشدُّ إليه الرِّحَال ؛ وله فى ذلك مُصنَّفات ؛ وكان فصيحاً بليغاً علاَّمة . » .

وَقَالَ أبو طاهر السِّلَفِىُّ فى « الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز » ؛(ص: ١٣٤ - ١٣٥):

« العَلاَّمَةُ ؛ أَحَدُ أَفْرَادِ الدَّهْرِ فِى عُلُومٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَفُنُونٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ وَبِالْخَصُوصِ فِى النَّحْوِ وَاللُّغَةِ ؛ وَلَهُ شِعْرٌ رَائِقٌ ؛ وَتَرَسُّلٌ فَائِقٌ ؛ وَتَوَالِيفُ مُفِيدَةٌ . » .

وقالَ كمال الدِّين الأنبارىُّ « ت ٥٧٧هـ » فى « نُزهة الألبَّاء فى طبقات الأدباء » ؛(ص: ٢٩٠) :

« كان نحوياً فاضلاً . » .

وَقَالَ ياقُوت فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (٦ /٢٦٨٧ ـ ٢٦٨٨) :

« كان إماماً فى : التفسير ؛ والنَّحو ؛ واللُّغة ؛ والأدب ؛ واسع العلم ؛ كبير الفضل ؛ مُتفنِّناً فى علومٍ شتى . » .

وَقَالَ الشيخُ جمال الدين القفطىُّ فى « إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة » ؛ (٣/٢٦٥ ـ ٢٧٠) ـ باختصار ـ :

« كان ـ رحمه الله ـ ممَّن يُضرب به المثل فى : علم الأدب ؛ والنحو ؛ واللغة ... ؛ وصنَّف التصانيف فى : التفسير ؛ وغريب الحديث ؛ والنحو .

... ؛ وذكره صاحب الوشاح ـ ذكره بألقابٍ وسجَّع له على عادته ـ ؛ فقال : (أُستاذ الدُّنيا ؛ فخر خوارزم ؛ من أكابر الأُمَّة ؛ وقد ألقت العلوم إليه أطراف الأزمَّة ؛ واتَّفقت على إطرائه الألسنة ؛ وتشرَّفت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة ؛ ولم يتمكَّن فى دهره واحدٌ من جلاء رذائل النظم والنثر ؛ وصقال صوارم الأدب والشعر ؛ إلا بالاهتداء بنجم فضله ؛ والاقتداح بزند عقله ؛ ومن طار بقوادم الإنصاف وخوافيه : علم أن جواهر الكلام فى زماننا هذا من نثار فيه ؛ وقد ساعده التوفيق والإقبال ؛ وساعفه من الزمان الماضى والحال ؛ حتى اختار لمقامه أشرف الأماكن ؛ وجمع بجوار بيت الله الحرام بين الفضائل والمحاسن ؛ وودَّع أفراس الأمور الدنياويَّة ورواحلها ؛ وعاين من بحار الخيرات والبركات سواحلها ؛ وقد صغَّر فى عيون أفاضل عهده ما رأوه ورووه ؛ وملك فى قلوب البُلغاء جميع ما رعوه ووعوه ؛ وإن كان عدد أبياته

التى ذكرتها قليلاً ؛ فكماله صار عليها دليلاً .) .

انقضى ما نقل من كتاب الوشاح.

قُلْتُ : ... ؛ وكان الزمخشرىُّ أعلم فضلاء العجم بالعربيَّة فى زمانه ؛ وأكثرهم أُنسا واطِّلاعاً على كُتبها ؛ وبه خُتِمَ فضلاؤهم ؛ وكان مُتحقِّقاً بالاعتزال .)) .

وقالَ ابنُ خلِّكان فى ((وفيات الأعيان)) ؛ (١٦٨/٥) :

((الإمام الكبير فى : التفسير ؛ والحديث ؛ والنَّحو ؛ واللُّغة ؛ وعلم البيان ؛ كان إمام عصره من غير ما دفع ؛ تُشدُّ إليه الرِّحال فى فنونه .)) .

وقالَ الذهبىُّ فى ((سير أعلام النُّبلاء)) ؛ (١٥٤/٢٠) :

((كَانَ رَأْساً فِى : البلاغَةِ ؛ وَالعَرَبِيَّةِ ؛ وَالمَعَانِى ؛ وَالبيَانِ ؛ وَلَهُ نَظْمٌ جَيِّدٌ .)) .

وقالَ صاحبُ ((الجواهر المُضيَّة فى طبقات الحنفيَّة)) ؛ (ج٢/١٦٠ - ١٦١) :

((الإِمَام الكَبِير ؛ الْمَضْرُوب بِهِ الْمثل فى علم الأَدَب ... ؛ وشُهرته تُغنى عَن الإِطْنَاب بِذكرِهِ .)) .

وقالَ مجد الدين الفيروزآبادى ((ت ٨١٧هـ)) فى ((البُلْغَة فى تراجم أئمة النَّحو واللُّغة)) ؛ (ص: ٢٩١) :

((العلاَّمة ؛ إمام اللغة والنحو والبيان بالاتفاق .)) .

وَقَالَ صاحبُ ((تاج التراجم فى طبقات الحنفيَّة)) ؛ (جـ ١٠١/٢) :

((فخر خوارزم ؛ إمام عصره بلا مُدافعة)) .

وقال الجلالُ السُّيوطىُّ فى « طبقات المُفسِّرين » ؛ (ص : ١٢٠) :

« النحوىُّ ؛ اللغوىُّ ؛ المُتكلِّم ؛ المُعتزلىُّ المُفسِّر . » .

وكذلك فى « طبقات المُفسِّرين » للأدنه وى ؛ (ص : ١٧٢ ؛ رقم : ٢١٢) .

.....

- مَذْهَبُهُ فِى الفُرُوع ... وَحَقِيقَةُ عَقِيدَتِه :

✿ - أوَّلاً : مَذْهَبُهُ الفِقْهِىّ

قَالَ صاحب حماة فى « المختصر فى أخبار البشر » ؛ (٣ / ١٦) :

« كان حنفىَّ الفروع » .

وفى « تاريخ ابن الوردى » ؛ (جـ ٢ / ٤٤) : « حَنَفِىّ الْمَذْهَب » .

وفى « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ؛ (١٩٨/٦) :

« وقال ابن الأهدل : كان من أئمّة الحنفيّة » .

قُلْتُ : وقد ترجم لهُ مُحيى الدِّين عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشىُّ الحنفىُّ « ت ٧٧٥هـ » فى « الجواهر المُضيَّة فى طبقات الحنفيَّة » ؛ (ج٢/ ١٦٠ ؛ رقم : ٤٩٣) ؛ وزين الدين أبو العدل قاسم بن قطلوبغا السودونىُّ - نسبة إلى مُعتق أبيه سودون الشيخونىِّ - ؛ الجمالىُّ الحنفىُّ « ت ٨٧٩هـ » .

✿ ـ ثَانِياً : مَذْهَبُهُ العَقَدِيُّ :

قَالَ صَاحِبُ « المختصر فى أخبار البشر » ؛ (٣ / ١٦) :

« وكان مُعتزلىَّ الأُصُول » .

وفى « تاريخ الإسلام » ؛ (٣٦/٤٨٩) : « وكان مُتظاهراً بالاعتزال » .

وفى « تاريخ الإسلام » ـ أيضاً ـ ؛ (٣٦ / ٤٩٠) :

« قُلْتُ : كان داعيةً إلى الاعتزال والبِدْعة . » .

وَقَالَ ابنُ كثير فى « البداية والنهاية » ؛ (١٦/ ٣٣٥) :

« كَانَ يُظْهِرُ مَذْهَبَ الاعْتِزَال ؛ وَيُصَرِّحُ بِذَلِكَ فِى تَفْسِيرِهِ ؛ وَيُنَاظِرُ عَلَيْهِ » .

وفى « شذرات الذهب» ؛ (٦/ ١٩٦ ـ ١٩٧) :

« وقال ابن خلّكان : ... ؛ وكان الزَّمخشرىُّ المذكور معتزلىُّ الاعتقاد مُتظاهراً به ؛ حتَّى نُقِلَ عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قُل له أبو القاسم المُعتزلىُّ بالباب .

وأول ما صنَّف كتاب (الكشّاف) استفتح الخُطبة بقولـه : (الحمـد لله الـذى خلق القرآن) ؛ فيُقال : إنه قيل : متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحدٌ فيه !! ؛ فغيَّره بقوله :

(الحمد لله الذى جعل القرآن) ؛ وجعل عندهم بمعنى خلق .

ورأيت فى كثيرٍ من النُّسخ : (الحمد لله الذى أنزل القرآن) ؛ وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المُصنِّف . » .

وترجم لهُ مُؤرِّخُ الإسلام شمسُ الدِّينِ الذَّهَبِيُّ فى « المُغنى فى الضُّعفاء » ؛ (ج٢/٦٤٧ ؛ رقم الترجمة : ٦١٢٠) ؛ فقال :

« مَحْمُود بن عمر الزَّمَخْشَرِيُّ المُفَسِّر : دَاعِيَةٌ إِلَى الاعتزال » .

وترجم لهُ فى « سير أعلام النُّبلاء » ؛ (٢٠/١٥١) ؛ فقال :

« العَلاَّمَةُ ؛ كَبِيْرُ المُعتَزِلَةِ » .

ثُمَّ قَالَ فى (٢٠/ ١٥٦) :

« كَانَ دَاعِيَةً إِلَى الاعتزَالِ ؛ اللهُ يُسَامِحُهُ » .

وترجم لهُ أيضاً فى « ميزان الاعتدال » ؛ (٤/٧٨ ؛ قم : ٨٣٦٧) ؛ فقال :

« صالحٌ ؛ لكنه داعية إلى الاعتزال .

أجارنا الله . » .

.....

- تَصَانِيفُهُ ... ؛ وَمُؤَلَّفَاتُهُ :

قَالَ صاحبُ « مرآة الجنان » ؛ (٣/٢٠٦) :

« وله التصانيف البديعة الكثيرة الممدوحة الشهيرة ؛ عدَّد بعضهم منها نحو ثلاثين مُصنَّفاً فى : التفسير ؛ والحديث والرُّواة ؛ وعلم الفرائض ؛ والنحو ؛ والفقه ؛ واللغة ؛ والأمثال ؛ والأصول ؛ والعروض ؛ والشعر . » .

ووصفها ابنُ كثير فى « البداية والنهاية » بأنها :

« مِنَ المُصَنَّفَاتِ المُفِيدَةِ » .

وأجاد ياقوتُ الحمويُّ عند ذكر هذه المسألة ؛ فذكرَ سائرَ مُؤلّفاته ... ؛ قال فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (٦/٢٦٨٩):

« ولأبى القاسم من التصانيف :

١ـ الكشَّاف فى تفسير القرآن .

٢ـ الفائق فى غريب الحديث .

٣ـ نُكت الأعراب فى غريب الإعراب « فى غريب إعراب القرآن » .

٤ ـ كتاب مُتشابه أسماء الرُّواة .

٥ ـ مُختصر المُوافقة بين أهل البيت والصحابة : الأصل لأبى سعيد الرَّازى إسماعيل .

٦ـ الكَلِم النَّوابغ فى المواعظ .

٧ـ أطواق الذهب فى المواعظ .

٨ ـ نصائح الكبار .

٩ـ نصائح الصغار .

١٠ـ مقامات فى المواعظ .

١١ـ نُزهة المُستأنس .

١٢ـ الرِّسالة الناصحة .

١٣ـ رسالة المسأمة .

١٤ـ الرائض فى الفرائض .

١٥ـ معجم الحدود .

١٦- المنهاج فى الأصول .

١٧- ضالَّة الناشد .

١٨- كتاب عقل الكل .

١٩- الأنموذج فى النحو .

٢٠- المُفصَّل فى النحو أيضاً .

٢١- المُفرد والمؤلف فيه أيضاً .

٢٢- صميم العربيَّة .

٢٣- الأمالى في النحو .

٢٤- أساس البلاغة فى اللُّغة .

٢٥- جواهر اللغة .

٢٦- كتاب الأجناس .

٢٧- مُقدِّمة الأدب فى اللغة .

٢٨- كتاب الأسماء فى اللغة .

٢٩- القسطاس فى العروض .

٣٠- حاشية على المُفَصَّل .

٣١- شرح مقاماته .

٣٢- روح المسائل .

٣٣- سوائر الأمثال .

٣٤- المُستقصى فى الأمثال .

٣٥ـ ربيع الأبرار فى الأدب والمُحاضرات .

٣٦ـ تسلية الضرير .

٣٧ـ رسالة الأسرار .

٣٨ـ أعجب العجب شرح لامية العرب .

٣٩ـ شرح المُفصَّل .

٤٠ـ ديوان التمثيل .

٤٠ـ ديوان خُطب .

٤١ـ ديوان رسائل .

٤٢ـ ديوان شعر .

٤٣ـ شرح كتاب سيبويه .

٤٤ـ كتاب الجبال والأمكنة .

٤٥ـ شافى العَيىِّ من كلام الشافعىِّ .

٤٦ـ شقائق النُّعمان فى حقائق النعمان فى مناقب الإمام أبى حنيفة .

٤٧ـ المحاجاة ومُتمِّم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والألغاز .

٤٨ـ المُفرد والمُركّب فى العربيّة .

وغير ذلك .)) .

.....

✿ـ وَقْفَةٌ مَعَ كِتَاب المُفَصَّل

قَالَ صاحبُ «مرآة الجنان» ؛ (٣/٢٠٦):

«كان شُرُوعه فى تأليف المُفصَّل : فى غُرَّة شهر رمضان ؛ سنة ثلاث عشرة وخمس مائة ؛ وفرغ منه فى غُرَّة المُحرَّم .» .

قَالَ صاحبُ «نُزهة الألبَّاء فى طبقات الأُدباء» ؛ (ص: ٢٩٠):

«وصنف كُتُباً حسنةً ؛ منها : ... ؛ وكتاب المُفَصَّل فى النَّحو ؛ وكان يزعم أنه ليس فى كتاب سيبويه مسألة إلا وقد تضمَّنها هذا الكتاب .

ويُحكى أن بعض أهل الأدب أنكر عليه هذا القول ؛ وذكر له مسألة من كتاب سيبويه ؛ وقال : هذه ليست فيه ؟!!! ؛ فقال : إنها إن لم تكن فيه نصًّاً فهى فيه ضمناً ؛ وبيَّن له ذلك .» .

وقالَ القفطىُّ فى «إنباه الرواة على أنباه النُّحاة» ؛ (٣ / ٢٧٠):

«قُلْتُ :

وكان بحلب رجل كاتب إنشاء لبعض المستولين عليها ؛ وحصلت له نسخة من كتاب (المفصل) للزمخشرىِّ ؛ وأراد تصحيحها ؛ واتفق أن اجتاز بدمشق فى بعض سفراته إليها ؛ فسأل أبا اليُمن زيد بن الحسن بن زيد الكندىَّ مُطالعتها وتحقيقها ؛ فأجابه إلى ذلك ـ وهو يومئذٍ نحوىُّ دمشق بزعمه ـ ؛ ولمَّا فرغ من تصفُّحها ؛ كتب على ظهرها كلاماً مثاله :

قُوبل به نسختان مثله فى السُّقم ؛ واستخرجت الصِّحَّة منهُنَّ ؛ وهو تأليفٌ موضوعٌ على الاختصار ؛ بالتقاط المسائل من كتب أئمة العربية ؛ فجاء مُستغلق الألفاظ على ما تحتها من المعانى الواضحة . » .

.....

✿ـ وَقْفَةٌ مَعَ كِتَاب الكَشَّاف

قُلْتُ : كانَ الزمخشريُّ فخُوراً بكتابه (الكشَّاف) ؛ يرى أنَّهُ من روائعِ التصانيفِ التى أتى بها أبناءُ زمنهِ ؛ وأنَّهُ لم يُسبَق إلى مثلهِ .

قَالَ صاحبُ « مُعجم الأُدباء » ؛ (٢٦٨٩/٦) :

« وله فى مدح (تفسير الكشَّاف) :

إنَّ التفاسير فى الدُّنيا بلا عددٍ
وليس فيها لعمرى مثل كشَّافى
إن كنت تبغى الهُدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشَّاف كالشافى . » .

وقالَ الذهبىُّ فى « ميزان الاعتدال » :

« محمود بن عمر الزمخشريُّ ؛ المُفسِّر ؛ النحويُّ .

صالحٌ ؛ لكنه داعية إلى الاعتزال .

أجارنا الله .

فكُن حَذِراً من كشَّافه . » .

وقالَ أبو الفضل بنُ حجر فى ((لسان الميزان)) ؛ (٦/٤) :

((قال الإمام أبو محمد بن أبى حمزة فى شرح البُخارىِّ له لمَّا ذكر قوماً من العُلماء يغلطون فى أمورٍ كثيرةٍ ؛ قال :

ومنهم من يرى مُطالعة كتاب الزمخشرىِّ ويُؤثره على غيره من السَّادة ؛ كابن عطيَّة ؛ ويُسمِّى كتابه (الكشَّاف) تعظيماً له .

قال :

والُمناظر فى الكشَّاف إن كان عارفاً بدسائسه ؛ فلا يَحِلُّ له أن ينظر فيه ؛ لأنه لا يأمن الغفلة ؛ فتسبق إليه تلك الدسائس وهو لا يشعر ؛ أو يحمل الجُهَّال بنظره فيه على تعظيمٍ .

وأيضاً :

فهو مُقدِّمٌ مرجوحاً على راجح المقالة .

... ؛ وإن كان غير عارفٍ بدسائسه ؛ فلا يَحِلُّ له النظر فيه ؛ لأن تلك الدسائس تسبق إليه وهو لا يشعر ؛ فيصير مُعتزليّاً مُرجئاً .

والله المُوفِّق .أهـ .)) .

ثُمَّ قَالَ ابنُ حجر :

((وأما التفسير ؛ فقد أُولِعَ الناس به ؛ وبحثوا عليه ؛ وبيَّنُوا دسائسه ؛ وأفردوها بالتصنيف ؛ ومن رسخت قدمه فى السُّنَّة ؛ وقرأ طرفاً من اختلاف المقالات : انتفع بتفسيره ؛ ولم يضره ما يخشى من دسائسه .)) .

قُلْتُ : وهذا رأىٌ جيِّدٌ بلا ريبٍ ؛ فلا ضَيْرَ من العملِ بهِ ؛ شريطة وجود المطلب الذى ذكرهُ الحافظُ ابن حجر .

.....

✿ـ نَظْرَةٌ أَخِيرَةٌ لِمُؤَلَّفَاتِ الزَّمَخْشَرِىِّ

قالَ أبو الفضل بنُ حجر فى « لسان الميزان » ؛ (٦/٤) :

« وقد كان الزمخشرىُّ فى غاية المعرفة بفنون البلاغة وتصرُّف الكلام ؛ وكتابه (أساس البلاغة) من أحاسن الكُتُب ؛ وقد أجاد فيهِ ؛ وبيَّن الحقيقة من المجاز فى الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً .

وكتابه (الفائق فى غريب الحديث) من أنفس الكتب ؛ لجمعه المُتفرِّق فى مكانٍ واحدٍ ؛ مع حُسْنِ الاختصار ؛ وصحَّة النقل .

وله كتاب (المُفصَّل) فى النحو ؛ مشهورٌ .

ورأيت له مُصنَّفاً فى المُشتبه فى مجلَّدٍ واحدٍ ؛ وفيه فوائد جليلة . » .

.....

✿ـ وَفَاةُ أَبِى القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِىِّ :

قالَ ابنُ الدِّمياطىِّ فى « المُستفاد من ذيل تاريخ بغداد » ؛ (٢١/١٧٢ ـ ١٧٣) :

« تُوفِّىَ فى ليلة عرفة ؛ من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ؛ بكركانج ؛ وهى قصبة خوارزم .

قاله ابن السمعانىّ . » .

وفى « تاريخ الإسلام » ؛ (٣٦/٣٦ /٤٨٨) :

« قال ابن السَّمْعانىُّ : مات ليلة عَرَفَة . » .

ووافقهُ على ذلكَ : ياقُوتُ الحموىُّ فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (٢٦٨٩/٦) ؛ وابنُ خلِّكان فى « وفيات الأعيان » ؛ (١٧٣/٥) ؛ وشمسُ الدِّين الذهبىُّ فى « سير أعلام النُّبلاء » ؛ (١٥٥/٢٠) ؛ وصاحبُ « الجواهر المُضيَّة فى طبقات الحنفيَّة » ؛ (ج١٦١/٢) ؛ وابنُ قُنفُذ فى « الوفيات » ؛ (ص : ٢٧٨) - ولم يُبيِّن فى أىِّ شهرٍ كان - ؛ وكذلك مجد الدين الفيروزآبادى فى « البُلْغَة فى تراجم أئمة النَّحو واللُّغة » ؛ (ص : ٢٩٢) ؛ وابنُ حجر فى « لسان الميزان » ؛ (٤/٦) ؛ وابنُ قطلوبغا فى « تاج التراجم فى طبقات الحنفيَّة » ؛ (جـ ٢/ ١٠٢) .

.....

- فَائِدَة :

ثُمَّ :

قَالَ ابنُ خلِّكان فى « وفيات الأعيان » ؛ (١٧٣/٥ - ١٧٤) :

« وزمخشر : بفتح الزَّاى والميم ؛ وسكون الخاء المعجمة ؛ وفتح الشين المعجمة ؛ وبعدها راء : وهى قريةٌ كبيرةٌ من قُرى خوارزم .

وجُرجَانيَّة : بضم الجيم الأولى ؛ وفتح الثانية ؛ وسكون الرَّاء بينهما ؛ وبعد الألف نون مكسورة ؛ وبعدها ياء مُثنَّاة من تحتها مفتوحة مُشدَّدة ؛ ثم هاء ساكنة : وهى قصبة خوارزم .

قال ياقوت الحمويُّ فى كتاب (البُلدان) : يُقال لهم بلغتهم كركانج ؛ وقد عُرِّبَت فقيل لها الجرجانيَّة ؛ وهى على شاطىء جيحون .

والله تعالى أعلم بالصواب . » .

.....

- عُمُرُه :

قَالَ أبو محمد علىُّ بن سُليمان اليافعىُّ صاحبُ « مرآة الجنان » ؛ (٣/٢٠٦) :

« عاش إحدى وسبعين سنة . » .

ووافقهُ على ذلكَ ابنُ حجر فى « لسان الميزان » ؛ (٦/٤) .

قُلْتُ : وَهُوَ الصَّوَاب ؛ وَمِن عَجَبٍ قَوْلُ الحَافِظِ ابْنِ كَثِير فِى « البداية والنِّهاية » ؛ (١٦/٣٣٥) :

« ثُمَّ كَانَت وَفَاتُهُ بِخُوَارِزْم ؛ لَيْلَةَ عَرَفَةَ مِن هَـذِهِ السَّنَةِ ؛ عَن سِتٍّ وَسَبْعِينَ سَنَةً . » .

.....

❦ - أَحْدَاثٌ فِى سَنَةِ وَفَاةِ الزَّمَخْشَرِىِّ :

قَالَ عماد الدين إسماعيل فى « المختصر فى أخبار البشر » ؛ (٣ / ١٦) :

« - ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة :

- فى هذه السنة كان الصُّلح بين السُّلطان مسعود وبين عماد الدين زنكى .

- وفيها سار زنكى بعساكره إلى ديار بكر ؛ ففتح منها : طنزة ؛ واستعرد ؛ وحيزان ؛ وحصن الروق ؛ وحصن قطليس ؛ وحصن باتاسا ؛ وحصن ذى القرنين ؛ وأخذ من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج : جملين ؛ والموزر ؛ وتل موزر من حصون شنحتان .

- وفيها سار السُّلطان سنجر بعسكره إلى خوارزم ؛ وحصر أطسز بها ؛ فبذل خوارزم شاه أطسز الطاعة ؛ فأجابه سنجر إلى ذلك واصطلحا ؛ وعاد سنجر إلى مرو .

- وفيها ملك زنكى عانة من أعمال الفرات .

- وفيها قُتِلَ داود ابن السُّلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ؛ قتله جماعة ؛ اغتالوه ولم يعرفوا . » .

وقالَ الشَّمْسُ الذهبىُّ فى « العِبَر فى خبر من غبر » ؛ (٢ / ٤٥٣ - ٤٥٥) :

« - سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة :

- فيها حاصر سنجر مدينة خوارزم ؛ وكاد أن يأخذها خوارزم شاه أتسز وبذل الطاعة .

ـ وفيها تُوفِّىَ أبو المعالى عبد الخالق بن عبد الصمد بن البدن البغدادىُّ الصفَّار المُقرئ .

روى عن : ابن المسلمة وعبد الصمد بن المأمون .

ـ وأبو البركات عبد الوهَّاب بن المُبارك بن أحمد الأنماطىُّ الحافظ ؛ مُفيد بغداد .

سمع : الصريفينىَّ ؛ وطبقته ومن بعده .

قال أبو سعد : حافظٌ ؛ مُتقنٌ ؛ كثير السَّماع ؛ واسع الرِّواية ؛ دائم البِشْر ؛ سريع الدمعة.

جمع ؛ وخرَّج ؛ لعله ما بقىَ جُزء عالٍ أو نازل إلا قرأه وحصَّل به نُسخةً .

ولم يتزوَّج قط ؛ تُوفِّىَ فى المُحرَّم وله ستٌّ وسبعون سنة .

ـ وعلىُّ بن طِرَاد بن محمد ؛ الوزير الكبير ؛ أبو القاسم الزينبىُّ العبَّاسىُّ ؛ وزر للمُسترشد والمُقتفى ؛ وسمع من عمِّهِ أبى نصر الزينبىِّ ؛ وأبى القاسم بن البسرىِّ .

وكان صدراً نبيلاً ؛ كامل السُّؤدد ؛ بعيد الغور ؛ دقيق النظر ؛ ذا رأيٍ ودهاءٍ وإقدامٍ ؛ نهض بأعباء بيعة المُقتفى وخلع الرَّاشد فى نهارٍ واحدٍ ؛ وكان الناس يتعجبُّون من ذلك !! .

ولمَّا تغيَّر عليه المُقتفى وهَمَّ بالقبض عليه ؛ احتمى منه بدار السُّلطان مسعود ؛ ثم خَلُصَ ولزم داره ؛ واشتغل بالعبادة والخير ؛ إلى أن مات فى رمضان .

وكان يُضرب المثل بحُسنه فى صباه .

ـ وأبو الفتوح الإسفراييني : محمد بن الفضل بن محمد ؛ ويُعرف أيضاً بابن المُعتمد ؛ الواعظ المُتكلِّم .

روى عن : أبى الحسن بن الأخرم المدينىّ ؛ ووعظ ببغداد .

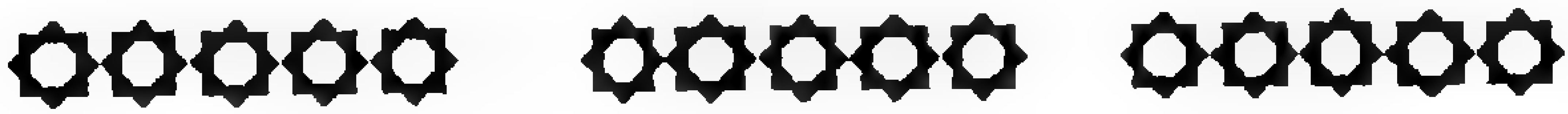
وجعل شعاره إظهار مذهب الأشعرىّ ؛ وبالغ فى ذلك حتى هاجت فتنةٌ كبيرةٌ بين الحنابلة والأشعريَّة ؛ فأُخرج من بغداد ؛ فغاب مُدَّةً ؛ ثم قدم وأخذ يُثير الفتنة ويبُثُّ اعتقاده ويذمُّ الحنابلة ؛ فأُخرج من بغداد ؛ وأُلزم بالإقامة ببلده ؛ فأدركه الموت ببسطام فى ذى الحجَّة .

وكان رأساً فى الوعظ ؛ أوحد فى مذهب الأشعرىّ ؛ له تصانيف فى الأصول والتصوف .

قال ابن عساكر :

أجرأ من رأيته لساناً وجناناً ؛ وأسرعهم جواباً ؛ وأسلسهم خطاباً ؛ لازمت حضور مجلسه ؛ فما رأيت مثله واعظاً ولا مُذكِّراً !! .

وقال أبو طالب بن الحديثىّ القاضى : كُنتُ جالساً ؛ فمرَّ أبو الفتوح وحوله جمٌّ غفيرٌ وفيهم من يصيح يقول : لا بحرفٍ ولا بصوتٍ بل عبارة ؛ فرجمه العوام ؛ وكان هناك كلبٌ ميِّتٌ فتراجموا به ؛ وصار من ذاك فتنةٌ كبيرةٌ . » .





المُنْتَخَب

مِن مَقَامَاتِ أَبِى القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيِّ

(ت ٥٣٨ هـ)

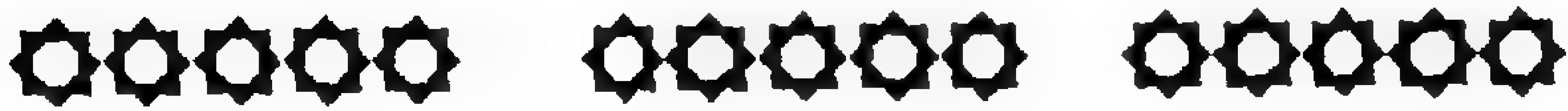
.....

❁ - مَقَامَةُ التَّقْوَى



يا أبا القاسم !! ؛ العُمْرُ قصير !! ؛ وإلى الله المصير !! ؛ فما هذا التقصير ؟!! ؛ إنَّ زبرجَ الدُّنيا قد أضلَّك !! ؛ وشيطانَ الشهوةِ قد استزلَّك !! ؛ لو كُنتَ كما تدَّعى من أهل اللُّبِ والحِجَى ؛ لأتيتَ بما هو أحرَى بكَ وأحجى ؛ ألا إنَّ الأحجى بك أن تلوذَ بالرُّكنِ الأقوَى ؛ ولا رُكنَ أقوَى من رُكنِ التقوى ؛ الطُّرقُ شتى فاختر منها منهَجاً يهديك ؛ ولا تخطُ قدماكَ فى مضلَّةٍ تُرديك ؛ الجادَّة بيِّنة ؛ والمحجَّةُ نيِّرة ؛ والحُجَّةُ مُتَّضحة ؛ والشُّبهةُ مُتفضحة ؛ ووجوهُ الدِّلالةِ وضاء ؛ والحنيفيَّةُ نقيَّةٌ بيضاء ؛ والحقُّ قد رُفعت سُتُوره ؛ وتبلَّج فسطعَ نوره ؛ فلِم تُغالطُ نفسَك ؟!! ؛ ولمَ تُكابرُ حِسَّك ؟!!

ليت شِعرى ما هذا التوانى ؟!! ؛ والمواعظُ سيرُ السَّوانى ؟!!





.....

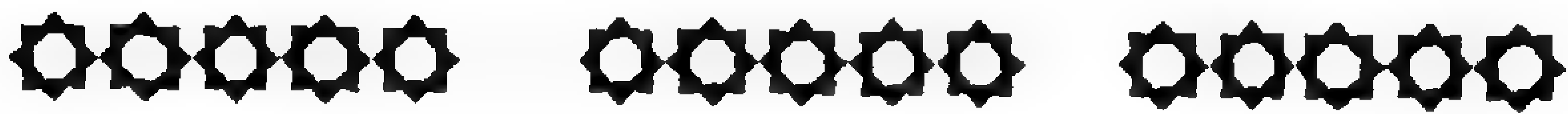
۞ـ مَقَـامَـةُ الحَـذَر



يا أبا القاسم !! ؛ احزُر نفسَك إن تعلَّقتْ ببعضِ أطرافِها جمرَة ؟!! ؛ أو أصابتهُ منَ الماءِ المغلىِّ قطرَة ؟!! ؛ هل تتمُّ عندَ صدمةِ ذلكَ لأن تُقلِّبَ فكراً فى خَطَبٍ مُهِم ؟!! ؛ أو ترفعَ رأساً لحبيبٍ مُلِم ؟!! ؛ أو تُلقى سمَعاً إلى ما تتهاوى إليه الأسماع ؛ وتتقاذفُ نحوهُ القلوبُ والطِّبَاع ؟!! ؛ أم بها فى تلكَ الوهلةِ ما يشغلها عن أن تنطِقَ فى شأنٍ يعنيها بحرف ؟!! ؛ أو ترمى إلى أحبِّ خلقِ الله إليها بطرف ؟!! ؛ كلا !! ؛ ولو كُنتَ ممَّن يعطفُ الأعنَّةَ بإصبع ؛ ويتبسَّطُ فى مهابِّ الرِّياحِ الأربع ؛ لشغلكَ التألُّمُ عن كبرياءِ سُلطانِك ؛ ولأدرجَ تلكَ الأعِنَّةِ تحتَ مطاوى نسيانك !! .

هذا ؛ وإنَّ الجمرَةَ والقطرَةَ كِلتاهما هَنَةٌ يسيرة ؛ ومُدَّةُ إيلامِها ساعةٌ قصيرة ؛ ثُمَّ إنها على ذلكَ لتُنسيكَ جميعَ ما هِمَّتُكَ إليه عائرة ؛ وأفكارُكَ عليهِ دائرة ؛ وتشخصُ بك عنِ المضجعِ الممهود ؛ وتُطلقُ حُبَوتَكَ فى المحفلِ المشهود ؛ فنارُ الله التى حسبُكَ ما سمعتَ من فظاعةِ وصفِها وهوْلِه !! ؛ وكفاكَ فيها ما قالهُ الصادقُ المُصدَّقُ فى قوله ؛ وأفظعُ ذلكَ كُلِّهُ أنَّ عذابها أبدٌ سَرْمد !! ؛ ليسَ له مُنتهى ولا أمد !! ؛ هَلاَّ جعلتَها مُمَثَّلةً قُدَّام ناظريكَ كأنكَ تُشاهدُ عينَها ؟!! ؛ وكأنه لا برزَخَ بينك وبينَها ؟!! ؛ إن كُنتَ كما تزعُمُ بما نطَقَ به الوحىُ

مُؤمناً ؟!!! ؛ وكما تدَّعى بصحَّتِهِ مُوقناً ؟!!! ؛ فإنَّ أدنى ما يحتكمُ عليك تَبَصُّرُ تلكَ الحال ؛ ويقتالُ تصوُّرُ تلكَ الأهوال ؛ أن تكونَ فى جميعِ ساعاتِك إمَّا لا على صفتكَ فى الساعةِ التى آلمكَ فيها مسُّ الجمرةِ التي خطبُها هيِّن ؛ وآذتكَ إصابةُ القطرةِ التى مقدارُ أذاها بيِّن ؛ قلقاً مُتأوِّهاً ؛ نَزِقاً مُتولِّهاً ؛ لا تلتفتُ إلى الدُّنيا التفاتةَ راغب ؛ ولا ترتاحُ لأجلِ ما تُعطيكَ من عُجالةِ الرَّاكب ؛ ولا تفطُنُ لكرَّاتها ودُوَلها أساءَت أم سَرَّت ؛ ولا لأيَّامِها ولياليها أعَقَّت أم برَّت .





.....

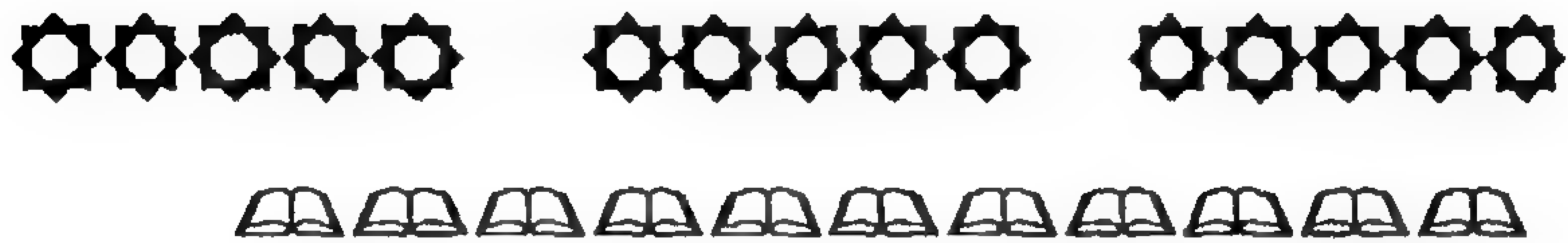
❁ - مَقَامَةُ الصَّمْت



يا أبا القاسم !! ؛ زعمتَ أنكَ ما ألممْتَ بمُعاطاةِ كأسِ العُقار ؛ لا فى أوقاتِ الطَّيشِ ولا إذا لبستَ ثوبَ الوَقار ؛ وأنَّ حُمَيَّاها لم تطر فى هامتك ؛ ولا دبَّت فى مفاصلِك ؛ ولم تقف على حقيقةِ أثرِها وعملِها ؛ ولا عرفْتَ ما معنى نشوتَها وثملِها ؛ وأنكَ منَ المصونينَ عمَّا يُدنيها ويُدْنى منها ؛ والآمنينَ أنْ تُسألُ يومَ العرضِ أعمالُكَ عنها ؛ إيهاً وإن صدرَت زعمتُك عن مصدوقَة ؛ وكانت كلمتُك محضةً غيرَ ممذوقة ؛ فغيبةُ الأخِ المُسلمِ من تعاطى الكأسِ أحرَم ؛ والإمساكُ عن عرضهِ من تركِ المُعاقرةِ ألزَم ؛ إنَّ المُغتابَ فضَّ الله فمَه ؛ يأكلُ لحمَ المُغتابِ ويشربُ دمَه ؛ وذاكَ لعَمرُ الله شرٌّ من شُرْبِ ماءِ الكَرْم ؛ وأغمسُ لصاحبها فى غِمارِ الإثمِ والجُرْم ؛ فاسجُن يا أبا القاسم لسانَك ؛ واطبق عليهِ شفتيكَ وأسنانك ؛ ثُمَّ لا تُطلق عنهُ إلا ما ترى النُّطقَ منَ الصَّمتِ أفضل ؛ وإلى رِضى اللهِ وما يُزْلِفُ إليهِ أوصل ؛ وإلا فكُن كأنكَ أخرَس ؛ واحذر لِسانكَ فإنهُ سبعٌ أو أفرَس ؛ حسبُكَ ما أوردَكَ إيَّاهُ من الموارد !! ؛ وما صَبَّ فى الأعراضِ منَ الصَّوارِد !! .

ألا رُبَّ عبدٍ كفَّ أذيالَهُ ولَمْ
يكُفَّ عنِ الجارِ القريبِ أذاتَهُ

رطيبٌ بثلبِ المُسلمينَ لِسانهُ
وإن كانَ لَم يَبلل براحٍ لَهاتَهُ
ويرجو نجاةً من تَوجُّهِ سخطةٍ
عَليهِ وكلاً مَا أعَزَّ نجاتَهُ ؛ .



.....

❁ـ مَقَامَةُ القَنَاعَة



يا أبا القاسم !! ؛ اقنع من القناعةِ لا من القنوع ؛ تستغنِ عن كُلِّ مِعطاءٍ وممنوع ؛ لا تخْلِق أديمَ وجهِكَ إلا عندَ مَن خلقهُ وخلقَك ؛ ولا تسترزق إلا مَن رزقهُ وإن شاءَ رزَقَك ؛ القناعةُ مملكةٌ تحتَها كل مملكة ؛ مملكةٌ لا سبيلَ عليها لمهلكَة !! ؛ لا يتوقَّعُ صاحبُها أن يفتقرَ بعدَ غُنيته ؛ ولا يقعُ النفادُ فى كنزهِ وقنيتهِ ؛ ثُمَّ إنه معَ أنَّ يسارَهُ لا يفضلهُ يسار ؛ ولا يضبطُ حُسبان ما يملكُ يمينٌ ولا يسار ؛ أخفُّ الناسِ شغلاً ومؤَونة ؛ وأغناهم من إرفادٍ ومعونة ؛ لا يهُمُّهُ مكيلٌ ولا موزون ؛ ولا يعنيهِ مُدَّخرٌ ولا مخزون ؛ مفاتحُهُ لا تنوءُ بالعُصبةِ أُولى القُوَّة ؛ على أنه أوفرُ من قارونَ سعةً وثروة ؛ من قنعَ بالنَّزرِ اليسيرِ أيسر ؛ ومَن حَرِصَ على الجمِّ الغفيرِ أعسر ؛ إنَّ القانع أصابَ كُلَّ ما أرادَ وزاد ؛ ولن تجدَ حريصاً يبلغُ المُراد ؛ الحريصُ وإن استمرأ المطعم ؛ لا يترُك أن يطلبَ الأنعمَ فالأنعم ؛ وإن استسرى اللَّباس واستفرَهَ الأفراس ؛ وجدتهُ أحرَصَ وأشرَه ؛ على أسرى وأفره ؛ يُوغرُ أبداً أن يُنعموا لهُ المِهَاد ؛ ويقولُ خشنٌ يُورثُ السُّهَاد ؛ حتى إذا بلغَ كُلَّ مبلغٍ فى التوطئةِ والإنعام ؛ وكُسِىَ بشكيرِ السمور وزِفُّ النَّعام ؛ دعتهُ نفسهُ إلى تمنِّى بيوتةٍ أهنأ مهجَعاً ؛ وأوطأ مضجَعاً ؛ وإن اجتلى أنورَ من القمرِ عضَّ على الخمس ؛ وقال هلاَّ كانَ

أضوءَ من الشّمس ؟!!! ؛ شقىٌّ تصَبُّ إلى كُلِّ مُشتهىً لهَاتُه ؛ وتضِبُّ لكُلِّ مُتمنًّى لثاتُه ؛ فليسَ لهُ إذَن حدٌّ ينتهى إلى مطلبه ؛ ولا أمدٌ يتوقّفُ وراءَ مرغبه ؛ فأمّا القانعُ فقد قدَّرَ مبلغَ حاجتهِ وبيَّنَه ؛ ومثَّلَ مقدارَ إربهِ وعيَّنه ؛ وذاكَ رثٌّ يُوارى سَوأتَه ؛ وغَثٌّ يُطفئُ سورتَه .

فإذا ظفِرَ بذلكَ ؛ فقد حازَ النَّعيم بحذافيره ؛ وأصبح أثرى من النُّعمانِ بعصافيرهِ .





.....

❁ـ مَقَامَةُ العُزْلَة



يا أبا القاسم !! ؛ أزل نفسَك عن صُحبةِ الناسِ واعزِلها ؛ وائتِ فرْعَةً من فِراعِ الجبلِ فانزِلها ؛ ولُذ ببعضِ الكُهوفِ والغيران ؛ بعيداً منَ الرُّفقاءِ والجيران ؛ حيثُ لا تُعلِّقُ طرفكَ إلا بسوادِك ؛ ولا تجرى مُؤامرتكَ إلا مع فؤادك ؛ ولا تُوصِل إلى سمعكَ إلا همسكَ ومُناجاتك ؛ وإلا جُؤارَكَ ومُناداتك ؛ ولا تفطُن لعيبِ أحدٍ سوى عيبك ؛ ولا يُهِمُّكَ إلا دنس رُدْنيكَ وجيبك ؛ قاتلَ اللهُ بنى هذهِ الأيَّام !! ؛ فإنهم طلائعُ الشُّرورِ والآثام ؛ لِقاهم لقاء ؛ وحوارُهم غِوار ؛ ونِقالُهم نِقار ؛ ووِفاقهم نِفاق ؛ تُسلِق بألسنتِهم الأعراض ؛ كما تُرشقُ بسهامهِم الأغراض ؛ تجمَعُ النَّدوةُ كِبارَهم فلا يتواصَوْنَ بالصبر ؛ بل يتناصَوْن على الصَّدر ؛ ولا يتشاوَرونَ فى حسمِ الفساد ؛ كما يتساورُون على قسمِ الوِساد ؛ إن آنسوكَ حُمِدَت الوحشَة ؛ وإن جالسوكَ ودِدْتَ الوَحدة ؛ بينا أنتَ فى خلواتكَ وانفرادِك مُكبّاً على أحزابكَ وأورادِك ؛ مُرَدِّداً فكرَكَ كما يجبُ فيهِ ترديدُه ؛ مُجدِّداً ذكرَ اللهِ الذى لا ينبغى إلا تجديدُه ؛ مُشتغلاً بخويصة نفسكَ وما يعنيك ؛ عاكفاً على ما يدعوكَ إلى الخيرِ ويُدنيك ؛ ويلفتُكَ عن الشَّرِّ ويُثنيك ؛ إذ فُوجئتَ بمُثافنةِ بعضهم ؛ من الذينَ أخذكَ اللهُ ببُغضِهم ؛ فضربَ بينكَ وبينَ ما كنتَ فيهِ بأسداد ؛ ورماكَ بأُمورٍ من تلكَ الأولِ

بأضداد ؛ وافتنَّ فى الأحاديثِ كحاطبِ الليل ؛ واستنَّ فى الأكاذيبِ كعائرِ الخيل ؛ مُلقياً أسبابَ الفِتنِ بين يدى افتنانه ؛ مُخلِّفاً للآدابِ والسُّننِ وراءَ استنانه ؛ لا يدفعُ فى صدرِه من حياءٍ دافع ؛ ولا يزَعهُ من دينٍ حقٍّ وازع ؛ ولا ينزعُه من عرقِ صدقٍ نازع ؛ فإذا أنشأ يأكلُ لحمَ أخيهِ بالنقيصةِ والثَّلب ؛ ويلغُ فى دمهِ الحرامِ وُلوغَ الكلب ؛ ويُصوِّبُ ويُصعِّدُ فى تمزيقِ فروته ؛ ويقومُ ويقعدُ فى قرعِ مروته ؛ ويخلطُ ذلكَ باستهزاءٍ مُتتابع ؛ واستغرابٍ مُتدافع ؛ لم يملك حينئذٍ عنانه ؛ ولم يُثبط عن استهزائهِ جنانه ؛ فإن لم تُقبل عليهِ بوجهكَ وصفكَ بالكبرياء ؛ وإن لم تُرعهِ سمعكَ نسبكَ إلى الرِّياء ؛ مُسجِّلاً عليكَ بالشكاسةِ والكزازة ؛ وناهضاً عنكَ بملء الصدرِ منَ الحزازة ؛ وإن أعطيتهُ من نفسِكَ ما يُريد ؛ فكلاكما والشيطانُ المريد ؛ قد جرى أحدُكما فى طلقِ الضلالِ والثانى رسيلُه ؛ واستوى الأولُ على صهوةِ الباطلِ والآخرُ زميلُه ؛ بل استبقتُما إلى غايةِ الغوايةِ مُعنِقين ؛ وتردَّيتما فى هُوَّةِ الرَّدى مُعتنقِين ؛ فيالها محنةً ما أضرَّها !! ؛ ويا لها فتنةً وقى اللهُ شرَّها !!

الإنسُ مُشتـقٌّ مِـنَ الإنسِ
والأُنسُ أن تنأى عن الإنسِ
ثيابهم مُلسٌ..... ؛ ولكنها
على دنَـابٍ منهـمُ طُلـسِ
نفسَك فاغنمها وشرِّد بها
عنهم وقُل أفلتِ يَا نفسِ

إن لم تُشرِّدْها تجدْها لِقَىً
للفَرْسِ بينَ الظُّفْرِ والضِّرْسِ





مَقَامَاتُ
ابْنِ الصَّيْقَلِ الجَزَرِيِّ

(... ـ ٧٠١ هـ = ... ـ ١٣٠١ م)

مَقَامَاتُ ابْنِ الصَّيْقَل الجَزَرِيِّ

(... ـ ٧٠١ هـ = ... ـ ١٣٠١ م)



ـ تَرْجَمَةُ الرَّجُل :

.....

ابْنُ الصَّيْقَل

(... ـ ٧٠١ هـ = ... ـ ١٣٠١ م) (١).



ترجم لهُ مجد الدين الفيروزآبادى « ت ٨١٧هـ » فى « البُلغة فى تراجم أئمَّة النَّحْو واللُّغة » ؛ فقال :

« معد بن نصر الله بن رجب ؛ شمس الدين ؛ أبو الندى بن أبى الفتح ؛ المعروف بابن الصيقل الجزريّ .

أديبٌ بارعٌ ؛ نحويٌّ ؛ لُغويٌّ ؛ فقيهٌ ؛ مُفْتٍ .

---

(١) ـ انْظُر تَرْجَمَتَهُ فِى : « البُلغة فى تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة » ؛ (ص : ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ رقم : ٣٧١) ؛ « الأعـلام » ؛ (جـ ٧/٢٦٦) .

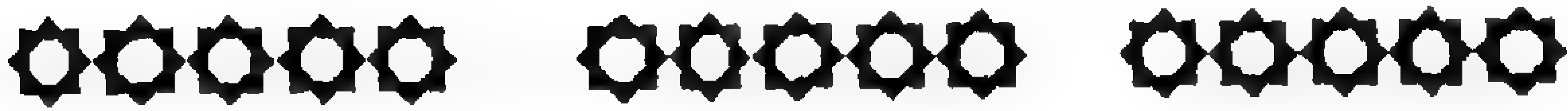
صَنَّفَ المقامات الزينبيَّة المعروفة بالجزريَّة : خمسون مقامة ؛ تلا فيها تلو الحريريِّ ؛ وأربى عليه ... ؛ وله مقاماتٌ أُخرى أحسن من الخمسين ؛ وعدتها ثلاثون مقامة . » .

وَترجم لهُ خير الدِّين الزِّركليُّ فى « الأعـلام » ؛ فقال :

« أديبٌ ؛ من أهل الموصل .

له (المقامات الزينبيَّة : خ) فى دار الكُتُب ؛ مُجلَّدان ؛ فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢ : خمسون مقامة على نسق الحريريِّ ؛ عزا روايتها إلى : (القاسم بن جريال الدمشقيّ) .

يقوم الآن بتحقيقه عبَّاس الصالحيُّ فى العراق . » .





المُنْتَخَب
مِنَ المَقَامَاتِ الزَّيْنَبِيَّة

.....

ـ المَقَامَةُ الأُولَى :

۞ ـ المَقَامَةُ البَغْدَادِيَّة



حكى القاسم بن جريال ؛ قال :

شُدهت مُدَّةً من الشهور ؛ في حدثان الشبيبة المشهور ؛ بقفول قحط ؛ وشمول شحط ؛ ومخالعة اتفاق ؛ ومراجعة إنفاق ؛ تعجز عن كفاح حربه الأذمار ؛ وتقصر لطول قدم حديثه الأسمار ؛ فحين حدقت حدق الغلل وغالت ؛ وأحدقت حدائق العلل وعالت ؛ واحقوقفت ظهور الملل ومالت ؛ وظهرت ظهيرة الملل وأمالت ؛ وتغلبت غُلب المتربة وطالت ؛ وتلبَّبت سباع المسغبة واستطالت ؛ وشمل مزود الجلل وعم ؛ وسمل مرود الخلل وغم ؛ وانكدر كدر الضرر واصعوعب ؛ وانسدر سدر البصر واعصوصب ؛ ورفضت أحامس الفحول الذحول ؛ واحتقرت لخوض بحور القحول الوحول ؛ جعلت أطفو بفلك الفكر وأرسب ؛ وأرفو فؤادي القلق وأندب ؛ وأطرب لخمر خمر ذلك الضر الوخيم ؛ وأعجب لإمالة ألف إلف الوطن بعد التفخيم ؛ إلى أن زهدت في وطاء القعود ؛ ورغبت في امتطاء القعود ؛ فخرجت أخر في خلال المنازل ؛ وأجر رداء الداء النازل ؛ يثقلني مقود القوداء ؛ خروج المِرَّة السوداء ؛ لأرافق رفيقاً لا يفارقه نفاق ؛ ولا يرافقه يوم

أرافقه نفاق ؛ فقدر لى القدر المحدود ؛ والصدر الموفق المجدود ؛ قوماً معروقين ؛ بالزاد المستزاد معنقين ؛ يعدل عددهم أبنية الأفعال ؛ سوى سدس ضعفى أحرف الاعتلال ؛ فتوكلت توكل الأبدال ؛ وزاملت عدد الزوائد من حروف الإبدال ؛ وحين حنت الأباعر ؛ واستوت على جودى أكوارها العراعر ؛ أقبلنا نكلف أخفاف العجاف ؛ مالا تطيق من الإيجاف ؛ حتى واصلت لفراق المعاهد الزوراء ؛ وفاصلت لوصال المعاهد الضراء ؛ فقال باتك إمحالنا ؛ والراتك برواتك ارتحالنا : هذه دار سلام المؤمنين ؛ فادخلوها بسلام آمنين ؛ ثم إنه انحدر عن راحلته ؛ مرحاً باتشاح حُلّته ؛ فرحاً بمراح حلته ؛ خشباً بنشيط حمولته ؛ طرباً بأطيط حمولته ؛ فنهضنا نودعه بعقد دفع قد انهل ؛ وعقد صبر قد انحل ؛ وبينما أنا أفض دنان المبادرة وأختفيها ؛ وأنض عروض المناظرة وأصطفيها ؛ إذ صرت إلى رباط محشود الرواتب ؛ محسود المراتب ؛ قد تخيَّر صدق نيَّته الواقف ؛ وتحيَّر فى حذق بنيته الواقف ؛ فسمعت مُطارحةً أعذب من الأريِّ المُذاب ؛ وأطيب من لثم ثنايا الثغور العذاب ؛ فتأملت شيمه وملت ؛ وحاولت رشف شموله وثملت ؛ فإذا به شيخ قد رثت بزته ؛ واجتثت عزته ؛ وأناأطرت آلته ؛ واشتهرت آلته ؛ وبين يديه غلام حسن الطلاوة ؛ كالشمس فى الطفاوة ؛ يرشحه تارةً ويؤدبه ؛ ويورحه مرةً ويهذبه ؛ فحجبت بشحذ تلك الرقاق ؛ عن مرافقة الارتفاق ؛ واحتجنت بمحجن الاستراق ؛ ما قبلنى فى قالب الاسترقاق ؛ ولما تمم طرف أطرابه البهيج ؛ ونمنم نشر ثناء إطرائه الأريج ؛ واحتنكت من حبب محادثته ؛ ما انشبنى فى حبالة مناوحته ؛

واختلبت من ملح ملاحفته ؛ ما حملنى على استهداء مخالفته ؛ قلت لـه بعد ركود هوائه ؛ ورقود قرود أهوائه ؛ وصفة تمييز فضيلته ؛ وعرفة حقيقة اسمه وفصيلته : إنـى لأحب أن تتخذنى لحضرة محاضرتك خديناً ؛ ولحضرة مقارضتك قريناً ؛ ولبحار إعسارك ميناً ؛ ولتقصار عنق اعصارك جوهراً ثميناً ؟ ؛ فقال لى : تالله لقد سألت ما لم أك أرشح بمثله !! ؛ وأملت من وفضة المفاوضة ما لم أكن أسمح بمثله !! ؛ وإنى لأرى وجهك مليحاً لا يليق به الحرمان ؛ وجيهك قبيحاً لا يستملحه الإنسان ؛ فأين شعب رزاحك مع انتزاحك ؟!! ؛ وأين شعب مراحك مع اقتراحك ؟!! ؛ فمن صوب صدقك أس كوبا ؛ أسقك بكأس المكاسرة أسكوبا ؛ فقلت مستمطراً سحاً سكوبا :

دمشق وارى فمُذ فارقت ربوتها
لم يبرح الدمع من عينىَّ سكُوبا
كأنها يوسفٌ فى الحُسن إذ خلقت
لفظاً ومعنىً وعندى حزن يعقوبا

وجعل يروح بالحسن الملامح ؛ على تمثال السماك الرامح ؛ إلى أن حضرت معهما الوجار ؛ وشكرت الجدب الذى هجم وجار ؛ ثم لم تمض مدة من الأحقاب ؛ ولا امتطينا مطا أكمة المحادثة والحقاب ؛ حتى قال لى : قد عزمت على أن أشاورك فى أمر ؛ وشر البشر من إذا شاورته غر ؛ وإن عاشرته عر ؛ فقلت له : أنا ذو طويَّة صادقة ؛ وروِيَّة مُصادقة ؛ فخير رهطك من سرت برياحه ؛ وشرت بنجاحه ؛ ونصرت بصلاحه ؛ وبصرت بإصلاحه ؛ فقال :

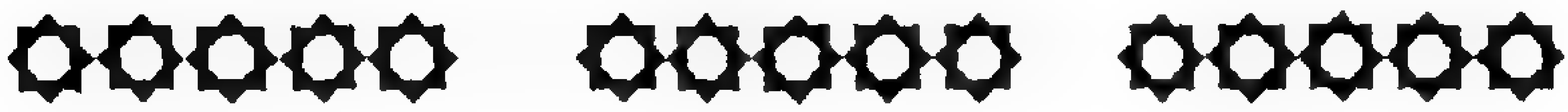
اعلم أن اللبيب من أهل وليده بعينيه ؛ قبل أن يهال صعيده عليه ؛ ورفل عديده حوليه ؛ قبل وصول نصول المنيَّة إليه ؛ وإنى لأشتار من شهد رأيك فيه مشورة ؛ تبقى صحف أسجالها على مر الشهور منشورة ؛ فقلت له : تالله إن هذا لرأى إرادة مخضل الخمائل ؛ وصارم عاتق سعادة مغدودن الخمائل ؛ وأنا لك أطول ساعد ؛ وأفضل مساعد ؛ وأطوع باد وبالد ؛ وأنفع من طارف وتالد ؛ ثم إنى وثبت لما أراده ؛ وأطلعت فى سماء المساعدة أرآده ؛ وحضرنا الليل لنصف سبع ؛ وعقدنا العقدة على تسعة أجذار سبعة وتسع ؛ مشفوعةً من الأطباق ؛ بعدد حروف الأطباق ؛ ولما زفت العروس ؛ وزفت أزاهير المزاهر والغروس ؛ وخلت الدار من النظار ؛ خلو المفضال من النضار ؛ وربط ريط الدويرة ؛ وانخرط بفرخه الفويرة ؛ فأقبلت بعدما كمل وطره ؛ وحمل حق الحيل وقطره ؛ أقوف أثره ؛ وأذم مخبره ؛ إلى أن ألفيته خادراً بحديقة ؛ متدفقة الجداول وريقة ؛ فقلت له : أفٌّ لفعلتك الذميمة !! ؛ وتُف لألفتك المليمة ؛ فكهر وجهه وكر ؛ وعقد ناصيته وازبأر ؛ وقال لى : أراك تسرع إسراع السحابة المطلة ؛ وتحنق حنق الحيَّة المُغِلَّة ؛ وتنغض رأس غيك الخصر ؛ وتعرض عن تدبر قصة موسى مع الخضر ؛ فلسنا بك من السارقين ؛ ولا لسبابك من الوادقين ؛ ولا لك بالمرافقين المنافقين ؛ ولئن تجنيت ؛ وسللت ظبى ظلمك وتظنيت ؛ أن ابنى ربق السرق وسرق ؛ وترمق المرق ومرق ؛ فأعرفه لا يعرف الإفساد ؛ ولا يتسنم الفساد ؛ ومن أراد الفساد فساد ؛ وأما الآن فأنا أنبئك بسبب سرقه ؛ وتضرجه بنجيع الأشر وشرقه ؛ ثم قال : اعلم أنها منذ

حلّت بداري ؛ ورأيتها لا تدرى ولا تُدارى ؛ لاح من تغطرسها مخائل الخيلاء ؛ فضربت زمام تعززها للزلة الزلاء ؛ ثم دار ابنى على خضاضها دوران المنجنون ؛ لعلمك أن الشباب شعبة من الجنون ؛ رغبةً أن يحج عرفة معرفة عقلها ويعود ؛ ويعج برمى جمار جهازها ويجود ؛ ولما وردت هذا القليب ؛ وأردت فى متجر الندامة التقليب ؛ بادرت لأبل غلتى ؛ وأبل من مرض هاتيك علتى ؛ فشغلت لوجود الالتياح ؛ وعدم الارتياح ؛ بالماء القراح ؛ عن حلى الأحراح ؛ فهبط فيه مذ هبطت ؛ وسقط فى يدى ريثما سقطت ؛ فكنت كمن حفظ الفرث وأفسد الحرث ؛ واعتاض عن السمين الغث ؛ والملاب الشث ؛ وأنا أيّد الله قواعد قدرك ؛ ولا دخلت الجوازم فعل أمرك : ضعيف الجلد ؛ ولا أطيق النزول فى المسد ؛ وطفلى فى الطمطام ؛ كالسيف الكهام ؛ ومتى نازل شوازب حبابه ؛ نزلت زلازل النوازل بأحبابه ؛ وأما أنت فقد زادك الله فى الخلق بسطة ؛ فلا تبالى إن غططت فى الماء غطة ؛ قال : فرفضت إيابى ؛ ولظت ثيابى ؛ وخلعت نعلى ؛ وقذعت فعله اللى ؛ ثم انخرطت فى الأشطان ؛ وقلت : هذا من عمل الشيطان ؛ وعند مجاوزة الظلماء ؛ ومجاورة يهماء الماء ؛ طأطأ رأسه إلىّ ؛ ثم سلّم علىّ ؛ وقال : احمد الله إذ ألقاك فى هذا المضيق ؛ أسوةً بيوسف الصدّيق ؛ فعمم هامتك بهذا الرشا ؛ فما أنت بأول من ارتشى ؛ وهذا ما رمته من الرشى ؛ على تزويج ذلك الرشا ؛ فصرخت صرخةً حللها البكاء ؛ وانحل لها شناق المشقة والوكاء ؛ فسمع إنسان صراخى ؛ بعد طول التراخى ؛ فأنقذنى بيديه ؛

ورمقنى بأسوديه ؛ وأنا كآدم ذو بأس بلا لباس ؛ كأننى ممسوسٌ من الجِنَّة ؛ فطفقت أخصف عليَّ من ورق الجَنَّة ؛ ثم التفت غب اليسار ؛ وكسر يمين الميمنة واليسار ؛ فألفيت قد كتب على التراب ؛ وضربنى بقواضب الإضراب ؛ بعد أن كدَّر عيشاً صافياً ؛ وضيَّع خلاً مُصافياً ؛ واستصحب قلباً جافياً ؛ وأظهر ما كان خافياً :

.. ؛ تفنَّن بحمد الله عُريان حافيا
وعدٌ عن التزويج مادُمت باقيا
فإن ساءنى ما ساء خيمك خيَّمت
؛ لديَّ مدى الأيَّام قمصى حذائيا
وإنِّى لأجنى سُوء ظنِّى وأنضوى
... ؛ إلى خالقٍ مُخلولقٍ لاحتذائيا
وأجعل إن صلَّيت لله قانتاً....... ؛
مُقيماً إمام الخمس منِّى حذائيا
. ؛ وأُمسى واسمى بعد بَزِّك بِزَّتى
إلى جبهة الجوزاء خوف ابتزازيا
؛ فلا تركنن يوماً إلى ودِّ صاحبٍ
فكم صاحبٍ أصلى الصديق المصاليا
وكم مُبعدٍ أضحى من العُرِّ عارياً
وكم من أخٍ أمسى من المكر كاسيا

قال : فوقفت على الأبيات ؛ وانصرفت إلى الأبيات ؛ وأنا ذو وبالٍ ذميم ؛ وبالٍ دميم ؛ أتهافت تهافت سقيم ؛ غير مستقيم ؛ كأنني غلام فارق اللبان ؛ وحسام طلق الجربان ؛ ولم أزل منذ بان ؛ وأبان ما أربى على أبان ؛ بعدما بعد وآن ؛ واصلولب ولان ؛ ألعنه إلى الآن .





.....

ـ المَقَامَةُ الخَامِسَة :

ـ المَقَامَةُ التُّوْأَمِيَّة



حكى القاسم بن جريال ؛ قال :

عكفت أيّام مواظبة الكفاء ؛ ومُداعبة الأكفاء ؛ ومُعاندة العفاء ؛ ومُعاهدة الضُّعفاء ؛ ومُساومة الهيفاء ؛ ومُداومة النّعمة الوحفاء ؛ على نديم زافر أعباء السخاء ؛ نافر عن ركام الطبع والطخاء ؛ يجود بغير الجفاء ؛ ولا يدرى ما شميم ريح الجفاء ؛ مُتعرِّض للإعطاء ؛ غير مُتعرِّضٍ بكشف الغطاء .

فكان لى الجود الجموم وجوده
... ؛ أحبّ جموحٍ جانحٍ لإخاءِ
وكان لىَ الخِلُّ الخَلِينَ وخيره
... ؛ أحبّ رخاءٍ خافقٍ لرخاءِ
وكنتُ له الصنو الصدوق مُصاحباً
بصدقِ صلاحٍ صادقٍ وصفاءِ
وكنتُ لهُ الحُبُّ الخَفِىُّ مُحالفاً
...... ؛ بفيحِ فلاحٍ فائحٍ ووفاءِ

قال :

فأقمنا مُدَّة ذلك الارتواء ؛ نرتع في حدائق الانضواء ؛ ونجتلي بين جدد الاجتراء ؛ عروس البراعة العذراء ؛ ولم نزل مع مُصاحبة الاصطفاء ؛ ومُقاربة الوصفاء ؛ ومُعاشرة الشُّعراء ؛ ومُخامرة العُشراء ؛ ومُسامرة الرُّؤساء ؛ ومُعاقرة الاحتساء ؛ نرتضع أخلاف الإسداء ؛ ونفترع إحقاب المودة المرداء ؛ حتى امتزجنا لِمباينة النواء ؛ امتزاج الرحيق بالأمواء ؛ والأعضاء بالدماء ؛ والحور بملحم الظبية الأدماء ؛ ولما انسكبت إسبال تلك الدِّلاء ؛ ونشبت بيننا شصوص قرابة المُقاربة والإدلاء ؛ أقبلنا على الاصطلاء ؛ بنار هاتيك الطلاء ؛ فما برحنا نمتطي ذروة غارب الغرابة والسيساء ؛ ونحتسي صافي فصيح الفصاحة والكساء ؛ ونختطف بخزائن اللغيزاء ؛ أقداح القهوة المزَّاء ؛ بمجلس واضح الاعتزاء ؛ سامٍ بإزاء الجوزاء ؛ مع عُصبةٍ قصروا ممدود مدد الرياء ؛ واقتصروا على ورود ماء مآثر الآباء ؛ والتحفوا بمروط الوقاء ؛ وأتحفوا المعاند بمقانب العنقاء ؛ وألحفوا في إثارة الإثراء ؛ لِسَدِّ خلل خلة الفقراء :

فكأنهم شربوا لُبان فصاحةٍ
من قبل ما شربوا لبا حسناءِ
وكأنهم ركبوا متون بلاغةٍ
من قبل ما ركبوا مطا وجناءِ

تتابهم حزق الوفود لأنهم

وردوا الزُّلال بروضة غنَّاءِ

حَقٌّ لقد طربوا بنأمة سائلٍ

من قبل ما طربوا بصوت غناءِ

فبينما نحن نعتور فوائد الظُّرفاء ؛ ونعتمر ربوع صفاء الانكفاء ؛ فى ليلةٍ مخلولة النداء ؛ محلولـة الأنداء ؛ مغلولـة العياء ؛ معلولـة الضياء ؛ مشـلولة الأعـداء ؛ مسلولة الرداء ؛ حسنة الحواء ؛ مستملحة الاحتواء ؛ عميقة الشواء ؛ مستقيمة السواء ؛ إذ شَدَّ شادينا أوتار الغناء ؛ وَقَدَّ بإطرابه أعناق العناء ؛ وقال :

كأسٌ لها سجد النسيم وأسفرت

فى الكأس تجلى فى أجلٍّ وطاءِ

شمطاء يلثمها الفتى ومن رأى

حدثاً يُقَبِّلُ وجنتى شمطاء ؟!!

قال :

فآل بنا الطرب إلى الإغماء ؛ وأمال لإطرابه جوانب الغماء ؛ ولما عنى بقطع أغنيته العنقاء ؛ وغنى بما أغنى عن نغمة الورقاء ؛ تقدمت أوامر الأجلاَّء ؛ بإعادة الجلاء ؛ وارتادوا نديماً يمر تلو هذا الولاء ؛ ويجر إليه ثناء هذيا الولاء ؛ فتجرد كُلٌّ لعناق فكرته الزجاء ؛ وأحجم إحجام قامعة يوم مواقع الهيجاء ؛

وبينا نحن نرجو قنص مشاكهته العنقاء ؛ ونسدم لفوت عرق وزيرة الغرض والانتقاء ؛ طرق باب الفناء ؛ كف لم يخل من خيانة القرناء ؛ قد اشتار علقم الدهاء ؛ وطار بأجنحة ريحه الورهاء ؛ وقال :

راحٌ لها ارتاح الحكيم لكونها
في الراح راح حشاشة الأحياءِ
حلّت بها راح المسيح فأصبحت
حصن الحياة وراحة الأحياءِ

قال الراوى :

فخلنا قد انفجرت ينابيع السماء ؛ أو انبجست لنا أراييج نسيم السماء ؛ وقلنا له :

قعدك الله خالق العصماء ؛ وفالق الصخرة الصمّاء ؛ إلا ولجت لعل هذا الدواء ؛ وفل جيوش هذه الأدواء ؛ فولج لجابة الهداء ؛ ودلج لإجابة الاستهداء ؛ ثم سلّم سلام أولى الاختلاء ؛ وتسنم أسنمة الاعتلاء ؛ حذراً من الرُّقباء ؛ كالقد فى القباء ؛ فقعد قعدة الأدباء ؛ وبيده إناء من الدباء ؛ أرق من الهباء ؛ مملو من المزّة الصهباء ؛ فألفيته حين راجع حلائل الاستخذاء ؛ وجثم بحذاء الحذّاء ؛ شيخنا المصريّ ذا الاجتناء ؛ المحبو بحناء الانحباء ؛ فدعوت له بالبقاء ؛ وعجبت من عذوبة لقاء ذلك اللقاء ؛ وأخذت أثنى عليه ثناء الظمآن على الماء ؛ والصمان على انسجام السماء ؛ وأخذ هو لتصديق وريق الثناء ؛

وتحقيق تزويق ذياك البناء ؛ ينثر لؤلؤ جرجته البجراء ؛ وينشر رحمة حسن إجادته العجراء ؛ ويمعن فى توطيد دعام دعوته والوطاء ؛ بعد امتطاء مطا المطيطاء ؛ وأقبل الشرب على الاستشفاء ؛ بذيالك الشفاء ؛ بعد أن بوؤه أشرف الخباء ؛ وشكروه على حلاوة رفده والحباء ؛ وما فتىء يطفح من سيب جده والجداء ؛ بما يغنى عن الجداية الجيداء ؛ ويمنح من جيب جوده والرداء ؛ بما يلهى عن الغادة الغيداء ؛ فلما تكوكبت جرباء ؛ أمل ذلك الإرجاء ؛ واعشوشبت لديه إرجاء سباسب الرجاء ؛ ودارت عليه مفاكهة السجراء ؛ واستدارت عليه فواكه الخميلة الشجراء ؛ تقلقل للاغتداء ؛ وأعرض عن معاطاة الاجتداء ؛ فاستمسكت ببزته الحمراء ؛ ولثمت حجر شفوف شفته السمراء ؛ وقلت له :

أقسم عليك بباسط الثراء ؛ وفاطر البرى والبراء ؛ إلا زدتنا من قريض هذا النماء ؛ قبل توديع السادة العلماء ؛ لتجول بين هذه الضوضاء ؛ لآلئ عقود مِنَّتك البيضاء ؛ فأجاب سائل الاستدعاء ؛ وبادر إلى حل وكاء فضله والوعاء ؛ وقال :

روحٌ ترى الأحداق تحدق حولها
شبه القلاص لدى فنيق رغاءِ
روحٌ متى انسكبت بندوة آدبٍ
أهدت هدايا الفهم للبُلغاءِ

؛ بـاتـت تغـازلنـى وبـتُّ مُـغـازلاً

لـجـمـال بهـجـتهـا مـع الـخُـلصاءِ

خلعت علىَّ مـحـاسنـاً مـن نورها

فـلـذا رفضت مـحـاسـن البـوصـاءِ

بـكـرٌ بـهـا اهـتـدت السُّقاة لكونها

فى الـشـرب شبـه أشعَّـة الأنـواءِ

فـهـى الـتـى كـانـت لموسى جذوةً

فى طـور مطـلبه إلى الأضـواءِ

وهىَ التى كـانـت لـعيـسـى مهيعاً

يـشـتـار نـشـوتـهـا مـع الـحـبـسـاءِ

تـجلى عـلـى سـرر الـسـرور لأنـهـا

فى الكأس عـرس مجالس الجُلساءِ

قال القاسم بن جريال :

ثم إنه هم بالانجلاء ؛ بعد جلوة عروسه النجلاء ؛ فعرقنا بمدى البكاء ؛ وغرقنا بذرور ذكاء ذلك الذكاء .





.....

المقامة الثالثة عشرة:

المَقَامَةُ النَّيْسَابُورِيَّة



حكى القاسم بن جريال؛ قال:

عدلت عن مُعاطاة المغالق؛ ومُداناة خبث المُخاتلة والخالق؛ حين فليت قمم السمالق؛ وقليت امتطاء النمارق؛ إلى أن يتُّ أجتزئ بمُسامرة الرئال؛ واجترئ على أسود المساورة والرئال؛ وأجوب فجاج الرمال؛ غير مُحتفل بعساكر الإرمال؛ عَلَّ أن أعُلَّ راح الاجتراح: من أنامل الانتزاح؛ وأفُلَّ صوارم الأتراح؛ قبل مُصافحة الصفاح؛ فبينما أنا أنتهب المناهدة نهباً؛ وأجعلها شعار همَّتى دأباً؛ إذ وجدت الحظ الحبور؛ والسير المسبور: قد اقتادنى إلى مدينة نيسابور؛ فوردتها بعد مفارقة اللبد؛ ومزايلة اللبد؛ وقد أُغلِقَ باب البلد؛ فتوخيت المبيت بين الأشجار؛ بعد حط الشجار؛ ثم إنى نضيت لباس الإيجاس؛ ومضيت إلى المهراس؛ مُضِيَّ الهرماس؛ فتكرَّعت للركوع؛ بعد كسر سلامى الجزع والكوع؛ ثم ملت إلى المطيَّة فأمجدتها؛ وانسللت إلى العيبة فشددتها؛ وحين أحجمت جحافل حام؛ وحالف الحذر ذلك الالتحام؛ جعلت أجول بين الشجير؛ خالياً من المخاتل والشجير؛ فلم

يمض وهنٌ من الظلام ؛ أو تبسم ثغر القمر تحت اللثام ؛ فتجردت حلائل الروح ؛ وغردت ورق الحمائم على الدوح ؛ وبينا أنا أحاذر الهجوم ؛ وأجاور الهجوم ؛ سمعت على عين جارية ؛ منافثة أعذب من نغمات جارية ؛ فربطت جرجة العين ؛ وتأبطت عضبى نحو العين ؛ وقعدت من حيث لا أرى ؛ وقلت عند الصباح يحمد القوم السُّرى ؛ ثم ما برحت التقط لؤلؤ الكلام ؛ بأظفور الإلمام ؛ وأجرد قواضب الاهتمام ؛ لذلك الانضمام ؛ حتى رأيت حالبى ذياك الثمين ؛ وجالبى ذيالك الكمين : شيخنا المصرىّ ؛ وولده اللوذعىّ ؛ وهما محتفان بالشمول والشمائل ؛ ملتحفان بالخمول والخمائل ؛ فقلت : تالله لا أفاجئ جريالهما ؛ وأضيق فى حلبة المباحثة مجالهما ؛ أو أنظر إلى ما يؤول آخر النبيذ ؛ مع ولده الخنذيذ ؛ فما برحا يحولان فى كاهل المنادمة ؛ ويجولان فى جلائل المناسمة ؛ إلى أن حان حل النظام ؛ وخان خل الجفون ظام الانتظام ؛ فقال له : يا أبتِ ! ؛ لقد سئمت السفار ؛ واجتويت السفار ؛ وكرهت القفار ؛ ونهكت منى القفار القفار !! ؛ فهل ترى حزامة حوبائك ؛ وترى على آرائك آرائك ؛ بأن أصير بأجوية الملوك ؛ بعد اقتناء السابح والمملوك ؛ متوشّحاً بوشاح الوشاء ؛ مُترشّحاً إلى كتابة الإنشاء ؛ فإنها رتبة جليلة ؛ ومرتبة نبيلة ؟

فقال له : يا بُنى ! ؛ لقد رمت مسلكاً وعراً ؛ لا ترى الراحة فيها الراحة إلا نزراً ؛ مشحوناً بالشحوب ؛ معصوياً بعصائب الحوب ؛ تفترى على سالكه الأوغاد ؛ وتقترى أثر هفواته الأضداد ؛ وتفرى أديم عرضه الحُسّاد ؛ ويقرى

مخدومه الإسآد ؛ وتسرى إلى نضاله الآساد ؛ ويشرى أدم إجلاله الإيساد ؛ اللهم إلا أن تكون ذا براعة مشهورة ؛ وبلاغة مسجورة ؛ ومهارة فاخرة ؛ وعبارة زاخرة ؛ وآلة كاملة ؛ وإيالة مُتكاملة ؛ وفكرة جائلة ؛ وفطنة غير حائلة ؛ تنقاد لك المعانى انقياد العانى ؛ وتتمكن تمكن الجانى من هذه المجانى ؛ فحينئذٍ يُذعن لك ما تشاء ؛ كما يُذعن للمساجل الرشاء ؛ وتنحو بابك الحرشاء ؛ ويبين أنيابها الإرشاء .

فقال له : إنى وبك لعقاب هذا اللوح ؛ وعذاب هذه الحنانة الدلوح ؛ وسرحوب هذا المضمار ؛ وطخرور هذه الأمطار .

فقال له : يا بُنى ! ؛ لا تك ممن يطبيه طبعه ؛ ويطغيه طمعه ؛ ويغره الجهام ؛ ويستغره الكهام ؛ فتمسى حرضاً بهذى الظباة ؛ وغرضاً لقذذ القاذف والشباة ؛ وها أنا مقترح عليك ؛ ومجترح لديك ؛ فإن أنت ضاهيت ما ابتدعه ؛ وأتيت بمقل ما اخترعه ؛ علمت أنك ممن يعوم بعباب هذا الحباب ؛ ويقوم على قدم هذا الانتداب ؛ ويستحق امتطاء هذا القارح ؛ ويسترق أرباب الأدب بين هذى المسارح .

فقال له : تالله لأنهضن بهذا الفادح ؛ نهوض الأسد الكادح ؛ ولأُبيضنَّ وجه ظنك الصادح ؛ ولأغيضن يم عبوس وهنك الكالح ؛ لتعلم أنى فنن دوحتك ؛ وزنن مزنتك ؛ والشعاع المستنتج من بوحك ؛ والشعاع المستخرج من يوحك .

فقال له أبوه : هبنى أننى لك مخدوم ؛ وأنت وعاء لجملة الأسرار مختوم ؛ وقد ورد علىَّ رسالة سريَّة ؛ يحجم عنها من له رويَّة جريَّة ؛ لا يخامر سطور يراعها ألف ؛ ولا يجاور خد إبداعها كلف ؛ تتضمن تهنئة بقفولى من السفر ؛ ووصولى بالفوز والظفر ؛ فخذ المثال ؛ واحذ التمثال ؛ واكتب - لا مُنِيتُ ببينك ؛ ولا رُمِيتُ بحجر حينك - ؛ خدين فخرك ؛ وخزين سرك ؛ ومخذم ملبسك ؛ وخويدم مجلسك ؛ مجد سمو سعدك وتسرمد ؛ ووطد علو جدك وتجدد ؛ وجللت غصون صولتك وقرت ؛ وتهللت غضون دولتك وفرت ؛ وطغت بحور سورتك وطمَّت ؛ وسرت سير سيرتك ونمت ؛ وسمقت همم برك وعلَّت ؛ وتدفقت برم برك وغلت ؛ وزكت سيوف نصرتك وقلت ؛ وذكت سعير سطوتك وقلت ؛ ووحمت خلك خيولك وحمت ؛ وسمت سبلك سيولك وسمت ؛ يخدم بنشر وقريض ؛ وشكر مستفيض ؛ وحمد يبوح ؛ ومدح يفوح ؛ يطيب عرفه ذو شرد ؛ ويجلبب سوفه من له سرد ؛ ويلذ نفحه ويفوق ؛ ويشده من نشقه ويشوق ؛ ويعدُ : فعبدٌ على منتك ؛ ومتقلد دُرَّ سطور منحتك ؛ متع ربه ربه ونصره ؛ وزعزع بزعزع قهره من قهره ؛ يجهر بحمده - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ مذ قدم قدم قفولك وحل ؛ وقرب بمن ترب من وفر قريك وخل ؛ فلقد تشوف بجلى وصوله وترشف ؛ وتشوق بحلى حلوله وتشرف :

قدومٌ له طيبٌ رطيبٌ وكوكبٌ

يسير فيسرى فيه شرق ومغربُ

يحل فيحيى جوده كُلَّ مُعسرٍ

ويسنى فيجنى منه فدم ومُعربُ

فلنحمد من نفح محبيه بملبوس جذ ؛ ولفح من يحتويه بلبوس بوس ووجل ؛ رفع مبدعه دور رفعته وعمر ؛ وخلع على عبيد عزه خلع مننه وغمر ؛ وطول طول نعمه وكمل ؛ حيث وعم عبده بعوده وتكمل ؛ فلينعم بمهمه ولو تسنم ؛ ملى قدوسه نفسه وسلم ؛ وصلى على نبيِّه مُحمَّدٍ وسلَّم .

قال الراوى :

فلما فزع من ألوكته اليتيمة ؛ الوافرة الديمة ؛ قال له :

قل ضوع الله لمعك ؛ وفتح مسمعك ؛ ولا أسال مدمعك ؛ وجبريل معك ؛ فهمهم همهمة الهموس ؛ وغمغم غمغمة الغملس الغموس ؛ ثم إنه تلبَّب لمصادمة المنون ؛ حين أرهف له غرار ذلك النون ؛ وأنشأ رسالة كاللؤلوء المكنون ؛ وهى :

ورد شريف حضرته ؛ ووريف نضرته ؛ ذو بزغ بوصوله قمر شرف يؤيد روحه وضوءه ؛ بل ولى تحف يحمد سحه ونوؤه ؛ وحزق مرح يتدفق سروره ؛ وفرق فرح يترقرق ميسوره ؛ خلد مرسله تخليد عصوره ؛ وجدد مجده تجديد دهوره ؛ وترنحت دوح جد جده وحلت ؛ ورنحت رتب حسدة حوله

وخلت ؛ وصفت شمس ضد فضله وضفت ؛ وعفت شمس ضد فصله وغفت ؛ وربت بيض سعوده وبرت ؛ ووهت عصم خصومه وهوت ؛ وشرق نيل جوده ويسق ؛ ورشق نبل جوده وسبق ؛ ولحق من بحج نجح محجته ؛ قصر وحلق ورمق بعين معدلته ؛ من تعدى ومرق ؛ بنخب منظومة ؛ وسحب مسفوحة ؛ وشموس مشرقة ؛ وغروس مورقة ؛ وحكم وسيمة ؛ وديم جسيمة ؛ وعهد وفىّ ؛ وحسن يُوسُفىّ ؛ يوذن بوصل قطع قريب ؛ وقطع وصل قلق غير قريب ؛ وينطق بعلم عميم ؛ ويمنطق بعقد فخر نظيم ؛ ويغنى بضرب ترصيعه ؛ ويربى بزهر بديعه على ربيعه ؛ متبرج بسيح سحره ؛ ومترجرج بموج حلو بحره ؛ يسود لون نقسه وطرسه ؛ خضرة ليله ؛ ونور شمسه ؛ فقوبل بحمد مديد ؛ وشكر شديد ؛ سد من دلوحه رحيب بوحه ؛ وسعة سحوحه جسيم سوحه ؛ فجمل بوروده عبده ؛ وتجمل بعده من عنده ؛ بعد وقوفه عليه ؛ ووضعه فويق عينيه ؛ وقوف من بهت بروض غريض ؛ بل بفيض سح وسمى وميض عريض ؛ يسفر عن محبره ؛ ويخبر بكنه طبيب مخبره :

شريفٌ به دُرٌّ شريفٌ مشدفٌ
يسح له دَرٌّ غريبٌ ويعربُ
له ضوء شمسٍ فى رطوبة لؤلؤٍ
ولفظٌ به قسٌّ يقيس ويعربُ

فلله عنبر عطر يدى حبره ؛ وتقطر لدى خبره وحبره ؛ وعبير عبق بقدومه نشره ؛ ونضير نضر عرنين من نشره نشره ؛ متع برشف شهد بشه ؛ ويلقع ربوع عشه ؛ من جيوش عشه ؛ فليشرف بمهه ليتشرَّف ؛ وطد موجده ركنه ونيَّف ؛ وسرمد ملة خير خلقه محمد وشرَّف .

قال :

فلما قرن بين زبدة الزبد وتمرها ؛ وجمع بين نقاخ خمرة النخب وخمرها ؛ جعل أبوه يفكر فى تلفيه وتدقيقه ؛ وينظر فى تحقيقه وتطبيقه ؛ ويطرب من فقر مقالييه ؛ وحُسن تجنيس أساليبه ؛ ويعجب من حذفه ولزومه ؛ ورد عجز معجزه على حيزومه ؛ وإجادة مغازيه ؛ وجودة متوازنه ومتوازيه ؛ ولغة طيِّه ؛ وطيب نشره وطيه ؛ وترصيعه واشتقاقه ؛ ولهاذم مطرفه ورقاقه ؛ ثم أقبل يُقبِّل بياض غرته ؛ ويقلب سواد بياض نضارته ؛ فعندما راقه رقة ذلك الغرار ؛ وفاقه بحذو ذياك الغرار ؛ قال له : أفادك الله بامتياح عينى ؛ وأعاذك من عيون البشر وعينى ؛ فلقد أثريت قراحى ؛ بهذا اقتراحى ؛ وأوريت مصباحى ؛ باقتباسك من صباحى ؛ فأنت أحق من لعلمه الرجال كعمت ؛ ولا دابه الرجال عكمت ؛ وعليه قدمت الرياسة وسلمت ؛ وإليه تقدمت السياسة وسلمت ؛ ولنقص حظه الورى تظلمت ؛ ومن أشبه أباه فما ظلمت .

قال القاسم بن جريال :

فحين غمد حسام مساجلته ؛ وعمد لارتشاف مدامته ؛ ودهشت بانسكاب ذلك الصبير ؛ وشدهت بارتفاع عرف ذيالك العبير ؛ جنحت إليه جنوح

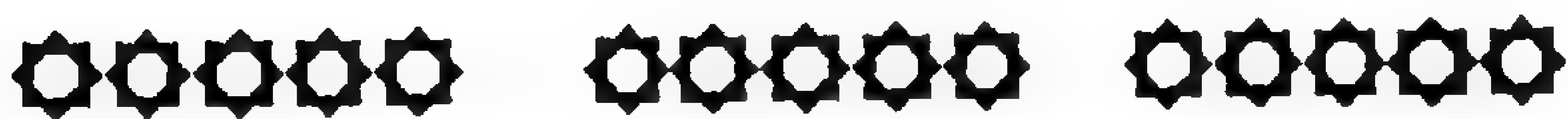
الأنوح ؛ ومنحت كفه سرعة الاستلام السحوح ؛ فقال لى : أهلاً بالنمر الجسور ؛ والمنهمر المسجور ؛ ذى الحظ العازب ؛ والعزم اللازب ؛ ثم قال لى : أأطربك ذلك الرواء ؛ حين اختلسته من وراء ؟

فقلت له : إى ؛ ومن رفعت به السماء ؛ وتعسعست بقدرته الظلماء .

فقال لى : أتحب بأن احتضن كنانة المسامرة ؛ لتحمد شحذ سيف سفرتك الزاهرة ؛ وأعتقل رماح المحاضرة ؛ لتشكر شيم ليلتك الناضرة ؟ .

فقلت له : حبّذا الربع الخصيب ؛ فعلى مثلها كان يدور الخصيب .

قال : فأفاح على ذلك النهر ؛ ما فاح على رياح الزهر ؛ وأباح لى من ثمر السمر ؛ ما أتاح لناظرى إهمال الخمر ؛ إلى أن أحجم بهاء الزبرقان ؛ وضرب إكساء فيلقه المشرقان المشرقان ؛ وحين شرف الشفق ؛ وبقى من القمر الرمق ؛ حاول التسيار ؛ واستقبل المسار ؛ وحاسمنى محاسمة من سار ؛ وألبسنى سرابيل الأسف وسار.





.....

⚜ـ المقامة السَّابعة عشرة:

❁ـ المَقَامَةُ المِصْرِيَّة



حَكَى القاسمُ بنُ جريال؛ قال:

دعتْنى أناملُ الهوى الحاكم؛ والجوَى المُتراكم؛ والأرقِ المُتفَاقِم؛ والقلقِ الراقى على الأراقم: إلى مِصْرَ؛ أيَّام نضارةِ الأديم؛ ومحاضرةِ النَّديم؛ واحتمالِ الرسيم؛ واشتمالِ النشاطِ الجسيم؛ فترعتُ إلى شارتِها؛ وأطعَتُ حاجبَ إشارتِها؛ وظعنَتُ لا أعطِفُ على عقَارٍ وقَار؛ ولا أستعطفُ ذا وقارٍ واحتقار؛ لأشْبُرَ سناسنَ نزاهتِها؛ وأسبرَ شناشنَ نباهتِها؛ وأشيمَ بارق عُجابِها؛ وأسيمَ النظرَ فى نواضرِ أنجابها؛ مَعْ خليلٍ يخوضُ الحَزْنَ والرغاب؛ ولا يذكرُ الغابَ إذا غَاب؛ تُشعر أفعال أتباعهِ بحُسْنِ اتِّباعهِ؛ وعدمُ أطباعهِ بطيب طيبِ طِباعه؛ ما ألفيتُهُ لفائتٍ حَزيناً ولا خَزيناً؛ مُذْ جعلتُه لسرِّنا خزيناً؛ يدافع الجَزَعَ إن رُزينا؛ ويُمسى لرِزِّ الرزايا رزيناً رزيناً:

فمـا زالَ يدرأ عنِّى الهُموم

ويُزعجُ فى البِيْدِ عيناً فعينا

فكانَ المتينَ وكانَ الوتينَ

وكان الظَّعينَ وكانَ الطَّعينَا

فَلَمَ نَزَل نُلاعبُ كواعبَ التهجير؛ ونجانبُ مشاجرةَ الشَّجير؛ ونُبارز قَنابلَ الإسراع؛ ونُعانقُ عواتقَ الإيضاع؛ حتى ولجناها بعد مفارقةِ الأنيس؛ بُكرةَ يوم الخميس؛ والبلدُ زاهٍ بزهوه الأريج؛ والزَّبدُ طام بتلاطُم الخليج؛ والقَصْفُ يرفلُ بالرَّفلِ النبيل؛ والروضُ يُثنى على انثيالِ تنويلِ النَّيل؛ والجوُّ يُبرئُ حرارةَ الغليل؛ برسيم نسيمهِ الصحيح العَليل؛ والنورُ فى ذلك الإبَّان؛ قَدْ توَّجَ جباهَ الكُثْبَان؛ وجنَاحا المَرَح مُسبلان؛ ومَها الأرائك تُغانِجُ جاذرَ الغِزلان:

فكأننى لمَّا وَلَجْتُ رُبُوعَها

ساعٍ على زهْرِ الجنانِ الأزهَرِ

فكأنها فى القَدْرِ دُرَّةُ غائصٍ

وكأنها فى الرِّيح ريحُ العبْهَرِ

وكأنَّها فى الحُسنِ شَمسُ ظهيرةٍ

تُجلا على بدرِ السماءِ الأنورِ

وكأنَّما الماءُ القَراحُ بنيلِها

شَهْدٌ تدفَّق من عُبابِ الكوثرِ

وكأنَّما الرَّند المضوَّعُ فى الرُّبى

مِسْكٌ تضوَّعَ فى لطيمةِ عنْبرِ

تالله ما تركَ الزَّمانُ لغيرها
حظًّا من الفخرِ الرفيع الأوقرِ
كلا ولا باع المسودُ مِراحَها
إلا وباكرَهُ المُسوَّدُ يشتَرى
كلا ولاَ نَشرَ الأنامُ مديحَها
إلا تأرَّج فى بُرُوج المُشترِى ؛
فعلامَ يهجُرها الجَهولُ وينثَنى
عن عَرْفِ ريَّاها الذكىِّ الأذفرِ

قال :

فلمَّا قبَّلنا حلائلَ ذلكَ الإحبال ؛ وأقبَلْنا على قبْلَةِ ذيَّالكَ الإقبال ؛ جعلنا نختلسُ بِها بهاءَ الجَذَل ؛ ونلتمسُ لَها لُهَى لُجَينِ الجَدَل ؛ ونَرْتعُ فى ربيع ذلك الخَول ؛ آمنينَ مِن عَوَر المُعاندةِ والحَوَل ؛ إلى أن حَظِينا بالسُّعودِ السوافر ؛ وحَمِدْنا حلاوةَ بحر التبحُّر المديدِ الوافر ؛ وحين حللْنا حمائلَ المُحادثات ؛ وارتحلْنا جمائل جَدِّ المُنافثات ؛ سَنَحَ لنا حاجةٌ إلى دار الوزارة ؛ تشتملُ على إجارة التجارة ؛ فلمَّا حضرتُ إيوانها ؛ وشكرتُ أعوانَها ؛ وخبرْتُ بُرَّها وزوانَها ؛ ألفيتُ صاحبَ دَسْتها ؛ وقاسم دَرْبَسْتها ؛ العَضبَ العبقرىَّ ؛ أبا نصر المصرىَّ ؛ فشددْتُ إلى شدِّ مَن شَيَّدَ قدرهُ وعلاه ؛ وظَفِرَ بفوْزِ مُسْبلهِ ومُعَلاَّه ؛ فأظهرَ كمينَ شِقْشَقَته ؛ وأقعدَنى على نُمرقتهِ لِمقتِه ؛ وأقبلَ يسألنى عن استصعابِ الطَّريق ؛ واستصحاب ذلك الصديق ؛ فصدقتُ فى أُسِّ تلك

الأبنية ؛ وأصدقْتُ عروسَ مُناسمتهِ كَثْرَةَ نِثَارِ الأثنية ؛ ثم إنى قُلتُ لَهُ : فى طَىِّ تيك المُحالفة ؛ على مَهْيَعِ المُلاطفَة ؛ جَلَّ مَن احتنك ؛ إلى الحَيل مركبك ؛ وعلى كاهلِ الكَهانةِ أركبَك ؛ وفى أىِّ صُورةٍ ما شاءَ ركَّبَك ؛ فضَحِكَ حتَّى فرَّ فاه ؛ ثُمَّ مالَ إلى قَدِّ قَميص وقَاره فرفَاه .

قالَ القاسمُ بنُ جريالٍ :

فبينما نحنُ نرتجلُ مُلَحَ الغرائب ؛ ونرتحلُ مخافَةَ العائب ؛ عَن عَطَنِ المعائب ؛ إذ تُقُدِّمَ إليهِ بإصدارِ مُكاتبةٍ إلى بعض الأمصار ؛ ثابتةِ الإصارِ على زعزع التنازع والإعصار ؛ تُعجز ألسن القبائل ؛ تتضَمَّن المُعَاتبة لقطع مُواصلةِ الرسائل ؛ فلمَّا استنشقَ نسيمَ قوله ؛ وقابلَ بالطاعةِ مراسيمَ قيله ؛ شَبَّ شُبوبَ الضِّرام ؛ وهبَّ هُبُوبَ الأسدِ الضرغام ؛ بعدَ أن شكرَ طَوْلَهُ وِزادَه ؛ وأنشأ ما أرادَهُ وزادَه ؛ ثُمَّ أرسلَها إلى مخدومِه ؛ ليقفَ على بدائع مختومِه ؛ فكانت :

عندى أطالَ اللهُ ارتقاءَ الجنابِ العالى : المولوىِّ ؛ الملكىِّ ؛ العالمىِّ ؛ العادلىِّ ؛ الأوحدىِّ ؛ العَضُدىِّ ؛ المُجاهدىِّ ؛ الأطولىِّ ؛ المُتطولىِّ ؛ المُفضّلىِّ ؛ الأفضلىِّ ؛ ذى المناقب الجائلة ؛ والمواهبِ الهائلة ؛ والمِنن السامية ؛ والهمم الهامية ؛ ولا بَرِحَ فى سعادةٍ لا يُكْفَتُ ذيلُ سِرْبالها ؛ ولا تكفُّ كفوفُ الغير كفوفَ آمالِها ؛ ولا انفكَّ فى سيادةٍ لا يغيبُ بدرُ كمالِها ؛ ولا تثلُم وقائعُ القدر قواضبَ إقبالِها ؛ مؤيَّداً بنُجح جَلالةٍ لا تحجِمُ نضالها ؛ ولا تخيمُ عَن خيول المَنح جحافلُ إفضالِها ؛ مُقلَّداً بلهاذم هداية لا تُفْصم عُرى مجالِها ؛ ولا يقصمُ

جارحُ الوَجَل جناحَ إجلالها ؛ من التَّوق المُبرح العاكف ؛ وشِدَّة الشوق الشديدِ المُتضاعف ؛ ما كَثُرُ لرصْفِ وصفه الطُّروس ؛ وعجزَ عن دفع أعباء عيائهِ جالينوس ؛ الفكرُ الذى حرَّم حُميا المِراح ؛ وأحرمَ بجُحفةِ إجحافِ حلاوةِ حدِّ الصُّراح ؛ وسلبَ طِيبَ لذَّةِ المهاد ؛ وسكَبَ بَنَانَ كراهيتهِ كاساتِ الاضطهاد .

فالله يجُودُ بجَودِ عِهادِ ذلكَ الشهاد ؛ ويُعيد عيدَ سَحٍّ إرعادِ ذلك المرعاد .

أيَّدَ اللهُ الخادمَ على حملِ مِنَنِكَ المُورقات ؛ وحَمْدِ مِنحكَ السابقاتِ الباسقات ؛ وأراحه من بُرَحاء أرقه وشفَاه ؛ وأهَّلَهُ لمدْحٍ تكِلُّ عن بثِّهِ الألسُنُ والشِّفاه .

وقد كانَ عوَّدنا كَفُّ كرَمِكَ الكامِلُ الإنعام ؛ وأرضعنا ثَدْىُ بِرِّكَ ما أنسَى مرارةَ الفِطَام ؛ وأتحفَنا سَيْبُ رِفدِكَ بما يُغنى عن الانتجاع ؛ ويُوجبُ لكَ القيامَ على ساقِ السَّمع والطاع .

فعلامَ نَصلَ اخضرارُ ذلكَ الخِضاب ؟!!! ؛ وهطَل قِطْقِطُ طُولِ القطيعةِ والانقضاب ؟!!! .

وأناطرت رماحُ حُسنِ الاتحادِ ؟!!! ؛ وظهرت رياحُ المَللِ من بيوت عادِ الإبعاد ؟!!!

فما أجملَ بجنابكَ قدَّ هذه الرِّقاب ؛ لتَحْسِمَ الحاسدَ بحسام حسده العارى عن القراب والانقلاب ؛ لتتابُع المَبرَّات المُبرَّات ؛ وعَلِّ عُقارِ المَرَح من يَد المسرَّاتِ المُسرَّات .

والأحسنُ بكَ احتساءُ قَهوةِ الوَفاء ؛ لنصولَ فى صهوةِ المُواصلةِ والصفاء ؛ وندرسُ بفوارس المسرَّةِ نفوسَ الحاسدين ؛ ونقلع بإصبع المعاهدةِ عيون المعاندين .

ضوَّعَ اللهُ المحافلَ بعَرْف عرفهِ الصَّفىِّ ؛ ورصَّع جُمانَ الجلالةِ بتاج مجدِ جَدِّهِ اليُوسفىِّ ؛ وأسبلَ ملابس إحسانهِ السَّحابىِّ ؛ وأجزلَ نفيس امتنانهِ الحَبىِّ الأبىِّ ؛ بعدَ استعراض سانح مُهمَّاته ؛ والتماس ما يتجدَّدُ من إباناتِ لُباناته .

والسَّلام .

قال الراوى :

فلمَّا وقفَ على البواترِ التى مَقاها ؛ والجواهر التى استخرجَ نُقَبَها وانتقَاها ؛ خرجَ حاجب الحاجبِ إليه ؛ وأثنى لدى ناظرِ الناظر عليهِ ؛ وقالَ لَهُ :

إنها الوافيةُ المبانِى ؛ كافيةٌ عن استماع المثانى ؛ بَيْدَ أنَّا لا نستحسنُ الإسهاب ؛ فاختصر الخطاب .

فقالَ لهُ :

ألق مِن بينِ كلِّ سطرينِ سطراً ؛ وأسطُرْ ما تخلَّفَ من المُكاتبةِ مرَّةً أُخرى ؛ تَجِدْهَا جسيمةَ الجلَل ؛ مُنَزَّهةً عن مجُاورةِ خَلَلِ الخَلَل .

فولجَ بها إلى وَحَاه ؛ وشرحَ بحَضرته ما إليهِ أوحاه ؛ فاستحسنَهُ واستراه ؛ ولو باعَ دُرَّها بدُرَرهِ لاشتراه ؛ وقال :

إنَّها لعديمةُ النظير ؛ ناظر بما يُغنى عن نَضَارةِ النضير ؛ غيرَ أنَّ إسهابهَا بَعْدُ لائح ؛ وسحابَها فى سماءِ الإطالةِ سائح .

فقالَ لهُ :

ضَع مِن بينِ كُلِّ أربعةٍ سطرين ؛ وقَدْ حَصلَ الغرضُ كلمحةِ العين ؛ ثم عليكم بها مُنافثة ؛ وإن شئتُم اختصرتُها مرَّةً ثالثة .

قال :

فحضرَ السفيرُ لديه ؛ ثُمَّ عاد مُسرعاً إليه ؛ وقالَ له :

إنَّ الملكَ قد شاء ؛ واَستجودَ الإنشاء .

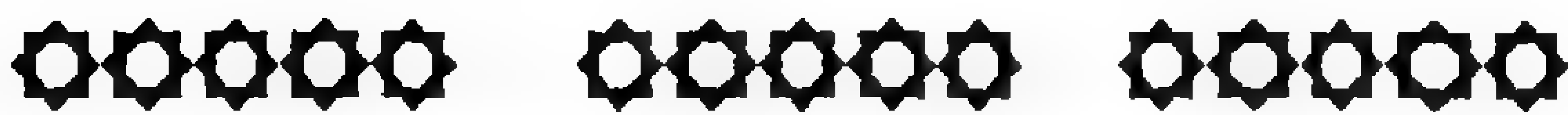
فقال لهُ :

ذَرْ مِن بينِ كُلِّ خمسة ثلاثاً ؛ واجعلْ الرَّاحةَ بيننا أثلاثاً .

فظهر بعد الوقوفِ على مذهبها ؛ والعكوفِ على رُقوم مُذهبها ؛ قائداً بغلةً رضيَّة ؛ وبدلةً قاضيةً مشفوعةً بحُلَّةٍ عبقَريَّة ؛ وبَدْرَةٍ مصريَّة .

فرفعَ الحُلَّةَ إليهِ والذهبَ إليَّ ؛ فشكرتُ على ما جادَ بِنَجَّاجهِ عليَّ ؛ وجعلتُ أعجبُ من فضلهِ النفيع ؛ وأفكِّرُ فى مُطمئنِّ الإقامةِ والرفيع .

إلى أن خرجْنَا مُتجمِّلين بحُلَّته ؛ مُتحمِّلين سحائبَ خُلَّته ؛ رافلينَ بدَنَادنِ مِنَّته ؛ قافلينَ بقلائص نعمته .





.....

ـ المقامة الثَّانِيَةُ وَالأَرْبَعُون :

❁ـ الصُّوفِيَّة الأَرْزِنْكَانِيَّة



حَدَّثَ القَاسِمُ بنُ جِريال ؛ قال :

سَمَت بى قَدَمُ الذِّمَم الوفيَّة ؛ والهِمَم الصَّفيَّة ؛ والعفَّةِ المُصطفيَّة : إلى مُصاحبةِ الصوفِيَّة : لأكتَسى صَوت صُماتِهم ؛ وأكتسبَ حُسْنَ سَمْتِهِم وسِماتِهم : فدخلتُ الحمَّامَ لأُبيدَ الوَسَخ ؛ وأُعيدَ من سُور التنظُّفِ مَا انتسخ ؛ وحِينَ حَلَقْتُ لِمَّتِى ؛ وأرقتُ ماءَ مُلِمَّتى : زَهِدْتُ فى عُنْصرِ الصَّخَب وخَصْله ؛ وصدفوِ كِيس المكاسب وخَضْله .

وقُلتُ على اسم الله هذا بفضلِهِ... ؛

فلا زلتُ مشمولاً بفَضْفاض ذا الفَضْلِ
؛ فما أسعدَ الإنسانَ إن باتَ خاليَاً

: خَليّاً مِنَ الإخوان والمالِ والأهلِ
فما الذى أغنَى الملوكَ وقد ثوتْ

تحت الثَّرَى رغماً علَى فرش المُهْلِ

. ؛ ومـاذا الـذى أبقَـى الـزَّمـانُ وصَرْفُـهُ

على مَن مضَى قُدْماً مِنَ الكُثْرِ والقُلِّ؟!!

فكـم مَـزَّقَ التفريـقُ قُمْصَاً على امرئ

وكَـم خَـدَّد الإخـوانُ خَـدّاً على خِـلِّ

. ؛ فـلا تَحْسُـدِ الـحرِّيـصَ يـوماً لـوَبْلِهِ

.. ؛ فكـم وابـلٍ أمسـى أقـلَّ مِـنَ الطَّـلِّ

وكـم رَبِّ بُخْلٍ حامَ فـى حَوْمـةِ الشَّقَا

؛ وكَـم رَبِّ ظِـلٍّ ظَلَّ فـى نـاضـر الظِّلِّ

وكـم طامـعٍ ألقـاهُ فـى الـهُونِ حِرْصُـهُ

فـأضحى سَلِيبَ العِـزِّ فـى كِفَّـةِ الـذُّلِّ

.... ؛ فـأفٍّ على أفٍّ لِـمَـن بـاتَ قَـلْبُـهُ

حليفَ مُنَىً رَهْـنَ الـمطامـع فـى قُفْلِ

قال :

فلم أزل ألامسُ أربابَ هذى الطريقةِ وألابس ؛ وأجالسُ أزهارَ هذِه الحديقةِ وأمارس ؛ وأجوبُ كُلَّ فجٍّ عَميق ؛ وأشوبُ الدَّعَةَ بكُلِّ قُطرٍ سحيق : إلى أن

مَجَّنى فم حُلقوم القَدَرِ المرقوم : إلى مدائنِ الرُّوم ؛ مع مُعاقرةِ القُرُوم ؛ فجعلتُ أجتبى بَلدةً تصلحُ لطلبى ؛ ولا تفضحُ سُتُورَ مُتَقَلَّبى ؛ ففرَّحنى الفِكرُ المُدقَّق ؛ وسرَّحنى الحِسُّ المُحقَّق : إلى استحلاس أرزنكان ؛ وقد كانَ مِن شِدَّةِ المُحافظةِ ما كان :

فدخلتُها فَرِحاً باهتزاز ؛ دُخُولَ مَن حَظِىَ بركاز ؛ أو مُنِحَ بقبض توقيع اعتزاز ؛ فبينَا أنا أطوى المَناهج ؛ واستَنْشرُ المعارج ؛ واسترشدُ الساكنَ والمارج : ألفيتُ صُوفِيَّةً صَفَت صِفتُهم صَفاء الزُّلال ؛ وصَفَت مودَّتُهم المائلةُ عنِ المَلال ؛ وأنحفهُم مُحالفةُ الاجتهاد ؛ وأسكَرهُم كأسُ سُلافِ السُّهاد ؛ فسَلَّمْتُ عليهم تسليمَ مَن وَلَجَ فى مَضيقهم ؛ وصبرَ على صبر ضُرِّ ضيقِهم : فانثالُوا إلى مُصافحتى ؛ وانهالُوا للالتحافِ بلِحافِ مُلاحفتى ؛ فَابتهجتُ بتعييدِهِم ؛ وأكرمونى إكرامَ عميدِهِم ؛ وأنا مَعَ إجادةِ تُودتِهم ؛ وَحُسَنِ مودَّتهم : أعجبُ لِجَودةِ اَرتباطِهم ؛ ولا أعلم مَن زعيمُ رِباطِهم : لإنفاقِهم من ذلكَ الإلمام ؛ واتّفاقِهم فى السَّحْلِ والإبرام ؛ وحينَ شرعَ البَشرُ فى الصَّباح ؛ وانتشرَ ريشُ جؤجؤ الفَلَق والجَناح : أخذتُ بعد نَهْلِ نعيمِهم : فى استعلام خبرِ زعيمهم :

قالوا :

أَعلم لا زلتَ عينَ العزيز ؛ مُضاعفَ التعزيز : أنَّهُ درجَ مُنذُ أيَّام قلائل !! ؛ فشققنا لفراقه الغَلائل !! ؛ وأنفقنا لتجهيزهِ الجلائل ؛ وطُفْنا بعدَ دَفْنِهِ القبائل : فلم نرَ مَن يَليقُ لَمستَنده ؛ ولا مَن يُطيقُ قَبْضَ قائم مُسنَده ؛ وأمَّا الآن فقد مَنَّ

اللهُ علينا ؛ بقـدوم قـدمِكَ إلينـا !! ؛ ونَحـنُ نَمُـدُّ إلى سمـاء إحسـانِكَ أكُفَّنـا : لتحسمَ نظرَنا عن غير زعامتِك ؛ وتكُفَّنا لِمَا شاهدْناهُ من شَرَفِ شِمالتك ؛ وعَدَم جَنُوبِك فى المُجانبة وشَمَالِك ؛ ففى قَبُولكَ أنفسُ مسرَّة ؛ وفى ضَمِّنا إليكَ أعظمُ مبرَّة !! .

فقلتُ لَهُم :

أنَّى تُظلِّلُ الدَّوْحَ الأجارعُ ؟!! ؛ وتعلو على رُؤوس السَّادةِ الأكارعُ ؟!! ؛ أم كيفَ يرتاحُ مَعَ الخلىِّ النازعُ ؟!! ؛ وتنقادُ يرَسَنِ يدِ النَّسيم الزعازعُ ؟!! .

وأنَّى لِما ذكرتُمُوهُ وجوم ؟!! ؛ فَكَم صرَع هُجُوماً هُجُوم ؟!! .

وما أمَّلتُمُوهُ فملوم !! ؛ وما منَّا إلاَّ لَهُ مَقامٌ معلوم !! .

فقالوا :

قد رأينا قُربَكَ نعيماً !! ؛ ورضيناكَ لرَهْطِنَا زعيماً ؛ فأجِبْ لِنُسعدَ بك ؛ ونكتسبَ عُقُودَ أدبِك .

قال :

فأجبتُ إلى ما سألوه ؛ وبذلتُ لَهم مِن خِزانةِ الإجابةِ ما اَستبذلوه ؛ وبينما أنا ذاتَ ليلةٍ أطْرِفُ بِما أقُول ؛ ونَشُولُ عَلَى ألسنة أسِنَّة السَّهرِ بما نقول : إذ قرعَ حلقةَ الباب ؛ مع انسكابِ الرَّباب : ضيفٌ اعتادَ الطُّرُوق ؛ واَتَّخذَ مِصباحَهُ البُروق ؛ وقال :

يا قُضَاةَ القُضاة !! ؛ وأُساةَ الأُساة !! ؛ وفُرسانَ التجمُّل !! ؛ وإخوانَ التَّملمُل !! : هل لكُم فى إيواء غَريبٍ سائح ؟!! ؛ وزهيدٍ نازح ؟!! ؛ وفقيرٍ طائح ؟!! ؛ ووقيرٍ نائح ؟!! : قد أذلَّتهُ حنادسُ لونها الحمَمُ يَسود !! ؛ وأضلَّته ضِباعُ المَضْيعةِ والأُسُود !! ؛ وهو مَعْ صَعَرِ اللّيت ؛ وصَفَر الحَميْت : مُستغنٍ عن البيت ؛ مُفتقرٌ إلى المَبيت ؟!! .

قال القاسمُ بنُ جريال :

فلمَّا نبأتْنَا بوارقُ غَمامِه : بما سيطفحُ من سُيُولِ إلمامِه ؛ وعرَّفَنا عَرْفُ عباراته ؛ بما سيتوقّدُ من حرارةِ مُحاوراته : أيقنَّا أنَّهُ مِمَّن يُثابرُ على مُناظراته ؛ ويُبادرُ إلى حلِّ حلاوةِ حُلْوِ مُحاضراته !! .

ولَمّا ردَى نحونا ورَدينا ؛ وطالعَ صُبْحُ صَباحةِ قُربه فاهتدينا : ألفينا عليهِ شِعارَ الزُّهَّاد ؛ واستشعارَ العُبَّاد ؛ وأماراتِ الجُوع ؛ وإشاراتِ الخُشُوع : فاستحضرنا نفاضـة الزبيل ؛ وملنا إلى غَمْزِ يـدهِ أو التقبيـل : مُعتـذرينَ لـذلكَ القَبيـل ؛ فأعرضَ عن النفاضة ؛ وعرَّضَ بدُخُولهِ فى الرِّياضـة ؛ ثُمَّ أقبـلَ يُسـمعُنا مـن لمحاتِ حقائقه : ما يُغنِى عَن نفحاتِ حدائقه ؛ ويَنْشُرُ مـن لَطيـفِ طرائقـه : مـا انطوَى عَن بهجةِ نُضَارِ النَّضَارةِ ورائقه : حتَّى اقتنصَ بمَخْلبِ بَراعتهِ حبَّـات البصائر ؛ وقَنَصَ عينَ عُقُولِنـا بطُـوال عرائسـه القَصـائر ؛ ونَقَصَ قطرُنَـا عنـدَ سُـحُوح سَـحائبه ؛ ورقَصَ حَبَبُ إفصـاحهِ علـى رُؤوس كُـؤوس سبائبه ؛ فشُغلنا بذلكَ الشُّهاد : عن مُراجعةِ الجِهاد ؛ واشتغلنا بذلكَ الإرواد ؛ عن مُراودةِ الأوراد .

ولَمَّا فَرَّت جَحافلُ جهادِنا ؛ وكرَّت كتائبُ رُقادِنا : انكفأ كُلٌّ إلى مرقده ؛ وقد شُدِهَ بأُسُودِ إرشاده ونقده !! ؛ فانطلقتُ بهِ إلى مَخْدَعٍ شاغر ؛ وأنا بمدح فضائلهِ أفضلُ فاغر !! ؛ فتهلَّلَ لِمُفارقته ؛ واستقبلَ قنابلَ قبلته ؛ وباتَ مُحتجباً عن الرباط ؛ لا تلجُ مُقلتُهُ بينَ خلَلِ الرَّقدةِ والرباط : حتى أوينا لطُولِ قيامه ؛ ورثينا لأُفُولُ منامِه !! ؛ وأخذنا نعجَبُ من بَدائع عاداته ؛ وَعِظَمِ طلائع عبادته !! ؛ وَنَقُول ـ حينَ حسمَ حِبالَ التهويم !! ؛ وأعجزنا بوسيم ذلكَ التسويم !! ؛ وأخرس الألسُنَ بنثرِ نثرهِ النَّظيم !! ـ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء ؛ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم ﴾ . (١).

قالَ :

وكُنتُ لَمَّا ندَّد بمعانيه ؛ وبرَّدَ بيننا لطائفَ ما يُعانيه : أظُنُّ أنَّ أبا نصرٍ جالبُ هذهِ الآيات ؛ وناصبُ قَصَبِ هذهِ الرَّايات ؛ وأنا فلا أتمَكَّنُ من تدقيق النَّظر فيه : لازدحام حِزَقِ مُعتفيه !! .

فلمَّا استبَاحَ مِن حِلائلِ سَحَرهِ ما استباح ؛ وهَزَمَ مُعسكرَ الصَّباح المصباح : ألفيتُ مَعَ صَيِّب نَصْرِنا ؛ صاحب نَصْرِنا أبا نَصرِنا !! : فأقبلتُ إليهِ إقبال العِشْرِ الشارب : على طيب مَشَارع المَشارب !! .

فقالَ لِي :

أراكَ عدَلتَ عن مَبَيع المُجْتدى ؛ واعتدلتَ عند اعوجاج المُعتدى !! .

---

(١) ـ [سُورَة آل عِمْرَان / الآيـة : ٧٤] .

فقُلتُ له :

كيف لا وسيبُ سيرتك أجتدِى ؟!! ؛ وبسَبَب سَنَنِكَ أقتدِى ؟!! ؛ ومن يهدِى اللهُ فهو المُهتدى .

فقال :

الحمدُ للهِ الذى اطلعَ فى خضراء عِفتِك غمائم جابتِه ؛ ورفع على جباهِ معرفتِك عمائمَ إجابته ؛ وندَبَك إلى طريقِ طاعته ؛ وضرَبَكَ فى قالبِ أهل إطاعته ؛ فطُوبَى لِمَن أخلصَ فى قِصاصه ؛ وتذكّرَ يومَ قَصاصه ؛ وفكّر فى خَلاصه ؛ لإتقانِ إخلاصه !! .

ثم إنه شكَرَ ذلكَ القال ؛ وشَهَرَ شبَا مشرفىٌّ قيله وقال :

لقد ضَلّ امرؤٌ أمسَى عكُوفاً
على رَاح الجَهالةِ والشُّمُوعِ
؛ يبيتُ وطَرفُهُ سامٍ طَمُوحٌ
إلى خُوْدِ المطامع والشّموعِ
ويُصبحُ قلبُهُ فى حَصْرِ حِرْصٍ
قَنيصَ نقيصَةٍ صِنوَ الـوُلُوعِ
ويُمْسِى هَمُّهُ كَسْبَ المساوى
بسُوقِ فُسُوقِهِ السَّاهى الوَلوعِ

وَيُبرقُ عقلُهُ منَ برقِ تَوْقٍ
إلى الرَّاووقِ مَمْقوت اللموع
ويَرفُلُ تائهاً فى رفْلِ ثَوْبٍ
يَشُوبُ بذمَّةِ الدَّنِسِ اللَّموع
. ؛ وتَجْذِبُ لُبَّهُ بُرةُ الأمانى
بِكَفِّ رَجائهِ الوافى القُنُوع
فيا نُعْمَى لَهُ لو ظلَّ [يَسْقِى]
بظِلِّ قُنُوطِهِ عَيْنَ القنوع

قال الراوى :

فازددتُ بأبياتهِ حماسةً ونُسكاً ؛ وقَنِعْتُ بما يكون للرَّمْقِ مُراقَة ومسكاً !! ؛ ولمَّا أسنَّ إنسانُ ليلنا ؛ وَمَنَّ المَلَلُ سِنانَ مَيْلِنا : أحضرْنا ما تخلَّفَ مِن خِواننا ؛ وأظهرْنا لَهُ ما استتر فى صِواننا ؛ فأخرجَ مَريساً مِن جرابه ؛ الذى اضطبنهَ وجرى به ؛ وقالَ لنا :

مُذْ طلَّقتُها كرهتُ بَنيهَا ؛ وكلفت بتَرْكِ مُواكليها .

فقالوا لَهُ :

فخوِّلْنَا ممَّا لديك : لتحلَّ البركةُ بحُلولِ يديك ؟!!!

فقَدَّمَ لنَا وعاء مريسه ؛ ولَم ندرِ أنهُ شَابَ حلاوةَ مريسهِ بِمُرٍّ مرمريسه ؛ وحين حصلَ بالمَعِد ؛ وشَمِلَ كُلَّ العَدد : انصرعَ كُلٌّ علَى مُصلاَّه !! ؛ وارتفعَ قَطَنُ فقارِهِ وصلاه !! .

فمالَ إلى كِسواتنا ؛ وتركنا بانحسار سوءاتنا !! ؛ ثُمَّ انسابَ بالبابِ انسيابَ الذُّباب !! .

فكُنتُ أوَّلَ مَنْ غَمِط حقَّهُ ؛ وقُصِدَ مَحْقَهُ ؛ وأطربَهُ فِلْقَهُ ؛ وصَحبَهُ دِلْقَهُ !! .





مَقَامَاتُ

جلالِ الدِّينِ السُّيُوطِيِّ

﴿ ٨٤٩ ـ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م ﴾

جـلالُ الـدِّينِ السُّيُـوطِيُّ

(٨٤٩ ـ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م)



ـ أوَّلاً :

ـ التَّعْرِيفُ بِالرَّجُل :





...

ـ جـلالُ الـدِّينِ السُّيُـوطِيُّ

(٨٤٩ ـ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م)



ـ مولده ... واسمه :

قَالَ شمس الدين السخاويُّ (ت ٩٠٢هـ) فى (الضوء اللامع لأهـل القـرن التاسع) :

﴿ عَبْدُ الرَّحْمَن بن أبى بكر بن مُحَمَّد بن أبى بكر بن عُثْمَان بن مُحَمَّد بن خَلِيل بن نصر بن الْخضر بن الهمام ؛ الْجلال بن الكَمَال بن نَاصِر الدِّين ؛ السُّيوطِيُّ الأَصْل ؛ الطولونيُّ ؛ الشَّافِعِيُّ ... ؛ ويُعرف بِابْنِ الأسيوطيِّ .

وُلِدَ فِى أول لَيْلَة مُستهل رَجَب سنة تسع وَأَرْبَعين وَثمَانِمِائَة .

وَأمُّه أَمَةٌ تُركيَّةٌ .

وَنَشَأَ يَتِيماً . ﴾ .

قال جلال الدين السيوطيُّ (ت ٩١١هـ) فى ﴿ بُغْيَة الوعاة فى طبقات اللُّغويين والنُّحاة ﴾ :

﴿ ـ أَبُو بكر بن نَاصِر الدِّين مُحَمَّد بن سَابق الدِّين أبى بكر بن فَخر الدِّين عُثْمَان بن نَاصِر الدِّين مُحَمَّد بن سيف الدِّين خضر بن نجم الدِّين أَيُّوب بن نَاصِر الدِّين مُحَمَّد بن الشَّيْخ الْعَارِف بِاللَّه تَعَالَى هُمام الدِّين ؛ الْهُمام الخُضيرىُّ ؛ السُّيوطِيُّ ؛ الشَّافِعِيُّ : وَالِدى .

الْعَلاَّمَة ذُو الْفُنُون : كَمَال الدِّين ؛ أَبُو المناقب .

وُلِدَ فِى أَوَائِل القرن ؛ بسيوط ؛ واشتغل بهَا ؛ ثُمَّ قدم الْقَاهِرَة بعد عشرين وَثمَانِمِائَة ؛ ولازم شُيُوخ العَصْر ؛ ودأب ؛ إِلَى أن برع فِى : الفِقْه ؛ والأصلين ؛ والقرآءات ؛ والحساب ؛ والنَّحو ؛ والتصريف ؛ والمعانى ؛ وَالبَيَان ؛ والمنطق ؛ وَغير ذَلِك .

ولازم التدريس والإفتاء .

وَكَانَ لَهُ فِى الإِنْشَاء يَدٌ طُولى ؛ وكتب الْخطَّ الْمَنْسُوب .

ـ وصنَّف :

١ـ حَاشِيَةً على شرح الألفيَّة لابْنِ المُصنِّف : حافلة ؛ فِى مجُلَّدين .

٢ـ وكتاباً فِى القرآءات .

٣ـ وحاشيةً على العَضُد .

٤ ـ وتعليقاً على « الإِرْشَاد » لابْنِ المُقْرِئ .

٥ ـ وحاشيةً على « أدب القَضَاء » للعزى .

٦ـ ورسالةً فِى إعْرَاب قَول « المِنْهَاج » :

« وَمَا ضُبِّبَ بِذَهَبٍ أو فضَّةٍ ضَبَّةٌ كَبِيرَة » .

٧ـ وكتاب فِى صناعَة التوقيع .

وَغير ذَلِك .

أخبرنى بعضُ أصحَابه :

أن الظَّاهِر جقمق عيَّنهُ مرَّةً لقَضَاء القُضَاة بالدِّيار المصريَّة ؛ وأرْسل يَقُول للخليفة المُستكفى بِاللَّه : قُل لصحابك يطلع نُولِّيه .

فَأرْسلَ الخَلِيفَة قَاصِداً إِلَى الوَالِد يُخبرهُ بذلك ؛ فَامْتنعَ .

قَالَ الحاكى : فكلمته فِى ذَلِك؟!! ؛ فأنشدنى :

وألذُّ من نَيْلِ الوزارة ان ترى
يَوْماً يُرِيك مصَارع الوزراءِ !!

ـ وَمن نجُباء تلامذته :

ـ الشَّيْخ فَخر الدِّين المقسىُّ .

ـ وقاضى مَكَّة بُرهَان الدِّين بن ظهيرة .

ـ وقاضيها نُور الدِّين بن أبى اليُمن .

ـ وقاضى الْمَالِكِيَّة مُحيى الدِّين بن تَقِىّ .

ـ والعلاَّمة مُحب الدِّين بن مُصيفح .

فِى آخَرين .

مَات : لَيْلَة الإِثْنَيْن ؛ خَامِس صفر ؛ سنة خمس وَخمسين وَثَمَانِمِائَة .) .

وقال السيوطىُّ فى (نظم العقيان فى أعيان الأعيان) :

(وُلِدَ فِى أَوَّل القرن تَقْرِيباً .

وَأَقْبل على العُلُوم بأنواعها ؛ فَأخذ عَن مَشَايخ عصره ؛ وبرع فِى : الفِقْه ؛ والأصلين ؛ والنَّحو ؛ وَالصَّرْف ؛ والمعانى ؛ وَالبَيَان ؛ والفرائض ؛ والحساب بأنواعه ؛ والمنطق ؛ والوثائق .

وَكَانَت لَهُ اليَد الطُّولى فِى : الإِنْشَاء ؛ مُطنباً ؛ ومُوجزاً .

درَّس وَأَفْتى سِنِين ؛ وانتفع بِهِ جمَاعَةٌ من الأَعْيَان ... ؛ وَعُرِضَ عَلَيْهِ قَضَاء مَكَّة ؛ فَأَبى .

... ؛ ورثاه شهَاب الدِّين المنصورىُّ بقوله :

مَاتَ الكَمَالُ ؛ فَقَالُوا
وَلَّى الحِجَا والجلالْ

.... ؛ فللعُيُونِ بُكَاءٌ

... ؛ وللدُّمُوعِ انهمالْ

.. ؛ وَفِى فُوآدِىَ حُزْنٌ

...... ؛ ولوعةٌ لا تزَالْ

.... ؛ للهِ علمٌ وحلمٌ

. ؛ وارتهُ تِلْكَ الرِّمالْ

. ؛ بَكَى الرَّشادُ عَلَيْهِ

.. ؛ دَمَاً وَسُرَّ الضَّلالْ

قد لاحَ فِى الْخَيْر نقصٌ

. ؛ لَمَّا مضى واختلالْ

؛ وكَيف لم نر نقصاً

. ؛ وَقد تولَّى الكَمَالْ ؟!!!

.. ؛ عُلُومُهُ راسخاتٌ

. ؛ تَزُول مِنْهَا الْجبَالْ

.... ؛ بقبره العلمُ ثَاوٍ

. ؛ وَالفضلُ والإفضالْ

...... ؛ فَلا تزَال عَلَيْهِ

تَهْمَى السَّحَابُ الثِّقَالْ) .

عَـوْدٌ عَلَى بَدْء :

قَالَ مُحيى الدِّين العَيْدَرُوس ((ت : ١٠٣٨هـ)) فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ والخضيرىُّ : نِسبَة إِلَى مَحِلَّة الخضيريَّة بِبَغْدَاد .

وَوُجِدَ بِخَطِّهِ ـ رَحِمَه الله ـ : أنه سمع مِمَّن يَثِق بِهِ ؛ أنه سمع وَالِده يذكر : أن جدَّه الأَعْلَى كَانَ أعجميًّا أو من الْمشرق .

فَلا يبعد أن النِّسْبَة إِلَى الْمَحِلَّة الْمَذْكُورَة .

وأُمُّهُ أُمُّ ولدٍ ؛ تُركيَّةٌ . ﴾ .

قَالَ مُحيى الدِّين العَيْدَرُوس ((ت : ١٠٣٨هـ)) فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ وأسيوط : مَدِينَةٌ فِى غربى النِّيل من نواحى الصَّعِيد فِى مستوى ؛ كَثِيرَة الْخيرَات ؛ أعجُوبة الْمُنتزهات !! ؛ وعجائب عماراتها وسورها مِمَّا لا يُذكر!! ؛ وَلَمَّا صُوِّرَت الدُّنيَا للرَّشيد : لم يستحسن غير كُورة أُسيوط ؛ لِكَثْرَة مَا بهَا من الْخيرَات والْمُنتزهات !! .

وَمن عجائبها أَنَّ بهَا يكش ألف فدَّان ؛ يُنشر مَاؤُهَا فِى جَمِيعهَا ؛ لاستِوَاء سطح أَرْضهَا ؛ ويسير الْمَاء فِى أقطارها .

قَالَه الْقزْوِينىُّ . ﴾ .

ثُمَّ :

قَالَ مُحيى الدِّين العَيْدَرُوس « ت : ١٠٣٨هـ » فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ وكَانَ مولده : بعد المغرب ؛ لَيْلَة الأَحَد ؛ مُستهل رَجَب ؛ سنة تسع وَأَرْبَعين وَثَمَانمِائة ؛ بِالْقَاهِرَةِ .

وكَانَ يُلقَّب بِابْن الكُتُب ؛ لأَن أَبَاهُ كَانَ من أهل العلم ؛ وَاحْتَاجَ إِلَى مُطالعة كتاب ؛ فَأمر أُمَّهُ أن تَأتيه بِالكتاب من بَين كُتُبه ؛ فَذَهَبت لتأتى بِهِ ؛ فَجَاءَهَا الْمَخَاض وَهِى بَين الكُتُب ؛ فَوَضَعته .

ثمَّ سَمَّاهُ وَالِده بعد الأُسْبُوع : عبد الرَّحْمَن ؛ ولقَّبهُ : جلال الدِّين .

وكنَّاهُ شَيْخُهُ قَاضِى القُضَاة عِزُّ الدِّين أَحْمد بن إِبْرَاهِيم الْكِنَانِىُّ لَمَّا عُرِضَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : مَا كُنيَتُك ؟ ؛ فَقَال : لا كُنية لى ؛ فقَال : أَبُو الفضل ؛ وكتبه بخَطِّهِ .﴾ .

.....

- نشأته :

قَالَ مُحيى الدِّين العَيْدَرُوس « ت : ١٠٣٨هـ » فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ وتُوفِّىَ وَالِدُهُ : لَيْلَة الاثنين ؛ خَامِس صفر ؛ سنة خمس وَسِتِّينَ وَثَمَانمِائَة ؛ وَجعل الشَّيْخ كَمَال الدِّين بن الْهُمَام وَصياً عَلَيْهِ ؛ فلحظه بنظره ودعايته ؛ وَختم الْقُرآن وسِنُّهُ دُون ثَمَان سِنِين ؛ ثُمَّ حَفِظَ « عُمْدَة الأَحْكَام » ؛ و« منهاج النَّوَوِىّ » ؛ و« أَلفيَّة ابن مَالك » ؛ و« منهاج الْبَيْضَاوِىّ » ؛

وعرضها وَهُوَ دُون الْبُلُوغ على مَشَايخ عصره ؛ وأحضره وَالِدُهُ وعُمره ثَلاث سِنِين مجْلِس شيخ الإِسْلام ابْنِ حجر مرَّةً وَاحِدَةً ؛ وَحضر وَهُوَ صَغِيرٌ مجْلِس الشَّيْخ الْمُحدِّث زين الدِّين رُضوَان الْعُتْبِىٌّ ؛ ودرس الشَّيْخ سراج الدِّين عُمر الوردىٌّ ؛ ثمَّ اشْتغل بِالْعلمِ على عدَّة مَشَايخ .

وَحَجَّ سنة تسعٍ وَستِّينَ وَثَمَانِمِائَة ؛ وَشرب من مَاء زَمْزَم لأُمُورٍ ؛ منها :

- أن يصل فِى الفِقْه إِلَى رُتْبَة الشَّيْخ سراج الدِّين البُلْقِينِىٌّ .

- وَفِى الحَدِيث إِلَى رُتْبَة الْحَافِظ ابْنِ حجر .» .

وقال السخاوىُّ :

« وَنَشَأَ يَتِيماً ؛ فحفظ : الْقُرْآن ؛ والعُمدة ؛ والمنهاج الفرعىّ ؛ وَبَعض الأَصْلِىّ ؛ وألفيَّة النَّحْو .

وَعرض فِى سنة أربع وَستِّين .

وَأخذ عَن : الشَّمْس مُحَمَّد بن مُوسَى الْحَنَفِىّ إِمَام الشيخونيَّة فِى النَّحْو ؛ وَعَن الْفَخر عُثْمَان المقسىّ ؛ والشمس البامى ؛ وَابْن الفالاتىّ ؛ وَابْن يُوسُف - أحد فضلاء الشيخونيَّة - ؛ والبُرهانين : العجلونىّ ؛ و - فِيمَا قيل - : النُّعمانىّ ؛ بَعضهم فِى الفِقه ؛ وَبَعْضهم فِى النَّحْو .

ثُمَّ ترقَّى حتَّى قَرَأَ فِى بعض الْمُتُون الْفِقْهِيَّة على العلم البُلْقِينِىٌّ ؛ وَحضر عِنْد الشَّرف الْمَنَاوِىٌّ يَسِيراً جداً ؛ ولمح لَهُ بالأدب ؛ حَيْثُ قَالَ لَهُ وَقد تألَّم من جُلُوسه فَوق (مُلا على) : كُنَّا وَنحن صغَار لا نجلس إِلاَّ خلف الْحلقَة !!.

وكَلِمَات من هَذَا النّمط .

وَحِينَئِذٍ انْقَطع ؛ وَأخذ عَن كُلٍّ من : السَّيْف ؛ والشمنىّ ؛ والكافياجىّ : الحنفيين شَيْئاً من فُنُون .

و ـ فيهَا زعم ـ عَن : الشهَاب الشارمساحىّ بعض شَرحه لمجموع الكلائىّ ؛ وَعَن الْعِزّ الميقاتىّ رِسَالَة لَهُ فِي الْمِيقَات .

وَعَن مُحَمَّد بن إبراهيم الشروانىّ الرُّومِيّ الطَّبِيب بِالْقَاهِرَةِ مُخْتَصرين فِي الطِّبّ لابْنِ جمَاعَة .

وَعَن العِزّ الْحَنْبَلِيّ دُرُوساً فِي الأُصُول من (جمع الْجَوَامِع) . انْتهى .

ولازمنى دهراً ؛ وكتب إِلَيَّ فِي نثرٍ طَوِيلٍ:

(وَقد تطفَّلنا على شُمُول سخائه ؛ وأنخنا ركاب شِدَّتنا برحاب رخائه) .

بل مدحنى بِغَيْر ذَلِك من نظمٍ ونثرٍ .

وَكَذَا تردَّد يَسِيراً جداً : للزين قَاسم الْحَنَفِيّ ؛ والبقاعىّ ؛ وتدرَّب بالشهاب المنصورىّ ؛ وَغَيره فِي النَّظم .

وَسمع على بقايا من الْمُسندين ؛ كـ : القمصىّ ؛ والحجازىّ ؛ والشاوى ؛ والملتونىّ ؛ ونشوان ؛ وَهَاجَر .

وَأَجَازَ لَهُ من حلب جمَاعَةٌ ؛ مِنْهُم :

ابْنُ مُقبل ـ خَاتِمَة من أجَاز لَهُم الصَّلاح بن أبى عمر ـ .

وَلم يُمعن الطَّلب فِي كُلّ مَا أَشرت إِلَيْه .

ثمَّ سَافر إِلَى : الفيُّوم ؛ ودمياط ؛ والمحلَّة ؛ وَنَحْوهَا ؛ فَكتب عَن جمَاعَةٍ مِمَّن ينظم ؛ كـ : المحيوى بن السَّفيه ؛ والْعَلاء بن الجندىّ الْحَنَفِيّ .

ثُمَّ إِلَى مَكَّة من البَحْر فِى ربيع الآخر سنة تسع وَسِتِّين ؛ فَأخذ قَلِيلاً عَن الحيوىّ عبد القَادِر المَالِكِىّ ؛ واستمدَّ من صاحبنا النَّجْم بن فَهد ؛ فِى آخَرين .

وَأَذِنَ لَهُ غيرُ وَاحِدٍ فِى الإفادة والتدريس . ﴾ .

قَالَ نجمُ الدِّين الغُزِّىُّ « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :

﴿ شرع فى الاشتغال فى العلم من ابتداء ربيع الأول سنة أربع وستين وثمانمائة ؛ فقرأ على الشيخ شمس الدِّين محمد بن موسى السيرائىّ « صحيح مسلم » ؛ إلا قليلاً منه ؛ و « الشِّفاء » ؛ وقرأ عليه « ألفيَّة ابن مالك » حلاً ؛ فما أتمَّها إلا وقد صنَّف ؛ وأجازه بالعربيَّة ؛ ثُمَّ قرأ عليه قطعةً من « التسهيل » ؛ وسمع عليه الكثير من ابن المُصنِّف ؛ و « التوضيح » ؛ و « شرح الشُّذُور » ؛ وفى « المُغنى » فى أُصُول فقه الحنفيَّة ؛ و « شرح العقائد » للتفتازانىّ .

وقرأ على الشيخ الإمام الصالح شمس الدين محمد بن الشيخ سعد الدين بن سعد بن خليل المرزبانىّ الحنفىّ « الكافية » لابن الحاجب ؛ و « شرحها » للمُصنِّف ؛ و « مُقدِّمة إيساغوجى » فى المنطق ؛ و « شرحها » للكانى ؛ وقطعةً من « كتاب سيبويه » حلاً ؛ وسمع عليه من « المُتوسِّط » و « الشَّافية » ؛ و « شرحها » للجاربردىّ ؛ ومن « ألفيَّة العراقىّ » ؛ ولزمه حتى مات سنة سبع وثمانمائة .

وقرأ فى الفرائض والحساب على علاَّمة زمانه : شهاب الدِّين أحمد بن علىٍّ الشارمساحىٍّ .

ثم لَزِمَ درس شيخ الإسلام العَلَم صالح البُلْقِينِىٍّ من شوال سنة خمس وستين وثمانمائة ؛ فقرأ عليه من أول « التدريب » لوالده السِّراج البُلقينىِّ إلى باب الوكالة ؛ وسمع عليه من أول « الحاوى » إلى باب العدد ؛ وغالب « المنهاج » و « التنبيه » ؛ وقطعة من « الرَّوضة » ؛ وقطعة من « التكملة » للزركشىِّ .

وَلَزِمَ أيضاً درس شيخ الإسلام الشَّرف المناوى ؛ فقرأ عليه من « المنهاج » ؛ وسمعه عليه كاملاً فى التقسيم ؛ وسمع عليه الكثير من « شرح البُهجة » للعراقىِّ ؛ ومن « تفسير البيضاوىّ » ؛ وغيره ؛ ولزمه إلى أن مات .

وَلَزِمَ دُرُوس العلاَّمة مُحَقِّق الدِّيار المصريَّة : سيف الدِّين محمد بن محمد الحنفىِّ ؛ وسمع عليه دُرُوساً عديدة من « الكشَّاف » .

وَلَزِمَ درس العلاَّمة التَّقىِّ الشُّمُنِّىِّ من شوَّال سنة ثمان وستين وثمانمائة ؛ وسمع عليه « المُطوَّل » ؛ و « التوضيح » ؛ و « المُغنى » ؛ و « حاشيةً عليه » و « شرح المقاصد » للتفتازانىِّ ؛ وقرأ عليه من الحديث كثيراً ؛ ومن عُلُومه : « شرحه على نظم النُّخبة » لوالده .

وَلَزِمَ أيضاً دُرُوس العلاّمة المُحيوىّ محمد بن سليم الكافيجىّ ؛ وقرأ عليه « شرح القواعد » له ؛ وأشياء من مُختصراته ؛ وسمع عليه من « الكشّاف » و « حواشيه » ؛ و « المُغنى » ؛ و « توضيح » صدر الشّريعة ؛ و « التلويح » للتفتازانىّ ؛ و « تفسير البيضاوىّ » ؛ وغير ذلك .

وقرأ على قاضى القُضاة العِز أحمد بن إبراهيم الكنانىّ قطعةً من « جمع الجوامع » لابن السُّبكىّ ؛ وقطعةً من « نظم مُختصر ابن الحاجب » ؛ و « شرحه » : كلاهما تأليفه .

وقرأ فى الميقات على :

ـ الشيخ مجد الدِّين إسماعيل بن السباع .

ـ وعلى الشيخ عِز الدِّين عبد العزيز بن محمد الميقاتىّ .

وقرأ فى الطّبّ على محمد بن إبراهيم الدوانىّ .

قدم عليهم القاهرة من الرُّوم .

وحضر عند الشيخ تقىّ الدِّين أبى بكر بن شادى الحصكفىّ كثيراً .

وقرأ على الشيخ شمس الدين البانى دُرُوساً من « المنهاج » من كتاب الخراج إلى باب الجزية ؛ وشيئاً من « البُهجة » .

وَأُجيزَ بالإفتاء والتدريس .

وقد ذكر تلميذه الداوودىُّ فى ترجمة أسماء شيوخه : إجازةً ؛ وقراءةً ؛ وسماعاً : مُرتَّبين على حُرُوف المُعجم ؛ فبلغت عدتهم : أحداً وخمسين نفساً . ﴾ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيُّ (ت ١٢٥٠هـ) فى ﴿ البدر الطالع : بمحاسن من بعد القرن السابع ﴾ :

﴿ وَأَجَازَ لَهُ أكَابِر عُلَمَاء عصره من سائر الأَمْصَار .

برز فى جَمِيع الفُنُون ؛ وفَاق الأقران ؛ واشتهر ذكره ؛ وَبعُدَ صيتُه ؛ وصنَّف التصانيف المُفيدة . ﴾ .

.....

ـ مُصَنَّفَاتُ الجَلالِ السُّيُوطِيِّ :

قَالَ نجمُ الدِّين الغُزِّيُّ « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :

﴿ ... ؛ صاحب المُؤلَّفات الجامعة ؛ والمُصنَّفات النَّافعة . ﴾ .

وقال :

﴿ وألَّف المُؤلَّفات الحافلة ؛ الكثيرة ؛ الكاملة ؛ الجامعة ؛ النَّافعة ؛ المُتقنة ؛ المحرَّرة ؛ المُعتبرة .

نيَّفت عِدَّتها على : خمسمائة مُؤلَّف ؛ وقد استقصاها الداووديُّ فى ترجمته ؛ وشُهرتها تُغنينا عن ذكرها هُنا .

... ؛ وقد اشتهر أكثر مُصنَّفاته فى حياته فى البلاد : الحجازيَّة ؛ والشاميَّة ؛ والحلبيَّة ؛ وبلاد الرُّوم ؛ والمغرب ؛ والتكرور ؛ والهند ؛ واليمن .

وكان فى سُرعة الكتابة والتأليف آيةً كُبرى من آيات الله تعالى !! .

قال تلميذه الشمس الداوودىُّ : عاينتُ الشيخَ ؛ وقد كتب فى يومٍ واحدٍ : ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً !! ؛ وكان مع ذلك يُملى الحديث !! ؛ ويُجيب عن المُتعارض منه بأجوبةٍ حسنة !!.﴾ .

قَالَ مُحيى الدِّين العَيْدَرُوس « ت: ١٠٣٨هـ » فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ ووصلت مُصنَّفاتُهُ نَحْو الستمائة مُصنَّفاً ؛ سوى مَا رَجَعَ عَنهُ وغسله .﴾ .

يقول الدُّكتور عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ فى « كناشة النوادر » ؛ (صـ: ٨٩ ـ ٩٠) :

﴿ ولعلَّ من ألمع المُؤلِّفين فى العُصُور القريبة :

العلاَّمة ابن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢) .

وجلال الدين السيوطىّ (٨٤٩ ـ ٩١١) ؛ الذى يقول :

« شرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين وثمانمائة ـ أى فى السابعة عشرة من عمره ـ ؛ وبلغت مُؤلَّفاتى إلى الآن : ثلثمائة كتاب ؛ سوى ما غسلته ورجعت عنه . » .

وقد استمرَّ السيوطىُّ بعد مقاله هذا يكتب ويُؤلِّف ؛ وقد عَدَّ له بروكلمان : ٤١٥ مُصنَّفاً ما بين مطبوعٍ ومخطوط ؛ والعلاَّمة فلوجل : ٥٦٠ مُصنَّفاً ؛ وذكر له الأُستاذ جميل العظم : ٥٧٦ مُصنَّفاً بين كُتُبٍ ورسائل ومقامات .

وفى تاريخ ابن إياس : أن مُؤلَّفاته بلغت ستمائة مُؤلَّف ؛ منها (عقود الجوهر : فى من لهم خمسون تصنيفاً ؛ فمائة ؛ فأكثر) .

وكان السيوطىُّ قد برع فى عُلُومٍ كثيرةٍ ؛ وكان علم الحساب والمنطق فى موقعٍ منه يخشاه ويتهيَّبه ؛ يقول :

« وأما علم الحساب : فهو أعسر شئٍ علىَّ وأبعده عن ذهنى ؛ وإذا نظرت فى مسألةٍ تتعلَّق به ؛ فكأنما أحاول جبلاً أحمله !! . » .

ويقول أيضاً :

« وقد كُنتُ فى مبادئ الطلب قرأت شيئاً فى علم المنطق ؛ ثم ألقى الله كراهته فى قلبى ؛ وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه ؛ فتركته لذلك ؛ فعوَّضنى الله تعالى عنه علم الحديث ؛ الذى هو أشرف العُلُوم . » .

ويروى لنا السيوطىُّ فى ترجمة إسماعيل بن أبى بكر اليمنىِّ : أنه كان غايةً فى الفهم والذَّكاء ؛ صنَّفَ كتاباً سمَّاه : (عنوان الشرف) : مجموعة فى الفقه ؛ وفيه أربعة علوم غيره ؛ تخرج من رموزه فى المتن ؛ عجيب الوضع !! ؛ وهو : نحو ؛ وتاريخ ؛ وعروض ؛ وقواف : فى خمس كراريس ؛ فى كامل الشامى .

ثم يقول السيوطىُّ عن نفسه :

« وقد عملتُ كتاباً على هذا النمط فى كُرَّاسةٍ واحدةٍ فى يومٍ واحدٍ وأنا بمكَّة المُشرفَّة ؛ وسمَّيته : (النَّفحة المسكيَّة والمنحة المكيَّة) ؛ جعلته مجموعة فى النحو ؛ وفيه : عروض ؛ ومعان ؛ وبديع ؛ وتاريخ .

ولا ريب أنَّ هذا عملٌ عبقريٌّ يفخر به التأليف العربيُّ . ﴾ .أهـ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيُّ (ت١٢٥٠هـ) فى ﴿ البدر الطالع : بمحاسن من بعد القرن السابع ﴾ :

﴿ صنَّف التصانيف المُفيدة .

... ؛ وتصانيفه فى كُلِّ فَنٍّ من الفُنُون مَقْبُولَة ؛ قد سَارَت فى الأقطار مسير النَّهَار . ﴾ .

قَالَ مُحْيِى الدِّين العَيْدَرُوس « ت : ١٠٣٨هـ » فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ ـ وَمِن تصانيفه :

١ـ الدُّرُّ المنثور فِى التَّفْسِير بالمأثور : اثنى عشر مُجلَّداً .

٢ـ تناسق الدُّرَر فِى تناسُب السُّور .

٣ـ حاشية على البَيْضَاوِىِّ إلى الإسراء .

٤ـ الأزهار الفائحة على الفَاتِحَة .

٥ ـ المعانى الدقيقة فِى إدْرَاك الْحَقِيقَة .

٦ـ إتمام النِّعْمَة فِى اخْتِصَاص الإسْلام بِهَذِهِ الأُمَّة .

٧ـ الدِّيباج على صَحِيح مُسلم بْنِ الْحجَّاج .

٨ ـ كشف المُغطَّا فِى شرح المُوطَّا .

٩ـ تنوير الحوالك على مُوطَّأ مَالك .

١٠ـ البُدُور السَّافرة عَن أُمُور الآخِرَة .

١١ـ نتيجة الْفِكْر فِى الْجَهْر بِالذّكْر .

١٢ـ تزيين الآرائك فِى إرْسَاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى الملائك .

١٣ـ مسالك الحُنَفَا فِى إِسْلام وَالِدى الْمُصْطَفى .

١٤ـ نشر العَلَمَيْن المُنيفَيْن فِى إحْيَاء الأَبَوَيْنِ الشريفين .

١٥ـ ذَمُّ الْقَضَاء .

١٦ـ ذَمُّ زِيَارَة الأُمَرَاء .

١٧ـ التنفيس عَن ترك الإفتاء والتدريس .

١٨ـ الأَحَاديث الحِسَان فِى فضل الطَّيْلَسَان .

١٩ـ طىُّ اللِّسَان عَن ذَمِّ الطَّيْلَسَان .

٢٠ـ التضلُّع فِى معنى المتقنع .

٢١ـ عين الإصابة فِى مَا استدركته عَائِشَة على الصَّحَابَة .

٢٢ـ الاحتفال بالأطفال .

٢٣ـ مَا رَوَاهُ الأساطين فِى عدم الْمَجِىء إِلَى السلاطين .

٢٤ـ الأوج فِى خبر عوج .

٢٥ـ الوديك فِى الديك .

٢٦ـ الطرثوث فِى فَوَائِد البُرْغُوث .

٢٧ـ وَله مُخْتَصر نِهَايَة ابْنِ الأَثِير .

٢٨ـ الْيَنْبُوع فِيمَا زَاد على الرَّوْضَة من الفُرُوع .

٢٩ـ مُخْتَصر الْخَادِم .

٣٠ـ مُختصر الأحْكَام السُّلْطَانِيَّة .

٣١ـ شرح الرَّوْض لابْنِ الْمقرى .

٣٢ـ شرح التَّنْبِيه : مُخْتَصَر .

٣٣ـ البهجة المرضيَّة فِى شرح الألفيَّة : ممزوج .

٣٤ـ المسائل الوفيَّة فِى نُكت الحاجبتين والألفيَّة : على منوال التَّحْرِير للشَّيْخ ولىِّ الدِّين العِرَاقِىِّ على الكُتُب الثَّلاثَة فِى الْفِقْه ؛ جَامعٌ لكُلِّ مَا يَرِد على عبارتها ؛ وَمَا ناقضوه فِى غَيرهَا من مُصنَّفاتهم ؛ مَعَ مَا أمكن من الْجَواب .

ـ وَمن تصانيفه :

٣٥ـ السَّيْف الصَّقِيل فِى نُكَت شرح الألفيَّة لابْنِ عقيل .

٣٦ـ الفَتْح القَرِيب على مُغْنِى اللبيب .

٣٧ـ جمع الْجَوَامِع فِى الْعَرَبِيَّة .

٣٨ـ شَرحه همع الهوامع .

٣٩ـ المرقاة العليَّة فِى شرح الأَسْمَاء النَّبَوِيَّة .

٤٠ ـ شَرح الشاطبيَّة : ممزوج .

٤١ ـ نظم جمع الْجَوَامِع فِى الأُصُول .

٤٢ـ شَرحه .

٤٣ـ الطِّبُّ النَّبوِىُّ .

٤٤ـ طبقات الْحُفَّاظ .

٤٥ ـ طبقات الشَّافِعِيَّة .

٤٦ ـ طبقات النُّحَاة .

٤٧ ـ أُنمُوذج اللبيب فِى خَصَائِص الحبيب .

٤٨ـ الحُجَج المُبِينَة فِى التَّفْضِيل بَين مَكَّة وَالْمَدِينَة .

٤٩ ـ الإكليل فِى استنباط التَّنْزِيل .

٥٠ ـ فتح الإله فِى التَّفصِيل بَين الطَّواف وَالصَّلاه .

٥١ ـ البارع فِى إقطاع الشَّارع .

٥٢ ـ كشف الصبابة فِى مَسْأَلَة الاسْتِنَابَة .

٥٣ ـ حُسْنُ الْمَقْصِد فِى عمل المولد .

٥٤ ـ تشنيف الأَركان فِى : « لَيْسَ فِى الإمكان أبدع مِمَّا كَانَ » .

٥٥ ـ فجر الدياجى فِى الأحاجى .

٥٦ ـ نُزهة الجُلساء فِى أشعار النِّسَاء .

٥٧ ـ شرح الصُّدُور بشرح أَحْوَال الْقُبُور .

٥٨ ـ وَله تَعْلِيقٌ لطيفٌ على البُخَارِىِّ .

وَله غير ذَلِك ؛ لَكِن كثيراً من مُؤلَّفاته هَذِه الْمَذْكُورَة صَغِيرَة ؛ وَبَعضهَا فِى كُرَّاسٍ وكُرَّاسين . ﴾ .

.....

ـ ثَنَاءُ الأَئِمَّةِ عَلَى الجَلالِ السُّيُوطِىِّ :

قَالَ نجمُ الدِّين الغَزِّىُّ « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :

﴿ الشيخ ؛ العلاّمة ؛ الإمام ؛ المحُقّق ؛ المُدقّق ؛ المسند ؛ الحافظ ؛ شيخ الإسلام . ﴾.

وقَالَ نجمُ الدِّين الغَـزِّىُّ - أيْضاً - « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :

﴿ وكان أعلم أهل زمانه : بعلم الحديث ؛ وفُنُونه ؛ ورجاله ؛ وغريبه ؛ واستنباط الأحكام منه .

وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مئتى ألف حديث ؛ قال : ولو وجدت أكثر لحفظته .

قال : ولعله لا يُوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك . ﴾.

قَالَ نجمُ الدِّين الغُزِّىُّ « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :

﴿ ولو لم يكُن له من الكرامات إلا كثرة المُؤلّفات ؛ مع تحريرها وتحقيقها : لكفى ذلك شاهداً لمن يُؤمن بالقدر .

وله شعرٌ كثيرٌ ؛ كثيره مُتوسِّط ؛ وجيِّده كثير ؛ وغالبه فى الفوائد العلميَّة ؛ والأحكام الشَّرعيَّة . ﴾ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِىٍّ الشَّوْكَانِىُّ (ت ١٢٥٠هـ) فى ﴿ البدر الطالع : بمحاسن من بعد القرن السابع ﴾ :

﴿ الإمام الْكَبير ؛ صَاحب التصانيف . ﴾ .

قال ابن العماد الحنبلىُّ (ت ١٠٨٩هـ) فى ﴿ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ﴾ :

« الحافظ .. ؛ المُسْنِد ؛ المُحقّق ؛ المُدقّق ؛ صاحب المُؤلّفات الفائقة النافعة . » .

قال خير الدِّين الزركلىُّ (ت ١٣٩٦هـ) فى « الأعـلام » :

« إمامٌ ؛ حافظٌ ؛ مُؤرِّخٌ ؛ أديب . » .

.....

ـ معركته مع الشَّمْسِ السخاوىِّ :

قَالَ مُحيى الدِّين العَيْدَرُوس « ت : ١٠٣٨هـ » فى « النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر » :

« وَمن شعره مُضمِّناً لمصراعٍ من البُردَة ؛ وَهُوَ مِمَّا كتب بِهِ إِلَى الْحَافِظ السَّخاوىِّ مُتحامِلاً ومُعرِّضا بِهِ :

قُل للسَّخاوىِّ إِن تَعْرُوكَ مُشكلةٌ
علمى كبحرٍ من الأمواج مُلتطمِ
والحافظ الديمىُّ غيث الزَّمَان فَخذ
غرفاً من البَحْر أو رشفاً من الدِّيَمِ

... ؛ وكَانَ بَينه وبَين الْحَافِظ السخاوىِّ مُنافرةٌ كمَا يكون بَين الأكابر . » .

قال شمس الدين السخاوىُّ (ت ٩٠٢هـ) فى « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » :

« وساعده الْعلم الْبُلْقِينِىُّ حَتَّى بَاشر تصدير الفِقْه بالجامع الشيخونىِّ الْمُتلقَّى لَهُ عَن أَبِيه ؛ وَحضر مَعَه أحلاسه فِيه .

ثُمَّ الجمع وتمشيخ ؛ وخاض فِى فُنُون ؛ خُصُوصا هَذَا الشَّأن .

واختلس حِين كَانَ يتَردَّد إِلَىَّ مِمَّا عملته كثيراً ؛ كـ : (الخصال المُوجبَة للظلال) ؛ و(الأسماء النَّبوِيَّة) ؛ وَ(الصَّلاة على النَّبىِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ) ؛ وَ(مَوْت الأَبْنَاء) ؛ وَمَا لا أحصره !!.

بل أخذ من كُتُبِ المحموديَّة وَغيرهَا كثيراً من التصانيف المُتَقَدِّمَة الَّتِى لا عهد لكثيرٍ من العصريين بهَا فِى فُنُون !! ؛ فَغيَّر فِيهَا يَسِيراً ؛ وَقدَّم ؛ وَأَخَّـر ؛ ونسبها لنَفسِهِ !! ؛ وهوَّل فِى مُقدِّماتها بِمَا يتَوَهَّم مِنْهُ الجَاهِلُ شَيْئاً مِمَّا لا يُوفى بِبَعْضِه !!.

وَأوَّل مَا أبرز : جُزْءاً لَهُ فِى تَحْرِيم المنطق ؛ جرَّدهُ من مُصَنَّفٍ لابْنِ تَيْمِية ؛ واستعان بِى فِى أَكْثَره ؛ فَقَامَ عَلَيْهِ الفُضَلاء ؛ بِحَيْثُ كَفَّهُ العَلَمُ البُلْقِينِىُّ عَنهُ ؛ وَأخذ مَا كَانَ استَكْتَبَهُ بِهِ فِى المسئلة .

وَلَوْلا تلطُّفى بِالْجَمَاعَة : كالأبناسىِّ ؛ وَابْنِ الفالاتىِّ ؛ وَابْنِ قَاسم : لَكَانَ مَا لا خير فِيهِ .

وَكَذَا درَّسَ جمعاً من العَوام بِجَامِعِ ابْنِ طُولون !! ؛ بل صَار يُملى على بَعضهم مِمَّن لا يحُسن شَيْئاً !! ؛ بِحَيْثُ كَانَ ذَلِك وَسِيلَة لِمساعدة وَصِيِّه شهَاب الدِّين بن الضباح ؛ حَيْثُ ربَّاه عِنْد برسباى أُستادار الصُّحْبَة ؛ فَلَزِمَ إينال الأشْقَر رَأس نوبَة النوب ؛ حَتَّى قَرَّرَهُ فِى تدريس الحَدِيث بالشيخونيَّة بعد وَفَاة الفَخر عُثْمَان المقسىِّ مَعَ تَركه ولداً .

وَكَذَا استَقرَّ فِى الإسماع بهَا ؛ وَلَيْسَ بِمُوافقٍ شَرط الوَاقِف فيهمَا !!.

وَفِى مشيخة التصوُّف بتُربة برقوق نَائِب الشَّام الَّتِى بِبَاب القرافة ؛ بعناية بلديِّهِ أبِى الطَّيِّب السُّيُوطِىِّ ؛ وَغير ذَلِك !!.

كُلُّ هَذَا مَعَ أنه لم يصل ؛ وَلا كَاد !! ؛ وَلذَا قيل : إِنَّهُ تزبَّب قبل أن يتحصرم !!.

وَأطلق لِسَانه وقلمه فِى شُيُوخه فَمن فَوْقهم !! ؛ بِحَيْثُ قَالَ عَن القَاضِى الْعَضُد : إِنَّه لا يكون ضعنة فِى نعل ابْنِ الصَّلاح !!.

وعُزِّرَ على ذَلِك من بعض نُوَّاب الْحَنَابِلَة بِحَضْرَة قاضيهم .

وَنقَّص السَّيِّد والرَّضِىَّ فِى النَّحْوِ بِمَا لم يُبد مُستنداً فِيهِ مَقْبُولاً !! ؛ بِحَيْثُ أنه أظهر لبَعض الغُرباء الرُّجُوع عَنهُ ؛ فإنه لـمَّا اجْتمعَا ؛ قَالَ لَهُ : قُلْتَ إِن السَّيِّد الْجرْجَانِىَّ قَالَ : إِن الْحَرْف لا معنى لَهُ أصلاً ؛ لا فِى نَفسه ؛ وَلا فِى غَيره ؛ وَهَذَا كَلام السَّيِّد نَاطِقٌ بتكذيبك فِيمَا نسبته إِلَيْهِ !! ؛ فأوجدنا مُستندك فِيمَا زعمته ؟!!

فَقَالَ : إنني لم أر لَهُ كلاماً ؛ ولكنني لَمَّا كُنتُ بِمَكَّة تجاريت مَعَ بعض الْفُضَلاء الْكَلام فِى الْمَسْأَلَة ؛ فَنقل لى مَا حكيته ؛ وقلَّدته فِيهِ .

فَقَال : هَذَا عَجِيبٌ مِمَّن يتَصَدَّى للتصنيف !! ؛ كَيفَ يُقَلِّد فِى مثل هَذَا مَعَ هَذَا الأُستَاذ !! . انْتهى .

وَقَال : إن من قَرَأَ الرَّضِىَّ وَنَحْوه لم يترق إِلَى دَرَجَة أن يُسمَّى مُشاركاً فِى النَّحْو !!.

وَلا زَالَ يسترسل حَتَّى قَال : إِنَّه رُزِقَ التبحُّر فِى سَبْعَة عُلُوم : التَّفْسِير ؛

والْحَدِيث ؛ وَالفِقْه ؛ والنَّحو ؛ والمعانى ؛ وَالبَيَان ؛ والبديع . !! .

قَال : « وَالَّذِى أعتقده أن الَّذِى وصلت إِلَيْهِ من هَذِه الْعُلُوم السِّتَّة سوى الفِقْه والنُّقُول الَّتِى اطَّلَعت عَلَيْهَا وفيهَا : لم يصل إِلَيْهِ وَلا وقف عَلَيْهِ أحدٌ من أشياخى فضلاً عَن من دُونهم . !!.

قَال : وَدُون هَذِه السَّبْعَة فِى المعرفَة : أُصُول الفِقْه ؛ والجدل ؛ وَالصَّرْف .

ودُونها : الإنشاء ؛ والترسُّل ؛ والفرائض .

ودُونها : القرآءَات ؛ وَلم آخذها عَن شيخٍ .

ودُونها : الطِّب .

وَأمَّا الْحساب ؛ فأعسرُ شَىءٍ عَلىَّ وأبعده عَن ذهنى !! ؛ وَإِذا نظرتُ فِى مسئلةٍ تتَعَلَّق بِهِ ؛ فَكَأَنَّمَا أُحاول جبلاً أحملهُ !! . » .

قَال :

« وَقد كَمُلَت عِنْدِى آلات الاجْتِهَاد بِحَمْد الله . !! . » .

إِلَى أن قَال :

« وَلَو شِئْتُ أَن أكتُبَ فِى كُلِّ مسئلةٍ تصنيفاً : بأقوالها ؛ وأدلَّتها النقليَّة ؛ والقياسيَّة ؛ ومداركها ؛ ونُقُوضها ؛ وأجوبتها ؛ والْمُقارنة بَين اخْتِلاف الْمذَاهب فِيهَا : لقدرت على ذَلِك . » . !!.

وَقَال :

« إِنَّ الْعلمَاء الْمَوْجُودين يُرتِّبُون لَهُ من الأسئلة أُلُوفاً !! ؛ فَيكْتُب عَلَيْهَا أجوبةً على طَرِيقَة الاجْتِهَاد !! ؛ وَأنه يُرتِّب لَهُم من الاسئلة بِعَدَد العشر ؛ فَلا

ينهضوا !!.

وأفرد مُصنَّفاً فِى تيسير الاجْتِهَاد لتقرير دَعْوَاهُ فِى نَفسه !! .

وَمَا أحسن قَول بعض الأُستاذين فِى الْحساب مَا اعترف بِهِ عَن نَفسه مِمَّا يُوهم بِهِ أنه مُصَنِّف أدل دَلِيلٍ على بلادته وبُعْدِ فهمه ؛ لتصريح أئِمَّة الفَنِّ بِأَنَّهُ فنُّ ذكاءٍ ؛ وَنَحْو ذَلِك ؛ وكَذَا قَول بَعضهم : دَعْوَاهُ الاجْتِهَاد ؛ ليستر خطأه !!.

وَنَحْو هَذَا قَوْله وَقد اجْتمع مَعَه بعض الْفُضَلاء ؛ وَرَامَ التَّكَلُّم مَعَه فِى مسئلة : « لَيْسَ فِى الإمكان » : إِنَّ بضاعتى فِي علم الكَلام مُزجاة .

وَقَول آخر لَهُ : اعلمنى عَن آلات الاجْتِهَاد ؟!! : أما بَقِىَ أحدٌ يعرفهَا ؟!!

فَقَالَ لَهُ : نعم ؛ بَقِىَ من لَهُ مُشَارَكَةٌ فِيهَا ؛ لا على وَجهِ الاجْتِمَاع فِى وَاحِدٍ ؛ بل مُفرَّقاً .

فَقَالَ لَه : فاذكرهم لى وَنحن نجمعهم لَك ونتكلَّم مَعَهم ؟!! ؛ فإن اعْترف كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم لَك بِعِلْمِهِ وتمَيُّزك فِيهِ : أمكن أن نُوافقك فِى دعواك ؟!!.

فَسكت وَلم يُبد شَيْئاً !!.

وَذكر :

أن تصانيفيه زَادَت على ثلثمائة كتاب !! ؛ رَأَيْت مِنْهَا مَا هُوَ فِى ورقةٍ !! ؛ وَأَمَّا مَا هُوَ دُون كُرَّاسة ؛ فكثير !!.

ـ وَسمَّى مِنْهَا :

«شرح الشاطبيَّة» ؛ و«ألفيَّة فِي القْرآءات العشْر» ؛ مَعَ اعترافه بِأَنَّهُ لا شيخ لَهُ فِيهَا !! .

ـ وفيهَا مِمَّا اختلسه من تصانيف شَيخنَا :

«لُبَاب النُّقُول فِي أَسبَاب النُّزُول» .

وَ: «عين الإصابة فِي معرفَة الصَّحَابَة» .

و: «النُّكت البديعات على الموضوعات» .

و: «المُدرج إِلَى المُدرج» .

و: «تَذْكِرَة المُؤتسى بِمن حدَّث وَنسِى» .

و: «تحُفَة النَّابه بتلخيص المُتَشَابه» .

و: «مَا رَوَاهُ الواعون : فِي أَخْبَار الطَّاعُون» .

و: «الأساس فِي مَنَاقِب بني العبَّاس» .

و: جُزء فِي «أَسمَاء المُدلِّسين» .

و: «كشف النِّقاب عَن الألقاب» .

و: «نشر العبير فِي تَخْرِيج أَحَاديث الشَّرْحِ الْكَبِير» !! .

فَكُلُّ هَذِه تصانيف شَيخنَا !!.

وليته إِذ اختلس لم يمسخها !! ؛ وَلَو نسخهَا على وَجههَا لَكَانَ أَنْفَع !!.

وفيهَا مِمَّا هُوَ لغيره الكثير !! ؛ هَذَا إِن كَانَت المُسميَّات مَوْجُودَة كلهَا ؛ وَإِلاَّ فَهُوَ كثير المُجَازفة !! .

جَاءَنِى مرَّةً وَزعم أنه قرَأ «مُسْنَد الشَّافِعِىّ» على القمصىِّ فِى يَوْمٍ ؛ فَلَم يلبث أن جَاءَ القمصىُّ وَأَخبرنِى مُتَبَرِّعاً بِمَا تضمَّن كذبه !! ؛ حَيْثُ بَقِىَ مِنْهُ جانبٌ !!.

وكَذَا حكى عَن الكَمَال أخى الْجلال الْمَحَلِىّ مناماً ؛ كذَّبهُ الْكَمَال فِيهِ !!.

وَقَالَ لى البَدْرُ قَاضِى الْحَنَابِلَة : لم أره يقرَأ على شَيْخى فِى « جمع الْجوَامِع » ؛ مَعَ شِدَّة حرصى على مُلازمته !! ؛ نعم كَانَ يقْرَأ عَلَيْهِ فِيهِ خير الدِّين الريشىُّ النَّقِيب .

فَقُلتُ : فَلَعَلَّهُ كَانَ يحضر مَعَه ؟!!.

فَقَال : لم أرَ ذَلِك !!.

وَقَال : إنه عمل « النَّفحة المسكيَّة والتُّحفة المكيَّة » فِى كُرَّاسةٍ وَهُوَ بِمَكَّة على نمط « عُنوان الشَّرف » لابْنِ الْمقرى فِى يَوْمٍ وَاحِدٍ !! ؛ وَإِنَّهُ عمل « ألفيَّة فِى الحَدِيث » : فائقة ألفيَّة العِرَاقِىِّ !! .

إِلَى غير ذَلِك مِمَّا يطول شَرحه !!.

كَقَوْله مِمَّا يُصدِّق أن آفَة الْكَذِب النِّسْيَان فِى مَوضِعٍ : أنه حفظ بعض « الْمِنْهَاج الأَصْلِىّ » ؛ وَفِى آخر : « أنه حفظ جَمِيعه » !! .

وَأنه بعد موت شَيخنَا انْقَطع الإملاء حَتَّى أَحيَاهُ !!.

وزعمه أن الْمُبْتَدِئ بتقريره فِى الشيخونِيَّة هُوَ الكافياجىّ ؛ مَعَ قَوْله لى غير مرَّة : وَالله لَو لم يُقرر النَّاظر التُّركىّ أَو كُنتُ مُنْفَرداً بِالأَمر مَا قَدَّمته ؛ لعلمى بانفراد غَيره بِالاسْتِحْقَاق !!.

كُلُّ ذَلِك مَعَ كَثْرَة مَا يَقع لَهُ من التحريف والتصحيف !! ؛ وَمَا ينشأ عَن عدم فهم المُرَاد !! ؛ لكَونه لم يُزاحم الْفُضَلاء فِي دُرُوسهم ؛ وَلَا جلس بَينهم فِي مسائهم وتعريسهم ؛ بل استبدَّ بِأَخْذِهِ من بُطُون الدفاتر والكُتُب ؛ وَاعْتمد مَا لا يرتضيه من الإتقان صَحْب !!.

وَقد قَامَ عَلَيْهِ النَّاس كَافَّةً لَمَّا ادَّعى الاجْتِهَاد .

وصنَّف هُوَ :

ـ « اللَّفْظ الْجَوْهَرِي فِي رَدِّ خُبَاط الْجَوْجَرِي »

ـ وَ« الْكر فِي خباط عبد البَر »

ـ وَ« غَضب الجَبَّار على ابْنِ الأَبَّار »

ـ وَ« الْقَوْلُ الْمُجْمِل فِي الرَّدِّ على الْمُهْمِل »

وَقبل ذَلِك :

ـ « مقَام إِبْرَاهِيم » :

أَسَاءَ فِيهِ الأَدَب على عَالم الْحجاز : مِمَّا يسْتَحقُّ التَّعْزِير عَلَيْهَا ؛ وَبَعضهَا أفحش من بعض !! ؛ وَلم أر مِنْهَا سوى أولهَا ؛ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ على ازدراءٍ كثيرٍ للجوجريِّ ؛ ومزيد دَعْوَى : يُسْتَدلُّ بِبَعْضِه على حُمْقِهِ !! ؛ بل جنّه !!.

... ؛ وَلَو شرحت أمره لَكَانَ خُرُوجاً عَن الْحَد !!.

وَبِالْجُمْلَةِ : فَهُوَ سريع الكِتَابَة !! ؛ لم أزل أعرفهُ بالهوس ومزيد الترفُّع حَتَّى على أُمِّه بِحَيْثُ كَانَت تزيد فِي التشكِّي مِنْهُ !! ؛ وَلا زَالَ أمره فِي تزايُدٍ من ذَلِك !!.

فَالله تَعَالَى يُلهمه رُشْدَه !!.

... ؛ وفارقه المحيويُّ بن مُغيزل : لَمَّا رأى مِنْهُ الْجفَاء الزَّائِد بعد كَونه القَائِم بالتنويه بِهِ ؛ وَذكر عَنهُ من الحقد والأوصاف والتعاظم مَا يُصدِّقهُ فِيهِ الْحَال !!.

وَمن ذَلِك إِنَّه توسَّل عِنْد الإمام البُرهانيّ الكركيّ فِي تَعْيينه لحاجةٍ كَانَت تَحت نظره ؛ فَأَجَابَهُ ؛ وزاده من عِنْده ضعف الأَصْل ؛ وَحضر إِلَيْهِ مَعَ العَلَم سُلَيْمَان الخليفتيّ لقبض ذَلِك ؛ فَمَا قَالَ لَهُ : جُزيت خيراً !! ؛ وَلَا أبدى كلمةً مُؤذنةً بشُكره !!.

وَنُقِلَ لَهُ مرَّةً عَن السنباطيّ بعد مَوته مَا يُؤذن بجفاءٍ مِنْهُ ؛ فَقَال : فَلمَ لم تُعلمني بِهَذَا إلا بعد مَوته ؟!! ؛ فَقَال : لتعلم بواطن الرِّجَال .

هَذَا مَعَ مزيد إحسانه إِلَيْهِ ؛ سِيَّمَا فِي زمن الغلاء وَقطع خُبز الشيخونيَّة وطعامها ؛ بِحَيْثُ كَانَ يُعْطِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ دِينَاراً ـ حَسْبَمَا صرَّح بِهِ عَن نَفسه ـ !!.

وَكَذَا فَارقه بعض بني الأتراك مِمَّن شفَّعه فِيهِ بعد أن كَانَ حنفيّاً ؛ وَمَعَ كَونه مُبتدئاً لمزيد إحسانه إِلَيْهِ وإقباله عَلَيْهِ !!.

بل فَارق المغربيُّ الَّذِي كَانَ يزْعم : أنه الْغَايَة فِي الْولَايَة وَالْفَتْح الْقُرْبِيِّ !!.

وَمن هوسه قَوْله لبَعض مُلازميه : إِذا صَار إلينا الْقَضَاء ؛ قَرَّرنَا لَك كَذَا وَكَذَا ؛ بل تصير أَنْت الكُل !!.

ـ ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي سنة ثَمَان وَتِسْعين :

قَامَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو النَّجا بن الشَّيْخ خلف ؛ وَأَظْهر نَقصه وَخَطأَهُ ؛ وانقمع مِنْهُ ؛ وذلَّ إِلَى الْغَايَة !! ؛ ومدح الإمام الكركيُّ أَبا النجا بِأَبْيَاتٍ. حَسْبَمَا كتبت ذَلِك كُلّه فِي الْحَوَادِث ـ!!.

وَقبل ذَلِك كتب مُؤَلَّفاً سَمَّاهُ : ((الكاوى فِى الرَّدِّ على السَّخاوى)) : خَالف فِيهِ الثَّابِت فِي الصَّحِيح ؛ مَعَ كونى لم أتكَلَّم فِي المسئلة إِلاَّ قبل ؛ بل مذهبى فِيهِ : ترك التَّكَلُّم إثباتاً ونفياً !!.

فسُبحان قَاسم العُقُول !!.﴾ .

ثُمَّ :

قَالَ محُيى الدِّين العَيْدَرُوس ((ت : ١٠٣٨هـ)) فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ قَالَ بعضُ الفُضَلاء :

وَالْحقُّ أَنَّ كُلاًّ من الثَّلاثَة كَانَ فَرداً فِي فَنِّهِ مَعَ الْمُشَارِكَة فِي غَيره :

فالسخاويُّ : تفرَّد بِمَعْرِفَة علل الحَدِيث .

والديميُّ : بأسماء الرِّجَال .

والسيوطيُّ : بِحِفْظ الْمَتْن .

وَالله أعلم . ﴾ .

وقَالَ محُمَّدُ بْنُ عَلِيِّ الشَّوْكَانِيُّ (ت ١٢٥٠هـ) فى ﴿ البدر الطالع : بمحاسن من بعد القرن السابع ﴾ :

﴿ وَلكنه لم يسلم من حَاسِدٍ لفضله ؛ وجاحدٍ لمناقبه :

فإن السخاوىَّ فِى ﴿ الضَّوْء اللامع ﴾ - وَهُوَ من أقرانه - ترجمه تَرْجَمَةً مُظْلمَة !! ؛ غالبها ثلبٌ فظيع ؛ وَسَبٌّ شنيع !! ؛ وانتقاصٌ وَغَمْطٌ لمناقبه تَصْرِيحاً وتلويحاً !! ؛ وَلا جرم فَذَلِك دأبه فِى جَمِيع الفُضَلاء من أقرانه !! ؛ وَقد تنافس هُوَ وَصَاحب التَّرْجَمَة مُنَافَسَةً أوجبت تأليف صَاحب التَّرْجَمَة لرسالةٍ سَمَّاهَا ﴿ الكاوى لدماغ السَّخاوى ﴾ .

فليعرف المُطَّلع على تَرْجَمَة هَذَا الفَاضِل فى ﴿ الضَّوْء اللامع ﴾ : أنها صدرت من خصمٍ لَهُ غير مَقْبُولٍ عَلَيْهِ .

[ثُم ذكر كلام السخاوىِّ فى شأنه ثم عَقَّب]:

وَأَقُول :

لا يخفى على المُنصف مَا فِى هَذَا المَنْقُول من التَّحامُل على هَذَا الإمام : فإنه مَا اعْترف بِهِ من صعوبة علم الحساب عَلَيْهِ : لا يدُلُّ على مَا ذكره من عدم الذَّكاء ؛ فإنَّ هَذَا الفَنَّ لا يُفتح فِيهِ على ذَكِىٍّ إلاَّ نَادراً ؛ كَمَا نُشاهده الآن فى أهل عصرنا .

وَكَذَلِكَ سُكُوتهُ عِنْد قَول القائل لَهُ : نجمع لَك أهل كُلِّ فَنٍّ من فُنُون الاجْتِهَاد : فإن هَذَا كَلامٌ خَارجٌ عَن الإنصاف ؛ لأَنَّ رَبَّ الفُنُون الكَثِيرَة لا يبلغ تَحْقِيق كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا يبلغُهُ من هُوَ مُشتغِلٌ بِهِ على انْفِرَاده ؛ وَهَذَا مَعْلُومٌ لكُلِّ احدٍ .

وَكَذَا قَوْله : إنه مسخ كَذَا وَأخذ كَذَا : لَيْسَ بِعَيْبٍ ؛ فإنَّ هَذَا مازال دأب المُصنِّفين ؛ يأتي الآخر فَيَأْخُذ من كُتُبٍ من قبله : فيختصر ؛ أو يُوضِّح ؛ أو يعتَرِض ؛ أو نَحْو ذَلِك من الأَغْرَاض الَّتِي هي الباعثة على التصنيف ؛ وَمن ذَاك الذي يعمد إلى فنٍّ قد صنِّف فِيهِ من قبله فَلا يَأْخُذ من كَلامه ؟!!

وَقَوله : إنه رأى بَعْضهَا في ورقةٍ : لا يُخَالِف مَا حَكَاهُ صَاحب التَّرْجَمَة من ذكر عدد مُصنَّفاته ؛ فإنه لم يقُل أنها زَادَت على ثلثمِائة مُجَلَّدٍ ؛ بل قَالَ أنها زَادَت على ثلثمائة كتاب ؛ وَهَذَا الاسْم يصدُق على الورقة وَمَا فَوْقهَا !!.

وَقَوله : إنه كذَّبه القميصيُّ بتصريحه أنه بقيَ من المُسند بَقِيَّة : لَيْسَ بتكذيبٍ ؛ فَرُبَمَا كَانَت تِلْكَ البَقِيَّة يسيرَة ؛ وَالْحُكم للأغلب ؛ لاسيَّما والسَّهو وَالنِّسْيَان من العَوَارِض البشرية ؛ فَيُمكن أنه حصل أَحدهمَا للشَّيْخ أو تِلْمِيذه .

وَقَوله : أنه كثير التَّصحيف والتَّحريف :

مُجَرَّد دَعْوَى عاطلة عَن البُرْهَان !! ؛ فَهَذِهِ مُؤلَّفاته على ظهر البسيطة مُحَرَّرة أحسن تَحْرِير ؛ ومُتقنة أبلغ إتقان .

وعَلى كل حَالٍ : فَهُوَ غير مَقْبُول عَلَيْهِ ؛ لما عرفت من قَول أَئِمَّة الْجَرْح وَالتَّعْدِيل : بِعَدَم قبُول الأقران في بَعضهم بَعْضاً مَعَ ظُهُور أدنى مُنَافَسَة ؛ فَكيف بِمثل المُنافسة بَين هذَيْن الرَّجُلَيْن ؛ الَّتِي أفضت إِلَى تأليف بَعضهم في بعضٍ ؛ فإن أقلَّ من هَذَا يُوجب عدم الْقبُول ؛ والسخاويُّ - رَحِمَهُ الله - وإن كَانَ إماماً غير مَدْفُوع ؛ لكنه كثير التحامُل على أكَابِر أقرانه - كَمَا يعرف ذَلِك من طالع كِتَابه « الضَّوْء اللامع » ؛ فإنه لا يُقيم لَهُم وزناً ؛ بل لا يسلم

غالبهم من الْحَطِّ مِنْهُ عَلَيْهِ !! ؛ وَإِنَّمَا يُعظِّم شيُوخه وتلامذته وَمن لم يعرفهُ مِمَّن مَاتَ فى أوَّل الْقرن التَّاسِع قبل مَوته ؛ أو من كَانَ من غير مصره ؛ أو يَرْجُو خيره ؛ أوْ يخَاف شرَّه ـ .

... ؛ وَأمَّا مَا نَقله من أقوال من ذكره من العُلمَاء مِمَّا يُؤذن بالحطِّ على صَاحب التَّرْجَمَة : فسبب ذَلِك دَعْوَاهُ الاجْتِهَاد كَمَا صرَّح بِهِ ؛ ومازال هَذَا دأب النَّاس مَعَ من بلغ إِلَى تِلْكَ الرُّتْبَة ؛ وَلَكِن قد عرَّفنَاك فى تَرْجَمَة ابْنِ تَيْمِية : أنَّهَا جرت عَادَة الله سُبْحَانَهُ ـ كَمَا يدلُّ عَلَيْهِ الاستقراء ـ يرْفَع شأن من عُودِىَ لسَبَب علمه وتصريحه بِالْحَقِّ ؛ وانتشار محاسنه بعد مَوته ؛ وارتفاع ذكره ؛ وانتفاع النَّاس بِعِلْمِهِ .

وَهَكَذَا كَانَ أمر صَاحب التَّرْجَمَة ؛ فَإِن مُؤلَّفاته انتشرت فى الأقطار ؛ وسارت بهَا الرُّكْبَان إلى الأنجاد والأغوار ؛ وَرفع الله لَهُ من الذّكر الْحسَنِ وَالثَّنَاء الْجَمِيل : مالم يكن لأحَدٍ من مُعاصريه ؛ وَالْعَاقبَةُ لِلْمُتَّقين .﴾ .

.....

ـ أحواله قبل موته :

قَالَ محُيى الدِّين العَيْدَرُوس «ت : ١٠٣٨هـ» فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ وَولى المشيخة فِى مَوَاضِع مُتعَدِّدَة من الْقَاهِرَة .

ثُمَّ إِنَّهُ زَهِدَ فِى جَمِيع ذَلِك ؛ وَانْقطع إِلَى الله بالرَّوضة ؛ وَكَانَت لَهُ كرامات ؛ وَعظم غالبها بعد وَفَاته .

وَحكى الشَّيْخُ الْعَلاَّمَة زَكَرِيَّا بن الشَّيْخ الْعَلاَّمَة مُحَمَّد الْمَحَلِيُّ الشَّافِعِيُّ :
أنَّهُ عرض لَهُ مُهِمٌّ فِى بعض أوقاته ؛ قَال : فَسَألته أن يكْتُب إِلَى بعض تلامذته بِالْوَصِيَّةِ ؟ ؛ فَامْتنعَ ؛ وأطلعنى على ورقةٍ بِخَطِّهِ ؛ وفيهَا : أنه اجْتمع بِالنَّبِىِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - فِى الْيَقَظَة مَرَّات تزيد على سبعين مرَّة .
وَقَالَ لَهُ كلاماً حَاصله : أن من كَانَ بِهَذِهِ المثابة لا يحْتَاج إِلَى مَدَدٍ وإعانةٍ من أحدٍ رَحِمَهُ الله .
وَحُكِيَ عَنهُ أنه قَال : رَأَيْتُ فِى الْمَنَام كَأَنِّى بَين يَدى النَّبِىِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - ؛ فَذكرت لَهُ كتاباً شرعت فِى تأليفه فِى الحَدِيث ؛ وَهُوَ « جمع الْجَوَامِع » ؛ فَقُلْتُ لَهُ : أقرأ عَلَيْكُم شَيْئاً مِنْهُ ؟ ؛ فَقَالَ لى : هَات يَا شيخ الحَدِيث .!!.
قَال : هَذِه الْبُشْرَى عِنْدِى أعظم من الدُّنْيَا بحذافيرها !!.» .

.....

- زُهْـدُه :

قَالَ نجمُ الدِّين الغُزِّىُّ « ت ١٠٦١هـ » فى « الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة » :
« ولَمَّا بلغ أربعين سنة من عُمُرِهِ : أخذ فى التجرُّد للعبادة ؛ والانقطاع إلى الله تعالى ؛ والاشتغال به صرفاً ؛ والإعراض عن الدُّنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحداً منهم !! ؛ وشرع فى تحرير مُؤلَّفاته ؛ وترك الإفتاء والتدريس ؛ واعتذر عن ذلك فى مُؤلَّفٍ ألَّفه فى ذلك وسمَّاه بـ « التنفيس » ؛ وأقام فى روضة

المقياس فلم يتحوَّل منها إلى أن مات ؛ لم يفتح طاقات بيته التى على النيل من سُكناه !! ؛ وكان الأُمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ؛ ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيرُدُّها ؛ وأهدى إليه الغُورىُّ خَصِيّاً وألف دينار ؛ فردَّ الألف ؛ وأخذ الخَصِىَّ فاعتقه وجعله خادماً فى الحُجرة النبويَّة ؛ وقال لقاصد السُّلطان : لا تعد تأتينا قط بهديَّة ؛ فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك !!.

وكان لا يتردَّد إلى السُّلطان ؛ ولا إلى غيره ؛ وطلبه مِرَاراً ؛ فلم يحضر إليه ؛ وقيل له : إن بعض الأولياء كان يتردَّد إلى المُلوك والأُمراء فى حوائج الناس ؛ فقال : إتباع السُّلف فى عدم تردُّدهم أسلم لدين المُسلم .

وألَّف كتاباً سمَّاه :

« ما رواه الأساطين : فى عدم التردُّد إلى السَّلاطين »

... ؛ ورُؤِىَ النَّبِىُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - فى المنام ؛ والشيخ السُّيوطىُّ يسأله عن بعض الأحاديث ؛ وَالنَّبِىُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - يقول له : هات يا شيخ السُّنَّة .

ورأى هو بنفسه هذه الرُّؤيا ؛ وَالنَّبِىُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - يقول له : هات يا شيخ السُّنَّة .

وذكر الشيخ عبد القادر الشاذلىُّ فى كتاب ترجمته :

أنه كان يقول : رأيت النَّبِىَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - يقظةً ؛ فقال لى : يا شيخ الحديث ؛ فقُلتُ له : يا رسول الله ! ؛ أمن أهل الجنَّة أنا ؟ ؛ قال : نعم ؛ فقُلتُ : من غير عذابٍ يسبق ؟!! ؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : لك ذلك .

وألَّف فى ذلك كتاب « تنوير الحُلَك : فى إمكان رُؤية النبىِّ وَالمَلَك » .

وقال له الشيخ عبد القادر : قُلتُ له : يا سيِّدى !! : كم رأيت النَّبىَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - يقظةً ؟ ؛ فقال : بضعاً وسبعين مرَّة . !!.

وذكر خادم الشيخ السُّيوطىِّ مُحمَّد بن علىِّ الحبَّاك :

أن الشيخ قال له يوماً وقت القيلولة وهو عند زاوية الشيخ عبد الله الجيوشىِّ بمصر بالقرافة : نُريد أن نُصلِّى العصر فى مكَّة ؛ بشرط أن تكتم ذلك علىَّ حتى أموت ؟!!! .

قال : فقُلتُ : نعم !!.

قال : فأخذ بيدى ؛ وقال : غَمِّض عينيك ؛ فغمضته ؛ فرمل فى نحو سبع وعشرين خُطوة ؛ ثم قال لى : افتح عينيك ؛ فإذا نحن بباب المعلى !! ؛ فزُرنا : أُمَّنا خديجة ؛ والفُضَيْل بن عياض ؛ وسُفيان بن عُيَيْنَة ؛ وغيرهم .

ودخلت الحرم ؛ فطُفنا ؛ وشربنا من ماء زمزم ؛ وجلسنا خلف المقام حتى صلينا العصر ؛ وطُفنا وشربنا من زمزم !!.

ثم قال لى : يا فُلان !! ؛ ليس العجب من طىِّ الأرض لنا ؛ وإنما العجب من كون أحدٍ من أهل مصر المُجاورين لم يعرفنا !!.

ثم قال لى : إن شئت تمضى معى ؛ وإن شئت تقُم حتى يأتى الحاج ؟

قال : فقُلتُ : بل أذهب مع سيِّدى ؛ فمشينا إلى باب المعلا ؛ وقال لى : غَمِّض عينيك ؛ فغمضتها ؛ فهرول بى سبع خطوات ؛ ثم قال لى : افتح عينيك ؛ فإذا نحن بالقُرب من الجيوشىِّ !! ؛ فنزلنا إلى سيِّدى عُمر بن الفارض ؛ ثم ركب

الشيخ حمارته ؛ وذهبنا إلى بيته فى جامع طُولُون !!.

وذكر الشعراوىُّ ؛ عن الشيخ أمين الدِّين النَّجَّار إمام جامع الغمرى :

أن الشيخ أخبره بدُخُول ابن عُثمان مصر قبل أن يموت ؛ وأن يدخلها فى افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة !! ؛ وأخبره أيضاً بأُمُور أُخرى تتفق فى أوقاتٍ عيَّنها ؛ وكان الأمر كما قال ـ رَضِىَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ !!.

ومحاسنهُ ومناقبهُ لا تُحصى كثرة !! . ﴾ .

.....

- موته :

قَالَ محُيى الدِّين العَيْدَرُوس « ت : ١٠٣٨هـ » فى ﴿ النُّور السَّافر : عن أخبار القرن العاشر ﴾ :

﴿ وَفِى يَوْم الْجُمُعَة ؛ وَقت الْعَصْر ؛ تَاسِع عشر جُمَادَى الأولى ؛ سنة إِحْدَى عشرَة : تـوفِّىَ الشَّـيْخُ ؛ الْعَلاَّمَة ؛ الْحَافِظ ؛ أَبُو الْفضـل ؛ جلال الدِّين ؛ عبد الرَّحْمَن بن كَمَال الدِّين أَبُو بكر بن عُثْمَان بن مُحَمَّد بن خضر بن أَيُّوب بن مُحَمَّد بن الشَّيْخ الْهُمَام ؛ الْخُضَيْرِىُّ ؛ السُّيُوطِىُّ ؛ الْمصرِىُّ ؛ الشَّافِعِىُّ.

وَصُلِّىَ عَلَيْهِ بِجَامِع الأفاريقىُّ تَحت القلعة ؛ وَدُفِنَ بشرقى بَاب القرافة .

وَمرض ثَلاثَة أَيَّام .﴾ .

وَقَالَ نجمُ الدِّين الغَزِّىُّ « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :

﴿ وكانت وفاته ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ فى :
سَحَرِ ليلة الجُمعة ؛ تاسع عشر جُمادى الأُولى ؛ سنة إحدى عشرة وتسعمائة ؛ فى منزله بروضة المقياس ؛ بعد أن تمرَّض سبعة أيَّام بورمٍ شديدٍ فى ذراعه الأيسر ؛ وقد استكمل من العُمُرِ : إحدى وستِّين سنة ؛ وعشرة أشهر ؛ وثمانية عشر يوماً . ﴾ .

.....

- جنازته :

قَالَ نجمُ الدِّين الغُزِّيُّ « ت ١٠٦١هـ » فى ﴿ الكواكب السائرة : بأعيان المئة العاشرة ﴾ :
﴿ وكان له مشهدٌ عظيمٌ ؛ وَدُفِنَ فى حوش قوصون خارج باب القرافة ؛ وَصُلِّيَ عليه غائبة بدمشق بالجامع الأُمويِّ يوم الجمعة ثامن رجب سنة إحدى عشرة المذكورة .
قيل :
أخذ الغاسلُ قميصه وقبعه : فاشترى بعض الناس قميصه من الغاسل بخمسة دنانير للتبرُّك به ؛ وباع قبعه بثلاثة دنانير لذلك أيضاً .
ورثاه عبد الباسط بن خليل الحنفيُّ بقوله :

مات جلال الدِّين غيث الورى
مُجتهد العصر إمام الوجود

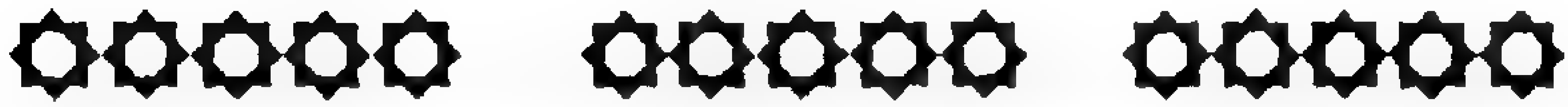
وحافظ السُّنَّة مَهْدِىُّ الهُدَى

؛ ومُرشد الضَّالِّ بنفعٍ يعُود

... ؛ فيا عُيُونُ انهملى بعده

؛ ويا قُلُوبُ انفطِرِى بالوقود

... ؛ ولعلَّهُ رُثِىَ بالمراثى الحافلة . ﴾.





ـ ثَانِيَاً :

ـ المُنْتَخَب

مِن مَقَامَات

جَلالِ الدِّينِ السُّيُوطِيِّ

(٨٤٩ ـ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م)

.....

ـ العَنْبَر



وأمَّا أنت أيُّها العنبر !! : فثانى المسك فى الفضيلة ؛ وتالى رُتبته فى المزاج ؛ فإن الحرارة فى العنبر عديلة .

ولكونه أشرف من سائر ما بقى ؛ قال ابن البيطار :

العنبر سيِّد الطِّيب ؛ وإن كان لا يُسَلَّم له ذلك فى المسك ؛ لأنه مُقدَّمٌ بقول الصادق الحبيب .

وقد صحَّت أحاديث فى السُّنَّة أن :

﴿ العنبر تُراب الجنة ﴾

ورَوَى البُخَارِىُّ فى « تاريخه » :

عن عَائِشَةَ أنها سُئِلَت :

﴿ أكان النبىُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ يتعطَّر ؟

قالت : نعم ؛ بذِكَارَة العطر : المسك ؛ والعنبر .﴾ .

﴿ وسُئِلَ ابنُ عبَّاس ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ عن زكاة العنبر ؟

فقال : إنما هو شىءٌ دَسَرَهُ البحر ؛ وإن كان ففيه الخُمُس ﴾.

وفيه منافع أودعها الله لعباده ؛ وقد استخرجها كُلُّ طَيِّبٍ نَدْس .

منها :

ـ أنه يُفيد القلب والحواس والدِّماغ قُوَّة .

ـ وينفع شمُّهُ من أمراض البلغم الغليظ ؛ والفالج ؛ واللَّقْوَة .

ـ وطلاؤه من الأوجاع الباردة فى المَعِد .

ـ ومن الرياح الغليظة العارضة فى المِعَى ؛ والمفاصل ؛ والدِّماغ ؛ ومن السدد .

ـ وينفع من الشقيقة ؛ والنَّزلات الباردة ؛ والصُّداع الكائن عن الإخلاط بخوراً .

ـ ومن جميع أوجاع العصب والخَدَر ؛ إذا حُلَّ فى دُهن « البان » وَدُهِنَ به فقار الظهر كثيراً .

ـ ويُقوِّى « فم المعدة » : إذا غُمِسَت فيه قُطنة ؛ ووضع عليها يسيراً .

ـ وينفع أكله المعدة تقديراً .

وهو مُقَوٍّ لجوهر كُلِّ رُوحٍ فى الأعضاء الرئيسيَّة ؛ ومُكَثِّرٌ له تكثيراً .

وقد نزَّهه الشُّعراء عن التَّشبيه ؛ وشبَّهوا به من قصدوا لقدرِهِ التنويه .

وسمراء باهى طلعةَ البدرِ وجهُهَا

إذا لاح فى ليلٍ من الشَّعْرِ الجَعْدِ

مُحبَّبةٌ ؛ من حَبَّةِ القلب لونها

وطِينتُها للمسك والعنبر الوردى

وقال البدرُ بن الصاحب :

لِعَنْبَرِ خَالِهِ عَبَقٌ

على وردٍ مِنَ الخَدِّ

. ؛ فيا لله طِيبُ شَذًا

بذاك العنبرِ الوردى

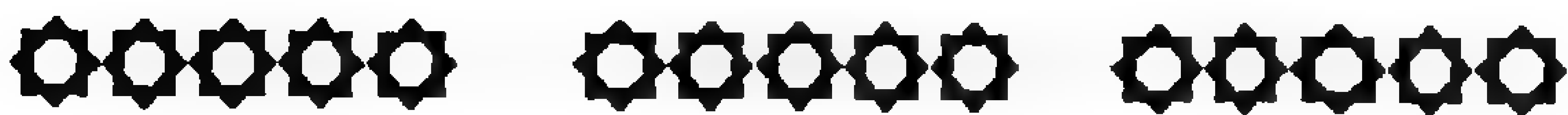
وقال أبو الحسن الجوهرىُّ يصف الفيل :

مَتْنَاً كبُنيان الخَوَرْ

نُقِ ما يُلاقى الدهر كَدًّا

رِدْفاً كَدِكَّة عَنْبَرٍ

مُتمايل الأوراك نَهْدًا



.....

❁ ـ الزَّعْفَرَان



وأما أنت أيُّها الزعفران !!:

فقد صحَّت الأحاديث بأنك : ﴿ حشيش الجنَّة وترابها ﴾.

وناهيك بها مَنْقَبَةً جليلاً نِصَابُهَا .

وَرُوِى فى خبرٍ مأثورٍ:

﴿ أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق منك الحور ﴾.

فأنت ثالث المراتب ؛ ثابت المناقب ؛ حبيب لكُلِّ صاحب ؛ لذيل الفضل ساحب .

غير أنه ليس للرِّجال في التطيُّب منك مجال ؛ ولا بينك وبينهم فى المودَّة إسجال ؛ ولا فى الموردة سجال .

حُرِّمْتَ عليهم تحريماً شديداً ؛ وَهُدِّدُوا على التخلُّق بذلك تهديداً ؛ وأُوعِدُوا على ذلك فى القيامة وعيداً ؛ وأُكِّدَ عليهم التغليظ فى ذلك تأكيداً .

ولك مع أخويك الاشتراك فى اليُبْسِ والحرارة ؛ ومن الزعفران منافع عليها دليلٌ وأمارة .

من ذلك :

ـ أنه يُحسِّن اللون ؛ ويُكسبه نضارة .

- ويُصلِح العُفُونة .
- ويُقوِّى الأحشاء .
- ويُهيِّج الباه .
- ويُقوِّى الأعضاء .
- ويجلو البصر ؛ ويمنع النَّوازل إليه .
- ويُحلِّل الأورام .
- وينفع الطحال ؛ وأوجاع المقعدة ؛ والأرحام .
- ويُسكِّن الحرارة .
- وَيُدِرُّ البول .
- ويهضم الطعام .
- وينفع مما فى الرَّحِم من الصلابة والانضمام والقُرُوح .
- وله خاصيَّةٌ عجيبةٌ !! ؛ شديدةٌ !! ؛ عظيمةٌ فى تقوية القلب وجوهر الرُّوح .
- وفيه بسطٌ وتفريحٌ ؛ إذا زاد لا يُحتمل !! ؛ بحيث أنه إذا شُرِبَ منه ثلاثة مثاقيل : قتل !!.
- ويُشمَّم لصاحب البرسام .
- ولصاحب الشوصة لينام .
- ويُسهِّل النَّفَس ؛ ويُقوِّى آلاته جِداً .
- ويفتح من العُرُوق والكبد ما يُسَدُّ سَداً .
- ويُسقَى يسيره للطَّلْقِ المُتطاول ؛ فتلد ؛ وهى منفعةٌ جسيمةٌ !! .

- وإذا عُجِنَ منه قدر الجوزة ؛ وعُلِّقَت على الزوجة والفرس بعد الولادة : أخرجت المشيمة .

ومن خواصه :

- أنه لا يُغيِّر خلطاً ألبتَّة ؛ بل يحفظ الأخلاط بالسويَّة .

- وأن « سامّ أبرص » : لا يدخل بيتاً هو فيه ؛ وناهيك بها خصوصيَّة !!.

- ويُكتحل به للزُّرقة المُكتسبة من الأمراض .

- وَلْيُحْذَر من الإكثار منه والإدمان عليه ؛ فإنه ردىء الأعراض .

ومن جيِّد التشبيه قول ابن الخُوَارزميّ فيه :

أما ترى الزعفران الغضّ تحسبهُ
حَجَراً بدا فى رماد الفحم مُضطرما
.. ؛ كأنَّهُ بين أوراقٍ تَحُفُّ بـه
طرائق الدَّم فى خَدَّيْنِ قد لُطِمَا
دمٌ عياناً ومسكاً نَشْر رائحةٍ
فى طِيبه ؛ وكذاك المسكُ كان دَمَا





.....

۞ ـ المقامة الورديَّة



لمولانا مُجتهد العصر أبى الفضل عبد الرَّحمن جلال الدِّين السيوطىِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ؛ وَرَضِىَ عَنْهُ ـ .

.....

مُشتملةٌ على ذكر عشرة رياحين ومنافعها :

١ ـ الورد .

٢ ـ النرجس .

٣ ـ الياسمين .

٤ ـ البان .

٥ ـ البنفسج .

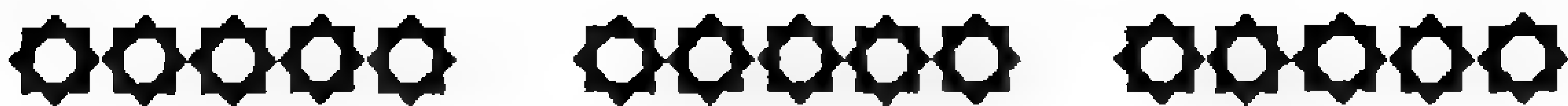
٦ ـ النسرين .

٧ ـ النيلوفر .

٨ ـ الآس .

٩ ـ الريحان .

١٠ ـ الفاغية .





.....

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

قال مولانا شيخ الحديث : جلال الدِّين الأسيوطىُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - :

حدَّثنا الرَّيَّان ؛ عن أبى الرَّيحان ؛ عن أبى الورد أبَان ؛ عن بُلْبُل الأغصان ؛ عن ناظر الإنسان ؛ عن كوكب البُستان ؛ عن وابل الهتَّان ؛ قال :

مررت يوماً على حديقة ؛ خَضِرَةٍ أنيقة ؛ ظلولها وديقة ؛ وأغصانها وريقة ؛ وكوكبها أبْدى بريقه ؛ ذات ألوان وأفنان ؛ وأكمام وأكفان !!.

وإذا بها أزرار الأزهار مُجْتمعة ؛ وأنوار الأنوار مُلتمعة ؛ وعلى منابر الأغصان أكابر الأزاهر ؛ والصَّبَا تضرب على رُؤوسها من الأوراق الخُضر بالمزاهر!!.

فقُلتُ لبعض من عبر : ألا تُحدِّثونى ما الخبر ؟!!

فقال : إن عساكر الرياحين قد حضرت ؛ وأزهار البساتين قد نظرت لما به نضرت ؛ واتفقت على عقد مجلسٍ حافل ؛ لاختيار من هو بالمُلْكِ أحقُّ وكافل.

وها أكابر الأزهار قد صعدت المنابر ؛ ليُبدى كُلٌّ حُجَّته للناظر ؛ ويُناظر بين أهل المناظر : فى أنه أحق أن يُلحظ بالنواظر ؛ من بين سائر الرياحين النَّواضر ؛ وأولى بأن يتأمَّر على البوادى منها والحواضر .

فجلست لأحضر فصل الخِطاب ؛ وأستمع لما يأتى به كُلٌّ من فُنُون الحديث المُستطاب .

فهجم الوردُ بشوكته ؛ ونجم من بين الرياحين مُعْجَباً بإشراق صورته ؛ إفراق صولته ؛ وقال :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

وبه نستعين :

أنا الوردُ مَلِكُ الرياحين ؛ والوارد مُنْعِشاً للأرواح ومتاعاً لها إلى حين ؛ ونديم الخلفاء والسَّلاطين .

والمرفوع أبداً على الأَسِرَّةِ لا أجلس على تُرْبٍ ولا طين ؛ والظاهر لونى الأحمر على أزهار البساتين .

والأشرف من كُلِّ ريحانٍ فخراً : بأنّى خُلِقْتُ من عَرَق المُصطفى وجبريل والبُراق ليلة الإسرا .

والمُظفَّر بقُوَّة الشَّوْكَة والصَّوْلَة ؛ والمنصور على من ناوأنى لأنى صاحب الدولة .

والعزيز عند الناس ؛ والمودود بين الجُلاَّس للإيناس .

والعادل فى المزاج ؛ والصالح فى العلاج .

أُسكِّن حرارة الصفراء ؛ وأُقوِّى الباطن من الأعضاء .

وأُطيِّبُ رائحة البدن ؛ ومن شَمَّ مائى وبه غَشْى أو صُداع حارٌ سكن .

وأُقوِّى المَعدة ؛ وأفتح من الكبد السُّدَد .

وأنفع الأحشاء ؛ وأُقوِّى الأعضاء ؛ أنا ومائى ودُهنى كيف شاء .

وأُبَرِّدُ أنواع اللهيب الكائنة فى الراس ؛ وربما أستخرجها منه بالعُطاس.

وأُنبِتُ اللحم فى القُرُوح العميقة ؛ وأقطع الثآليل كُلَّهَا إذا استُعمِلت أزارى سحيقة .

وأنفع من القُلاع والقُرُوح ؛ وأنا بعطريَّتى مُلائمٌ لجوهر الروح .

وشمِّى نافعٌ من البُخَار ؛ مُسكِّنٌ للصُّداع الحار .

وبِزْرِى نافعٌ للثّة الفم ؛ وأقماعى تقطع الإسهال ونفث الدم .

ومائى يُسكِّن عن المعدة حَرًّا ؛ وينفع من التهاب المِرَّة والصفرا .

وشرابى يُطلق الطبيعة القويَّة ؛ وينفع من الحميَّات الصفراويَّة .

وإذا شُرِبَ مائى بالسُّكَّر الطبرزد قطع العطش من المادَّة ؛ ونفع أصحاب الحُمَّى الحادَّة .

وإذا ضُمِّدت العين بورقى الطَّرِىِّ نفع من انصباب المواد ؛ ومطبوخى طريًّا ويابساً ينفع من الرَّمَدِ بالضِّماد .

ومطبوخ يابسى صالحٌ لِغِلَظِ الجُفُون ؛ ومسحوقه إذا ذُرَّ فى فراش المجدور والمحصوب نفع من العُفُون .

ومن تجرَّع من مائى يسيراً ؛ نفع من الغَشْى والخفقان كثيراً .

ودُهنى شديد النفع للخُرَّاجات ؛ وفيه مآرب كثيرة لذوى الحاجات .

وأنا مع ذلك جَلِدٌ صابر :

أجرى مع الأقدار ؛ إذا صُلِيتُ بالنار .

وكَفَى بى رِفْعَةً على الأقران ؛ أن لفظى مذكورٌ فى القُرآن ؛ فى « سُورة الرَّحمن » :

﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ـ [الرَّحمن : ٣٧] ـ .

وقد حمانى أميرُ المؤمنين المُتَوَكِّل كما حمى شقائق النُّعمان ؛ وهذا تقليدٌ من الخلافة بالمُلك على سائر الريحان .

ولى من بينهم ابنٌ يَخْلُفُنى فى الحُكم إذا غبت طول الزمان .

فلهذا رفعت من أغصانى الأشائر ؛ وَدُقَّت على داراتى البشائر ؛ وأُعْمِلَت لِىَ المشاعر ؛ وقال فىَّ الشاعر :

للورد عندى مَحِلٌ
.... ؛ لأَنَّهُ لا يُمَلُّ
كُلُّ الرَّياحِين جُنْدٌ
وهُو الأميرُ الأَجَلُّ
إن جاء عزُّوا وتاهوا
حتَّى إذا غاب ذَلُّوا

وقال آخر :

مليكُ الورد أقبلَ فى جُيُوشٍ
مِن الأزهارِ فى حُلَلٍ بَهِيَّه
؛ فوافتهُ الأزاهرُ طائعاتٌ
؛ لأنَّ الورد شوكتُهُ قويَّه .





.....

❁ - النرجس



فقام النرجسُ على ساق ؛ ورمى الورد منه بالأحداق !! ؛ وقال :
لقد تجاوزت الحَدَّ يا ورد !! ؛ وزعمت أنك جمعٌ فى فرد !!
إن اعتقدتَ أن لك بحُمرتك فخرة ؛ فإنها منك فجرة !!
قال النَّبِىُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - :
﴿ إن الشيطان يحُبُّ الحُمرة ؛ فإيَّاكُم والحُمرة !! ؛ وكُلّ ثوبٍ ذى شُهرة ﴾ .
وإن قُلتَ أنك النافع فى العلاج ؛ فكم لك فى منهاج الطِّبِّ من هاج !!
ألست الضارٌّ للمزكُوم ؟!! ؛ المُعطش للمحرور الدماغ عند المشموم ؟!! ؛
المُضعف للبَاه ؟!! ؛ النائم بلا انتباه ؟!!
أتغترُّ بِبُرْدِكَ القشيب ؛ وأنت الجالب للمشيب ؟!!
فاحفظ بالصَّمت حُرمتك ؛ وإلا اكسر بقائم سيفى شوكتك !!
ويكفيك قول ابن الرومىِّ فيك :

يا مادحَ الورد لا يَنْفَكُّ من غَلَطِهْ
ألستَ تُبْصِرُهُ فى كَفِّ مُلتقطهْ ؟!!
كأنَّهُ سُرْمُ بَغْلٍ حِينَ يُخْرِجُهُ
عند البراز وباقى الروث فى وسطهْ ؟!!

ولكن أنا القائم لله فى الدَّياجى على ساقى ؛ السَّاهر طول الليل فى عبادة ربِّى فلا تطرف أحداقى .

وأنا مع ذلك المعد للحروب ؛ المدعو عند تزاحُم الكُرُوب .

ألا ترى وسطى لا يزال مُشدَّداً ؟!! ؛ وسيفى لا يبرح مُجرَّداً ؟!!

وأنا فريد الزَّمان : فى المحاسن والإحسان ؛ ولهذا قال فىَّ كسرى أنوشروان :

﴿ النرجس ياقوتٌ أصفر ؛ بين دُرٍّ أبيض ؛ على زُمُرُّدٍ أخضر ﴾

وأنا المُشبَّه به عيون المِلاح ؛ والمعروف فى مُهِمَّات الأدواء بالصَّلاح .

أنفع غاية النَّفع ؛ من داء الثعلب والصرع .

وقد رُوى فى حديثٍ راويه غير مُقِلٍّ ولا مُفْلِس :

﴿ شموا النرجس ؛ فإن فى القلب حَبَّةً من : الجنون ؛ والجذام ؛ والبرص : لا يقطعها إلا شَمُّ النرجس ﴾ .

وفى أصلى قُوَّةٌ تُلحم الجراحات العظيمة ؛ وتنفع ذكر العِنِّين وتجيد تقويمه .

وشمِّى ينفع من وجع الرأس والزُّكام البارد ؛ وفىَّ تحليلٌ قوىٌّ لمن هو قاصد .

ودُهنى نافعٌ لأوجاع العصب والأرحام ؛ وأوجاع المثانة والأُذن والصّلب من الأورام .

ولولا اشتهارى بالنَّفع من الجوى ؛ ما أكثر النُّحاةُ التمثيل بقولهم : ﴿ نرجس الدواء ﴾ .

ومن الدلائل على صلاحى : أن أبا نُواس غُفِرَ له بأبياتٍ قالها فى امتداحى :

تأمَّل فى رياض الأرض وانظر

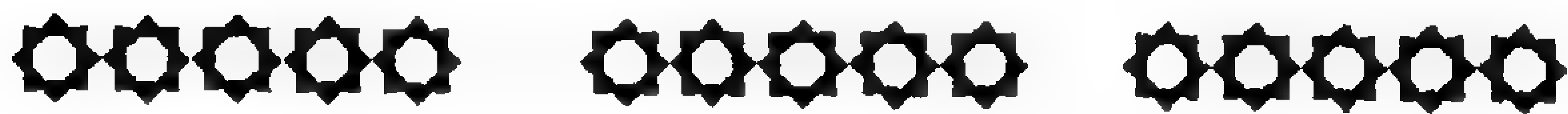
... ؛ إلى آثار ما صنع المليكُ

.. ؛ عُيُونٌ من لُجَيْنٍ ناظراتٌ

بأحداقٍ كما الذَّهبُ السَّبيكُ

على قُضُبِ الزبرجدِ شاهداتٌ

..... ؛ بأنَّ الله ليس له شريكُ





.....

۞ ـ المقامة التُّفاحيَّة



لمولانا شيخ الحديث جلال الدين الأسيوطيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ؛ وَرَضِىَ عَنْهُ ؛ وَنَفَعَ المُسْلِمِينَ بِبَرَكَاتِهِ ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

سألت طائفة فاقهة : عن مناقب الفاكهة ؟ ؛ وصفاتها المُشاكِهَة ؟ ؛ وما ضُرِبَ لها من الأمثال والمُشابَهَة ؟ ؛ وما قاله فيها كل طبيبٍ أريب ؟ ؛ وَكُلُّ شاعرٍ أديب ؟ .

واختارت منها سبعةً زُهْراً ؛ وبضعةً جهر الزمانُ بِحُسنها جهراً ؟ :

فأجبناها لما طلبت ؛ وسالت قناةُ القلم بالبلاغة فيها لمَّا سألت ورغبت :

وبدأنا بالألطف فالألطف فى الذَّات ؛ والأشرف فالأشرف فى الصفات :

.....

❁ـ الرُّمَّان



الرُّمَّان !! ؛ وما أدراك ما الرُّمَّان؟!!

مُصرَّحٌ بذكره فى القُرآن ؛ فى قوله تعالى فى سُورة الرَّحمن :

﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّان ﴾

[الآيـة : ٦٨]

وفى الحديث :

﴿ لَيْسَ فِى الأَرْضِ رُمَّانٌ تَلَقَّحُ إِلاَّ بِحَبَّةٍ مِن حَبِّ الجِنَان ﴾

وقال علىٌّ بن أبى طالب ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ فيما رواه البيهقىُّ وأسنده :

﴿ كُلُوا الرُّمَّانَ بِشَحْمِهِ ؛ فَإِنَّهُ دِبَاغُ المَعِدَة ﴾

قَالَ الأطبَّاء :

ـ الحلو منه بارد فى الأُولى رطبٌ بها ؛ يدبغ المعدة من غير أن يَضُرَّ بعصبها .

ـ ويحدر منها الرُّطُوبات المرِّية العَفِنَة ؛ ويُبرىء من وصبها .

ـ ويحط الطعام إذا مُصَّ بعده عن فمها .

ـ وينفع من حميَّات الغِبِّ المُتطاولة وألمها .

ـ ومن الجَرب والحكَّة والخفقان .

ـ وإذا أُديم مَصُّهُ مع الطعام أخصب الأبدان .

ـ ويُقوِّى الصدر .

ـ ويجلو الفُؤاد .

ـ وإذا أُكِلَ بالخُبز منعه من الفساد .

ـ جيِّد الكيموس قليل الغذا .

ـ صالحٌ للمحرورين .

ـ دافعٌ للأذى .

ـ ويَنْعِظُ ؛ لما يحُدثه من قليل الرِّياح .

ـ ولكون نفخه سريع التفشِّى لا يحتاج إلى إصلاح .

ـ وفيه قبضٌ لطيف ؛ ويسير تجفيف ؛ وَحَبُّهُ أشدُّ فى ذلك من قشره ؛ ثم جنبذه الذى يسقط عن الشَّجر إذا سقط زهره .

ـ وإذ وُضِعَ فى شمسٍ حارَّةٍ ماؤه المُعتصر ؛ واكتُحِلَ به بعد غلظه : أَحَدَّ البصر ؛ وكُلَّما عُتِّقَ كان أجود وأبر .

ـ وإذا طُبِخَ ماؤه فى إناء نُحاس : نفع من القُرُوح والعَفَنِ ؛ والروائح المُنتنة فى الأنف والأُذن .

ـ وحامضهُ أنفع للمعدة المُلتهبة ؛ وأكثر للبول إدراراً ؛ وأقوى فى تسكين الأبخرة الحارَّة مقداراً ؛ وأشدّ تبريداً للكبد ؛ ولاسيَّما أنها أولى إدماناً وإكثاراً .

ـ ويُطفئ ناريَّة الصفراء والدم .

ـ ويقطع القىء .

ـ ويقطع من المعدة البلغم .

ـ وإذا عُصِرَ النَّوعان مع شحمهما ؛ وَشُرِبَ منه نصف رطل مع سُكَّرٍ عشرين درهماً : أسهل المِرَّة الصفراء ؛ وقوَّى المعدة وأذهب عنها ضُرّاً .

ـ وإن شُرِبَ عشر أواقٍ مع عشرة دراهم سُكَّر : فإن هذا يُقارب الإهليلج الأصفر .

ـ وفى الشَّراب المُتَّخَذ منهما خاصيَّة فى منع أخلاط البدن من التعفين .

ـ والربُّ المُتخذ من الرُّمَّان يُقوِّى المعدة الحارَّة ؛ ويقطع العطش والقيء والغثيان .

ـ وإذا عصر الرُّمَّانتان بشحمهما ؛ وتمضمض بمائهما : نفع من القُلاع المُتولِّد فى أفواه الصبيان .

ـ وإذا طُبِخَ فى إناء نُحاس ماؤه المُعتصر ؛ واكتحل بهما : أذهب الحكَّة والجرب والسّلاق ؛ وقوَّى البصر .

ـ والأَوْلى أن يمتصَّ المحموم من الرُّمَّان بعد غذائه ليمنع صعود البُخار ؛ ولا يُقدِّمه فيصرف الموادَّ عن الانحدار .

ـ وإذا شُويت الرُّمَّانة الحُلْوة ؛ وضُمِّد بها : سكَّنت وجع العين الرَّمِدَة .

ـ وزهر الرُّمَّان يقطع القيء الذريع المُفرط إذا ضُمِّدت به المعدة .

ـ وإذا فُرِّغَت رُمَّانة من حبِّها ؛ ومُلِئَت بدُهن وَرْدٍ عن لبها ؛ وفترت على نارٍ هادئة تفتيراً : سكن وجع الأُذن تقطيراً .

ـ ومع دُهن بنفسج ينفع للسُّعال اليابس كثيراً .

ـ وَحَبُّ الرُّمَّان الحامض إذا جُفِّفَ فى الشمس ؛ ودُقَّ للإنعام ؛ وذُرَّ أو طُبِخَ مع الطعام : منع الفضول أن تسيل على المعدة أو الأمعاء .

ـ وإذا نُقِعَ فى ماء المُزْن ؛ وشُرِب : نفع من نفث الدَّم نفعاً .

ـ وقشر الرُّمَّان إذا سُحِق ؛ وَسُفَّ منه عشرة دراهم : أخرج الدود .

ـ وإذا عُجِنَ بعسل ؛ وطُلِىَ به آثار الجُدرىِّ وغيرها أيَّاماً مُتواليةً : أذهبها ؛ وحصل المقصود .

ـ وإذا طُبِخَ فى ماء ؛ وتُمُضمض به : قوَّى لثَّة الفم ؛ وإن شربه : أمسك استرسال البول ؛ وإسهال البطن ؛ وانضم .

ـ وإن استنجى به : قوَّى المعدة ؛ وقطع ما انبعث من أفواه البواسير من الدَّم .

ـ وإن جَلَسَ فيه النِّسَاء : نفع من النزف وسدده ؛ أو الأطفال : نفعهم من خروج المقعدة .

ـ وجُلَّنارُهُ يشدُّ اللِّثاث ؛ ويلزق الجراحات ؛ ويُتمضمض بطبيخه للثَّة التى تدمى كثيراً ؛ والأسنان المُتحرِّكات .

وزعم قومٌ أولو عَدَدٍ وَعُدَدٍ :

أن من ابتلع منه ثلاث حبَّات صغار : لم يعرض له تلك السَّنة رَمَد .

وأصل شجر الرُّمَّان إذا شُرِب طبيخه بنارٍ موهجةٍ : قتل حَبَّ القرع وأخرجه .

فَسُبْحَانَ من أوجده من العدم !! ؛ وأودعه هذه المنافع والحِكَم !! ؛ وصوَّرهُ كُرةً للاعب !! ؛ أو نَهْدَاً لكاعب !! ؛ وملأه بحبَّات العقيق والياقوت !! ؛ وجعله لما شاء من طعامٍ وشرابٍ وتفكُّهٍ ودواءٍ وقُوت .

وذكّرنا به رُمّان الجِنَان !! ؛ الذى كُلُّ رُمَّانةٍ منه قدر المقتب من البُعران !! ؛ كما ورد عن سيِّد بنى عدنان !! .

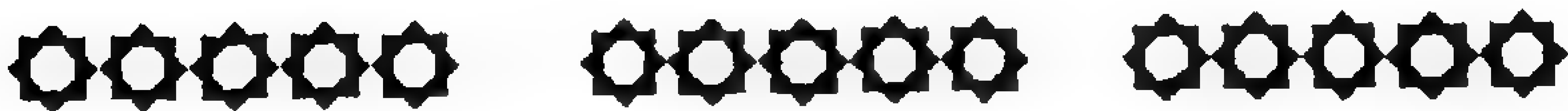
وقد أكثر الشُّعراءُ فيه من التشبيه ؛ وأجادوا فى النَّظر والتمويه !!

فقال شاعرٌ:

رُمَّانةٌ مثل نهد الكاعب الرَّيمِ
تُزْهَى بشكلٍ ولونٍ غير مذمومِ
كأنَّها حُقَّةٌ من عسجدٍ مُلِئَت
من اليواقيت نثراً غير منظومِ

وقال آخر:

رُمَّانةٌ صبغ الزُّمانُ أديمها
فتبسَّمت فى ناضر الأغصانِ
فكأنَّما هى حُقَّةٌ من عسجدٍ
قد أُودِعَت خَرَزَاً من المرجانِ





.....

۞ـ المقامة الياقوتيَّة



لمولانا شيخ الحديث جلال الدِّين الأسيوطيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ؛ وَرَضِيَ عَنْهُ ـ .

ـ مُشتملةٌ على ذكر سبعة معادن ومنافعها :

١ـ الياقوت .

٢ـ اللؤلؤ .

٣ـ الزُّمُرُّد .

٤ـ المرجان .

٥ـ الزبرجد .

٦ـ العقيق .

٧ـ الفيروزج.

.....

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

قال مولانا شيخ الحديث جلال الدِّين الأسيوطىُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

اجتمع سبعةٌ من اليواقيت ؛ لبضعة من المواقيت ؛ وقصدُوا للمُفاخرة ؛ لا للمُفاجرة ؛ وللمُكاثرة لا للمُكابرة :

أيُّها فى الرُّتبة أعلى ؛ وفى الزينة أغلى ؛ وفى المنظر أحلى ؛ وفى المخبر أجلى؟

فعقدوا لكُلٍّ منهم حلقة ؛ وسبَّحُوا الذى أحسن كُلَّ شىءٍ خَلَقَه ؛ ونُصِبَ لكُلٍّ منهم فى حلقته مِنَصَّه ؛ وأشاروا إليه بالأصابع حيث أضحى عين الخاتم وفصَّه :

.....

.....

ـ فقال الياقوت :

الحمدُ لله الذى خلقنى فى أحسن تقويم ؛ وجعلنى أبهى فى العين من الدُّرِّ النُّظيم ؛ وشرَّفنى على كثيرٍ من الأقران ؛ حيث ذكرنى بصريح اسمى في القُرآن ؛ فى قوله تعالى فى سُورَة الرَّحمن :

﴿ كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَان ﴾

[الآية : ٥٨]

وقدَّمنى فى الذكر ؛ وذلك يدُلُّ على كونى من المرجان أنبه ؛ وأشرف منه مقاماً وقواماً ورُتبة .

وكم ورد ذكرى فى الأحاديث الصِّحَاح والحِسَان ؛ وفى صفات ما أودعه الله من المحاسن فى الجِنَان .

من ذلك حديثٌ عمَّن أفاض الله عليه المكارم فيضاً :

﴿ بَنَى اللهُ جَنَّـةَ عَدْنٍ : لَبِنَةً مِن يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء ؛ وَلَبِنَةً مِن زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاء ؛ وَلَبِنَةً مِن دُرَّةٍ بَيْضَاء ﴾ .

وفى حديثٍ مرفوع ؛ رواهُ حافظٌ مُمَجَّد :

﴿ الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ الجَنَّةِ : دُورُهَا ؛ وَبُيُوتُهَا ؛ وَسُرُرُهَا ؛ وَمَغَالِيقُهَا : مِن يَاقُوتٍ ؛ وَلُؤْلُؤٍ ؛ وَزَبَرْجَدٍ ﴾ .

وفى حديثٍ صحيح الثُّبُوت :

﴿ حَصْبَاؤهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوت ﴾

وفى حديثٍ من الحِسَان :

﴿ دَرَجُهَا : اللُّؤْلُؤ وَاليَاقُوت .

وَرَضْرَاضُهَا : اللُّؤْلُو .

وَتُرَابُهَا : الزَّعْفَرَان ﴾

وفى حديثٍ رواهُ البيهقىُّ : وُعِدَ بِهِ المُصلِّى أجراً :

﴿ لَيْسَ عَبْدٌ يُصَلِّى فِى لَيْلَةٍ مِن رَمَضَان : إلاَّ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِى الجَنَّةِ مِن يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء ﴾ .

وفى أحاديثٍ صحاحٍ وحِسَان :

﴿ فِى الجَنَّةِ خَيْلٌ مِنَ يَاقُوت ؛ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ جَنَاحَان ؛ إِذَا رَكِبَهَا صَاحِبُهَا : طَارَت بِهِ فِى الجِنَان ﴾ .

فما ذكرت فى مِعرض الترغيب والتنبيه ؛ إلا وكان لى بذلك فخارٌ وَرِفْعَة وتنويه .

وقد وردت فىَّ أحاديثٌ تُثبت لِىَ الشَّرف والفخر :

﴿ تَخَتَّمُوا بِاليَاقُوت : فَإِنَّهُ يَنْفِى الفَقْر ﴾

وأما الخواص المُودَعة فىَّ فشريفة ؛ والمنافع الموجودة لدىَّ فمنيفة !!

من ذلك :

- أن التختُّم بى والتعليق : يمنع من إصابة الطَّاعُون على التحقيق .

- ولى فى التفريح ؛ وتقوية القلب الجريح ؛ ومُقاومة السُّمُوم ؛ ومُدافعة الهُمُوم والغُمُوم : ما هو مشهورٌ معلوم .

ـ ومن خواصِّى أنه لا تعمل فىَّ المبارد .

ـ وإذا صُلِيتُ بالنَّار لم تؤثِّر فىَّ فى موردٍ من الموارد .

وحسبك بقول الشاعر من شاهد :

وطالما أُصْلِىَ الياقوتُ جَمْرَ غَضًا

ثم انطفا الجمر ؛ والياقوتُ ياقوتُ





.....

❁ـ اللُّؤْلُؤ



وَقَالَ اللُّؤْلُؤ:

الحمدُ لله الذى ألبسنى خِلْعَة البياض ؛ وجعلنى بين اليواقيت كالنُّور فى الرياض .

وَمَنَّ علىَّ بالتَّعجيل ؛ وَحَبَانِى بالتَّنويل ؛ وكرَّر ذكرى فى عِـدَّةٍ مواضع من التنزيل .

وقدَّمنى فى الذِّكر فى القُرآن ؛ فى قوله تعالى فى سُورة الرَّحْمَن :

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَان ﴾

[الآيَة : ٢٢]

وشبَّه بى الحُور والوِلْدان ؛ قال تعالى فى كتابه المصون :

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ✿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُون ✿ ﴾

[سُورَة الواقعة : ٢٢ـ٢٣]

وقال تعالى ـ مُرغِّباً للمُؤمنين ومُحذِّراً أن يُطيعوا آثماً أو كفوراً :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ

إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ✿ ﴾

[سُورَةُ الإنسان / الآيَة : ١٩]

وقال تعالى فى الإخبار عن أهل الجنَّة ؛ وذلك الفضل الكبير:

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ؛ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِير ۞ ﴾

[سُورَة فاطر / الآية : ٣٣]

وقد ذُكِرَتْ فى الأحاديث كثيراً ؛ ونُعِتتْ فى صفة الجنَّة على لسان من أُرْسِلَ بشيراً ونذيراً .

ففى حديثٍ عمَّن خُصَّ بنهر الكوثر :

﴿ إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفَاً مِن أَصْنَافِ اللُّؤْلُؤِ وَالجَوْهَر ﴾

وفى حديثٍ رواهُ حُفَّاظ الأخبار وأربابها :

﴿ إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلاً : مَن لَهُ دَارٌ
مِن لُؤْلُؤةٍ وَاحِدَةٍ ؛ مِنْهَا غُرَفُهَا ؛ وَأَبْوَابُهَا ﴾

وفى حديثٍ أخرجه أبُو نُعَيْم ذُو الحفظ الأوفر :

﴿ أَنْهَارُ الجَنَّةِ سَائِحَةٌ عَلَى الأَرْض : حَافَاتُهَا خِيَامُ اللُّؤْلُؤ ؛ وَطِينُهَا المِسْكُ الأَذْفَر .﴾ .

وفى حديثٍ عمَّن جاء بهدم الطاغوت :

﴿ الكَوْثَرُ شَاطِئَاهُ : اللُّؤْلُؤ ؛ وَالزَّبَرْجَد ؛ وَاليَاقُوت ﴾

وفى حديثٍ فُسِّرَت به آية التحيلة لمن يُعْرِب :

﴿ أَنَّ عَلَيْهِم التِّيجَان ؛ أَدْنَى لُؤْلُؤةٍ
مِنْهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِب ﴾

وفيما رَوَى البُخَارِيُّ ومُسلم ؛ وكفى بما روياه دليلاً :

« الخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ : طُولُهَا فِى السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً »

وقال مُجاهد ـ أحد عُلماء اللاهوت ـ :

« الأَرَائِكُ : لُؤْلُؤٌ ؛ وَيَاقُوت »

وفى أثرٍ إسناده يُعَدُّ فى الصِّحاح :

« سَمَاعُ أَهْلِ الجَنَّةِ مِن آجَامِ قَصَبِ
اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ يَدْخَلُ فِيهَا الرِّيَاح »

وعن عِكْرِمَة :

« مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ قَطْرَة : إِلاَّ أَنْبَتَ بِهَا فِى الأَرْضِ عُشْبَة ؛ أو فِى البَحْرِ لُؤْلُؤَةً أو دُرَّة » .

وكم فىَّ من منفعةٍ أودعها الرَّحْمَن :

ـ أقوِّى قلب الإنسان .

ـ وأنفعُ من فزع السواد، وخوفها من الخفقان .

ـ وأجلو الأسنان .

ـ وأنفع من بياض العين .

ـ وأجلو ما فيها من الظُّلمة والوسخ والغَيْن .

ـ وأشدُّ عَصَبَهَا .

ـ وأجفِّف رُطُوبتها .

ـ وأُخفِّف وَصَبَهَا .

ـ وأحبس الدم .

ـ وأُنفِّسُ الغَم .

منافع صالحة لكل غادية ورائحة ؛ وتجارة رابحة لمن أراد حِلْيَة ودفع جائحة ؛ وتشبيهات الشُّعراء بى كالبحر طافحة !!

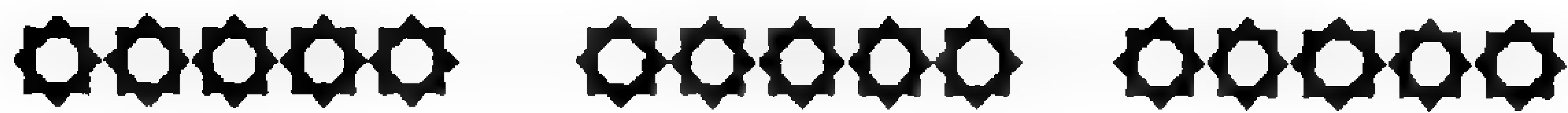
قال الشاعر :

وعذَّبنى قَضِيبٌ فِى كَثِيبٍ
تشارك فيه لينٌ واندماجُ
أغار إذا دَنَت من فيه كأسٌ
على دُرٍّ يُقابلُهُ زُجَاجُ





ـ الفِهْرِسُ العَامِ لِمَوْضُوعَات الكِتَاب :







فن المقامة العربية







دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - وسط البلد
هاتف: 96264640679+ تلفاكس: 96264640579+
info.daralbedayah@yahoo.com
خبراء الكتاب الأكاديمي

دار الم
عمان - وسط البلد - أول شارع الشابسوغ
تلفاكس: 96264658263+
info.daralmostaqbal@yahoo.com
متخصصون بإنتاج الكتاب الجامعي